الفتح العثماني للاقطار العربية

١٥٧٤-١٥١٦

АКАДЕМИЯ НАУК СССР
ОРДЕНА ТРУДОВОГО КРАСНОГО ЗНАМЕНИ
ИНСТИТУТ ВОСТОКОВЕДЕНИЯ

Н.А.ИВАНОВ

ОСМАНСКОЕ ЗАВОЕВАНИЕ АРАБСКИХ СТРАН



1516–1574



ИЗДАТЕЛЬСТВО «НАУКА»
ГЛАВНАЯ РЕДАКЦИЯ ВОСТОЧНОЙ ЛИТЕРАТУРЫ
МОСКВА 1984

نيقولاي ايفانوف

الفتح العثماني للاقطار العربية
١٥١٦-١٥٧٤

نقله إلى العربية
يوسف عطا الله

راجعه وقدم له
أ. د. مسعود ضاهر

سلسلة: تاريخ المشرق العربي الحديث ٣



١٩٨٨

★ الفتح العثماني للاقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤

★ تأليف: نيقولاي إيفانوف

★ نقله إلى العربية: يوسف عطاالله

★ راجعه وقدّم له: الدكتور مسعود ضاهر

★ الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١١/٣١٨١ هاتف: ٣١٧٢٠٥

★ الطبعة الأولى ١٩٨٨

★ التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل

كلمات للطبعة العربية

صدر كتاب « الغزو العثماني للبلدان العربية » بالروسية عام ١٩٨٤ فلفت انتباه المهتمين بتاريخ الأقطار العربية بشكل خاص، وعلى نطاق أوسع بتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، لا سيما في مرحلة الانعطاف المهم في تاريخ البشرية، أي عصر النهضة والاكتشافات البحرية الكبرى. فقد شهد ذلك العصر ازدهار مقولة « العثمنة » في القسم الشرقي من البحر المتوسط، وشهد، في الوقت نفسه، ولادة الرأسمالية في الجزء الغربي منه.

أثار هذا الكتاب، فور صدوره، نقاشاً نظرياً واسعاً حول طبيعة الفتوحات العثمانية وحقيقة المجتمع العثماني والدولة العثمانية بشكل عام. فالمؤرخون السوڤيات غير مجمعين حول كثير من المقولات الواردة فيه، لكنهم متفقون ان عدداً كبيراً من القضايا ذات الصلة بالتاريخ العثماني وبالفتوحات العثمانية بحاجة إلى نقاش. فقد قدمت معظم تلك القضايا حتى الآن على أساس مسلّمات حسم النقاش حولها منذ زمن بعيد، لكنها، في الواقع، ما زالت معقدة جداً، وليست واضحة كل الوضوح، وما زالت تثير النقاش الواسع حولها. لذلك أعيد النظر مجدداً في القضايا الأساسية لتاريخ الدولة العثمانية، من مختلف جوانبه، على ضوء ما توصل إليه علم التاريخ المعاصر. تشهد على ذلك كثرة المنشورات الصادرة في مختلف بلدان العالم، والمؤتمرات والندوات الدولية التي تنعقد دورياً وتكرس للبحث في التاريخ العثماني.

فالفتح العثماني شكّل المرحلة التي سبقت مباشرة عصر الغزوات الاستعمارية وتطور الرأسمالية في

البلدان العربية، حيث سادت فيها المؤسسات والنظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية العثمانية إلى جانب الآداب والقيم والثقافة. فتولد تناقض ما زال موجوداً حتى الآن في الوطن العربي بين قيم المجتمع التقليدي الموروثة، وقيم المجتمع البورجوازي المستوردة في غالبيتها من أوروبا. كان موقف المؤرخين متفاوتاً إلى درجة كبيرة في تقويم التراث العثماني في البلدان العربية. فكل مؤرخ يتصور الماضي العثماني كما يحلو له، وذلك وفقاً لموقعه الاجتماعي، ومنطلقاته النظرية السياسية، ومفهومه عن التقدم. فمن مقولة «الاضطهاد العثماني اللعين» الذي دمّر خير ما انتجته الأمة العربية في القرون الوسطى، إلى أوهام «العصر الذهبي العثماني» الـذي تلا مرحلة تاريخية قيل فيها «عصر لا دين فيه ولا قانون». دلالة ذلك أن التراث العثماني واقع تاريخي متعدد الجوانب وشديد التناقض. والطريقة الفضلى لمعالجته تقوم على نبذ الآراء المسبقة، والابتعاد عن الأحكام الجاهزة والوحيدة الجانب، واعتماد الحقائق المثبتة دون سواها، وتحليل الوقائع التاريخية في مختلف مظاهرها.

• إن إحدى المشكلات الأكثر صعوبة والأكثر أهمية التي واجهتنا في دراسة التاريخ العثماني تكمن في تقديم أجوبة شافية حول أصل الدولة العثمانية ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية. واستناداً إلى أبحاث غيزو، وفيتيكا، وكوبروليو في التاريخ العثماني، وإلى دراسات غوردليفسكي في العهد السلجوقي، أصبحنا نميل إلى اعتبار ولادة الدولة العثمانية كنتيجة لانتصار الإنتفاضات الشعبية التي قامت بها حركات «الآخيات» (جمع آخي) العثمانية تحت راية الإسلام. وكانت تستهدف، بالدرجة الأولى، مقاومة الارستقراطية البيزنطية وكبار ملاكي الأراضي في مدن الأناضول بشكل عام. أبرز تلك الحركات حركة «غازيان وروم»، وهم فلاحو الأناضول الذين شكلوا فصائل الغزاة المسلمين المسلّحة. وحركة «عبد الان وروم»، وهم من الدراويش والمجاهدين الوافدين من مختلف بلدان الشرقين الأدنى والأوسط. وحركة «باجبان وروم»، وهي تنظيم للنساء المسلمات الفارسيات. وحركة «آخيان وروم»، التي تشكلت من الحرفيين وصغار عمال المدن المتحدين في منظمات دينية ذات صيغة عسكرية. ويطلق عليهم اسم «الآخيات». تلك هي الحركات التي ساندت أسرة آل عثمان وأوصلتها إلى سدة الحكم. وتكمن أهميتها الكبرى في أنها تركت بصماتها التي لا تمحى عند صياغة الأفكار المثالية العثمانية، بخاصة الأفكار الاجتماعية والثيوقراطية التي ورد ذكرها مراراً في هذا الكتاب «كقراءة فلاحية جديدة للمبادىء الأساسية للشريعة الإسلامية». فإذا تكونت لدينا قناعة أن الحركات المشار إليها كانت حقاً ذات طابع شعبي مناهض للاقطاعية، أو على الأقل كانت تتمتع بتأييد شعبي واسع، فإن من الطبيعي أن ننتقل إلى السؤال التالي: ما هو الطابع الذي اتسمت به الدولة العثمانية؟ وهل تمكنت تلك الحركات من تغيير بنية ذلك المجتمع الاقطاعي القروسطي؟

نحن نشاطر المؤرخين السوڤيات الرأي أن الظروف التاريخية الملائمة، وبشكل خاص مستوى

التطور العام للقوى المنتجة ولعلاقات الانتاج السائدة آنذاك، هي التي أتاحت الفرصة للحركات الشعبية الجماهيرية كي تحقق بعض المكاسب المحدودة للغاية. مهما يكن من أمر، فإن تلك الحركات الشعبية كانت عاجزة عن اختراق الأطر الداخلية المكونة لها، وبالتالي عاجزة عن تغيير نفسها ومجتمعها بشكل جذري. لذلك ينطلق المؤرخون السوفيات من مقولة «فلاديمير إ. لينين» التي صاغها في معرض انتقاده للنظرية الشعبوية التي روج لها الاشتراكيون الطوباويون الروس في أواخر القرن التاسع عشر. فرأى لينين أن أقصى ما أمكنهم تحقيقه يتلخص باستبدال رأسمالية من طراز معين برأسمالية من طراز آخر. ويمكن إيراد القول نفسه عن الحركات الفلاحية وطوباويات القرون الوسطى، لأن أقصى ما أمكنها تحقيقه يتلخص باستبدال إقطاعية من طراز معين بإقطاعية من طراز آخر. وهذا ما حدث فعلاً نتيجة انتصار حركة «الآخيات» و «الغازيين» في الأناضول في القرن الثالث عشر ومطالع الرابع عشر.

يصف هذا الكتاب نظام العلاقات الاجتماعية في الدولة العثمانية بعبارة «الاقطاعية الشرقية». وهي مقولة سبق لنا وشرحناها بالتفصيل في مقالة بعنوان «عن الخصائص المميزة للاقطاع العربي ـ العثماني[1]»، لذلك لم يتضمن الكتاب إلا إشارات سريعة إلى تلك المقولة التي يمكن إيجازها أن الاقطاعية الشرقية هي شكل خاص توصف به المجتمعات ما قبل الرأسمالية، والتي تختلف عن الاقطاع الغربي أو الفيودالية بالمفهوم السوسيولوجي للنموذج الإجتماعي. لكن تطور علاقات الإنتاج، والتركيبة البنيوية لتلك المجتمعات كانت تتقاطع مرحلياً مع الفيودالية الغربية في إطار السمات الخاصة بالتكوين الاجتماعي والاقتصادي. وتبعاً لتلك المواصفات، برزت الفيودالية الغربية كمرحلة تاريخية تقوم على أساس وجود ملكية خاصة لقوى الانتاج الموروثة. أما الاقطاعية الشرقية فقدمت أساساً في الوثائق التاريخية كإقطاعية للدولة، ومنها تفرعت أشكال مختلفة للسيطرة على فائض القيمة. وتفرعت عنها كذلك التناقضات التي عصفت بالتركيبة الاجتماعية نفسها.

لقد تميزت الاقطاعية الشرقية بعدم تطور العلاقات الاجتماعية أفقياً وبسهولة تحركها عمودياً. ففي الشرق، لم تكن هناك أرستقراطية النبلاء بالوراثة أو نبلاء الدم التي ارتبطت ملكية الأرض بهم. فالطبقة الاقطاعية الحاكمة في الشرق، بخاصة الأسر المسيطرة، قد مثلت أرستقراطية جيل واحد اكتمل عدده عن طريق الاختيار بالصدفة وليس بالحقوق العائلية الموروثة.

تميزت الاقطاعية الشرقية كذلك بدمج الفرد، إلى أقصى حد، بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع الديني، والتصوفي والماورائي. وتجدر الإشارة كذلك إلى عامل الزمن، إذ تمت الفتوحات العثمانية تحت راية الإسلام ودفاعاً عن حقوق المقهورين والمحرومين. وارتفعت

---

(١) أ. نشرت في مجلة شعوب آسيا وأفريقيا العدد الثالث لعام ١٩٧٨ -.

شعارات معاقبة الكافرين والمسلمين المزيفين الذين ابتعدوا عن تعاليم الشريعة الإسلامية المقدسة. وبهذا المعنى تجوز المقارنة بين الأصولية الإسلامية العثمانية القديمة والأصولية الإسلامية المعاصرة. وإذا أخذنا في الاعتبار الفوارق المهمة بين أشكال التعبير الفكري في القرون الوسطى، وأشكال التعبير في العصر الحديث، لتبين لنا تشابهاً مدهشاً في النزوع الدائم لحكم الشريعة الإسلامية كقانون وحيد للحياة الاجتماعية وللمؤسسات الحكومية في البلدان العربية. صحيح أن منظري الأصولية الإسلامية المعاصرة لا يميلون أبداً إلى تبني التجربة التاريخية للحكم الإسلامي منذ الفتوحات الأولى حتى اليوم، لكن تاريخ الفتوحات العثمانية يقدم معلومات بالغة الأهمية تدعو إلى التفكير والتأمل. فالدولة العثمانية شكلت أول وأكبر دولة إسلامية استندت فعلاً إلى مبادىء الشريعة الإسلامية، مع استثناء التجربة التاريخية القصيرة الأمد إبان الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين عندما كانت الدولة الإسلامية لا تزال في طور التكوين.

وهنا ينصح روجيه غارودي، المفكر الفرنسي الذي اعتنق الإسلام حديثاً، ان مقارنة الواقعية الغربية بالمثالية الذاتية هي مقارنة غير صحيحة، اذ لا بد من مقارنة المثالية بمثالية، والواقعية بواقعية. لكن تاريخ الفتوحات العثمانية يتيح فعلاً، وبسبب توافر المادة التاريخية، المقارنة بين الشعارات التي رفعها العثمانيون، وبين ما تحقق منها على أرض الواقع. وبكلمة بسيطة يتيح مقارنة « مثاليتها » الذاتية بـ « واقعيتها » الذاتية.

في الختام، أعرب عن شكري العميق لأصدقائي العرب، وأخص بالشكر الدكتور مسعود ضاهر، أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية في بيروت، والأستاذ يوسف عطالله الذي ترجم هذا الكتاب وكتباً سوڤياتية أخرى. فقد قدما لي مساعدة كبيرة بترجمة هذا الكتاب وإصداره في لبنان، ولولا مساعدتهما لما أمكن لهذا الكتاب أن يبصر النور باللغة العربية.

موسكو ١٩ أيار (مايو) ١٩٨٧

نيقولاي إيفانوف

مقدمة الطبعة الروسية

لا يعتبر ضم الأقطار العربية إلى السلطنة العثمانية نتيجة احتلال بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، بل كان بمثابة تبديل سلطوي أملته رغبة البلدان العربية في الإصلاح الاجتماعي. ففي نهاية القرن الخامس عشر ومطالع القرن السادس عشر كانت الدول الإسلامية الكبرى تعيش حالة من التفكك الداخلي العميق. ولم تبق من أمجاد الماضي الزاهي سوى رموز شكلية احتفظ بها سلاطين الموحدين، وخلفاء الأسرة الحفصية في تونس وباجه وقسطنطينية وطرابلس الغرب، وأسرة الناصر لدين الله في غرناطة حتى عام ١٤٩٢، كذلك أسرة عبد الواد التي اتخذت من تلمسان مركزاً مرموقاً لها في المغرب الأوسط.

لقد سقط حكم المرينيين في مراكش نهائياً عام ١٤٦٥. وأصبحت أراضي العراق المدمرة تابعة لسيطرة آل اكويونلو الإيرانية التركية الدموية. وكانت دولة المماليك الشاسعة تضم: مصر وسوريا وفلسطين وكيليكيا وبرقه والنوبه والحبشة وآرتيريا وجزءاً من الصومال، وتضم كذلك: أعالي نهر الفرات والحجاز واليمن وغيرها من مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية.

احتفظت الدولية المملوكية بجانب من مظاهر العظمة الشكلية. وادّعى سلاطين المماليك لأنفسهم دور زعامة العالم الإسلامي متخذين من عاصمتهم القاهرة مركزاً لزعامة المسلمين من جهة، ولنشر الإيمان وتعاليم الدعاية الإسلامية والالتزام بالمبادىء التي سنّها النبي محمد وسار عليها الخلفاء الراشدون. ومع ذلك فإن الانحلال الديني والسياسي والاجتماعي قد أصاب دولة المماليك على غرار

ما أصاب البلدان الاسلامية الأخرى. وأدى الركود الطويل في جميع مجالات الإنتاج المادي واستنفاد الطاقات والموارد الطبيعية، والهجمات المتكررة للبدو الرحل، أدت تلك العوامل مجتمعة إلى انهيار اقتصادي وانخفاض حاد في عدد السكان وإفلاس للقوى المنتجة. ولم يبق من أنظمة الري القديمة سوى الأطلال الدالة عليها في العراق وسوريا ومصر واليمن وأفريقيا، إذ دمرت تماماً معالمها وأزيلت من الوجود.

كذلك تقهقرت مدن كانت مزدهرة في السابق، وهلكت أو أبيدت قرى ومناطق زراعية بكاملها، وانخفض عدد السكان في الأقطار العربية في القرن الخامس عشر إلى ثلاثة أرباع ما كان عليه في القرن الحادي عشر.

أدى الحرمان المادي الذي عانت منه الجماهير الشعبية إلى خوض معارك عنيفة من أجل البقاء. ومهدت تلك النضالات لبروز تغيير واضح في العلاقات الاجتماعية وفي طبيعة المجتمع الاقطاعي الشرقي. فقد أوجد الحرمان توقاً إلى التضامن الاجتماعي على قاعدة حركات دينية وسياسية شملت العالم العربي كله. وتبلورت لدى الجماهير الشعبية قناعة راسخة أن تعاليم النبي محمد وسلوك الخلفاء الراشدين سيعاد العمل بها مجدداً وذلك بأمر من العناية الإلهية. وباتت تلك الجماهير على قناعة أيضاً بأن الأوساط الحاكمة في الأقطار العربية قد تنكرت لمبادىء الشريعة، وبالتالي لكلام الله منذ وقت بعيد.

في الواقع، فَقَدَ أولئك الحكام المسلمون ثقة الجماهير الشعبية وأصبحوا غير جديرين بقيادتها. فغابت كل مظاهر التجديد أو المواقف الجريئة ليحل مكانها الجمود والتحجر والبلادة الذهنية.

لكن القوى السياسية الحاكمة في الأقطار العربية امتنعت عن تطبيق المبادىء الأساسية للشريعة الإسلامية. وتجاهلت القيم الدينية رغم الاعتراف الرسمي بها و التمسك بمظاهرها، إذ كان الحكام، في قرارة نفوسهم، يخشون أكثر ما يخشون، اتهامهم بالمروق عن الدين. لذلك أوغلوا في التمسك الأعمى بالتقاليد حتى يبرروا ابتعادهم الفعلي عن المثل العليا للدين الإسلامي. وقادهم خوفهم من كل جديد إلى تكبيل إرادة الناس وكم أفواههم.

هكذا حكم على أحفاد صلاح الدين الأيوبي، والمهدي، والموحدين بالصراع الدائم من أجل السلطة، والسلطة فقط.

موسكو ١٩٨٤

تقديم

الفتح العثماني للأقطار العربية بين الايديولوجيا الشعبوية ونظم الدولة الاقطاعية في القرن السادس عشر

الدكتور مسعود ضاهر

توطئة

تكاد تجمع المصادر التاريخية التي تناولت نشأة الدولة العثمانية وتطورها قبل سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، أنها قامت على قاعدة القبائل الغازية ترفدها إيديولوجية دينية شعبوية عبر تنظيمات الغـزاة وفرق الدراويش. وبعد أن ورثت دولة سلاجقة الروم عند اندثارها ورثت معها أعداداً كبيرة من المسيحيين الذين اعتنقـوا الإسلام، وثقـافـة مختلطـة دمجت بين المبـادىء الإسلاميـة، والشعائر المسيحية، والتقاليد البيزنطية، وذلك على خلفية من القبلية التي كانت سائدة في جبال الأناضول حيث عاش الأتراك أجيالاً طويلة قبل تحولهم إلى سلطنة عثمانية مترامية الأطراف[1].

فالبدايات الأولى للسلطنة العثمانية وحتى القرن الخامس عشر، حملت معها التنظيم القبلي لقوى محاربة كانت تقطن مناطق الاحتكاك المباشر مع الأعداء. وهذا ما أعطى العثمانيين الأوائل طابع القوى العسكرية التي لم تهتم بالثقافة والحضارة كاهتمامها بالقوة العسكرية التي بنت عليها فتوحاتها اللاحقة في ظروف دولية ملائمة. واستمر هذا الطابع فاعلاً لسنوات طويلة، كانت خلالها لفظة «التركي» تدل على الفظاظة، والقسوة، والثقافة الضحلة حتى بعد قيام السلطنة العثمانية. وهذا ما أشار إليه أحمد عبد الرحيم مصطفى بقوله: «رغم تبوؤ الأتراك مركزاً ممتازاً في الثقافة والمجتمع العثمانيين، إلا أنهم لم يرثوا عن أسلافهم سوى بعـض الشعـر الفـولكلـوري والأسـاطير. ورغـم إحساسهم بكونهم أتراكاً وبأنهم يتكلمون اللغة التركية، إلا أن لفظ «تركي» لم يستعمل في أوج العصر العثماني إلا قليلاً للإشارة إلى الرعاة التركمان، ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الجهلة الخشنين

الذين يتكلمون اللغة التركية ويقطنون قرى الأناضول »[٢].

فالقوى المحاربة في الأطراف أو الثغور بين الدولتين الكبيرتين البيزنطية والسلجوقية وبعض الدويلات الأوروبية، حملت معها تنظيماً عسكرياً صارماً، وأفكاراً مثالية طوباوية حول المساواة، وحب الحرية، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج وبدا حكمهم، في نظر فلاحي تلك المرحلة، أكثر رحمة من الأنظمة البيزنطية والمملوكية والصفوية السائدة في القرن السادس عشر. إذ لم يفرضوا ضرائب باهظة على الفلاحين، واعتبر السلطان نفسه المالك الأعلى للأرض يهبها لمن يشاء ويستردها ممن يشاء. وكان ممثلو السلطنة بمثابة صلة الوصل بين السلطان والفلاحين دون علاقات عبودية أو قنانة. فله عليهم حق الطاعة ودفع الضرائب بانتظام، ولهم عليه حق الحماية، ودفع الظلم، ورد غزوات البدو، وتأمين طرق المواصلات، ورفع التعديات والبلص والسخرة والاستعباد الشخصي. هكذا تبلورت إيديولوجية شعبوية ذات سمات واضحة جعلت الفلاحين والحرفيين والرعاة ومختلف الفئات الشعبية ترى في الحكم العثماني أملاً ينقذها من ظلم المماليك والبيزنطيين والصفويين. وقد تجلت هذه الإيديولوجيا الشعبوية في كثير من الكتابات التاريخية ذات النزعة العثمانية والتي صورت انتصار العثمانيين نتيجة تدخل العناية الالهية لمصلحة الفقراء والمساكين، فأرسلت لهم « **الدولة التي يحرسها الله** ».

ومن أجل تبرير هذا الشعار، كان لا بد للمؤرخين المتعاطفين مع العثمانيين أن يصوروا حالة الشرق البائس قبل مجيء المنقذ العثماني الذي حمل معه مبادىء تفوق في رقيها ليس ما كان سائداً في الشرق فحسب، بل وفي الغرب أيضاً خلال تلك المرحلة. ولعل محمد فريد المحامي أفضل من قدّم صورة هذا التفسير الإيديولوجي للشعبوية العثمانية في مقدمة كتابه « **تاريخ الدولة العلية العثمانية** » حيث قال: « وبعد، فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى فيها أهلوه من أهوال الأحوال ما تشيب له الأطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال... فأغار الدهر بخيله ورجله ورجاله على الشرق ودوله، وقلب لأبنائه ظهر المجن، وقلبهم بين الإحن والمحن، فتناسوا ما كان لهم من ضخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وفخامة العمران وأصالة الإمارة، وانغمسوا في بحار الكسل والخمول ذاهلين، واستكانوا إلى المذلة والهوان صاغرين... » ويضيف: « لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلمّ الشعث ورم الرث ورتق الفتق ورقع الخرق. فأضاءت الأفق الإسلامي بظهور النور العثماني، وأمدّته بالنصر اللدني والعون الديّاني. فقامت الدولة العلية، بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين، ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، فكانت من المفلحين ثم وقفت في طريق أوروبا حاجزاً منيعاً وسوراً حصيناً وحالت دون أطماعها وألزمتها بكف غاراتها بأنواعها ». وبعد أن يصف « الفظائع والبشائع » التي كانت ترتكب في الدول الأوروبية يكمل اللوحة الزاهية عن الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية بقوله: « وذلك بخلاف الدولة العلية، فإن جميع الناس تعيش

فيها بغاية الحرية والسلام، وكل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها فيرتعون في بحبوحة الراحة والهناء، آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم. وقد أصبحت الآن ملجأ وحيداً لكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان... وهذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثماني مهما كان جنسه ودينه أن يفاخر بها ويذكرها في كل فرصة وفي كل حين »[٣].

يكاد هذا التكثيف الممتاز للإيديولوجيا الشعبوية العثمانية يختصر معظم سماتها الأساسية التي بلورها إيفانوف بمقولة: قراءة فلاحية للمبادىء الأساسية للإسلام »[٤]، والتي تجسَّدت بشكل خاص في المرحلة الممتدة من أواسط القرن الخامس عشر مع سقوط بيزنطية إلى أواسط القرن السادس عشر عند وفاة السلطان سليمان القانوني، وهي الفترة الأكثر أهمية في تاريخ السلطنة العثمانية حيث تجسَّدت فيها عظمة الفتوحات في آسيا وأوروبا وأفريقيا، في البر والبحر، وفي النظم والقوانين، وفي التنظيمات العسكرية والإدارية والسياسية، وفي التحالفات السياسية على المستوى الدولي، وفي التأثير المباشر على حركة التجارة وطرقها الدولية[٥]، فكيف تجلت على أرض الواقع، وفي التطبيق العملي، السمات الأساسية للإيديولوجيا الشعبوية العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر؟ وهل أمكن تطبيق إيديولوجيا شعبوية ذات ركائز قبلية وفلاحية في مناطق سيطرتها الجديدة حيث المدن الكبرى، والحرف المتطورة، والثقافة الواسعة في مدن الأناضول كما في مدن المشرق العربي بخاصة في بلاد الشام؟[٦].

عن الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية أو القراءة الفلاحية للمبادىء الإسلامية

من السمات الأساسية للإيديولوجيا الفلاحية اعتماد الأساطير والخرافات الشعبية كموروث ثقافي تتناقله العامة من جيل إلى جيل. ولا تخرج الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية عن هذا المنحى في تفسير أسباب نشوء الدولة العثمانية بإرادة إلهية، وان آل عثمان سيسيطرون على مساحات واسعة من العالم ويعيدون مجد الخلافة الإسلامية. ولا ينسى مؤرخو العثمانية الشعبوية من نبش أسطورة متوارثة تقول: إنه في رأس كل قرن من الهجرة يظهر رجل يكون له شأن في التاريخ الإسلامي، وهي الأسطورة المتداولة حتى الآن. لذلك نسجت روايات كثيرة حول « عثمان الذي تزوج ببنت رجل صالح، كان يرفض تزويجها له حتى قصّ عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ. وبعد أن صار بدراً نزل في صدره أي في صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة ونمت في الحال حتى غطت الأكوان بظلها ونظر أكبر الجبال تحتها، وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة من جذعها. ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحوّلها الريح نحو مدينة القسطنطينية »[٧]. واستغل العثمانيون، إلى أقصى حد، مثل هذه الروايات واعتبروا أن الشيخ الصالح هم العرب المسلمون، وان آل عثمان ورثتهم وسيحتلون القسطنطينية،

ويعيدون مجد الإسلام، وقدّموا أنفسهم خلفاء للمسلمين قادرين على حماية دار الإسلام من الغزاة الفرنجة وغيرهم. وقد ساعدهم في ذلك تشكلهم كقبائل محاربة حققت انتصارات عسكرية باهرة وزيادة سكانية سريعة خلال فترة قصيرة من الزمن. كما أن بعض المدن البيزنطية استسلمت للعثمانيين دون قتال عنيف، واعتنق أهلها الإسلام وتحولوا إلى الجنسية العثمانية بعد أن خذلهم إخوانهم في الدين والعرق وتقاعسوا عن نصرتهم. ويقدم محمد أنيس هذا النموذج كدليل ملموس على زيادة عدد الأتراك العثمانيين، إذ ليس سهلاً أن تتحوّل قبيلة أو مجموعة قبائل صغيرة، وبهذه السرعة، إلى مئات الألوف من الناس.

« فتحول نيقيه، المدينة البيزنطية المشهورة بصناعتها وتجارتها، من مسيحية بيزنطية إلى إسلامية عثمانية، أي تحولها اجتماعياً وروحياً إلى جانب التحول السياسي، ما هو إلاَّ مثل من الأمثلة للعملية التي تمت خلال القرن الرابع عشر وهي تكوين الأمة العثمانية. ففي أواخر عهد أورخان مثلاً بلغ عدد العثمانيين ما يقرب من نصف مليون. ولم تكن هذه الزيادة طبيعية أي لا يعقل أن تكون نتيجة تناسل سريع، كما يستبعد أن تكون نتيجة دخول قبائل بدوية جديدة من الشرق انضمت إلى العثمانيين، ذلك لأن الإمارة العثمانية كانت معزولة عن الشرق بوجود الامارات التركية الأخرى، وكان من الطبيعي أن تجتذب هذه الإمارات العناصر التركية القادمة من الشرق قبل أن تصل إلى الإمارة العثمانية. التفسير الوحيد لهذه الزيادة العددية هي أنها جاءت من العناصر التي كانت موجودة بالفعل في المناطق التي ضمت إلى الإدارة العثمانية، وأغلب هؤلاء كانوا يونانيين »[٨] (أي من الطائفة الأرثوذكسية).

دلالة ذلك أن العامل الديني لم يلعب دوراً معيقاً للتوسع التركي العثماني في الأناضول بخاصة ان أسرة باليولوغ (Paléologue) الحاكمة في القسطنطينية كانت على درجة من الفساد والضعف بحيث بدت عاجزة عن حماية أرثوذكس الأطراف في الأمبراطورية البيزنطية، وسرعان ما سقطت عاصمتهم بيزنطية نفسها في قبضة الأتراك العثمانيين. لكن الأهم من ذلك أن سلاطين آل عثمان لم يطلبوا من رعاياهم الانتقال القسري إلى الإسلام في حين كانت العلاقات الطائفية المذهبية متوترة إلى الحد الأقصى بين الأرثوذكس وبابوات روما. وهذا ما أشار إليه الشاعر الإيطالي بترارك (Pétrarque) بقوله: « العثمانيون ليسوا إلاَّ مجرد أعداء لنا، أما اليونانيون، (يقصد الأرثوذكس) فهم أكثر من كونهم أعداء... العثمانيون يكرهوننا ويخشون بأسنا إلى حد ما، أما اليونانيون فهم يكرهوننا ويخشوننا بكل جوارحهم »[٩]. واستغل البابوات سقوط القسطنطينية لاحقاً لتجييش حملات صليبية جديدة دمّرت العديد من القرى والمدن البيزنطية الأرثوذكسية ولم تصل إلى محاربة العثمانيين بل سببت انتفاضات كبيرة ضدها بخاصة في المجر. وتذكر بعض

الدراسات أن سلاطين آل عثمان في تلك الفترة نالوا إعجاب القبائل المسيحية والإسلامية على السواء في الأناضول، والتحقت بعض تلك القبائل بهم طوعاً بسبب قدرتهم العسكرية الهائلة والآمال المعقودة على الغزوات المتلاحقة في مجال السلب والنهب »[١٠].

كانت القوى العثمانية ذات التركيبة القبلية الواضحة تغري باقي القبائل بالانضمام إليها. ولا تنفي المصادر التاريخية، حتى المنحازة كلياً إلى العثمانيين، طابع الغزو والنهب. وهذا ما أشار إليه محمد فريد ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بقوله: « بعد إتمام النصر واستخلاص مدينة Varna (في بلغاريا اليوم) رجع السلطان إلى عزلته، لكنه لم يلبث فيها هذه المرة أيضاً لأن عساكر الانكشارية ازدروا بملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة أدرنه عاصمة الدولة. فرجع إليهم السلطان مراد الثاني في أوائل سنة ١٤٤٥ وأخمد فتنتهم. وخوفاً من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة أراد أن يشغلهم بالحرب فأغار على بلاد اليونان... »[١١].

فالطبيعة القبلية للقوى المحاربة العثمانية كانت في صلب انتصاراتها الأولى. ولم تكن الدولة الفتية قد لجأت بعد إلى استخدام العامل الطائفي قبل سقوط القسطنطينية بل على العكس تماماً، إذ قدمت نفسها في مظهر المتسامح إلى أقصى حد في المسائل الدينية المحلية، وفي المسائل العرقية أيضاً. فتشكل العنصر العثماني من جنسيات كثيرة: « صرب، وبلغار، ويونان، وإيطاليون، وألبانيون، وروس، ومجريون، وأرمن، وعرب، ومغول، وفرس. حتى أن الأمة العثمانية تعتبر من هذه الناحية أغنى شعوب العالم في الدم ولا يكاد يعادلها في هذا العصر الحديث إلا الولايات المتحدة الأميركية وكندا »[١٢]. وتشير بعض المرويات التاريخية إلى المعاملة الحسنة التي أبداها العثمانيون عند احتلال مدينة أزنيك، من المدن البيزنطية المهمة في البر الآسيوي. « ومما جذب إليه (إلى أورخان) قلوب الأهالي ان عاملهم باللين والرفق ولم يعارضهم في إقامة شعائر دينهم. وأذن لمن يريد المهاجرة بأخذ جميع منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في إجراءاته. وأسس بهذه المدينة عدة مدارس وتكايا للفقراء والمعوزين... »[١٣].

ويقدّم أحمد عبد الرحيم مصطفى نموذجاً مهماً حول تصرف السلطان محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية فيقول: « لـمّا كانت القسطنطينية قد فُتحت عنوة، فإن الشريعة كانت تقضي باسترقاق سكانها والاستيلاء على أملاكهم. إلاّ أن السلطان لم يتردد في استعمال سلطته « العرفية » في إصدار أوامر من شأنها أن تخفف من حدة هذه الإجراءات وأن تمهد لتعمير المدينة. ذلك أن محمداً الفاتح قد اعتقد أن استيلاءه على القسطنطينية قد جعل منه أمبراطوراً لروما ووريثاً شرعياً لكل الأراضي التي خضعت للأباطرة في الماضي. ومن ثم اهتمامه باتخاذها قاعدة لأمبراطورية عالمية وإعادة بنائها وإغراء سكانها الفارين بالعودة إليها... وأبقى السلطان كثيراً من المسيحيين واليهود

في عاصمته الجديدة، وأرغم جماعات تمثل مختلف شعوب الأمبراطورية على السكنى فيها. وحشد فيها بوجه خاص عدداً كبيراً من صقالبة الجنوب، كما هرع إليها مسلمو آسيا ليستفيدوا من مزاياها التجارية... وعمل الفاتح على تنظيم أوضاع اليونانيين (الروم الأرثوذكس) المقهورين، وسعى إلى استمالة الكنيسة الأرثوذكسية باعتباره راعيها وحاميها ضد البابا. فعين على رأسها الراهب المتعصب جناديوس ورسّمه بنفسه كما كان يفعل الأباطرة البيزنطيون. ولكنه ـ باعتباره سلطاناً مسلماً ـ تنازل عما كان الأباطرة البيزنطيون يعتبرونه حقاً لهم من حيث رئاسة الكنيسة فجعل على رأسها البطريرك الذي خلعت عليه صلاحيات شبيهة بصلاحيات بابا روما، وتمتع بسلطة لم يمارسها سابقوه في عهد الدولة البيزنطية. وحافظ المسيحيون على عقيدتهم وعاداتهم بشرط أن يدفعوا الجزية. ولم يقتصر أمر البطريرك على رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية، بل إنه تزعم كل المسيحيين الذين يدفعون الجزية، وأصبح ممثلاً للأمة اليونانية (للروم الأرثوذكس) ووسيطاً بينها وبين الدولة العثمانية. وبالتدريج اتسع نطاق سلطته لتشمل كل المسائل المدنية، فسمح له بجباية العشور من رعاياه أن يكون له حراس مسلحون»(١٤).

لقد حملت الدولة العثمانية معها شعارات شعبوية واضحة، لأن التنظيم القبلي كان يفسح المجال أمام القوى المقاتلة للبروز وتسلم السلطة المحلية. وقد أبقى العثمانيون الأرض لمستغليها شرط أن يقدم شاغلوها عدداً معيناً من القوى العسكرية، ويشاركوا في حروب السلطنة حين تدعو الحاجة، ويرسلوا ضرائبهم بانتظام إلى خزانة السلطنة. وعلى عكس الدول الأوروبية في تلك المرحلة، لم تعرف السلطنة العثمانية طبقة النبلاء المعروفة في التاريخ الأوروبي، بل أوكلت مهمة السلطة المحلية إلى القوى المحاربة والقادرة على جباية الضرائب والدفاع عن الأراضي التي تسيطر عليها. واعتبرت الطوائف غير الإسلامية في ذمة العثمانيين على أساس الشرع الإسلامي. فكان شباب تلك الطوائف معفيين من الخدمة العسكرية مقابل دفع الجزية باستثناء مناطق البلقان حيث مارس العثمانيون سياسة انتزاع بعض أولاد المسيحيين وتدريبهم تدريباً خاصاً ليكونوا «عبيداً» للسلطان، وشكّلوا فرق الانكشارية التي لعبت الدور الأساسي في انتصارات السلطنة، لكنها تركت ذكرى أليمة في علاقات الأتراك العثمانيين بالقوميات البلقانية(١٥). كذلك توترت علاقاتهم المذهبية مع جماهير الشيعة في إيران إبان حكم الدولة الصفوية.

إن منهجية التاريخ الاجتماعي هي وحدها القادرة على تقديم صورة علمية للتركيبة الاقتصادية والاجتماعية للسلطنة العثمانية قبيل فتح القسطنطينية. وهي التركيبة التي كانت لها آثار واضحة في صياغة النظم والقوانين العثمانية التي سادت في مختلف أرجاء السلطنة، وبدرجات متفاوتة، منذ القرن الخامس عشر حتى الحرب العالمية الأولى(١٦).

فالإيديولوجيا الشعبوية تجد بعض تفسيرها في النزعة القبلية التي ورثها الأتراك في مرحلة تحولهم التاريخي من قبيلة معزولة وسط الأناضول إلى سلطنة مترامية الأطراف. وتجسدت تلك النزعة في القبائل الغازية وفرق «**الآخيات**» (جمع آخي) التي تصدّت بنجاح للقوى المحيطة بها في الأناضول وانتصرت عليها، وبدأت بالاستقرار الكامل في المدن والأرياف سنوات طويلة قبل احتلالها للقسطنطينية. لكن نزعة الغزو والفتح بحد السيف لم تفارق تلك القبائل التركية رغم اعتناقها للإسلام واستقرارها في المدن والسهول والسواحل. وبقي الطابع العسكري، خاصة عبر الفرق الانكشارية والفرق الخاصة وسواها، السمة الغالبة على السلطنة العثمانية طيلة تلك المرحلة. لكن تركيبتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عرفت تبدلاً ملحوظاً في القرن الخامس عشر وحتى الفتح العثماني للأقطار العربية. فقد برزت فيها فئات التجار، والحرفيين، والصناعيين المهرة، والعلماء، والأشراف، والقضاة، والكُتّاب، والفلاحين، إضافة إلى الرعاة ورجال القبائل المترحلة والعبيد والسبايا. كذلك برزت فيها طوائف دينية متعددة من إسلامية، ومسيحية، ويهودية، وصابئة، وكثرت فيها أيضاً فرق المتصوفة والدراويش. لذا، لا يمكن وصف الإيديولوجيا العثمانية خلال تلك المرحلة أو في المراحل اللاحقة، بالإيديولوجيا الشعبوية الوحيدة الجانب التي تحكمت بقرارها السياسي ونظمها وقوانينها المتعددة. فهي نظم لا قوانين مستمدة من الموروث القبلي والفلاحي، لكنها تستند إلى مبادىء الشريعة الإسلامية وتحظى بموافقة ودعم الأئمة المسلمين في بلاط السلطنة. وهي تأخذ بعين الاعتبار كذلك الموروث الحضاري للطوائف غير الإسلامية التي كانت تعيش في كنف السلطنة وتدفع ضرائبها بانتظام مقابل حماية أرواح أفرادها وممتلكاتهم وحقهم في ممارسة شعائرهم الدينية دونما إكراه. وتشير غالبية المصادر التاريخية لتلك المرحلة أن السلطنة العثمانية شكلت تركيبة اجتماعية فريدة من نوعها، سواء في تعدد أجناسها وطوائفها والمهن التي تمارسها، أو في العلاقات الودية غير المتفجرة التي سادت فيما بينها. أما الممالك والدوقيات الأوروبية الحاكمة قبيل سقوط القسطنطينية، وهي ذات تركيبة طائفية وحيدة الجانب وتنتمي جميعها إلى الدين المسيحي، فلم تكن أكثر استقراراً من مناطق السيطرة العثمانية رغم تنوع طوائفها وأعراقها. وكان لذلك الاستقرار الأثر الكبير في نشر «**الشعبوية العثمانية**»، أي نظرية التعاطف مع العثمانيين في الأقطار المجاورة لها، خاصة في الأقطار العربية حيث بلغ التعاطف أقصى مداه بسبب **الإنتماء إلى الدين الإسلامي**، واعتبار العثمانيين حماة لها، ونظراً إلى مخاطر الغزو الأوروبي للأقطار العربية خلال تلك المرحلة في المغرب العربي من جهة، والخليج العربي من جهة أخرى.

من الشعبوية العثمانية إلى النظم العثمانية في القرن السادس عشر

إثر سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين سادت أوروبا موجة من الصليبية المتجددة تزعمها البابا

شخصياً، فأصدر عدة نداءات يحثّ «**الأمم المسيحية**» على محاربة المسلمين. كان للبندقية دور بارز خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ثم شاركتها دوقيات وممالك أوروبية أخرى. لكن فتوحات العثمانيين في أوروبا وصلت إلى أبواب فيينا وسواحل المغرب واسبانيا وإيطاليا وتحول البحر الأبيض المتوسط إلى شبه بحيرة للنفوذ العثماني بعد ضم قراصنة البحر المعادين للفرنجة إلى صفوف الجيش العثماني [١٧].

أثار احتلال العثمانيين للقسطنطينية حرباً طاحنةً في الشرق قبل أن ينتقلوا إلى الغرب. وكانت قوى الصراع الإسلامية تتنافس على الزعامة والسيطرة وهي: الدولة العثمانية، والدولة الصفوية، والدولة المملوكية. وكان من نتائج ذلك الصراع أن انتصر العثمانيون وهزم المماليك والصفويون، وثبتت السلطنة العثمانية سيطرتها على الأناضول والوطن العربي وإيران وأجزاء واسعة من البلقان لعدة قرون. وحققت أمنيتها بتبوؤ مركز الزعامة في العالم الإسلامي، وتلقب سلطانها بخادم الحرمين الشريفين، وبلقب «**خليفة المسلمين**» إلى جانب ألقاب كثيرة. فكيف تبلورت سمات الشعبوية العثمانية السابقة بعد تحولها إلى سلطنة مترامية الأطراف؟ وهل وضع سلاطين العثمانيين مبادىء الشريعة الإسلامية موضع التطبيق العملي في ديار الإسلام وبين أهل الذمة؟

يقدّم ساطع الحصري في كتابه «**البلاد العربية والدولة العثمانية**» نماذج مهمة من الرسائل التي بعث بها سلاطين العثمانيين إلى زعماء المماليك، وبعض القيادات الدينية العربية في القرن الخامس عشر ومطالع القرن السادس عشر. وهي الرسائل التي ترتبط وثيقاً بالشعبوية العثمانية التي ساهمت في زيادة تعاطف قسم من المماليك أنفسهم إضافة إلى جماهير الفلاحين العرب مع الفاتحين العثمانيين. وتكثر في الرسائل عبارات «بنصرٍ من الله وفتح قريب فتحوها» و«تشتت شملهم وتفرق جمعهم من الخوف والحذر، كما أن الشيطان يفر من ظل سيف عمر، رضي الله عنه»، و«معجزة محمدية وهيبة إسلامية»، و«الحمد لله الذي أعد أعلام الدين بإعلاء كلمة الحق المبين، ورفع لواء أهل الإيمان بلمعان بارقة سيوفهم على ظلمات الكفرة والمشركين، وفتح علينا أبواب النصر والظفر بكسر أحزاب الشياطين وبلاد الكفّار والملاعين...»، و«صيَّرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام»... إلخ. ثم يدعو «سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهّاد والعباد والصالحين، والمشايخ والأمجاد الواصلين، والأئمة الأخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التي كعروة الوثقى لا انفصام، والمشرفين بزمزم والمقام، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام، داعين لدوام دولتنا في العرفات، متفرعين من الله نصرتنا، أفاض الله علينا بركاتهم... ورفع درجاتهم...» [١٨].

ويستنتج الحصري أن العثمانيين قد استخدموا «النزعة الدينية الشديدة» بذكاء بالغ في صفوف

العرب بخاصة والمسلمين بعامة. « ولا شك أن ذلك كان يكسبها في البلاد العربية.والإسلامية مكانة معنوية رفيعة. ولا حاجة إلى القول، إن هذه المكانة المعنوية ساعدت مساعدة كبيرة، أولاً على استيلاء العثمانيين على البلاد العربية، وثانياً على دوام حكمهم لهذه البلاد، مدة طويلة، دون تعب كبير »[١٩].

الشعبوية العثمانية إذاً كانت ركيزة أساسية من ركائز الإيديولوجيا السلطوية العثمانية التي استخدمها الأتراك العثمانيون ليحكموا بها العرب بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام. ساعدهم في ذلك أن الإيديولوجيا السلطوية للكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا، كانت تسعى آنذاك للسيطرة على الكاثوليك بخاصة، والمسيحيين بعامة في إطار صليبية متجددة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فالسلطوية العثمانية والسلطوية البابوية تقومان على إيديولوجيا دينية متقاربة إلى حد بعيد من حيث الأهداف العميقة رغم اختلافها من حيث الطبيعة الدينية التي تمثلها كل منها. وكما فشلت البابوية في استقطاب الأرثوذكس وفئات عدة من الكاثوليك، فشلت العثمانية الدينية في استقطاب الشيعة الإيرانيين، واضطرت إلى خوض حروب مستمرة لإخضاعها. وما لبثت حركات الإصلاح الديني أن عمت أوروبا باسم البروتستانتية وقادت إلى تقلص نفوذ البابوية في ظل صعود الدول القومية وانتصار نمط الإنتاج الرأسمالي على النمط الفيودالي عبر ثورات عنيفة شملت كل أوروبا، وكانت أبرزها الثورة الفرنسية الكبرى لعام ١٧٨٩ التي قلصت سلطة البابوية وتدخل رجال الدين في السياسة الأوروبية إلى حد بعيد. أما حركات الإصلاح الديني في الأقطار العربية، خاصة الحركة الوهابية، فقد اندلعت كتعبير احتجاج على عدم تطبيق الشعارات التي رفعها العثمانيون في بداية حكمهم، وبعد أن عجزت السلطنة عن إكمال فتوحاتها وبدأت مرحلة الإنحدار بعد وفاة السلطان سليمان العظيم. فبات همها ترسيخ سيطرتها على المناطق التي احتلتها، وذلك بأشد أساليب القمع والإرهاب والتقتيل الجماعي، والتهجير القسري، وكمّ الحريات، وتحويل الإسلام إلى طقوس وشعوذات وفرق متصوفة ودراويش. لكن حركات الإصلاح الديني الإسلامي تبلورت على قاعدة أنماط من الانتاج السابقة على الرأسمالية، وارتكزت إلى القبلية والعائلية والطائفية والمذهبية وسواها. وتبلورت كذلك في ظروف اشتداد الهجمة الاستعمارية الأوروبية للسيطرة على الوطن العربي الذي خاض سلسلة من الانتفاضات التي أجهضها التحالف العثماني ـ الاستعماري الغربي، بخاصة الثورة الإصلاحية الكبرى التي قام بها محمد علي في مصر، والتي كانت أهم حركة تحديث إصلاحي رأسمالي في الوطن العربي في القرن التاسع عشر، لكنها أجهضت في المهد رغم أن آثارها ما زالت واضحة حتى الآن في المجتمع المصري.

عكست التركيبة السكانية للسلطنة العثمانية في القرن السادس عشر، إلى حد بعيد، الموروثات

البيزنطية والتركية والفارسية والعربية والبلقانية وسواها. ورغم زعامتها للعالم الإسلامي من حيث القوة العسكرية الضاربة، فإن الاختلافات المذهبية والعرقية بقيت فاعلة في داخلها ولم يكن من السهل تجاوزها. والشعبوية العثمانية السابقة باتت عاجزة عن إدارة الصراع في السلطنة الجديدة المترامية الأطراف، والمتعددة الأجناس والطوائف والمذاهب. لذا، فالمنهج الاجتماعي قادر، أكثر من أي منهج آخر، على تحليل الطبيعة الاقتصادية ـ الاجتماعية للنظم العثمانية الجديدة وأثرها في الفرمانات اللاحقة التي نفذت، جزئياً أو بالكامل، في مركز السلطنة وفي الولايات القريبة والبعيدة التابعة لها. أما «القراءة الفلاحية العثمانية لمبادىء الشريعة الإسلامية»، فلا تخفي الجوهر الحقيقي الذي من أجله صيغت النظم العثمانية، وهي نظم طبقية بالضرورة لأنها تنبع من علاقة الحاكم بالمحكوم، والسلطة بالرعايا. وقد تجسَّدت تلك النظم، في الواقع العملي، عبر تقسيم الناس إلى فئتين متفاوتتي الحجم بشكل هائل في مجال الضرائب [٢٠]. **فالفئة الأولى**، تمثل الجماهير الشعبية وكل القوى المنتجة وتشمل الغالبية الساحقة من سكان السلطنة في مختلف المناطق وعلى امتداد جميع الطوائف والمذاهب والأجناس، والفئة الثانية، وتمثل السلطة الحاكمة وتشمل نسبة ضئيلة من السكان تبدأ بالسلطان وتنتهي بأعيان القرى والمدن عبر شبكة واسعة من الوزراء، والقادة العسكريين، والأشراف، والولاة، وحكام المقاطعات، وجباة الضرائب وسواهم. وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم سكان السلطنة إلى فئتين كبيرتين: فئة دافعي الضرائب وهم الكثرة، وفئة المستفيدين من جباية الضرائب وهم القلة. وذلك مظهر واضح من مظاهر المجتمع الطبقي القائم على نمط إنتاج تعتبر فيه القوى العاملة على الأرض بمثابة العمود الفقري للإنتاج ودفع الضرائب إلى جانب بعض الشرائح الإجتماعية ذات العلاقة بأشكال معينة من نمط الإنتاج الرأسمالي في مراحله الأولى في الوطن العربي. لكن النظم العثمانية اختلفت، في كثير من جوانبها، عن النظم الفيودالية الغربية في تلك المرحلة، حيث سادت طبقة النبلاء، وملكيات الكنيسة الواسعة، وعلاقات العبودية لعمل الفلاح بالأرض، وتوريث الأرض من الآباء إلى الأبناء وغيرها. أما في السلطنة العثمانية فقد اعتبرت الأرض ملكاً للسلطان، وكل قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج كانت تخضع باستمرار لمراقبة السلطان ومن يمثله في المقاطعات [٢١]. «كانت الدولة العثمانية تشتمل على طبقتين رئيسيتين: طبقة العسكريين وطبقة الرعايا. ومن حيث المبدأ، لم يقتصر العسكريون على الجيش وحده، بل كانوا يشملون الموظفين العموميين والقائمين على خدمتهم ومساعدتهم، وكان السلطان ينفق على كل هؤلاء ويعفيهم من الضرائب. ولم يشكل العسكريون ارستقراطية ذات حقوق مكتسبة ومقررة، بل إن عضوية طبقتهم كانت من اختصاصات السلطان. فطبقاً للنظرية العثمانية كان كل الرعايا وأراضي الدولة ملكاً للسلطان. وقد ألغى هذا المبدأ كل الحقوق المحلية والوراثية في السلطنة... وكانت مراسم السلطان (وكل منها يسمى براءة) هي وحدها التي تقر الحقوق ليس فقط بالنسبة إلى المهام الرسمية، بل بالنسبة إلى حقوق ملكية الأراضي بما في ذلك الأوقاف.

وكانت كل من المهام والحقوق تصبح باطلة بعرف السلطان الحاكم »[٢٢].

أما على صعيد تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية، فإن الناظم للتنفيذ هو السلطان نفسه أو من يمثله في المقاطعات. واعتبر العثمانيون أن النظم التي أصدرها في المجالين المدني والجنائي مستمدة من الشريعة الإسلامية ومطابقة لها دونما حاجة إلى اثبات مطابقتها فعلاً من جانب علماء الشريعة.

هكذا تمخضت الشعبوية العثمانية عن إيديولوجيا سلطوية ذات نزوع جامح للحكم الاستبدادي المطلق الذي جسده السلطان في اسطمبول وولاته في الأقطار الخاضعة للسلطنة. فالسلطان خليفة المسلمين، وزعيم العالم الإسلامي، وقوانينه ونظمه تقوم بإسم الشريعة الإسلامية كتطبيق عملي لها [٢٣]، وإرادته هي القانون المطلق الذي لا اعتراض عليه، وهو المالك الأعلى للأرض، والمتحكم الوحيد بقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. فتبخّرت الأحلام الفلاحية حول العدالة، والمساواة، والتخفيف من الضرائب، ورفع الظلم والتعديات، والتحكم بالحرية الشخصية للفلاحين.

وبعد المرحلة القصيرة التي تميزت بها السلطنة العثمانية بالشدة والمركزية الصارمة حتى نهاية حكم سليمان القانوني، تحول حكام المقاطعات إلى « سلاطين » محليين في مناطق سيطرتهم. فزاد استبدادهم وتسلطهم على القوى المنتجة، وكثرت أيضاً حركة التمرد والعصيان في صفوفهم ضد السلطنة العثمانية نفسها التي كانت تجرّد ضدهم حملات تأديبية كبيرة يدفع ثمن تنكيلها وبطشها الفلاحون أكثر من سواهم، حيث تنهب منازلهم وتصادر ماشيتهم وتدمر منتوجاتهم. ويشير محمد فريد إلى ما آلت إليه السلطنة العثمانية في مصر العثمانية حيث « ضعفت شوكة الدولة وهيبتها التي كانت لها على مصر. وأخذت البيكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية في الديار المصرية. فآل الأمر والنهي لهم في الحكومة، وصارت حكومة الدولة صورية غير حقيقية، وسبب ذلك إكثارهم من شراء المماليك. ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان سليم. ولكن غفلت عن هذا الأمر كما غفلت عن أمور كثيرة. ومن ذلك لحق الأهالي الذل والإهانة وهاجر كثير منهم إلى الديار الشامية والحجازية وغيرهما، وخربت البلاد، وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان الذي عليه مدار الخصب. ونتج من ذلك ومن خوف الدولة العلية من تمكن الباشا في الحكومة أن تغلّبت البيكوات وصارت كلمتهم هي النافذة وانفردوا بالتصرف »[٢٤].

هكذا تحولت الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية إلى سلطة مركزية صارمة دفع الفلاحون الكثير من دمائهم ونتاجهم ثمن الارتباط بها، ففي مرحلة القوة استنزفت الدولة العثمانية طاقات الفلاحين والقوى المنتجة بالحروب المستمرة، وفي مرحلة الضعف والتفسخ استنزفتهم أيضاً في حروبها الداخلية وحملات التأديب وقمع العصيان. وفي الحالتين، ما قامت به الإيديولوجيا الشعبوية

العثمانية، أنها أبدلت السلطة الاقطاعية المملوكية أو الصفوية أو البيزنطية بسلطة طبقية من الطراز الاقطاعي نفسه مع تطوير في أساليب القمع والسخرة والبلص والمصادرة.

بعض الاستنتاجات الختامية

الطرح العلمي للمشكلة يشكل مساهمة جديّة في الوصول إلى حلها. لكن المقولات غير العلمية يمكن أن تقود إلى مزالق ومتاهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في كشف التطور الاجتماعي. وفي خانة المقولات غير العلمية تصب كل الشعارات الايديولوجية التي تلغي العلم التاريخي لمصلحة التبرير والرؤية الانفعالية لأحداث التاريخ. وهذه المقولات تقدم خدمة جلّى بعضها للبعض الآخر. فنفي كل إيجابية للسلطنة العثمانية يقود، على صعيد العلم التاريخي، إلى تبرير المقولات المضادة التي تنفي عنها كل سلبياتها، وتصوّرها « دولة مفترى عليها ». كذلك مقولة « الشعبوية العثمانية »، والتعاطف العربي بخاصة والإسلامي بعامة مع السلطنة العثمانية كدولة إسلامية « يحرسها الله » وواجب المسلمين، بخاصة العرب، الدفاع المستميت عنها في وجه الصليبية الأوروبية المتجددة باستمرار. ومن هذا المنطلق جرى تسفيه الحركات التحررية العربية ضد السلطنة العثمانية، واعتبرت حركات « ردة » على الإسلام موحى بها من الغرب الاستعماري. وجرى طمس شعار النهضة العربية تحت ستار التغريب، والاستلاب الثقافي، وفقدان الشخصية العربية والإسلامية، وضرب وحدة المسلمين، وإلغاء الخلافة الإسلامية وغيرها من الشعارات الإيديولوجية. ولم يقتصر الهجوم على النهضة العربية واعتبار دعاتها العلمانيين جواسيس وعملاء للغرب، والدينيين هراطقة ومرتدين عن الدين يجب إخراجهم من المؤسسة الدينية وتسفيه كتبهم ومنع تداولها، بل امتد ليطال إصلاحات كمال أتاتورك في الجمهورية التركية نفسها وكل مظاهر العلمانية، مهما كانت بسيطة، في الأقطار العربية، بخاصة في تونس وسواها.

هكذا طرحت الشعارات الإيديولوجية الكثيرة لتخفي عمداً الأسئلة العلمية لفهم التطور التاريخي للأقطار العربية في ظل الحكم العثماني. وهي الشعارات التي تطال المرحلة الأولى، أي القرن السادس عشر كما تطال المراحل اللاحقة حتى انهيار السلطنة العثمانية.

فرغم أهمية « التعاطف العربي والإسلامي » مع الفتح العثماني في مرحلة تجدد الحروب الصليبية بعد سقوط القسطنطينية، فإن الأوروبيين أنفسهم قدموا النموذج الواجب اتباعه في هذا المجال حين رفضوا الاستمرار في تلك الحروب، ومنعوا تجددها، بعد أن انصرفت قواهم البرجوازية إلى إقامة دولها القومية على امتداد القارة الأوروبية. فتوحدت أراضيها وشعوبها في دول حديثة ذات توجه علماني واضح، وفصلت الدين عن الدولة، وأقامت حكم المؤسسات الدستورية، واعتمدت

العقلانية والليبرالية والخدمات الاجتماعية واحترام الحقوق الأساسية للإنسان طريقاً للخروج من إيديولوجية القرون الوسطى الغيبية، إلى الحداثة والمعاصرة في مختلف المجالات. فمعركة الحداثة هي، في أحد وجوهها الأساسية، معركة الخروج من دائرة الشعارات الشعبوية الفلاحية التي جعلت من الجماهير الشعبية وقوداً للحروب الصليبية في القرون الوسطى، وقضت على الانتاج والقوى المنتجة معاً لمصلحة الكنيسة والنبلاء. لذلك رفضت البرجوازية الأوروبية إعادة تجديد تلك الحروب لمصلحة الكنيسة والنبلاء. وعلى قاعدة غناها الاقتصادي وتطورها الاجتماعي والسياسي بعد الاكتشافات البحرية، عملت على إشعال حروب داخلية باسم الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، انتهت بهزيمة التحالف القائم بين الكنيسة والنبلاء لمصلحة البرجوازية الأوروبية الصاعدة.

لعل المقارنة العلمية المهمة في هذا المجال بين السلطنة العثمانية والدويلات الأوروبية في القرن السادس عشر هي التي عقدها المؤرخون الاجتماعيون وليس المؤرخون المؤدلجون. فليس المهم الوقوف عند التعاطف العربي والإسلامي ولدى بعض منظري القيادات الشعبوية الأوروبية مع السلطنة العثمانية، بل دراسة التركيبة البنيوية لهذه السلطنة. فليست الشعبوية العثمانية مقولة علمية قابلة للتحول إلى فهم تاريخي صحيح للتطور الاجتماعي. كذلك القراءة الفلاحية العثمانية لمبادىء الشريعة الإسلامية التي تجسّدت في نظم سلطوية وقوانين عثمانية قمعية، قامت على أساسها دولة استبدادية لها نماذج مشابهة في التاريخ الأوروبي والعربي. فهي لم تكن دولة الإسلام الموعودة والتي ما زالت الوعود حولها تتكاثر حتى الآن، وفي كل مرة لا تحصد الجماهير الشعبية سوى الخيبة والمرارة، إذ تتحول العصبية الشعبوية دائماً إلى « مُلْكْ » على حد تعبير ابن خلدون.

ومن الأسئلة الأساسية التي طرحها المؤرخون الاجتماعيون حول القرن السادس عشر، عصر التحولات الكبرى في تاريخ الإنسانية من أنماط الانتاج السابقة على الرأسمالية، إلى نمط الانتاج الرأسمالي، السؤال المنهجي المهم: لماذا سارت القوى البرجوازية المفككة في أوروبا في القرن السادس عشر إلى الوحدة المجتمعية والمؤسساتية عبر دولها القومية في القرون اللاحقة، فاستطاعت تطوير إنتاجها وتحقيق ثورتها الصناعية والعقلانية التي تجسّدت بدولة المؤسسات، في حين سارت السلطنة العثمانية على الطريق النقيض تماماً من الوحدة الشاملة والدولة المترامية الأطراف إلى التفكك والعزلة والانهيار الاقتصادي والعجز عن حماية ولاياتها وأراضيها وخلافتها فكان سقوطها المدويّ في الحرب العالمية الأولى بعد تحولها إلى « الرجل المريض غير القابل للشفاء ».

لقد تحقق للسلطنة العثمانية في عهد سليمان القانون ما لم يتحقق لدولة أخرى في التاريخ الحديث: جيش قوي [٢٥]، وتعاطف شعبوي لدى جميع الأقليات والطوائف والأعراق، وانتساب

طوعي لقرصنة البحر وللقوى المحلية، العربية وغير العربية، إلى السلطنة، واقتصاد نشيط حقق فائضاً كبيراً في الانتاج، وعلاقات إنتاج بين الاقطاعيين والفلاحين كانت أرقى مما كان سائداً في غالبية الدويلات الأوروبية، وقدرة على الغزو والتوسع وتأديب المتمردين لا حدود لها، وتهافت أوروبي لكسب ود السلطنة والخوف من غضبتها وإعلان الحرب عليها. حتى أن السلطان سليمان القانوني استخدم عبارة «**عرضت مطالبكم على أقدام عرشنا فنظرنا فيها بعطف**»، للدلالة على موقعه المتفوق في المعاهدة الفرنسية ـ العثمانية لعام ١٥٣٥ (٢٦). فالسلطنة العثمانية كانت القوة الأقوى في العالم إبان القرن السادس عشر حين احتلت الأقطار العربية، وقضت على دولة المماليك، والدولة الصفوية، وكانت قد أزالت الأمبراطورية البيزنطية، واحتلت أراضي واسعة في البلقان، وهددت أوروبا في عقر دارها، وحوّلت البحر المتوسط إلى بحيرة للنفوذ العثماني، ودمّرت أساطيل القراصنة الفرنجة، ووصلت بسفنها إلى شواطىء الهند من جهة، وشواطىء المغرب من جهة أخرى.

وبهدف تحقيق جميع تلك الانتصارات حتى أواسط القرن السادس عشر استخدمت السلطنة العثمانية جملة من المقولات التي لم تنفذها لاحقاً، فانقلبت إلى نقيضها وباتت عامل تفكيك للسلطنة في المرحلة اللاحقة.

فقد استخدمت التضامن القبلي في الأناضول لتحقيق انتصاراتها الأولى هناك، فالتفّت حولها مختلف القبائل الإسلامية والمسيحية على السواء. واستخدمت التضامن التركي لجمع القبائل التركية حول زعامة قبيلة آل عثمان. واستخدمت شعار التضامن الإسلامي لمحاربة المماليك، فالتفّ حولها زعماء العرب وقسم من زعماء المماليك بالذات. واستخدمت شعار التضامن السني لمحاربة الشيعة الصفويين تحت ستار توحيد العالم الإسلامي بالقوة. واستخدمت شعار «حماية دار الإسلام» و «الجهاد المقدس في سبيل الدين الإسلامي» في حربها ضد الفرنجة، بخاصة البندقية والبرتغال والإسبان، فالتف حولها غالبية المسلمين وقراصنة البحر من الأوروبيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي (٢٧). واستخدمت شعار دعم كل القوى المسيحية المناهضة للبابوية في حملتها الصليبية المتجددة، فالتفّ حولها غالبية مسيحيي الشرق وبعض أرثوذكس البلقان، وبعض الفرق البروتستانتية وغيرها. واستخدمت زعماء البدو المناهضين للقوى المحلية المرتبطة بالفرنجة أو بالمماليك. واستفادت إلى الحد الأقصى من الخلافات الداخلية للأسر المسيطرة لتهديمها وإلحاق الأقطار العربية بالحكم العثماني المباشر. وتحالفت مع بعض الأوروبيين لمحاربة البعض الآخر.

هذه السمات الأساسية وغيرها نجد لها وصفاً دقيقاً في كتاب «الفتح العثماني للأقطار العربية». ومع ذلك تبقى الأسئلة المنهجية الكبرى دون جواب، وهي الأسئلة التي تحلل بالتفصيل البنية الطبقية للمجتمع العثماني.

فمن المفيد جداً طرح الأسباب التي جعلت العثمانيين يحققون تلك الانتصارات السريعة والكبيرة خلال قرن واحد من الزمن يمتد من سقوط بيزنطية حتى احتلال تونس، لكن المهم كذلك تحليل الأسباب العميقة التي جعلت الشعارات العثمانية تبقى مجرد ضجيج إعلامي شعبوي غير قابل للتحقيق. فتحولت القوة إلى ضعف، والتعاطف إلى كره، والاستكانة إلى تمرد، والتسامح الديني إلى تعصب، والطائفية إلى مذهبية، والأفكار القومية إلى شوفينية عرقية، جاءت دعوة الطورانية والتتريك تتويجاً لها قبل سنوات من السقوط الأخير للسلطنة العثمانية. فالشعبوية تحمل في طياتها بذور انفجارها وموتها لأنها تضلل الجماهير وتخاطب الطاقة اللاواعية في شعورهم وأحاسيسهم، وتستخدمهم في معارك لا تمت إلى مصالحهم بصلة. لذا، لم تقدم الإيديولوجيا الشعبوية، خاصة الدينية منها، أي حل للجماهير الشعبية، بل قادت إلى تبديل شكلي من داخل القوى الطبقية المسيطرة بالذات. ونماذج التاريخ كثيرة في هذا المجال كالوهابية، والسنوسية، والمهدية. ولن تكون الحركات الشعبوية الدينية المعاصرة أفضل من سابقاتها بعد أن بان عجزها عن تطبيق الشعارات الإصلاحية التي نادت بها فتحولت إلى عصبية سلطوية تعيش أزماتها المتلاحقة.

تحوّلت الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية بعد الانتصارات الكبيرة التي حققتها في القرن السادس عشر إلى إيديولوجيا سلطوية للقوى المسيطرة التي تبنت شعار الجمود والتحجر دفاعاً عن المكتسبات الطبقية الهائلة التي حصلت عليها. فلم تستمر في حربها ضد «الكفار» الأوروبيين أو الفرنجة، بل تحالفت تباعاً مع القوى الفاعلة بينهم في حروبها ضد قوى أخرى بحيث دفعت السلطنة الثمن الباهظ على الدوام. أما نتائج الانتصارات، إذا تحققت، فلمصلحة القوى الأوروبية الأخرى. وليست تجربة الحرب ضد محمد علي باشا، وحروب القرم، وحروب البلقان وغيرها سوى نماذج واضحة على ازدياد تفكك السلطنة وانهيارها الاقتصادي وارتمائها أكثر فأكثر في أحضان القوى الأوروبية المتصارعة على النفوذ والسيطرة، لكنها متفقة دوماً على إضعاف السلطنة تمهيداً لإزالتها من الوجود.

في الممارسة العملية تحولت الشعبوية العثمانية إلى حكم استبدادي مطلق لا تحد من سلطة السلطان أي مجالس أو مؤسسات أو قيود شرعية. «إن سلطة السلطان كانت مطلقة بصورة فعلية. ومن الغريب أن الباشوات أيضاً كانوا مطلقي التصرف، وكانوا يتمتعون ـ بصورة فعلية ـ بسلطة إعدام الأشخاص ومصادرة الأموال. وكانت العشائر تترك خارج الترتيبات الإدارية.. وكانت شؤونها تدار من قبل شيوخها وأمرائها، وفقاً للتقاليد والعنعنات المتعارفة بينها. إن السلطنة العثمانية كانت دولة عسكرية، دينية، إقطاعية... من نوع خاص»[٢٨]. وهذا «النوع الخاص»

تحديداً بحاجة إلى دراسة مستفيضة تبتعد عن الإيديولوجيا الشعبوية لتحلل التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والإداري والثقافي الذي شهدته الأقطار العربية في ظل الحكم العثماني. فبعد مرحلة الانتصارات الباهرة بدأت عملية الفساد من أعلى وكانت تعتمد على حق السلطان في نصيب محدد من أسلاب الحرب. فبدأت عادة، كان القادة العسكريون بمقتضاها يقدمون للسلطان على أثر عودتهم من إحدى الحروب، أحسن الغنائم التي حصلوا عليها. وقد أدت هذه العادة بدورها إلى تقديم الباشوات للهدايا بانتظام حتى ولو لم تكن هناك أي حرب يغنمون منها [٢٩] فتحوّلت القوى العسكرية من الدفاع عن أراضي السلطنة وإنجاد من يطلب مساعدتها ضد الفرنجة أيام الفتوحات، إلى ممارسة الاستبداد المطلق في المقاطعات التي سيطرت عليها. وفي حين شكلت القوى الانكشارية القاعدة الأساسية لحماية السلطنة في المرحلة الأولى، تحوّلت في المراحل اللاحقة إلى عامل اضطراب دائم في داخلها. واستطاعت بعض القوى الانكشارية النافذة عزل سلاطين وإبدالهم بسلاطين آخرين أكثر مطواعية لتنفيذ رغباتهم، وكثرت حركات التمرد والعصيان في مختلف أرجاء السلطنة. ولم ينج قطر عربي واحد من حركات العصيان التي قامت بها قوى سلطوية محلية في مرحلة ضعف السلطنة وتفككها.

الشعبوية العثمانية الإسلامية أبعد ما تكون عن تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية إذ قامت على أساس الفرق الصوفية والدراويش بخاصة الطريقة البكطاشية. فتحوّل الإسلام إلى طقوس وشعائر موروثة من التقاليد والأعراف التي مارستها قبائل الأناضول وغيرها خلال تاريخها الطويل. وهي طقوس ليست نتاج قبيلة واحدة، أو جنس واحد، أو دين واحد، أو طائفة واحدة، بل موروث فلاحي صوفي لكل ما عرفته تلك المناطق من شعائر بعضها وثني وبعضها الآخر يهودي أو مسيحي أو إسلامي، على خلفية قبلية أو مدينية، وعلى قاعدة اقتصاد رعوي وزراعي وحرفي.

والشعبوية العثمانية التي كانت عامل قوة، وتضخيم للحكم العثماني في مرحلة الغزو تحولت إلى عامل تهديم له في المراحل اللاحقة. فانهارت الصيغة العثمانية التي التف حولها الفلاحون من مختلف الطوائف والأعراق والمناطق في البداية، بعد أن تحولت العثمانية إلى إيديولوجيا سلطوية تمسكت بها الطبقات المسيطرة على امتداد السلطنة. وفي عصر القوميات الأوروبية ودولها الحديثة ونمط الإنتاج الرأسمالي وصل عامل التهديم إلى رأس السلطة العثمانية. فبدأت تنفض عن السلطان قوى قومية وطبقية وتسعى للانفصال أو للاستقلال عن السلطنة كي تبني دولها القومية، وبالارتباط الوثيق أحياناً مع الغرب الاستعماري الرأسمالي.

هكذا انهارت الصيغة العثمانية كما انهارت قبلها الأمبراطوريات المشابهة في أوروبا بخاصة الأمبراطورية الجرمانية ـ المجرية، والأحلاف المقدسة، والصليبيات المتجددة وكلها صيغ سلطوية

طبقية تستنجد بالدين لتحوله إلى طقوس وشعائر فولكلورية، وتخدع الفلاحين والقوى المنتجة بالإصلاح لتقيم سلطة طبقية مشابهة أو أشد سوءاً، أو تبقي العائلات المسيطرة نفسها كما حدث في بعض الأقطار العربية إبان الحكم العثماني. وما الحنين إلى العثمانية وشعاراتها الشعبوية اليوم [٣٠] إلا تعبير واضح عن بقاء قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج دون تغيير جذري في بعض الأقطار العربية. فلم تندثر تماماً أنماط الإنتاج السابقة على الرأسمالية فيها. أما بعض مظاهر نمط الإنتاج الرأسمالي وعلاقاته في هذه الأقطار فما زال هشاً للغاية، وتصالحت مع الأشكال السابقة، وحافظت عليها تماماً كما حافظت القوى السلطوية العربية على شعارات الشعبوية العثمانية كالتضامن الديني، والمركزية السلطوية المدعومة بمركزية القوى الطبقية المسيطرة بين القبائل والعشائر في الأرياف، ومحاربة التجديد، واستخدام القمع الدموي ضد التمرد والعصيان، والتحالف العلني مع القوى الأوروبية المعادية لمصالح الجماهير الشعبية العربية، وإبقاء الوحدة الشكلية مع الإنخراط العملي ضد الوحدة الحقيقية، والعجز عن حماية الإنسان والأرض.

عندما سادت الايديولوجيا الشعبوية في السلطنة العثمانية والدويلات الأوروبية معاً في القرن السادس عشر، وكانت أبرز شعاراتها الصليبية المتجددة باسم «حرب الهلال والصليب»، عرفت أوروبا كيف تضع حداً لتدخل الدين في السياسة، وتسلط الكنيسة الكاثوليكية على الجماهير الشعبية المسيحية في أوروبا التي خاضت معارك دامية، وتعرضت لمجازر دموية بين الطوائف المسيحية نفسها، فقامت البرجوازيات الأوروبية بثوراتها الوطنية والقومية ضد نمط الإنتاج الفيودالي السابق. وخاض المفكرون الأوروبيون معارك نظرية عنيفة ضد الجمود والتحجر والشعارات الشعبوية المسيحية التي كانت تبثها الكنيسة ورجال الدين والقوى الطبقية المسيطرة. ولم يكن خروج أوروبا إلى نمط الإنتاج الرأسمالي، والحداثة، والمعاصرة، والعقلانية، والليبرالية، وحكم المؤسسات الدستورية وغيرها مسألة سهلة، بل تطلبت تضحيات كبيرة وصدامات دموية متلاحقة.

أما في الأقطار العربية فما زال الحنين إلى الماضي العثماني وما قبل العثماني السمة البارزة في الفكر العربي المعاصر. وكأن ما تمنعت عن تحقيقه السلطنة العثمانية في أوج مجدها كانت قادرة على إنجازه في مرحلة تفسخها وانهيارها. وما انهيار الصيغة الشعبوية العثمانية إلا نتاج التطور التاريخي نفسه، وبفعل العوامل الداخلية والخارجية معاً. إذ لم تكن هناك مصلحة حقيقية للقوى العثمانية المسيطرة في تحقيق الشعارات الشعبوية التي نادت بها في مرحلة صعودها بل تحولت العثمانية، منذ البداية، إلى إيديولوجيا سلطوية تحاول تأبيد ما هو قائم وقطع الطريق على التغيير الجذري. وقد ورثت الأنظمة العربية الراهنة هذه الإيديولوجيا السلطوية المعادية للتغيير. وبالتالي، لن تستطيع الشعارات الشعبوية المتسربلة باسم الدين أن تنقذها من مصيرها الحتمي عندما تصبح قوى التغيير الجذري قادرة على صياغة مشروعها البديل. عندئذ يعاد النظر في الكتابة الإيديولوجية التي اتخذت من

الشعبوية مرتكزاً للتضليل الجماهيري وإبقاء الواقع العربي في جموده وتحجره الراهن. فالمسألة الأساسية، في جوهرها، لا تكمن في الإجابة عن مصداقية شعارات «الشعبوية العثمانية» وتعاطف الجماهير الفلاحية معها وتوقها لتطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية على أياديها، بل في الإجابة عن الطبيعة الطبقية للسلطنة العثمانية ومدى رغبة القوى السلطوية العثمانية أو بالأحرى مدى الفائدة التي يمكن أن تجنيها من تنفيذ الشعارات الشعبوية الإسلامية. أما الحنين إلى الماضي التليد، فلا يمكن أن يخفي الوجه الطبقي للقوى المسيطرة في الأقطار العربية مهما تسربلت بثياب الدين وحافظت على إسلام الدراويش والفرق الصوفية.

اليوم، وفي مرحلة تحوّل الرأسمالية إلى امبرياليات كبرى وفرعية يبدو الحنين إلى الإيديولوجيا الشعبوية، الدينية الفلاحية والحرفية، ضرباً من الأوهام التي سحقها التاريخ عبر تحولاته الكبرى. وما الشعبوية الدينية المعاصرة، والقراءة الفلاحية للمبادىء الأساسية للشريعة الإسلامية، الماضية والمعاصرة على السواء، سوى طقوس متجددة للفرق الصوفية بأشكال حديثة، والتي لم تنقذ «الرجل المريض» العثماني، بل عبّدت الطريق لغزو السلطنة وتوزيع ممتلكاتها. ولا يقل خطرها الراهن على الأقطار العربية عن مخاطر الشعبوية العثمانية التي ساهمت، إلى حد بعيد، في انهيار السلطنة.

الحواشي

(١) نشير إلى المرجعين المهمين في هذا المجال:

H. Bowen and H. Gibb «Islamic Society and the west». Vol. I. in 2 parts. London 1951 - 1957.

وقد ترجم الجزء الثاني منه أحمد عبد الرحيم مصطفى ونشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٧١.

ـ **عبد الكريم رافق** «العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦» دمشق ١٩٧٤ بخاصة صفحات ٣١ ـ ٣٥.

(٢) **أحمد عبد الرحيم مصطفى** «في أصول التاريخ العثماني» دار الشروق ـ بيروت ١٩٨٢، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) **محمد فريد المحامي** «تاريخ الدولة العلية العثمانية». دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٧، ص ٦ ـ ٧.

(٤) **نيقولاي إيفانوف** «الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤» مترجم عن الروسية ـ دار الفارابي ١٩٨٧.

(٥) **عبد الكريم رافق** «بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث» ـ دمشق ١٩٨٥، بخاصة «بلاد الشام في فترة القوة العثمانية في القرن السادس عشر». صفحات ز ـ ط.

(٦) **Antoine Abdelnour** «Introduction à l'Histoire Urbaine de la Syrie ottomane - XVIème - XVIIIème siècles». Publications de l'université Libanaise. Section des Etudes Historiques - No. XXV - Beyrouth 1982. Voir aussi **Jean - Paul Pascual** «Damas à la fin du XVIème siècle - d'après trois actes de waqf ottoman». Institut Français de Damas, 1983.

(٧) **محمد فريد المحامي** «تاريخ الدولة العثمانية» ص ٤٠.

(٨) **محمد أنيس** «الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤ ـ ١٩١٤» القاهرة، لا تاريخ، ص ٢٣.

(٩) المرجع السابق ص ٣٤.

(١٠) يراجع على سبيل المثال: **Stanley Lane - Poele** «Turkey» - Beirut 1966.

(١١) **محمد فريد المحامي** «تاريخ الدولة العلية» ص ٥٧.

(١٢) **محمد أنيس** «الدولة العثمانية» - ص ٣١.

(١٣) **محمد فريد المحامي**،المرجع السابق ص ٤٣.

(١٤) **أحمد عبد الرحيم مصطفى** «في أصول التاريخ العثماني»، ص ص ٦٧-٦٨.

يشير المؤلف في الحاشية رقم (٣)، الصفحة (٦٦)، إلى المعلومات التالية «حين ضيّق العثمانيون الخناق على مدينة القسطنطينية، تنادى المتعصبون من الأرثوذكس بما يلي «الأتراك خير من اللاتين». وتوقعوا حدوث معجزة تنقذ المدينة المحاصرة إذا ما أمكن التصدي للقسس اللاتين ذوي اللحى الحليقة». وفي ذلك دلالة واضحة على انتشار الإيديولوجيا الشعبوية العثمانية والتعاطف مع العثمانيين ضد الفرنجة اللاتين.

(١٥) تراجع الدراسة المهمة حول الانكشارية:

Nahoum Weissman «Les Janissaires - Etude de l'organisation militaire des Ottomans». Thèse pour le doctorat d'université présentée à la Faculté des Lettres de Paris 1938. «Librairie Orient» édition Paris, 1964.

(١٦) قدّم ألبرت حوراني دراسة ممتازة حول التركيبة الاقتصادية - الاجتماعية للسلطنة العثمانية والنظم التي طبقتها في الأقطار العربية.

ألبرت حوراني «الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث» جامعة اسكس - محاضرة عربية لشركة كاريراس - لونجمانز ١٩٦٩، بالعربية والانكليزية.

(١٧) **عبد الجليل التميمي** «رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية - المغربية في القرن السادس عشر». بحوث المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية بعنوان «الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني». نشرت في «المجلة التاريخية المغربية». تونس - السنة العاشرة - العدد المزدوج ٢٩ - ٣٠. تموز (يوليو) ١٩٨٣، صفحات ٧١-١٠٧، العدد بجميع مقالاته ذو قيمة وثائقية في هذا المجال. كذلك وثائق المؤتمر العالمي الذي نظمه مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني بعنوان «الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني»، ونشرها المركز في ثلاثة مجلدات. تونس ١٩٨٦، باللغات العربية والفرنسية والانكليزية. يراجع أيضاً البحث المهم المترجم عن التركية.

أرجمند كوران «السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر». نقله إلى العربية عبد الجليل التميمي. طبعة ثانية. تونس ١٩٧٤.

(١٨) يعتبر ساطع الحصري من الباحثين المتميزين في دراسة العلاقات العربية - العثمانية.

ساطع الحصري «البلاد العربية والدولة العثمانية»، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٠. صفحات ٢٢-٢٧ حيث تبرز وثائق مهمة حول هذه النقطة. يراجع أيضاً: **محمد جميل بيهم** «العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب - دراسة تستعرض دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة وتتناول أوضاعها في العصر الحاضر». بيروت ١٩٥٧.

(١٩) **ساطع الحصري** «البلاد العربية والدولة العثمانية»، ص ٢٨.

(٢٠) قدمت الباحثة ليلى الصباغ دراسة مهمة في التاريخ الاجتماعي حول بدايات الحكم العثماني والنظم التي طبقها في الأقطار العربية يراجع: **ليلى الصباغ** «المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني». منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٣.

واعتبرت الباحثة أن أهداف التنظيمات العثمانية هي: «**أولاً**: تأكيد النفوذ العثماني؛ **ثانياً**: المحافظة ما أمكنه ذلك على الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحياتية التي كانت تعيشها البلاد قبل الفتح العثماني لها؛ **ثالثاً**: الاهتمام بتطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية وتنفيذ أحكامها على المذهب السني الحنفي». وليس صدفة أن يأتي النفوذ العثماني بالدرجة الأولى حتى يصبح الهدفان اللاحقان في خدمة ذلك النفوذ، مما يؤكد على طبقية تلك النظم التي جاءت لمصلحة العثمانيين ومن تعاون معهم من الأعراف الأخرى وذلك على حساب الجماهير الشعبية. تراجع ص ص ١٥

و ٢٢ و ٣٢ ـ ٤١ المتعلقة بالضرائب وكيفية جبايتها.

(٢١) قدّم عبد الرحيم أبو حسين دراسة متميزة تناولت دور الزعامات المقاطعجية في الولايات السورية بين أواسط القرن السادس عشر وأواسط القرن السابع عشر.

Abdul - Rahim Abu - Husayn «Provincial Leaderships in Syria 1575 - 1650» American University of Beirut - Lebanon - 1985.

(٢٢) **أحمد عبد الرحيم مصطفى** «في أصول التاريخ العثماني». ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٢٣) في معرض تقديمه لكتيب «التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية» يكتب محمود رئيف أفندي، السكرتير السابق للسفارة السلطانية لدى قصر انكلترا ما يلي: «الشرائع الأبدية للعناية الإلّهية تضمن للسلطنة العثمانية وجوداً دائماً ورخاءً باهراً... وبالنتيجة، فإن المملكة العثمانية كلما واجهت صعوبات في تنظيماتها السياسية فإن الذات الإلّهية التي تكرمت بالسهر على حفظها سرعان ما تعمل على ايجاد الرجل المناسب الذي بحكمته وقدرته يكون له سعادة إعادتها إلى سابق قوتها... ان ملكنا العادل بفضل الله تعالى هو الخليفة الشرعي للرسول الكريم، ورئيس الأمة الإسلامية...». ص ٣٠ ـ ٣١. **محمود رئيف أفندي** (إعداد) «التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية». عرّبه وحققه وقدّم له خالد زيادة. منشورات جروس ـ برس ـ طرابلس ـ لبنان. ١٩٨٥.

(٢٤) **محمد فريد المحامي** «تاريخ الدولة العلية العثمانية». ص ٧٧.

(٢٥) **نوفان رجا المحمود** «العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر». دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨١.

(٢٦) **Mgr Basile Homsy** «Les capitulations et la protection des chrétiens au Proche - Orient aux XVIème, XVIIème et XVIIIème siècles». Harissa - Liban 1956 PP. 44 - 49.

(٢٧) **Emel Esin** «La description des côtes algériennes de Piri Reis». in «studies on Turkish - Arab Relations». Annual 1986. Istanbul. PP. 47 - 60.

(٢٨) **ساطع الحصري** «البلاد العربية والدولة العثمانية». ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٢٩) **محمد جميل بيهم** «فلسفة التاريخ العثماني ـ أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها». بيروت ١٩٥٤. يعدد بيهم في مجال تأثير السلاطين في إنحطاط الدولة والشعب وفي زوال السلطنة الأسباب التالية: «١ ـ الزواج من الأجنبيات. ٢ ـ تعدد الزوجات. ٣ ـ تنافر الأسرة المالكة. ٤ ـ ضياع الكفاءات. ٥ ـ تحجب السلاطين. ٦ ـ تبذير السلاطين» ـ ص ١٠ ـ ١١، كذلك يشير إلى «عمال السلطنة ومظالمهم»، وإلى «حاشية السلطان»، و«الأغلاط الإدارية والسياسية»، و«سياسة السلطنة إزاء الأقليات»، و«المعاهدات والامتيازات»، و«عقلية الخلف وجمود السلف». والكتاب بمجمله دراسة مهمة حول الأسباب العميقة التي قادت إلى انهيار السلطنة العثمانية.

(٣٠) يبدو أن الشعبوية غير محددة بزمان ومكان ونمط انتاج معين. «فيما يتعلق بالتراث الوسيط، فقد عرف التاريخ العربي الإسلامي العديد من الحركات التي طالبت بالمساواة والعدالة الاجتماعية. وكما هو معلوم مثل الخوارج أكبر هذه الحركات. وعلى امتداد العصر الأموي قامت أكثر من ثورة وانتفاضة. وتزعم جماعة «القراء»، وهم حفظة القرآن المصاحبون للجيوش العربية، رفع شعارات العدالة الاجتماعية، وكانوا يعبرون في الواقع عن البدو الذين مثلوا الدعامة الاجتماعية الأساسية لهذه الحركات، وانضم إليهم كثير من الفلاحين وفقراء الموالي. وكانت حركة البدو تنزع إلى العودة إلى المجتمع البسيط ليكون لهم نصيب في أملاك الدولة الإسلامية في وقت احتدمت فيه مظاهر التمايز الاجتماعي بين العرب بعضهم ببعض من ناحية، وبين العرب ومن أسلم من سكان البلدان المفتوحة من ناحية أخرى». فالبدو عماد الشعبوية في الحركات الإصلاحية العربية، والفلاحون عمادها في المرحلة العثمانية، والفلاحون وقسم من البرجوازية الصغيرة والمثقفين الطوباويين في روسيا القيصرية وقد هاجمهم لينين بعنف ووصف حركتهم الإصلاحية بأنها تسعى إلى إبدال رأسمالية من نوع معين برأسمالية من نوع آخر. وليست الشعبوية الإسلامية المعاصرة خارج هذا التوصيف، وتحليل مفهومها في «الاقتصاد الإسلامي» يقدم الدليل على رأسماليته.

اسماعيل سبري عبدالله وآخرون «دراسات في الحركة التقدمية العربية» مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ١٩٨٧. صفحات ٢١ ـ ٢٢ والحواشي ٨ إلى ١٣.

السياسة التوسعية لدول أوروبا الغربية في مطلع القرن السادس عشر

أدّى الانشقاق الداخلي العميق إلى إضعاف المجتمع الإسلامي تجاه العدو الخارجي. كما أن النزاع الديني الذي أعاق علاقات الشرق بالغرب أخذ يتفاقم من جديد في أواسط القرن الخامس عشر، وظلت الصليبية الغربية المتجددة العدو الرئيسي للإسلام كما كانت سابقاً، وبدأت في عصر النهضة مرحلة جديدة من المواجهة بين نظامين متعارضين من أنظمة القرون الوسطى. فالعالم الكاثوليكي الذي اهتز لسقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ اعتراه الخوف والكراهية واعتبر الاسلام نقيضاً للقيم الإجتماعية والروحية في أوروبا. ورداً على القسم الذي أطلقه السلطان محمد الثاني حين قال: «إنه سوف يطعم حصانه الشوفان على عرش القديس بطرس»[١] لم تتوان سلطات روما عن الدعوة بالحاح إلى تنظيم حملة صليبية جديدة. استقبلت تلك الدعوات بأصداء إيجابية واسعة في بلدان أوروبا الكاثوليكية، لا سيما في أوساط طبقة النبلاء[٢].

كانت إيطاليا وأسبانيا والمناطق المتاخمة لها من أراضي جنوب ألمانيا والبروفانس والبرتغال، أهم المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الأوروبية الغربية بين نهر البو ونهر التاج في ايطاليا واسبانيا

---

(١) أ. كريمسكي. «تاريخ تركيا وآدابها منذ التأسيس حتى بداية السقوط»، موسكو ١٩١٠. ص ٢٠٥.

(٢) للتوسع في هذه النقطة يراجع:

Robert Schwoebel. «The Shadow of the Cresent: the Renaissance Image of the Turk (1453 - 1517). Nieuwkoop 1967.

في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومثلت هذه المناطق بالذات في عصر النهضة والاصلاح الديني، ذلك «الغرب» الذي أثار كرهاً خاصاً لدى المسلمين والحركات الدينية السياسية المرتبطة بالإسلام. وعليه، فإن العبء الأساسي في المواجهة العسكرية الشاملة وقع على عاتق تلك المناطق. وكانت البرتغال من أوائل الدول التي استجابت لنداء البابا وانطلاقاً من سيته التي كانت تحتلها البرتغال منذ عام ١٤١٥، نظّم ألفونسو الخامس الافريقي حملة صليبية ضد «مغاربة» مراكش. وفي عام ١٤٥٨ تمكّن من احتلال القصر الصغير. ورغم الهزيمة القاسية التي تكبّدها ألفونسو الخامس قرب طنجة في ١٢ كانون الثاني يناير ١٤٦٤ فإنه لم يرتدع عن مخططاته. وفي عام ١٤٦٨، أقدم الأسطول البرتغالي على احراق الدار البيضاء وتدميرها بعد أن كانت أكثر المدن ازدهاراً على شاطىء المحيط الأطلسي في مراكش. وفي عام ١٤٧١، استولى جيش الفرنجة وقوامه ثلاثون ألف رجل على طنجة وضمت البرتغال إليها مقاطعة الغرب البحري لمراكش. وتابع كل من خوان الثاني ثم مانويل سياسة «الحرب المقدسة». وفي الفترة الممتدة بين ١٥٠٥ و ١٥١٩ استولى البرتغاليون على مدن سانتاكروس دي أغير (أغادير) وصافي والصويرة. وفي عام ١٥١٥، هاجموا مدينة مراكش، عاصمة مراكش الجنوبية. نتيجة تلك الغزوات أخضع البرتغاليون ساحل مراكش الغربي كله، وحوّلوا مناطق المغرب السهلية المحاذية للمحيط الأطلسي إلى محميات لهم، ونصّبوا عليها حكاماً اقطاعيين من بين «المغاربة المسالمين».

في البحر الأبيض المتوسط حملت اسبانيا راية العداء للإسلام وتبيّن أن السلام الذي عقد عند استسلام غرناطة عام ١٤٩٢، لم يكن أكثر من هدنة قصيرة الأمد. فقد أدّت انتفاضة مسلمي اسبانيا عام ١٥٠١ المستندة إلى دعم من وراء البحار إلى استئناف الحرب المقدسة. اما الكاردينال كليمنص دي سيسنيروس، الذي كان ألعوبة بيد الملك فرديناند والملكة إيزابيلاّ الكاثوليكيين، فقد قرر توسيع الحرب إلى خارج حدود شبه الجزيرة الإيبيريّة ومهاجمة قواعد المسلمين البحرية في شمالي أفريقيا. وبدأت الحملة الصليبية الجديدة في الثالث من أيلول سبتمبر ١٥٠٥ عندما تحرك أسطول الأرمادا الإسباني باتجاه شواطىء الجزائر. وفي ٢٣ تشرين الأول اكتوبر ١٥٠٥، استولى الاسبان على «المرسى الكبير». وفي عام ١٥٠٦ فرضت اسبانيا سلطتها على مليلة. ثم استولت على القلعة عام ١٥٠٨ والتي تقفل مدخل الميناء التي تعتبر بوابة لمدينة فاس عاصمة مراكش الشمالية. وفي ١٥٠٩/١٥١٠ استولى الأسطول الاسباني بقيادة الكونت بيدرو دي نافارو على مدن وهران، وبجاية، ورباط الخيل، والأخيرة جزيرة صغيرة على مدخل ميناء مدينة الجزائر التي أرغمت في ١٥ كانون الثاني يناير ١٥١٠ على الاعتراف بسلطة العرش الاسباني. وفي ٢٥ تموز يوليو ١٥١٠ وبعد معركة عنيفة، تمكّن الاسبان من احتلال طرابلس الغرب. فاستشهد أربعون ألفاً من المدافعين عن المدينة وفقاً لمعطيات ابن إياس. وأدّت هزيمة الاسبان في جزيرة جربة في عام ١٥١٠ إلى إبعاد الاحتلال عن تونس بصورة مؤقتة، لكن ذلك لم يؤدِّ إلى أي تبدّل

في الوضع بشكل عام. وفي عام ١٥١١، خضعت للاسبان المدن الجزائرية تينيا وديليس وشرشال ومستغانم. وأخيراً، في عام ١٥١٨، استغل الاسبان نزاعاً داخلياً وفرضوا حمايتهم على سلطان تلمسان عبد الودود. وتُوج كارل الخامس ملكاً على إسبانيا ثم أمبراطوراً على الامبراطورية الجرمانية المقدسة، واتخذ لنفسه أيضاً لقب «ملك الجزائر».

كانت جزيرة رودس، في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، قلعة لفرسان المعبد التي أسسها القديس يوحنا الأورشليمي في عام ١١١٣. وظل أسطول الفرسان يطوف مياه شرقي البحر الأبيض المتوسط ويقوم بأعمال السلب والنهب للسفن التجارية الإسلامية، وينزل قواته على شواطىء سوريا ومصر. وعند أواخر القرن الخامس عشر ومطالع السادس عشر، وسّع فرسان رودس عملياتهم كثيراً. وفي عام ١٥٠٩، شنّوا هجوماً على قلعة التّين البحرية المنيعة القائمة على برزخ السويس وفي ٢١ آب اغسطس ١٥١٠، تغلبوا على أسطول المماليك قرب قلعة أياس في خليج الاسكندرون وأسروا ١٨ سفينة مصرية.

كان فرسان القديس يوحنا يتمتعون بحماية البابا وقدّموا الملجأ للقراصنة على اختلاف جنسياتهم وعملوا على ارهاب المسلمين. حتى أن مدينة البندقية التي كانت لها مصالح تجارية واقتصادية مهمة في الشرق اضطرت إلى تقديم دعمها لجبهة القوى الكاثوليكية الموحدة، والتخلّي عن التعاون العسكري مع مصر. ففي عام ١٥١٢، أرسل مجلس العشرة في البندقية إلى مندوبه في القاهرة تعليمات جاء فيها: «إن تقديم أي مساعدة مادية للسلطات لا يفيد الجمهورية بشيء بل يؤدّي إلى عزلتها وفقدانها الاحترام في نظر الدوقيات المسيحية»[٣].

وفي عام ١٤٩٨، وعلى غير انتظار، برز خطر جديد يهدد الإسلام عندما دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح، وظهروا في البحار الجنوبية. ففي ٢٠ أيار مايو ١٤٩٨، ألقت سفن فاسكو دي غاما «Vasco de Gama» مراسيها في كلكوتا في الهند، بعد أن قصفت السفن المصرية الراسية عند أرصفتها. هكذا وجّهت البرتغال ضربة إلى قلب التجارة العربية مع الهند، حيث كانت تتشعب شرايين التجارة: واحدٌ إلى عدن وجدّة والسويس والقاهرة، وآخر إلى هرمز ثم إلى البصرة وعبرها إلى حلب وطرابزون. ولم يكن وضع المدن العربية التي تشكّل محطات تجارية على الشاطىء الشرقي لأفريقيا أقل خطراً.

ظهر البرتغاليون فجأة وتصرّفوا بقساوة ودون رحمة. وكانت صنوف التعذيب التي تعرض لها صيّادو الأسماك العُزّل من السلاح على أيدي فاسكو دي غاما، نموذجاً للإرهاب الصليبي الجماعي. ففي عام ١٥٠٠، أقدم كارال، أحد أميرالات ملك البرتغال، ودون سبب على

(٣) G. Hanotaux. «Histoire de la Nation égyptienne». T. 4. «L'Egypte arabe: de la conquête arabe à la conquêtte ottomane. par Gaston wiet». Paris 1931. p. 624.

تدمير عشر سفن مصرية في ميناء كلكوتا. وفي عام ١٥٠٢، استولى البرتغاليون على جنوب زنجبار وشنوا حرباً عنيفة على سواحل شبه الجزيرة العربية والهند وافريقيا الشرقية. وخلال سنوات ١٥٠٢ ـ ١٥٠٧ قام فاسكو دي غاما ودالبوكركي وغيرهما من مشاهير الأميرالات البرتغاليين باجتياح شواطىء المحيط الهندي فاستولوا على السفن التجارية وأحرقوها بمن عليها من الحجّاج المسلمين، فقُتل المئات وتشوّه الآلاف. كان البرتغاليون يجدعون أنوف السَّبايا من النساء دون رحمة، أما الرجال فكانوا يجدعون أنوفهم ويبترون أيديهم اليمنى. وفي عام ١٥٠٧، احتل «الفرنجة» جزيرة سوقطرة وظهروا في البحر الأحمر للمرة الأولى. وفي عُمان هاجم الفرنجة مدن قريات ومسقط وخورفاقان وأحرقوها وفرضوا الضرائب على هرمز.

خيم القلق على القاهرة فوجه السلطان قانصوه الغوري أسطول البحر الأحمر بكامله لمقاتلة أتباع ملك البرتغال الذي منحه البابا لقباً استعراضياً فأصبح «آمر الملاحة البحرية والفتوحات والتجارة لأثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد الفرس والهند». وفي آذار مارس ١٥٠٨، انهزم الأسطول البرتغالي بقيادة لورنزو دالميدا قرب شولابور إلى الجنوب من بومباي على يد الأسطول المصري بقيادة حسين مُشرف، وبمساعدة سفن حاكم ديو المملوك الروسي الأصل مالك عَيّاظ. غير أن الأسطول المصري ما لبث ان دُمِّرَ تماماً في معركة بحرية قرب ديو في ٣ شباط فبراير ١٥٠٩. وسيطر البرتغاليون على البحر العربي والخليج. وفي عام ١٥٠٩، دمَّرَ البرتغاليون قلحات في عُمان واجتاحوا سواحل ظفار. وفي عام ١٥١٥، أرغم حاكم هرمز على الاعتراف بسلطة البرتغال وتأييد توسعها في منطقة الخليج. وخضعت مناطق البحرين والقطيف وساحل الحسا بأسره لسلطة «الفرنجة» الذين أقاموا قلعة في مسقط عام ١٥٢٧،، ودعّموا سلطتهم على مناطق عُمان البحرية.

لكن البرتغاليين تكبّدوا هزائم متوالية في البحر الأحمر. ففي عام ١٥١٣، تمكّن المماليك من صد هجومهم على عدن وسواكن، فاكتفى البرتغاليون باحتلال جزر قمران التي انطلقوا منها لشن بعض غارات القرصنة. ومن الواضح أنهم لم يتمكنوا من تجميع قوة كافية لشن هجوم حاسم على مصر. ثم إن المماليك أعادوا بناء أسطول البحر الأحمر الذي وضع في عام ١٥١٥ تحت امرة الأميرال العثماني المحنَّك سلمان. كان هذيان دالبوكركي بتحويل مياه النيل وتحطيم مصر دون حرب مجرد أوهام، كذلك مخططاته لفتح الحجاز والديار الإسلامية المقدسة. ففي رأي دالبوكركي «ليس في جدّة ومكّة أناس مسلّحون، بل دراويش، أما بلاد القديس يوحنا فتعجُّ بالناس والخيول. وهل يستطيع ثلاثة آلافٍ من البدو ان يفعلوا شيئاً في مواجهة خمسمائة خيّال برتغالي؟ واذا كان الخمسمائة عدداً غير كافٍ فلنأخذ ألفاً. من السهل تدمير مكّة وأظنّها قد دُمّرت»[٤].

(٤) R. S. Whiteway. «The Rise of Portuguese Power in India, 1497 - 1550». New York 1969. p. 156.

بين كل تلك المخططات لم تكن واحدة ذات قيمة إلاّ فكرة إقامة تحالف بين دول الشرق المعادية لمصر المملوكية. أما تحالف مصر مع اثيوبيا المسيحية الضعيفة فلم يكن كافياً لحل أي مشكلة. وفي عام ١٥١٣، أرسل البرتغاليون بعثة إلى حاكم إيران اسماعيل شاه الذي عُرف بقسوته وتحدّيه للمسلمين السنّة. فاستند إلى دعم قبائل البدو في الشرق الأدنى لرفع راية التطرّف الشيعي، وتزعّم حركة القزل باشين، وهي طائفة شبه صوفية من المريدين أتباع الشيخ صفي الدين الأردبيلي المعروف (١٢٥٢ - ١٣٣٤)، جد اسماعيل شاه ووالد صفي الدين. وفي عام ١٥٠٢، استولى اسماعيل على تبريز وأقام فيها دولة شيعية قوية ضمّت إيران وآذربيجان والأناضول الشرقية. وفي عام ١٥٠٨، احتل بغداد وضم العراق إلى ممتلكاته وصَفّى دولة اكويونلو نهائياً. وفي علم ١٥١١، قام اتباع القزل باشين من أتباع اسماعيل الصفوي، وهم من غلاة الشيعة ويلبسون العمامة الحمراء على رؤوسهم، بانتفاضة في الأناضول الغربية في محاولة «للسيطرة على السلطنة العثمانية من الداخل»[٥].

أدّت أعمال الإرهاب الجماعي والفضائح التي اقترفها أتباع حركة القزل باشين ولا سيما زعيم انتفاضة الأناضول شاه قولو (أي عبد الملوك) - الذي اطلق عليه السنّة اسم شيطان قولو (أي عبد الشياطين) - إلى زرع الرعب والبغضاء في الوسط الإسلامي السنّي. فقام أنصار اسماعيل باشا بتدمير بعض المساجد واحراق القرى وهدم مقرات ومساكن الدراويش وأضرحة الأولياء...[٦].

قاد تطرف جماعة قزل باشي في الشرق المسلم إلى دوامة دموية من الحروب والانتفاضات المذهبية. ومنذ عام ١٥٠٢، وقفت مصر عند شفير الحرب مع الصفويين، وانتشرت الفوضى في القاهرة إثر هزيمة القوات الأوزبكية بقيادة شيباني خان قرب مروى عام ١٥١٠. وأصبحت مصر مهددة أن تجتاحها جحافل القزيل باشي، ثم نشبت معارك مسلحة على نهر الفرات عام ١٥١٢، فحبس سكان سوريا ومصر أنفاسهم لاحتمال نشوب حرب مع اسماعيل الذي كشف في حديث سري مع السفير البرتغالي عن مخططاته للاستيلاء على مكة واجتياح الأراضي العربية الخاضعة لسلطة المماليك[٧].

لم يعلم السلطان قانصوه الغوري بالمفاوضات الجارية بين إسماعيل الصفوي والبرتغاليين. لكن

---

(٥) Halil Inalcik. «The Ottoman Empire: The Classical Age 1300 - 1600». London 1973. p. 195.

(٦) حول هذه النقطة يراجع:

Demetrius Cantimir «Histoire de l'Empire Ottoman où se voyent les causes de son agrandissement et de sa décadence». Traduite en français par M. de Joncquières. 3 Tomes. Paris 1743. Voir T. 1. pp. 122 - 123. et T. 2. p. 176.

(٧) George Stipling «the Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574». Urbana - Illinois - 1942. p. 34.

المماليك أدركوا أن الخطر الآتي من الغرب والجنوب والشرق يقترب من القاهرة شيئاً فشيئاً. من غرناطة وفاس، ومن تونس واليمن، ومن كاليكوتا وكوتاك وغيرها من مدن ولاية غوجارات الهندية الإسلامية، ومن بغداد وحتى من جورجيا أخذ الرسل يتوافدون لطلب الحماية والمساعدة، وأضحى العالم الاسلامي بأسره في حالة من القلق الشديد بانتظار هجمات جديدة من «الفرنجة» وحركة قزل باشي. وفي سوريا ومصر ألقي القبض على عدد من الجواسيس الأجانب، كما اكتشفت رسائل موجهة من اسماعيل الصفوي إلى الغرب وإلى البندقية. وسارعت مصر إلى التسلح الكثيف وإلى تشكيل الجيوش القادرة على شن الحملات العسكرية، وتشييد القلاع وإعادة بناء الأسطول. وجرى البحث في كل مكان عن اختصاصيين لصناعة السلاح مع استمرار العمل بصب المدافع ليلاً نهاراً. وأخذ السلطان بنفسه يحضر عمليات تدريب الجنود على المدفعية ويفتش ترسانات الأسلحة وأحواض بناء السفن شخصياً.

تسلحت مصر جيداً، لكنها لم تبادر إلى شن الحرب. وعلى مدى قرابة مائة عام لم يصطدم المماليك بعدو قوي، فبدا وكأنهم نسوا تقاليد الحرب عموماً. وما لبث المحاربون المماليك أن بدأوا يرفضون الخدمة في القلاع النائية، ولا يشاركون في الحملات العسكرية الآ مكرهين، ويتمردون ويعيثون فساداً في شوارع القاهرة ودمشق وحلب، فخلق كل ذلك شعور فقدان الثقة بالنفس. ببساطة، كان المماليك يخشون البدء بالأعمال الحربية. ففي عام ١٥٠٣، تهرّبوا من إعلان الحرب على البرتغال، وبعدها تهربوا من إعلان الحرب على الصفويين عام ١٥٠٩، ولم يتلق مسلمو إسبانيا وشمال افريقيا منهم غير التأكيدات الشفوية بالتضامن معهم. بل إن حكام ولاية غوجارات الهندية قرروا ألاّ يعتمدوا إلاّ على أنفسهم.

لم يشأ المماليك شن الحرب، ولذلك لم يتمكّنوا من تقديم أي مساعدة لضحايا حملات الفرنجة. أما تهديدات قايد باي وقانصوه الغوري بتدمير الكنائس وإقفال الأماكن المقدسة في وجه الحجاج الأوروبيين واضطهاد المسيحيين الشرقيين فبقيت دون تنفيذ. ولم تُؤدِّ بعثات فرامارو في عام ١٥٠٤، وتغري بردي عام ١٥٠٦ التي أرسلت إلى الغرب، إلى أي نتائج باستثناء مسألة افتداء الأسرى. وتم سجن التجار ورجال الدين الكاثوليك عام ١٥١٠ فناهز عددهم الألف رجل، وأقفلت كنيسة قبر السيد المسيح في كانون الثاني يناير ١٥١١. لكن ذلك لم يكن إلاّ تعبيراً عن السخط العاجز، ثم ما لبثت أن ألغيت بعد عام ونيف.

وفي عام ١٥١٢، استقبل المماليك رسلاً بعث بهم **اسماعيل** الصفوي وسط دهشة المسلمين السنّة.

انعدام مركز القيادة في العالم الاسلامي

أدّى عجز المماليك عن مواجهة حملات الفرنجة إلى تقويض زعامتهم نهائياً كحماة للإسلام. وبعد الانتصارات المدوية التي حققها صلاح الدين الأيوبي، على الصليبيين، وبعد صدّ غزو المغول وجحافل تيمورلنك، ادّعى حكّام مصر لأنفسهم دور الريادة في العالم الاسلامي، وحملوا لقب «حماة الإسلام والمسلمين»، واعتبروا دولتهم مركز الإسلام و «دار الخلافة» التي يحرسها الله. كما ارتدت نزعة التسلط لدى المماليك طابع الادعاء بإمامة المسلمين واعتبارهم المكمّلين الحقيقيين لرسالة النبي محمد. في هذا الصدد يشار إلى أن المدلول العام للخلافة وللسلطة العليا في الاسلام كان يتغير باستمرار، كما أظهرت أبحاث بارتولد [١] وهاملتون جيب [٢]. فمنذ عهد الأيوبيين على الأقل لم يعد السنّة عموماً يتفقون على مفهوم موحد للخلافة. يقول جيب: «لم تثبت نظرية وجود مذهب للخلافة، لا في مؤلفات رجال الفقه ولا في سيكولوجية الإسلام السنّة» [٣].

وعلى مدى أربعة قرون من الثالث عشر حتى السادس عشر ضمناً، لم تعد نظريات الأشعريين عن الخلافة، لا سيما نظرية الماوردي (٩٩١ ـ ١٠٥٨) ذات قيمة تذكر. ففي ذلك الحين سادت آراء الغزالي (١٠٥٩ ـ ١١١١) وابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) وجلال الدين الديواني

(١) بارتولد. «الخليفة والسلطان». مقالات، المجلد السادس، موسكو ١٩٦٦. ص ص ١٥ـ٧٨.

(٢) Hamilton Gibb. «Studies on the Civilisation of Islam». Boston 1962. pp. 141 - 150.

(٣) Ibid. p. 148.

(١٤٢٧ - ١٥٠١) الذين درسوا بأسلوب جديد مسألة السلطة العليا في الاسلام. كتب هاملتون جيب: « يمكن القول إنه اعتباراً من ذلك التاريخ سادت نظرية تقول إن الخلافة لم تدم إلاّ ثلاثين عاماً فقط، ظهرت بعدها الامامة التي أسبغت ألقابُ الخلافة عليها تعبيراً عن الولاء لها »[٤]. فاعتُبرت الإمامة بالتالي تجسيداً للسلطة العليا في الإسلام. ووفقاً لآراء العصر كانت الإمامة معقودة للحاكم المسلم الأقوى، أي للسلطان القادر على حماية الإسلام ضد اعتداءات الكفار. وكان السلطان بصفته الإمام أي الزعيم الديني الذي يمارس صلاحيات الزعيم الروحي والزمني للطائفة. واتصف الحكم بالورع والتقوى واعتبرت الامامة خلافةً في دولة إسلامية عادلة تسودها الشريعة، « وينفّذ الحاكم فيها شرع الله على الأرض » على حد تعبير. بارتولد[٥]. هكذا لم يتخذ مفهوم الخلافة مدلولاً حقوقياً بقدر ما اتخذ مفهوماً معنوياً. وانتشر إلى جانبه مفهوم الإمام العادل.

بذلك، فقد مصطلح « الخليفة » معناه كصاحب السلطة العليا، وأصبح لقب شرف يُسبَغُ على الحكام الأكثر جدارة به و « المعروفين بأنهم حماة الإسلام والشريعة ومناصري العلوم والفنون »[٦]. بهذا المعنى بالذات خُلعت ألقاب الخلفاء على عدد من الحكّام السنَّة مثل: تيمور (١٣٧٠ - ١٤٠٥) وابنه شخروخ (١٤٠٥ - ١٤٤٧) وسلاطين دلهي في الهند، والخان الأوزبكي الشيباني (توفي عام ١٥١٠) وغيرهم. كما أن السلاطين العثمانيين منذ عهد مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) حملوا ألقاب الخلفاء[٧] تبعاً للمحفوظات والوثائق التاريخية[٨].

لكن وجود عدد كبير نسبياً من الحكام المسلمين الأقوياء المستقلين الذين أضفوا على أنفسهم ألقاب الإمامة والخلافة، لم يعن أبداً غياب وحدة الأمة الاسلامية عن عقول المسلمين. فبغض النظر عن الحدود السياسية، كانت دار الإسلام تعتبر أيضاً واحدة موحّدة على الدوام. « حيثما حل المسلم المؤمن فيها، وجد عبادة الله ذاتها والصلوات ذاتها، ووجد قوانين متشابهة وعادات متماثلة »[٩]. فكان لا بد أن يكون لهذه الأمة الإسلامية الموحدة قائد ومرشد واحد يعتبر فوق كل الحكام المسلمين وأكثرهم نفوذاً، ويُعتَرَف بسلطته في المدينتين الإسلاميتين المقدستين مكة والمدينة. وكان على هذا الحاكم أن يمثل مصالح جميع المسلمين ويدافع عنها، ويقدم العون للحجّاج ويعتني بالمدن المقدسة، كما كان اسمه ينقش على النقود ويقدم له الدعاء في خطبة الجمعة. كان

---

(٤) Ibid. p. 145.

(٥) بارتولد، المرجع السابق. ص ٤٣.

(٦) المرجع ذاته. ص ٤٩.

(٧) Arnold Toynbee. «The Ottoman Empire's Place in World History. - The Ottoman State and Its Place in world History». Ed. by Kemal Karpat. Leiden 1974. p. 12.

(٨) H. Gibb. op. cit. pp. 146 - 147.

(٩) آدم ميتز. « النهضة الإسلامية ». مترجم عن الألمانية، موسكو ١٩٦٦. ص ١٤.

زعيم العالم الاسلامي يمتحن في اختبار قوة. فوضعه القيادي، كما يؤكد بارتولد «كان يتحدد بمقدار قوته وطبيعة حكمه»[١٠]. من دون ذلك لم تكن تعزز موقعه «مواصفات» أخرى بما في ذلك انتسابه إلى قبيلة قريش. منذ مطلع القرن الثالث عشر تبوأ حكّام مصر مركز القيادة في العالم الإسلامي فحملوا لقب «خليفة المسلمين» وارتبط اللقب بدمج «الإمامة» مع «الخلافة»[١١]. وأشرفوا على الحج وحموا المدن المقدسة، وكان لهم وحدهم حق إعداد المحمل ونقله وعلى متنه غطاء الكعبة المقدس، وهو رمز الزعامة في الإسلام في القرون الوسطى. ثم ترسّخت خلافتهم هذه بعد حصولهم على لقب خاص أسبغوه على أنفسهم هو: «خادم الحرمين الشريفين» وكان أول من اتخذ لنفسه هذا اللقب صلاح الدين الأيوبي أثناء صراعه مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله[١٢]. وتبيّن منذ البداية أن هذا اللقب يتعارض مع مقام الخليفة، فهو على الأقل مساوٍ له ويحمل معنى الأولوية الروحية في «دار الإسلام.».

أما دور السلاطين المماليك كزعماء دنيويين للمسلمين فتأكد بوجود القضاة الأربعة في القاهرة على أساس المذاهب السنيّة المعروفة، وكذلك التغطية الشرعية التي قدموها لأبناء الخلفاء العباسيين وأحفادهم الذين لجأوا إلى مصر. وخلافاً للرأي السائد، فإن الخلفاء العباسيين لم يكونوا يوماً قادة روحيين للعالم الإسلامي «كما كان بابا روما بالنسبة إلى أوروبا الكاثوليكية»[١٣]. ولم يسبق ان تزعم الخلفاء أي تنظيم روحي، ولا كانوا يتمتعون بأي صلاحيات دينية عموماً. وفي أفضل الحالات كانوا يقيمون الصلاة أمام المسلمين، فجسّدوا بذلك حقيقة مكانتهم فكانوا يحضرون الحفلات ويُحلّفون السلاطين الجدد ويهنئونهم كل شهر برفقة شيخ الإسلام. وبذلك كان الخلفاء العباسيون يرمزون إلى استمرار المبادىء العليا في الإسلام، ويؤكدون وحدانية مصر «كدار الخلافة» ويضفون نوعاً من الشرعية على نزعة الهيمنة عند المماليك.

لم يقلق سلاطين مصر أبداً وجود خلفاء آخرين ومنهم من كان من أصل قريشي، كما لم يقلقوا لاتخاذ حكام دول إسلامية صديقة لقب الخلافة. ومن الواضح أنهم كانوا يعلمون بأمر العبارة المكتوبة التي رفعت في مسجد المدينة أمام حجاج العالم قاطبة، لتكريم السلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) والتي جاء فيها: «مولانا أمير المؤمنين السلطان المالك المظفَّر»[١٤] فدبّت الغيرة الشديدة في نفوس المماليك وحصّنوا في مقابل ذلك حقّهم الحصري بألقاب «خليفة المسلمين» و«خادم الحرمين». ومن أجل الحفاظ على تلك الألقاب لم يأبه المماليك حتى لخطر

(١٠) بارتولد، المرجع السابق، صفحات ٤٣، ٥١، ٧٧.

(١١) بارتولد، المرجع السابق. ص ٧٧.

(١٢) **Bernard Lewis.** «Khadim al - Haramayn» - - In «The Encyclopedia of Islam». New Edition. Vol. IV. p. 899.

(١٣) بارتولد، المرجع السابق. ص ٣٥.

(١٤) H. Gibb. op. cit. p. 146.

نشوب نزاع مسلح. فروى الزهيري (١٣٧٢ ـ ١٤٦٨) معبّراً عن مصالح المماليك انه في حقيقة الأمر كان لقب سلطان هو أصلاً من حق حاكم مصر وحده والله هو الذي يُعيّنه. إنه الآن فوق كل الملوك وهو أكثرهم نبلاً وأجدرهم لتزعم الأولين والآخرين. وقد أكرمه أمير المؤمنين وفضّله فمنحه السلطنة بحق كما جاء في فتوى الأئمة الأربعة، الممثلين الرئيسيين للمذاهب الإسلامية الأربعة [١٥].

لكن ادعاء المماليك حقهم بالإمامة على العالم كله لم يَلقَ أي قبول جماعي. فقد عارض أقوى الحكام المسلمين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر زعامة المماليك بما في ذلك حقهم في حماية المدن المقدسة. وكان ذلك سبباً لنشوب نزاعات مسلحة كثيرة مرتبطة بقضية إرسال الغطاء المقدس للكعبة. في حقيقة الأمر كان ذلك صراعاً على الزعامة في العالم الاسلامي. فتيمورلنك الذي عرف بقسوته و «المنتقم للجرائم التي تقترف ضد الدين» [١٦]. وابنه شخروخ وعدد كبير من السلاطين من السلالة التركمانية قارا قويونلو، واقويونلو لم يعترفوا بالأولوية الدينية لمصر. فشنّ شخروخ عام ١٤٢٩ وفي أعوام ١٤٣٥ و ١٤٣٦ و ١٤٤٣ وأوزون حسن (حاكم إيران من سلالة اقّويونلو) في عام ١٤٧٢، هجمات عنيفة على المماليك، وأعلنوا حقهم في حماية المدن المقدسة. وكان أيٌّ من هذه الادعاءات كافياً ليشكل تهديداً بالحرب. يقول بارتولد: «غير أن الوضع المميَّز الذي تمتع به سلاطين مصر كحُماة للمدن المقدسة ظل ثابتاً لمدة طويلة، ولم يهتز لا على يد «الخليفة» تيمور أو شخروخ أو خلفائها، ولا على يد تركمان «الخروف الأسود» او تركمان «الخروف الأبيض» [١٧] اللذين جاءا بعدهم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

ثم تبدل الوضع في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر. فقد ظهر عجز المماليك عن مواجهة أوروبا الغربية، وأضحى «خليفة المسلمين» غير قادر على حماية أرواح المسلمين وممتلكاتهم ولا على حماية الدين نفسه لم يعد «خليفة المسلمين» حامياً للمدن المقدسة وقادراً على ضمان سلامة الحج، إذ وقع مئات الحجاج في أسر البرتغاليين، وسقط آخرون ضحية لهجمات البدو خلال انتفاضة الحجاز (١٥٠٢ ـ ١٥٠٨).

في عام ١٥٠٣، تعرضت مكة لاجتياح ثم تدمير شبهه معاصرو الأحداث بغزوات القرامطة. وفي عام ١٥٠٦ أوقف الحج بصورة مؤقتة لأول مرة في عهد المماليك، فاهتز العالم الإسلامي. وبرز السؤال من جديد وبحدة أكبر: من الذي ينبغي ان يكون خليفة المسلمين وقائد العالم الاسلامي في ذلك العصر؟

---

(١٥) بارتولد، المرجع السابق. ص ٤١.
(١٦) المرجع نفسه. ص ٤٧.
(١٧) بارتولد، المرجع السابق. ص ٥٢.

مظاهر الانحلال الاجتماعي

ظل المماليك على مدى ثلاثة قرون يعتبرون دولتهم « طرازاً نموذجياً للمجتمع المسلم العادل المحافظ على مبادىء الشريعة بحذافيرها على حد تعبير علماء الدين المماليك ، فقد رفض ذلك المجتمع كل البدع وسادت فيه التقوى والإيمان الحقيقي واحتضن علماء الدين والخلفاء العباسيين الشرعيين والعادلين الذين « محضهم الشعب محبته باستمرار » فأشار السيوطي (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) إلى وجود ملوك في مختلف أنحاء العالم كبلاد الفرس والعراق وروما والمغرب يملكون جيوشاً وقوات أكبر مما لدى ملوك مصر ، لكنهم يفتقرون إلى ما في مصر من إيمان والتزام بمبادىء الإسلام وانتشار الحديث والسنة والعلم ، بل ان كل أنواع البدع تنشط علناً في هذه البلدان [١] .

لكن واقع الأمر كان بعيداً كل البعد عن الصورة التي رسمها السيوطي . إذ إن معظم المسلمين كانوا يجاهرون أن مصر أصبحت بلداً لا يطبق مبادىء الشرع الإسلامي . وبحماس ظاهر كتب ابو المحاسن بن تغرى بردي (١٤١١ ـ ١٤٧٠) : « قيل عن مصر ان قاضيها مسلم حديث العهد وشيخها مسيحي وحاجّها جاسوس » [٢] . اما الوافدون الأجانب فقد راعهم جشع الجنود المصريين والموظفين المأجورين وركض الجميع وراء الكسب السهل . وأصبح غياب العدالة عن المحاكم مجالاً لحديث الناس . واقترنت سمعة كبار القضاة ومساعديهم الكثر بصفة رجال يقبضون أجرهم . لم يعد

(١) بارتولد ، « الخليفة والسلطان » ص ٤٢ .

(٢) G. Hanotaux., op. cit. p. 570.

القضاء في نظر الناس منزهاً عن الرشوة. حتى أن ابن أياس وصف الخلفاء العباسيين في عهودهم الأخيرة بالسُّخفاء الدساسين الضيقي الأفق، وقال إنهم أخذوا يميلون إلى ممارسة أتفه أنواع الاحتيال والتزلُّف أمام السلطات. من أعلى المراتب حتى أسفلها كان الجميع يتسابقون على سرقة أموال الخزينة وممتلكات الأوقاف، ويسرفون في تعاطي الخمر والحشيش في كل مكان. وحدث مرة أن السلطان قانصوه الغوري نفسه اتهمَ مساعدين لكبار القضاة بتعاطي الخمر وممارسة الفسق والفجور واختلاس ممتلكات الأوقاف. وفي عام ١٥١٣، أمر السلطان قانصوه بإلقاء القبض على الفقهاء السكارى على قارعة الطريق وإنزال العقاب الصارم بهم (٣).

واستشرى الفساد بحيث أصبح وقفه ضرباً من المستحيل أما الدوائر الحاكمة التي أسكرتها أمجاد الماضي فقد استمرت بصورة عمياء، دون هاجس الدفاع عن المثل العليا التي فقدت منذ زمن طويل قوتها الحيوية وجاذبيتها. أصبحت الدوائر الحاكمة عاجزة عن الإبداع واتخاذ القرارات الجريئة لحل أي مشكلة قائمة. وفقد الحكام «سلطتهم السحرية» (٤) على الجماهير، فخسروا بالتالي نفوذهم الاجتماعي وهيبتهم المعنوية وتأثيرهم الفعّال على مختلف فئات المجتمع على حد تعبير توينبي.

كَرِهَ الشعب حكامه، وأخذ بسطاء الناس في المشرق العربي ومغربه يعتبرون وكأن الشريعة طُويت، ولم يعد للحق والعدل مكان في دار الإسلام. وساد في أوساط القواعد الشعبية اعتقاد أن المسلمين اضحوا بلا خليفة، وأصبح الخلفاء العباسيون القاطنون في مصر «اسماً بلا مُسمَّى» (٥) على حد تعبير قطب الدين المكّي (١٥١١ - ١٥٨٢) واعتبرت الجماهير الشعبية أن حكامها ضلّوا السبيل، فكتب حسن الوزّان الزياتي أو ليون الأفريقي (١٤٨٩ - ١٥٥٤) عام ١٥٢٦: «منذ ان اختفى حماة المقام المقدس، لجأ الحكام إلى ممارسة الظلم فلم يكفهم اغتصاب أموال الدولة وانفاقها بكاملها وفقاً لأهوائهم، وانما فرضوا ضرائب جديدة حتى أصبح من النادر أن تعثر في افريقيا كلها على فلاح يستطيع توفير ما يحتاجه من لباس وسبل عيش» (٦). أضاف حسن الوزان أنه ينبغي على الحكام المسلمين الأتقياء العادلين الاهتمام بالشعب وعدم جباية الضرائب إلاّ تلك التي يقرر الشرع جبايتها وإنفاقها للصالح العام، ولا سيما لمساعدة الفقراء والمرضى والأرامل ومحاربة الكفر (٧). ويعتقد المسلمون المؤمنون أن السلاطين المصريين والمغاربة نسوا تلك الوصايا فتحولوا إلى مغتصبين للسلطة وطغاة. من أقوال حسن الوزّان كذلك أن بين جميع حكام افريقيا لم

---

(٣) ابن أياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور». القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢، المجلد الرابع. ص ٣٤٣ و ٣٤٧.

(٤) A. Toynbee «A Study of History». Vol. 4. p. 5.

(٥) بارتولد، المرجع السابق. ص ٤٢.

(٦) Jean-Léon l'Africain «Description de l'Afrique». Tome I. Paris 1956. p. 239.

(٧) Ibid. p. 238.

يرتق ملك أو أمير الحكم بطريق الانتخاب من قبل الشعب ولا اختاره شعب أي مقاطعة أو مدينة. وليس لأي حاكم، باستثناء الخليفة، ان يدّعي لنفسه الشرعية طبقاً لوصايا النبي محمد (٨).

انتشر الجوع والتسول في جميع البلدان العربية، ففي القاهرة، المدينة العظيمة أصبح فقدان المواد الغذائية ظاهرة مستديمة. هذه المدينة التي كان يبلغ اتساعها آنذاك ثلاثة اضعاف مساحة مدينة باريس، غصّت بالمتسولين والكسحاء والمقعدين ومتعاطي المخدرات والبغايا. وشكلت مظاهر الأبّهة والبذخ الشرقي في أوساط أعيان المماليك تحدياً صارخاً للجماهير الفقيرة. وثار المسلمون المؤمنون بمواجهة الترف والأبهة الصارخة في بلاط السلطان . وأخذ سكان القاهرة يرددون بتهكم كيف أن طعام العبيد السابقين لا يُحضَّرُ إلاّ في آنية ذهبية. وتعرض الناس بالنقد اللاذع للمغنين والندماء والشعراء والموسيقيين الذين كانوا يتقاطرون زرافات ووحداناً على أبواب القصور ليتنعَّموا بمال الأيتام والمساكين (٩).

ابتعد المؤمنون الصالحون عن الحكام لأنهم حادوا عن طريق الله. ويرى حسن الوزّان أن الناس الصالحين الذين كانوا يتمتعون بسمعة حميدة ومنزلة محترمة في المجتمع كانوا يخجلون من طلب العمل في بلاطات الحكام، بل يرفضون تزويج بناتهم لأهل البلاط (١٠). حصل انحلال في المجتمع لم يسبق له مثيل. وبات من الصعب تصور انحطاط اجتماعي أكثر عمقاً من ذاك الذي أصاب العالم العربي في أواخر القرن الخامس عشر. فقد انفضّت كل فئات الشعب عن الحكومة، وفقد مسلمو شمالي افريقيا الإيمان بزعمائهم الرسميين فأصبحوا ينظرون اليهم نظرتهم إلى مغتصبين ومستهترين فاسقين. واعتبرت ممارسة السلطة عاراً وأصحابها بلاءً قاتلاً على كل ذي خلق حميد يتعامل معهم. فأكد حسن الوزّان: «تبين هذه الحالة التي آلت اليها الأمور ان ما من إنسان شريف او متعلم كان يقبل بإقامة علاقة نسب مع الحكام الدنيويين أو الجلوس معهم إلى طاولة واحدة، ومن باب أولى قبول الهدايا أو الهبات منهم. بل أن كل إنسان شريف كان يعتبر ملكية هؤلاء السادة أكثر قذارة من المسروقات» (١١). تلك كانت مشاعر الاستياء التي عمت سوريا ومصر آنذاك، والتي وصفها عبد الوهاب الشعراني (١٤٩٣ ـ ١٥٦٥) الصوفي المصري الذي كان يتمتع بحب كبير لدى الشعب، بقوله: إذا تسلَّمَ إنسان طعاماً أو شراباً من آخرين فليتأكَّد أن هؤلاء الناس قد حصلوا على ذلك الطعام أو المال بطريق مشروعة (١٢). كما أوصى بالتعامل بحذر شديد مع الطعام الذي

(٨) Ibid. p. 235.

(٩) William Muir «The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt» London 1898. p. 190.

(١٠) J. L. L'Africain. op. cit. T. 1. p. 235.

(١١) J. L. l'Africain. op. cit. p. 239.

(١٢) أ. شميدت. «عبد الوهاب الشعراني وكتاب الدر المنثور». سان بطرسبرغ ١٩١٤. ص ١٧٠.

يقدمه المارقون والموظفون الحكوميون ومن شابهم[١٣].

في مواجهة أولئك الحكام الفاسدين الذين تلطخت صورتهم بالمفاسد تفجرت مشاعر الحنين إلى خليفة إسلامي حقيقي يقيم دولة «العدل» بعد استفحال دولة الجور.

وفي ظروف الانحطاط العام أصبحت التربة صالحة لانتشار التصوُّف الذي تحول إلى نوع ساذج من الإيمان بالمعجزات ومجيء المنقذ أو المهدي المنتظر.

(١٣) المرجع ذاته. ص ١٧١.

الحنين إلى العثمانيين

بدأت أنظار المسلمين الذين طالت معاناتهم تتجه تدريجياً نحو القوة المتنامية «للخلافة الاسلامية في الشرق» [(١)] والتي تجسدت في الدولة العثمانية التي «أرسلتها العناية الإلهية لإنقاذهم». كانت سمعة العثمانيين في الأوج عند مطالع القرن السادس عشر، ففي الشرق كما في الغرب على حد سواء ازداد الاعجاب بالعثمانيين ولا سيا في الأوساط الشعبية المضطَهَدة والمُستَغَلَّة. يقول اغاتانغيل كريمسكي إنه في شبه جزيرة البلقان والمجر وأوروبا الغربية وروسيا «برزت مجموعات كبيرة من الناس، كانت بأفكارها ومشاعرها، وبدرجات متفاوتة، لا تخاف غزوات العثمانيين وفتوحاتهم بل تدعو إليها صراحة» [(٢)].

في العالم العربي لوحظت ظاهرة مماثلة. ففي المغرب كان الفلاحون وسكان المدن يعتبرون العثمانيين حماةً ومنقذين. فقد رحّب المؤرخ التونسي ابن أبي دينار، وبفرح ظاهر، بكل انتصار يحققه الجيش العثماني [(٣)]. كذلك ورد في رواية «الغزوات» وهي ملحمة بطولية عن مآثر الأخوة بربروسّا لمؤلف مجهول في القرن السادس عشر، وفي الأغنيات الشعبية

(١) Hassan Husni Abdul Wahab «Coup dœil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie» في «Receuil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie». Préparé par Miguel de Epalza et Ramon Petit. Madrid - Tunis 1973. p. 123.

(٢) أ. كريمسكي. حول «محبة العثمانيين في أوروبا وروسيا الموسكوفية في القرن السادس عشر» ملحق بكتاب «تركيا وآدابها». موسكو ١٩١٠، ص ١٥١.

(٣) Ahmed Abdesselem. «Les historiens tunisiens des XVII ème, XVIII ème et XIX ème siècles - Essai d'Histoire culturelle». Paris 1973. p. 164

القبلية وصفٌ للعثمانيين باعتبارهم المدافعين عن بُسطاء الناس، وأنهم محاربون بواسل وبارعون يستبسلون في مقاتلة أعداء الإسلام. وفي التراث القبلي، كان اسم «التركي» يذكر مقروناً بأعلى درجات المديح والثناء. وسادت المشاعر ذاتها في الشرق، ولا سيما في مصر. ومع مرور الزمن اكتسبت هذه المشاعر طبيعة التقليد الغريزي المتجذّر عميقاً في إدراك أجيال كثيرة. حتى أن المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ - ١٨٢٥) الذي كان يكنّ للعثمانيين كراهية عميقة، أعرب عن احترامه لهذا التقليد، وصف كيف كان العثمانيون في بدايات حكمهم أفضل من قاد الأمة بعد الخلفاء الذين سلكوا الصراط المستقيم [٤].

نشأ الحنين إلى العثمانيين في العالم العربي وأوروبا على أساس المبالغة في تصوُّر الكمال لدى الأنظمة العثمانية. ورأى الشعب في قدوم العثمانيين المنتظر نهاية لكل الشرور والعيوب التي يعانيها المجتمع العربي الشرقي الإقطاعي. وخلافاً للحكام، اعتبر الشعب العثمانيين أنصاراً للحق والعدل وحماةً للشريعة، وأن الله يمنحهم النصر من عنده. فاحتلال القسطنطينية في عام ١٤٥٣، والانتصارات اللاحقة التي أحرزها العثمانيون، كل ذلك لم تجد تفسيراً لها إلاّ كونها من صنع الله، وهو الذي ينصر الجيش العثماني. كتب كانتيمير (١٦٧٣ - ١٧٢٣): «إن العثمانيين يعتبرون العناية الإلهية المصدر الوحيد للنصر، ولا يعيرون اهتماماً لعدد الناس أو مهارتهم أو شجاعتهم [٥]. كان الكثيرون، بل الأكثرية، على قناعة أن العثمانيين تحميهم العناية الإلهية، وفي أحيان عدة كان البسطاء يعتبرونهم أداة مرسلة منها. عشية الاحتلال العثماني كثر الحديث في القاهرة عن التكهنات والأحلام والرؤى التي تنذر بهلاك سلطة المماليك. ومن الأقوال الشعبية ان سيدي محرز نفسه هو الذي طلب احتلال تونس في عام ١٥٧٤، وسيدي محرز هو الشفيع الذي كان يحمي مدينة تونس والذي رآه سليم الثاني في منامه،... وهلم جرا [٦].

اعتبرت انتصارات العثمانيين في أوروبا عقاباً من الله وانتقاماً من الحكام الظالمين. حتى ان ابن إياس (١٤٤٨ - ١٥٢٤) المتحدر من أرستقراطية المماليك العليا لخص روايته عن معركة مرج دابق في عام ١٥١٦، معتبراً أن ما حدث كان مقدراً. إذ لا السلطان ولا نوابه أظهروا انصافاً أو عدلاً في رعاية شؤون المسلمين، فنالوا جزاء أفعالهم ونواياهم، والله العلي وهب سلطانهم لبني عثمان، لكي يحصل لهم ما حصل [٧].

---

(٤) عبد الرحمن الجبرتي. «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». المجلد الأول. القاهرة ١٨٧٩. ص ٢١.

(٥) D. Cantimir. op. cit. T. 1. p. 270.

(٦) Taoufik Bachrouch. «Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII ème siècle». Tunis 1977. p. 10

(٧) ابن أياس، المجلد الخامس. ص ٧٣.

هكذا ساد اعتقاد أن الأتراك العثمانيين يؤدون رسالة إلهية معينة، لاسيما في مضمار معاقبة الأشرار ونشر العدالة. وانتشرت الأساطير الخيالية عن محبة الشعوب للعثمانيين. ويمكن إلى حدٍّ ما تبيُّنُ ذلك في أدبيات الحنين إلى العثمانيين التي صدرت في أوروبا. ففي رواية درامية تحمل اسم « التركي » لمؤلفها روزنبلوت من القرن الخامس عشر نقرأ ان « التركي » يدافع عن التجار والفلاحين « الذين يُسامون أشد أنواع العذاب ». والتركي يقف بثبات إلى جانب المساكين والفقراء الذين يُطعمون السادة الأغنياء بعملهم ولا يحصلون لقاء ذلك الاّ على المزيد من المتاعب[٨]. هذا « التركي » وعد بإصلاح العالم الأرستقراطي ومعاقبته. وفي مؤلفات إي. س. بيريسنيتوف الذي كان إلى جانب س. كامبانيلاّ (١٥٦٨ ـ ١٦٣٩) من أشد محبّي العثمانيين حماساً في أوروبا، وُصِفَ محمد الثاني أنه يمثل نموذج الملك الذي أنزل عقاباً قاسياً بأصحاب المقامات الكبيرة الكفرة، ولكنه بقسوته عليهم كان ينشر العدل في أرضه[٩]. ويتحدث إي. س. بيريسنيتوف بإعجاب كيف ان السلطان محمد الثاني حَكَم على القُضاة الظالمين « بسلخ جلودهم » وان تُنقشَ على أجسادهم العبارة التالية: « من دون مثل هذا العقاب لا يتم نشر العدالة في الدولة »[١٠].

واكَبَ خرافة الحب الشعبي للعثمانيين الذين خاضوا حرباً لا هوادة فيها ضد الأمراء والنبلاء وغيرهم من المستبدين، وهمٌ جامح عن كمال المجتمع العثماني والدولة العثمانية. يؤكد د. ن. يغوروف أنه ساد وهم عن الكمال في كل شيء: الحياة والأخلاق والعادات والقوانين والنظام السياسي بأسره[١١]. وصُوِّرت دولة العثمانيين أنها وحدها « البلد السعيد العادل »[١٢] حيث لا نزاعات اجتماعية بين السكان »[١٣]. وليس صدفة أن الفيلسوف الطوباوي الاجتماعي ت. كامبانيلاً كان ينصح بالاقتداء بالمسلمين وتطبيق عدد من الاصلاحات على غرار النمط التركي. كما أن التطلع إلى إعادة بناء المجتمع وفقاً للنموذج العثماني ظهر جلياً في مشاريع ألبيرغاتي و ل. تسوكّولو وغيرهما من الطوباويين الإيطاليين في القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر[١٤].

كانت الجماهير الشعبية ربما في معظم دول أوروبا الفيودالية ولاسيما بين الفلاحين تنتظر مقدم

(٨) كريمسكي « محبة العثمانيين ». ص ١٥٧.
(٩) بيريسفيتوف « مقالات »، موسكو ـ لينينغراد ١٩٥٦، ص ١٥٣.
(١٠) كريمسكي « المرجع السابق. ص ١٦٠.
(١١) يغوروف « فكرة الاصلاحية التركية في القرن السادس عشر » في « الفكر الروسي » رقم ٧ لعام ١٩٠٧، الجزء الحادي عشر. ص ٦٠.
(١٢) يغوروف، المرجع السابق. ص ٩.
(١٣) كريمسكي، المرجع السابق. ص ١٥٧.
(١٤) يغوروف، المرجع السابق. ص ١٠.

العثمانيين، وتعلق عليهم آمالها بالتخلص من سلطة الفيوداليين. كتب م. لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦): « يطالب الكثيرون بقدوم العثمانيين وحكمهم »[١٥]. وأشار في مكان آخر: « سمعت أن بعض الناس على الأراضي الألمانية يرغب بمجيء العثمانيين وحكمهم، ويتوق إلى أن تكون الحياة تحت حكم العثمانيين أفضل منها تحت حكم الأمبراطور والأمراء »[١٦]. وانتشرت الرغبة « بالحياة تحت حكم العثمانيين » كذلك بين السكان الأرثوذكس في ريتشي بوسبوليتا وبخاصة في أوكرانيا[١٧] وفي عدد كبير من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

تبرز الأدبيات الأوروبية المتعاطفة مع العثمانيين في القرن السادس عشر تصوراً ملموساً يحدد ما قصده ابن أياس عن انتشار شائعات في مصر عن العدل الفائق الذي تميّز به بنو عثمان[١٨]. ويتضح من ذلك لماذا رغب فلاحو أراضي حلب وغيرها من مناطق سوريا بإقامة السلطة العثمانية مع إظهار الميل نحو بني عثمان بسبب معاملتهم العادلة للرعية[١٩]. وما وصل من أخبار العثمانيين حتى شواطىء الراين وضواحي موسكو لم يكن سهلاً اخفاؤه داخل العالم العربي. وليس صدفة أن تظهر منشورات تمجد العثمانيين في مكة والقاهرة، وورد فيها ان السلطان المملوكي ليس مسلماً وليس في قلبه ذرة من الإيمان[٢٠].

ثمة عنصر لا يقل أهمية عن خرافة الحنين إلى العثمانيين في القرن السادس عشر، يتلخص في أسطورة التسامح العثماني في الدين. ولم يكن ذلك في الواقع إلاّ محاولة من قبل العثمانيين للاستفادة من الحركات المناهضة للفيودالية والكنيسة الكاثوليكية في أوروبا لمصلحتهم. فقد أخذ العثمانيون، خلافاً للمماليك، يتدخلون بنشاط في شؤون أوروبا في محاولة لكسب مختلف القوى المناهضة لحكوماتها إلى جانبهم.

وفي العالم الأرثوذكسي، لا سيا في أوكرانيا والمناطق السلافية الجنوبية، ورغم المعارضة العنيفة التي أبداها مكسيم غريك (١٤٧٥ ـ ١٥٥٦)، اتسع انتشار خرافة العقيدة الأرثوذكسية المحظوظة داخل السلطة العثمانية. وفي أوساط الطوائف الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع

(١٥) تشيكوليني « الأخبار الاجتماعية والسياسية للطوباوي الايطالي في القرن السابع عشر، لودفيكو تسوكولو » كييف ١٩٧٣. ص ٢٧ وما يليها. أنظر أيضاً: تشيكوليني « فكرة توزيع الممتلكات والمساواة الاجتماعية في إيطاليا في القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر » كييف ١٩٧٧. ص ٣٥-٣٦.

(١٦) يغوروف، المرجع السابق. ص ٦.

(١٧) كريمسكي « محبة العثمانيين »، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(١٨) ابن أياس، المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ١٦٢.

(١٩) المصدر السابق، المجلد الرابع. ص ٤٦٣.

(٢٠) المصدر السابق، المجلد الرابع. ص ٢٨٢.

عشر لوحظت نشوة حقيقية في الدعوة إلى مجيء العثمانيين. وكاد يهود أوروبا يعتبرون السلطنة العثمانية جنة الله على الأرض[٢١]. وبعد مجمع لاتران الخامس (١٥١٢ ـ ١٥١٧) لعب الأتراك العثمانيون دور الحُماة النشطاء لحركة الإصلاح الديني، «فقد أيدوا زعماء الاصلاح البروتستانتية حيثما أمكنهم ذلك تأييداً كاملاً»[٢٢]. وفي رسائلهم (خطوط الهمايون وخطوط نامه) إلى الزعماء اللوثريين في فلاندرة وغيرها من المقاطعات الاسبانية شجب السلاطين العثمانيون الكاثوليكية التي «ترفض الإسلام كما ترفض اللوثرية» ودعوا زعماء الانتفاضة الهولندية لتنسيق أعمالهم مع مسلمي اسبانيا ومع كل الذين يقاتلون ضد «البابوية»[٢٣]. وفي اسطمبول أثارت ليلة بروتولاماوس عام ١٥٧٢ وحملة الملاحقة التي اندلعت في فرنسا ضد الهوغونيين (البروتستانت الفرنسيين) وضد مناصري العثمانيين استياءً جدّياً وسببت انهيار الحلف العسكري الفرنسي ـ العثماني.

في الشرق الأوسط حصل الاتراك العثمانيون على دعم الطائفة اليهودية ودعم المسيحيين الشرقيين ولا سيما الكنيستين الأرمنية الغريغوريانية والأرثوذكسية. وكان مسيحيو سوريا ومصر يعتبرون ان تخريب الكنيسة مسألة تثير اهتمام المماليك الذين نصّبوا عليهم «الملك غير الشرعي غفرائيل[٢٤]. زعماً عليهم.

في نهاية القرن السادس عشر ظل سائداً بين السكان الأرثوذكس اعتقاد أن المماليك «أكثر سوءاً من العثمانيين»[٢٥]. ولم يكن ذلك محض صدفة. فقد استطاع العثمانيون كسب الطوائف المسيحية في الشرق إلى جانبهم. في حين عمد المماليك إلى اتهام سليم الأول أنه يحمل «راية الإسلام المزيف» وأنه أدخل إلى دار الإسلام جحافل جيوشه الجرارة التي كان في عدادها «عدد كبير من المسيحيين الأرمن وغيرهم». ومن المعروف أيضاً أن اللغة السلافية كانت لغة الجزء الأكبر من الجيش العثماني[٢٦]. وكثيراً ما كان الفرسان (الخيالة) العثمانيون يحتفظون بعقيدتهم الأرثوذكسية.

وانتشرت في كل مكان أساطير كثيرة عن تسامح العثمانيين في الدين ومحبة الشعب لهم، فجذبت إليهم قلوب المضطهدين والبائسين فالعنصر الأهم «لبهاء الإسلام» العثماني كما سُمّي في روسيا[٢٧]

---

(٢١) كريمسكي «تاريخ تركيا وآدابها» ص ٢١٣.

(٢٢) C. M. Kortepeter. «Ottoman Imperialism during the Reformation. Europe and the Caucasus» New York. 1972. p. 241.

(٢٣) Andrew Hess. «The Moriscos. An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain». - The American Historical Review. Vol. LXXIV. 1968, No. 1. pp. 19 - 20.

(٢٤) ت. كروبينيكوف «رحلة إلى القدس ومصر وسيناء عام ١٨٥٣» بطرسبرغ ١٨٠٣. ص ٧٠.

(٢٥) Omer Lutfi Barkan «XV ème XVI inci asirlarda Osmanli imperator - lugunda zirai ekonominin hukuki ve mali esaslari». Cilt. I. Kanunlar. Istanbul 1945. p. 60.

(٢٦) بارتولد «الخليفة والسلطان...» ص ٦٠.

(٢٧) أ. غروموغلاسوف. «الإنشقاق الروسي والأرثوذكسية المسكونية». مجلة «البشارة الإلهية» نيسان ١٨٩٨. ص ٤٢.

كان أسطورة « جوهره الفلاحي ». فأصحاب المقامات الكبيرة من العثمانيين كانوا بأكثريتهم متحدرين من الفلاحين، فكانوا باستمرار وفي كل مكان يتباهون أنهم المدافعون عن مصالح كادحي الأرض البسطاء. وفي هذا الإطار لم يتوانوا عن مكافأة الأعمال النشيطة. فسليمان العظيم أو القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) مثلاً، كان يطالب باشاواته باجزال العطاء لرعايانا حتى يحسدهم فلاحو الإمارات المجاورة على قدرهم[٢٨]. وعندما دخل سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) مصر، وزع اللحم على الشعب وحرر الفلاحين وفقراء المدن من العمل الإلزامي لمصلحة الجيش، وألزمَ بذلك الأعيان والسكان الميسورين[٢٩]. وقد وقّع شعاره المنقوش عند مقياس مستوى ارتفاع مياه النيل قرب القاهرة بتواضع « خادم الفقراء سليم »[٣٠].

لقد تعمّد العثمانيون القسوة في قمع أي مظهر من مظاهر تجاهل عمل الفلاحين أو عدم احترامه. لذا قال جيورجيفتش انه خلال حملة الفرس في عام ١٥٣٣ شاهد فارساً مقطوع الرأس مع حصانه وخادمه، لأن الحصان تُرك من دون رباط، فدخل حقلاً وعاث فيه فساداً[٣١]. وبقسوة لا تقل عن ذلك نكّل العثمانيون بقبائل البدو الرحّل. فيرى باشروش أنه بهذه الطريقة دخل العامل العثماني في جذور التركيبة لأنماط الحياة وعرى تناقضاتها لكن كراهية العثمانيين للبدو لم تمنع تزايد المشاعر المؤيدة لهم بين الفلاحين العرب. أما محبة الفلاحين العرب للعثمانيين فأصبحت على الأقل تعادل تعلقهم بيداوتهم[٣٢].

كانت المراهنة على الوحدة مع جماهير الفلاحين وتأييدها لهم، أحد أهم الثوابت الواضحة في السياسة العثمانية في القرن السادس عشر فقد أعلن الوزير الأعظم محمد باشا سوغولو، على سبيل المثال، معارضته للحرب مع الصفويين في عام ١٥٧٨، فدغدغ بذلك مشاعر الفلاحين.

وذكر المؤرخ العثماني ابراهيم بيتشيوي (١٥٧٤ - ١٦٥٠) أن محمد باشا أعلن في احدى جلسات الديوان السلطاني أنه « سوف يعاني الفلاحون من أعمال الابتزاز والغزو التي سيقوم بها الجيش. حتى لو تم فتح بلاد الفرس فلن يوافق فلاحوها على الخضوع لسلطتنا »[٣٣].

أما في البلاد العربية فقد وقف الفلاحون إلى جانب العثمانيين. ومن الممكن التأكيد، أن

(٢٨) د. ي. يريميف. « أصل الأتراك: منشأهم والمراحل الأساسية لتاريخهم السلالي » موسكو ١٩٧١. ص ١٤٤.

(٢٩) ابن أياس، المرجع السابق، المجلد الخامس. ص ص ٢٩١ و ٢٠٥ وما بعدها.

(٣٠) Mouradgea Ohsson. «Tableau général de l'Empire ottoman». 3 tomes. Paris 1788 - 1790. Tome I. p. 282.

(٣١) A. Lybyer. «The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent». Cambridge 1913. p. 109.

(٣٢) T. Bachrouch. op. cit. p. 10.

(٣٣) C. M. Kortepeter. op. cit. p. 45.

الأغلبية الساحقة من الفلاحين العرب كانت تتوق لأن تصبح « تحت الحكم العثماني ». دون هذه الفرضية لا يمكن ان نفسر لماذا « خضع » فلاحو سوريا وفلسطين للعثمانيين ودعوا لهم في خطبة الجمعة (٣٤) حتى قبل بدء العمليات العسكرية، ولماذا ساعدوا العثمانيين على جر المدفعية ونقل الذخائر وغيرها عشية معركة مرج دابق، ومن دونها أيضاً من الصعب ان نفهم لماذا امتنع فلاحو مصر عن دفع الضرائب في أواخر عام ١٥١٦ ، ورحّبوا بسليم الأول (٣٥) عند وصول الجيوش العثمانية إلى بلادهم، ولماذا حفر فلاّحو تونس الخنادق للجيش العثماني وساعدوه على نقل الأثقال وتنفيذ المهمات، ولماذا أخذ فلاحو الجزائر ينخرطون في صفوف الجيش العثماني للتعويض عن خسائره البشرية فشكّلوا وحدات أساسية فيه.

وبالمقابل، كان ينظر إلى العثمانيين بعين ملؤها عدم الثقة والكراهية في أوساط البدو ولدى أبناء الطبقات الغنية والأوساط الحاكمة. هؤلاء وحدهم قاوموا العثمانيين وكانوا يكرهونهم فعلاً. وفي مواجهة الفئات العليا للمجتمع المملوكي التي اعتادت الترف والحياة المتأنقة، كان سليم الأول قاسياً جداً ولم يأمر بأي معاملة لطيفة تحمي كرامتهم الشخصية. وعندما استولى على مصر لم يقتف أثر السلاطين السابقين. ورأى ابن أياس أن النظام كان غريباً عليه وعلى وزرائه وأمرائه وجنوده. كلهم كانوا أوباشاً وأنذالاً، لا فرق عندهم بين الخادم والسيد (٣٦).

رغم هذا الموقف الفظ، فإن التحيّز للعثمانيين انعكس على مشاعر الطبقة الحاكمة، فدبّت في أوساطها الخلافات في الرأي إذ اعتبر الكثيرون من أفرادها أن الأتراك العثمانيين يدافعون عن الاسلام حقاً، وأنهم فعلاً أنصار العدالة والشريعة الحقة. فتولّد في قمة السلطة جو من عدم الثقة والتردد، وفقد الحكام إيمانهم بعدالة قضيتهم، مما أضعف مقاومتهم للعثمانيين.

(٣٤) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٤٦٣.
(٣٥) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص ١٤١.
(٣٦) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص ١٦٢.

أسباب النزاع بين العثمانيين والمماليك

يتشابه تاريخ كل من دولة المماليك والدولة العثمانية في وجوه كثيرة. ففي الدولتين سادت العلاقات التي تميَّز بها الإقطاع الشرقي، وكلتاهما مثّلتا ثيوقراطية[1] عسكرية عملت تحت راية الإسلام السني المؤمن. وعلى مدى فترة زمنية طويلة لم تنشأ بينهما أي خلافات سياسية أو عقائدية ولا حتى تنافس تجاري أو اقتصادي أو غيره. وحتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء لدار الإسلام، بينما خصصوا

---

(١) اصطلاح «تيوقراطية» لا ينبغي أبداً أن يؤخذ بمفهومه التقليدي الثابت الذي انتشر في الآونة الأخيرة، بل باعتباره شكلاً من أشكال الإدارة التي تعود فيها السلطة إلى رجل الدين أو للمؤسسة الدينية. صحيح أنه لا وجود للاكليروس في الإسلام لكن الدولة الإسلامية وحدها دون غيرها تجسد المدلول المباشر لهذا الاصطلاح تماماً وبدقة، وسعى إلى تطبيق «إرادة الله على الأرض». فالسلطة الشرعية الوحيدة في الإسلام هي السلطة التي تقوم على أساس تعاليم القرآن ووصايا النبي محمد رسول الله، أي انطلاقاً من السلطة الإلهية مباشرة. وتنص الشريعة أن الله هو المصدر الوحيد للسلطة العليا التي عليه تطبيق تعاليمه بدقة. ولأن الإسلام لا يفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية كان الحاكم المسلم يمارس الحكم على أساس تطبيق الشريعة، الأمر الذي اتخذ طابعاً دينياً واتخذ رأس الدولة طابع الزعيم الديني الأعلى.

ف. إيفانوف. «حول الخصائص البنيوية للاقطاع العربي العثماني». مجلة «شعوب آسيا وافريقيا» العدد الثالث ١٩٧٨. ص ٥٤-٦٦.

ـ أنظر أيضاً: بارغ، ي. تشيبرنياك. «المنطقة وموقعها من حيث التركيب الداخلي لأشكال التناقضات الطبقية ـ قضايا التكوين الاجتماعي ـ الاقتصادي». موسكو ١٩٧٥. ص ٤٠-٤٧.

ـ أنظر أيضاً: ف. غروخوفا. «بيزنطية ونموذج الاقطاع الأوروبي ـ «مدونات بيزنطية». المجلد الأربعون. موسكو ١٩٧٩. ص ٤-٨.

لأنفسهم دوراً متواضعاً هو دور « البكوات حماة الأطراف » الذين يدافعون عن الحدود العامة لدار الإسلام. أما المماليك، من ناحيتهم فقد ظلّوا ينظرون إلى تحركات العثمانيين كجزء من المسألة الاسلامية العامة. كما أن القاهرة اعتبرت الاستيلاء على القسطنطينية نصراً للمسلمين قاطبة.

بيد أن الوضع تغير جذرياً بعد عام ١٤٥٣. وكان تبادل البعثات والاحتفالات التي أقيمت بمناسبة الاستيلاء على القسطنطينية آخر مظهر من مظاهر الوفاق العثماني ـ المملوكي. فقد لاحظ حكام القاهرة بقلق شديد، أن دولة إسلامية قوية وديناميكية أخذت تنمو على حدودهم وتشق طريقها الخاص بها. ثم تزايد قلقهم عندما نشطت في اسطمبول (القسطنطينية)، العاصمة الجديدة للسلطنة العثمانية، المساعي لتغيير كل نظام العلاقات الذي أوجده الإسلام وكان له فيه دور القائد الموجه. ويؤكد مؤرخو المماليك أن « البكوات حماة الحدود »، وللمرة الأولى بدأوا يتكنّون بألقاب « الملوك » أو « السلاطين »[٢] بعد أن كانوا يكتفون بلقب « غازي » الذي يعني المكافح في سبيل العقيدة. على أن سلاطين المماليك كانوا في رسائلهم يطلقون عليهم ألقاب « أمير » أو « خوندكيار ».

ويؤكد ابن أياس ان محمداً الثاني كان أول زعيم في بني عثمان اتخذ لنفسه لقب « سلطان »[٣] وبدأ على الأقل يدّعي بمساواة نفسه بحكام مصر.

كان اتخاذ الألقاب السلطانية يرمز إلى تحول العثمانيين إلى سياسة الدولة العظمى. وكان المقصود بذلك تأكيد الدور العالمي الجديد للسلطنة العثمانية. فقدّم مناصرو فكرة الدولة العظمى السلطان محمد الثاني على انه الحاكم المسلم الأعظم بعد الخلفاء الراشدين الأربعة، أما هو فقد اعتبر نفسه وريث ملوك الروم البيزنطيين. وقد سمّاه أحد مادحيه من اليونانيين ويدعى جيورجي ترابيزونتس « أمبراطور الروم ». سعى محمد الثاني، كما يذكر المؤرخ التركي المعاصر خليل اينالجيك إلى الجمع بين التقاليد الإسلامية والتركية والبيزنطية في الزعامة الدنيوية وجعل اسطمبول العاصمة الجديدة للسلطنة ذات الامتداد الواسع[٤].

أدت سياسة الدولة العظمى التي انتهجها محمد الثاني إلى تدهور حاد في العلاقات العثمانية المملوكية. وأصبح الصراع على الهيمنة وبالدرجة الأولى على الأولوية في زعامة العالم الإسلامي، السبب الأساسي والرئيسي للنزاع العثماني ـ المملوكي. وتفاقمت العلاقات اكثر فأكثر إثر شائعات

---

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ٣٦٥.

(٣) المرجع ذاته، ص ٣٦٤.

(٤) H. Inalcik. «The Ottoman Empire: The Classical Age...». pp. 56-57.

تقول إن بني عثمان هم من أصل عربي، من قبيلة حجازية كانت تقطن وادي الصفرا [٥]. وبسبب انتشار محبة العثمانيين على نطاق واسع، تَهَدّدَ بناء المجتمع المملوكي بأسره. فقدم العثمانيون بديلاً موضوعياً للأزمة الخلقية والاجتماعية التي عصفت بالعالم العربي في القرن الخامس عشر. زد على ذلك ان العثمانيين باكتسابهم مشاعر الفلاحين أثاروا عداء الفئات العليا في المجتمع واضفوا على الصراع كله طابع التناقضات الطبقية.

وفي ظروف غياب خلافات أساسية ذات طبيعة قومية أو عرقية أو دينية متزمتة، اتخذت القضايا الثانوية المتنوعة بما في ذلك عادات الناس وتقاليدهم وأذواقهم، أهمية كبيرة كرموز للأطراف المتصارعة. ويكاد مؤرخو العصر المملوكي يجمعون على اتهام «أباطرة الروم» بالافراط في الصبر حيال مختلف أنواع بدَع الهرطقة. فقد حمى العثمانيون، في الواقع الدراويش الصوفيين، وحوّلوا طرق الدراويش إلى نظام عام في الحياة الدينية. لكن المماليك أنفسهم، أظهروا تسامحاً حيال الفرق الصوفية. فقد سمحوا، تحت ضغط الفئات الشعبية لمجموعات الدراويش بممارسة شعائرهم، وتقديم الاحترام لزعماء الفرق الصوفية لكن المماليك لم يتخلوا، بعض الأحيان، عن تصلبهم في بعض الأمور، فقد منعوا، حتى النهاية، تداول مؤلفات محي الدين بن العربي (١١٦٤ - ١٢٤٠) وهو الصوفي الأندلسي العظيم الذي كان له تأثير كبير على نشوء الفكر الاجتماعي العثماني وتطوره. فاذا كانت مؤلفاته قد أحرقت في القاهرة أو أغرقت في المياه، فقد حُفِظَت في أسطمبول وقونيه بإجلال وأعيد نسخها [٦]. وتمثل أول اختبار سافر للتنافس العثماني - المملوكي بفضيحة ديبلوماسية عام ١٤٦٣ عندما رفض السفير العثماني الانحناء لحاكم مصر. وفي عام ١٤٦٤ أدّى الصراع على السلطة في قونيه وقضية ميراث قرمان إلى أول صدام سياسي كبير. كما حدد الاستيلاء على قونيه وضم قرمان في عام ١٤٦٨ إلى الممتلكات العثمانية بداية لمواجهة واسعة. وتحولت الدول الاسلامية الفاصلة بين الفريقين، كدولة الرمضانيين الذين حكموا كيليكيا (آسيا الصغرى) ودولة القادريين الذين حكموا كابادوكيا (قيساريه)، إلى ساحة رئيسية للصراع بين الدولتين، فدعَّمت كل منهما المناصرين لها وأمدتهم بالمال والسلاح وأحياناً بالقوات المسلحة.

تحولت القاهرة واسطمبول إلى ملجأ سياسي لكل زعيم يفر من غضبة سلطات بلاده. وحصل عدد كبير من الزعماء اللاجئين على مساعدات للعمل ضد حكوماتهم. فتمكن العثمانيون من التحكُّم بالطرق التجارية وعلى مصادر المواد الخام الاستراتيجية البالغة الحيوية بالنسبة إلى المماليك، كأخشاب السفن مثلاً، فبذلوا جميع المحاولات لتقويض طاقة مصر العسكرية، ووضعوا العراقيل

(٥) A. Abdesselem. op. cit. p. 364.

(٦) أ. شميدت. «عبد الوهاب الشعراني وكتاب الدر المنثور»، ص ص ٢٠ - ٢١.

على طريق شراء المماليك الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر. وقد اعتبر د. كانتيمير ذلك أحد الأسباب الرئيسية للنّشاط العثماني في شبه جزيرة القرم والقفقاس بما في ذلك حملة العثمانيين على تشيركاسيا في عام ١٤٨٤ التي دُمِّرت خلالها كل المراكز الأساسية التي كانت تؤمّن الإمدادات البشرية للمماليك (٧).

ثم أدت الصدامات المسلحة (١٤٨٣ - ١٤٨٥) التي نشبت مع حاكم كابادوكيا علاء الدولة القادري الذي طلب مساعدة الجيوش العثمانية، في أول حرب عثمانية - مملوكية (١٤٨٦ - ١٤٩١)، فاستطاع المماليك إلحاق الهزيمة بالعثمانيين ثلاث مرات، إلاّ انهم لم يتمكنوا من إحراز نصر حاسم. وفي عام ١٤٩١، ونتيجة لوساطة تونس، عقدت اتفاقية سلام بينهما، وتخلّى العثمانيون عن مطالبهم في كابادوكيا وكيليكيا، اللتين تقرر اعتبارهما مشمولتين بحماية الحرمين الشريفين مكة والمدينة المقدستين، أي اعتبارهما في الواقع تحت حماية المماليك.

ظلت اتفاقية عام ١٤٩١ هشة للغاية، وتحت ستار علاقات السلام والإخلاص الظاهري استمر الصراع بين الدولتين دون انقطاع من ناحية، ومن ناحية أخرى اثار اتساع التعاطف مع العثمانيين وتدعيم الطاقة العسكرية «للدولة التي يحرسها الله»، كما سمّيت السلطنة العثمانية رسمياً، وتنامي هيبتها كحامية لجميع المسلمين، كل ذلك أثار قلقاً استثنائياً لدى المماليك. أما بلاغات البعثات العثمانية عن الانتصارات فاعتبرت في القاهرة ابرازاً لقوة الباب العالي المتعاظمة. وخلافاً للمماليك، طبق العثمانيون سياسة نشطة في أوروبا، فأخذوا يوسعون تدخلهم في الشؤون الأوروبية. ففي عام ١٤٨٠ استولوا على اوترانو مؤقتاً، ثم شجّعوا نابولي وميلانو في مقاومتها لفرنسا والبندقية التي كانت على علاقة تحالف وثيق مع مصر المملوكية. وفي أواخر القرن الخامس عشر بنى العثمانيون أسطولاً قوياً. وفي حرب ١٤٩٩ - ١٥٠٢ ضد البندقية، أظهر هذا الأسطول مزايا عسكرية لا بأس بها، وكفاءة عالية في مجابهة أفضل الأساطيل الأوروبية. فأخذت الطوائف الاسلامية، الواحدة تلو الأخرى تلتمس المساعدة والحماية لدى العثمانيين. وفي عام ١٤٨٥ وصلت إلى اسطمبول بعثة من غرناطة، وطلب المغاربة الإسبان من بايزيد الثاني «تقديم المساعدة لهم بوصفه حامياً للدين الإسلامي» (٨). فقرر الباب العالي تلبية الطلب. وفي صيف عام ١٤٨٦ أرسل الأسطول العثماني إلى غرب البحر الأبيض المتوسط، واجتاح البحارةُ العثمانيون بقيادة كمال علي باشا، وهو كمال ريّس الشهير، شواطىء إسبانيا وإيطاليا ومالطا. ومنذ ذلك التاريخ خاضت السفن الحربية العثمانية وبعض السفن التجارية حرباً متواصلة ضد القوات البحرية للدول الأوروبية المسيحية.

---

(٧) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 95.

(٨) Ibid. p. 96.

كان كل انتصار جديد للعثمانيين يعني هزيمة قاسية للمماليك، ويؤدي قبل كل شيء إلى الانتقاص من هيبتهم بصفتهم «سلاطين المسلمين». إلى ذلك، فإن عدواً مشتركاً لم يخفف مطلقاً من التناقضات بين الدولتين السنّيتين «الشقيقتين» اللتين كانت كل منهما تتصرف بمعزل عن الأخرى. فلم يقدم المماليك ولم يسعوا إلى تقديم أي مساعدة للعثمانيين في أوروبا وفي البحر الأبيض المتوسط. وقابلهم العثمانيون بالمثل. لكن بايزيد الثاني قدّم للقاهرة في عام ١٥١١، أي بعد معركة ديو المشؤومة بسنتين، كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر الحربية قدرت بثلاثمائة بندقية، وباروداً ونبالاً وألفي مجذاف وحبالاً ومراسي وغيرها لإعادة بناء أسطول البحر الأحمر المصري.

اتخذت علاقات الدولتين في الشرق الأدنى شكلاً أكثر غرابة. فقد رفض المماليك بعناد، بدءاً من عام ١٥٠٢، أي تعاون مع العثمانيين لمقاتلة الصفويين، حكام إيران، رغم عداوتهم لهم. كان العثمانيون في وضع أكثر حرجاً من المماليك وكان بإمكان هؤلاء أن يقدموا لهم مساعدة أكثر فاعلية. لكنهم، وفي تلك الفترة بالذات، قرروا تلقين حكام اسطمبول درساً لا ينسى. كان قانصوه الغوري، كزعيم للمسلمين السنّة، ملزماً أن يشن حملة ضد باشوات قيزيل. غير انه فضل اتخاذ موقف المراقب من بعيد وترك «الدولة التي يحرسها الله» وحيدة في مواجهة الصفويين.

ودون تبصر بنتائج ما يقوم به اسماعيل الصفوي من أعمال عدوانية متزايدة وعلاقات وطيدة مع البرتغاليين أراد المماليك تدبير استفزاز لإثارة صدام بين ايران وبين تركيا، لكي يتحطّم أحد العدوين بيد العدو الآخر، ثم يتقدم المماليك للقيام بدور منقذِ الإسلام السنّة وربما بدور وريث السلطنة العثمانية. وتدل مدونات ابن اياس أنه لم يكن يساورهم أي شك في قوتهم العسكرية الذاتية، وأن العثمانيين لن يتمكنوا من التغلب على الصفويين. فتحولت مسألة النزاع مع المتطرفين الشيعة إلى حجر عثرة بين الدولتين السنيتين. وتبيّن ان هذه المسألة هي القشة التي قصمت ظهر البعير في النزاعات العثمانية ـ المملوكية.

لقد اعتبرت سياسة المماليك تجاه اسطمبول مظهراً من مظاهر العداوة السافرة التي أضعفت مواقع المماليك في مصر، وقوّت المشاعر المعادية لهم في الأوساط العثمانية الحاكمة فأخذ الحكام العثمانيون يميلون تدريجياً إلى اعتبار المماليك عدوهم الرئيسي والأشد خطراً. هذه القوى بالذات وفي مقدمتها القوى الانكشارية، هي التي أوصلت إلى الحكم السلطان سليم الأول، الملقب بالرهيب، الذي اعتلى عرش السلطنة العثمانية في ٢٤ نيسان (ابريل) ١٥١٢.



حملة سليم الأول لضم سوريا وفلسطين

بدأ سليم الأول يستعد للحرب مباشرة بعد طرح مسألة من يستطيع ، بل من ينبغي أن يكـون الخليفة الحقيقي وزعيم دار الاسلام .

خلال فترة قصيرة تمكن سليم الأول من إنجاز الإصلاح العسكري ، وقمع تحركات باشاوات قيزيل داخل البلاد ، وتجهيز جيش جرّار . وفي أيار (مايو) ١٥١٤ بدأ هذا الجيش حملة ضد الصفويين . ووصلت في الوقت ذاته إلى القاهرة بعثة عثمانية كررت اقتراحها بعقد تحالف بين العثمانيين والمماليك لمحاربة اسماعيل الصفوي . لكن المماليك رفضوا الاقتراح ، وتمسكوا بسياستهم مع تفضيل اتخاذ موقف الانتظار . وفي العاشر من حزيران (يونيو) ١٥١٤ ، قرر المجلس العسكري في القاهرة إرسال قوة مراقبة عسكرية إلى حلب ، التي أثارت غضب الطرفين المتحاربين لكنها لم تلعب أي دور في تطور الأحداث .

نتيجة حياد مصر المراوغ ، وفشل الحملة الصليبية الأوروبية التي أجهضتها انتفاضة الفلاحين عام ١٥١٤ في هنغاريا ، نشأت ظروف مناسبة تماماً لتحقيق مخططات سليم الأول . وبفضل تفوق العثمانيين الملموس في مجال تنظيم الجيوش وتجهيزها التقني تقرر مصير الحملة سلفاً . في ٢٣ آب (اغسطس) ١٥١٤ نشبت معركة تشالديران ، فتكبّد جيش الصفويين هزيمة ساحقة ودخل سليم الأول تبريز عاصمة إيران الشيعية في ٥ أيلول (سبتمبر) من ذلك العام .

كانت هزيمة باشاوات قيزيل الذين فقدوا قرابة الـ (٥٠) ألف رجل [١] في مرج تشالديران ، مفاجأة غير منتظرة بالنسبة إلى المماليك على حد قول ابن اياس . وقد اهتزت القاهرة لهزيمة الصفـويين ولم يستطع حكام مصر إخفاء خيبة أملهم . وأمام دهشة العالم الاسلامي كله ، لم يبتهج المماليك لانتصار العثمانيين على باشاوات قيزيل .

كانت لمعركة تشالديران نتائج حاسمة على مصير المعركة المرتقبة مع المماليك . ففي ربيع عام ١٥١٥ وصلت إلى القاهرة تباشير الأنباء عن استعدادات العثمانيين العسكرية . فقد كان الجيش والأسطول العثمانيان يستعدان لشن حملة على مصر . وسيطر على اسطمبول جو محموم للحرب التي صورها العثمانيون ضد المماليك كما لو كانت واجباً على كل مسلم خوضها . كما أصدر علماء السلطنة العثمانية ثلاث فتاوى تضفي على الحرب طابع الجهاد الديني التحرري . فقد ورد في إحدى هذه الفتاوى أن المماليك خانوا الإسلام وأنهم يساعدون الكفّار . وأعلن مفتي اسطمبـول الأكبر : « أن من يساعد أعداء الله هو عدو الله أيضاً » [٢] . أما الهدف المعلن للحملة فهو تحرير المضطهدين وحماية المسلمين من العدو الخارجي .

كانت الجيوش العثمانية جيدة التسليح والتجهيز . ومنذ منتصف القرن الخامس عشر أخذت تطبق الأساليب التكتيكية التي أثبتت فعاليتهـا خلال حـروب الهوسيين (★) على يـد القـائـد التشيكـي يان جيجكا (١٣٧٨ - ١٤٢٤) . لجأت الجيوش العثمانية إلى تدعيم مواقعها بواسطة « قلاع » متحركة تشكّلت من عربات مربوطة بعضها بالبعض الآخر على غرار ما يفعل الغجر في مخيماتهم . وامتازت المعدّات المقاومة للخيالة كالشوكات الحديدية والخطّافـات الحديـديـة (الكلاليـب) المربوطة بالحبال ، بأهمية كبيرة في محاربة المماليك ، إذ كان الجنود العثمانيون يطلقون هذه الأدوات على فرسان المماليك المدججين بالسلاح ويلقونهم أرضاً . كان العثمانيون كذلك يمتلكون أفضل مدفعية في العالم آنذاك فقد استخدمت جيوش سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران . ورغم أن جنود الجيش العثماني كانوا ينتمون إلى مختلف القوميات والطوائف الدينية ، فقد عرف هذا الجيش بانضباطيته الجيّدة وتماسكه المعنوي . فقد كان الجيش العثماني يضم إلى جانب المسلمين عدداً كبيراً من المسيحيين ولا سيما من دول البلقان . كما أن الحديث باللغات السلافية ، كما قال ب . جوفيو كان يتردد في معظم قطعات الجيش العثماني [٣]

---

(١) ابن أياس ، المصدر السابق ، المجلد الخامس . ص ٣٦١ .

(٢) بارتولد « الخليفة والسلطان » . ص ٦٠ .

(★) حروب الهوسيين (١٤١٩ - ١٤٣٤) حرب تحررية وطنية بارزة فلاحية بشكل رئيسي ، معادية للاقطاع والكاثوليكية في تشيكوسلوفاكيا ، بدأت بعد إعدام يوحنا هوس أحد زعماء انتفاضة الحرفيين في براغ عام ١٤١٩ - المترجم .

(٣) بارتولد « الخليفة والسلطان... » . ص ٦١ .

الذي ضم أيضاً عدداً كبيراً من الجنود الأرمن واليونانيين. لكن السمة الأكثر أهمية التي جمعت بين هؤلاء تكمن في منشئهم الفلاحي. ثم انهم جميعاً، وعلى حد سواء، حملوا مشاعر الكراهية للماليك واعتبروهم خاملين انغمسوا في ملذات الحياة في المدن، كما قال سليم الأول، ولم تقرع آذانهم طبول الحرب منذ زمن بعيد (٤).

في شباط فبراير ١٥١٥، شن العثمانيون هجوماً على كابادوكيا فقضوا على جيوشها قبل حلول شهر أيار (مايو)، وقبضوا على حاكمها علاء الدولة القادري المشمول بحماية المماليك، فقطعوا رأسه وأرسلوه إلى القاهرة في تموز (يوليو) ١٥١٥. كان ذلك تحدّياً سافراً لكنه في الواقع كان إعلاناً للحرب. بيد أن المماليك لم يستجيبوا للتحدّي وعملوا ما بوسعهم لتسوية النزاع «بطريق المفاوضات». ومن الملفت للنظر أن مجلس المماليك الذي اعتاد الانعقاد عند ورود أي خبر جديد عن استفزازات سليم الأول، لم يتفق على إصدار أي قرار.

عكست الخلافات المستشرية في أوساط زعماء المماليك الحالة السياسية والنفسية العصيبة التي عصفت بالجيش والسلطة. في نيسان (ابريل) ١٥١٥، بدأ قانصوه الغوري يستعد للحرب، وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر) أعلن التعبئة العامة. وحاول المماليك، على غرار العثمانيين، إضفاء الطابع الديني على الحرب، ووصموا «ملك الروم» كما لقبوا سليم الأول - بالارتداد عن الدين الحنيف والسنّة، سيّما وأنه يحلق ذقنه ويرتدي القفطان والعمامة الكبيرة، بدلاً من الملابس الإسلامية التقليدية.

لكن تلك الاتهامات لم تؤد إلى إثارة أي نعرات مذهبية وسط اتساع التعاطف مع العثمانيين. ولم يقتنع الجيش والشعب بوجود مبرّر للصراع ولم يرغبا بالحرب. علاوة على ذلك، عمد الفلاحون إلى عرقلة تدابير السلطات للتعبئة العامة وعملوا ما أمكنهم لمساعدة العثمانيين. وكانت النقمة على المماليك تنتظرهم في كل قرية ومدينة. وفي ربيع عام ١٥١٦، أخذ فلاحو قرى بكاملها في مصر يفرّون من البلاد مخلفين وراءهم محاصيل الحقول التي لم يجمعوها. وفي القاهرة أقفل الخياطون حوانيتهم وصانعو الأسلحة مراكزهم الحرفية. وفي الشوارع تعالت التهديدات والشتائم الموجهة ضد السلطان المملوكي (٥). أما في سوريا فكان الوضع أشد سوءاً، حيث إن الفلاحين هناك لم يكتفوا بتقويض تدابير التعبئة العامة، بل انخرطوا أيضاً في أعمال معادية للحكومة بصورة مباشرة. وخرجت قرى كثيرة ومناطق بأسرها عن طاعة السلطات المملوكية. وفي ٧ آب (اغسطس)، أي

(٤) G. Stripling. op. cit. p. 45.

(٥) ابن أياس «بدائع الزهور...»، المجلد الخامس. ص ص ٢٨ و ٣١.

بعد احتلال كابادوكيا مباشرة قام الأمراء بإبلاغ قانصوه الغوري أن انتفاضة فلاحية سوف تنشب في سوريا. وخاطبوه قائلين، «أيها السلطان، أرض حلب أفلتت من أيدينا وانتقلت إلى أيدي ابن عثمان، فاسمه يذكر هناك في خطبة الجمعة وينقش على النقود». ويذكر ابن اياس كيف انه بسبب تعسف نواب السلطان واستبدادهم تحولت أكثر مناطق حلب وغيرها من الأراضي إلى تأييد ابن عثمان[٦]. وبعد أن انتشرت المشاعر المعادية للحكومة في أوساط الشعب، انتقلت إلى صفوف الجيش، فانخفضت درجة الإنضباط بصورة خطيرة، وارتفعت أصوات الجنود تطالب بالمال والمكافآت واللحوم، وأخذوا يتمردون ويعيثون في الشوارع العامة فساداً. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٥، صرخ المماليك المتمردون في وجه السلطان: «لماذا لا تسير على طريق الملوك الغابرين، ولماذا لا تضع حداً لهذا الظلم؟»[٧].

من الواضح أن غالبية الجنود لم تكن ترغب في الحرب. فقد رفض قرابة ألف مغربي كانوا نواة رجال مدفعية المماليك الاشتراك في القتال عموماً وأعلنوا: «لن نقاتل إلاّ الفرنجة! لن نقاتل المسلمين!»[٨].

أدّت تلك المشاعر التي اجتاحت البلاد وفي صفوف الجيش إلى تفسّخ الأوساط الحاكمة. فأعدم عدد كبير من أمراء المماليك بتهمة الخيانة. وبدأ كثير من القادة العسكريين وعلى رأسهم خير بك عامل حلب يتعاطفون مع العثمانيين، ومنهم من أقام علاقات سرية معهم وأكدت الوثائق ان بين المستشارين الشخصيين للسلطان وبخاصة بين من كانوا موضع ثقته الكبرى، حظي سليم الأول بأنصار يزودونه بالمعلومات عن أوضاع مصر[٩].

في ذلك الوضع المتفاقم حاول قانصوه الغوري تأخير اندلاع العمليات العسكرية بكل الوسائل. حتى بعد بداية حملته العسكرية في أيار (مايو) ١٥١٦ لم يفقد الأمل بالمفاوضات السلمية. وعملت الديبلوماسية العثمانية ما في وسعها لترسيخ هذا الوهم في ذهن قانصوه الغوري، مستغلة ذلك لإرباك العدو وإبقاء المبادرة في يد سليم الأول الذي ظل حتى اللحظة الأخيرة يحتفظ بإمكانية تحديد مكان وزمان توجيه الضربة الحاسمة. في تموز (يوليو) ١٥١٦ عشية بدء الهجوم العثماني استقبل قانصوه الغوري بعثة عثمانية جديدة اقترحت عليه استئناف التجارة، وعرضت شراء شحنة كبيرة من السكّر المصري. ومن فرط سروره أصدر السلطان قانصوه الغوري أمراً إلى شيخ الإسلام الشافعي بإلقاء موعظة تبرز حسنات السلام[١٠].

---

(٦) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص ٤٦٣.
(٧) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص ٤٨٥.
(٨) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص ١٣٧.
(٩) ابن أياس، المجلد الخامس. ص ٧٦.
(١٠) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص ٦٢.

في الخامس من آب (اغسطس) ١٥١٦ عبرت الجيوش العثمانية الحدود، فنسي قانصوه الغوري تجارة السكّر وخرج بجيش قوامه ٦٠ ألف رجل (بينهم ١٢ - ١٥ ألفاً من المماليك)، رابطوا شمال حلب في مواقع تبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد (١١). وفي مرج دابق نشبت في ٢٤ آب (اغسطس) ١٥١٦ إحدى أكبر معارك التاريخ العالمي.

كان سليم الأول يخشى أكثر ما يخشى فرسان المماليك. فوزّع قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء في أي لحظة خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض وحلف حواجز من الأشجار والأخشاب لمقاتلة العدو من هناك. تمكّن المماليك في بداية المعركة، دون عناء كبير، من صدّ هجمات فرسان العثمانيين وقتلوا منهم قرابة عشرة آلاف رجل (١٢)، لكنهم لم يتمكنوا من تجاوز الحواجز الخشبية وسلاسل العربات، بل وقعوا هدفاً لنيران الانكشارية عندئذ دبت البلبلة في صفوفهم وبدأوا بالتراجع.

ولما علم الجنود ان خواص مماليك السلطان ظلّوا إلى جانب القوات الإحتياطية ولم يشاركوا في المعركة استاؤوا وتمرّدوا فغادر الجناح الأيمن مواقعه. وحذا قائد الجناح الأيسر خير بك حَذوه فسحب قواته. فسارع العثمانيون إلى الهجوم. وبحلول فترة الظهيرة بدا ان المماليك مُهدّدون بالحصار فجفلت عساكرهم ولاذوا بالفرار دون انتظام. وانتحر السلطان قانصوه الغوري. وقد روى ابن اياس: كيف ان السلطان عندما تأكد من الهزيمة تناول السُّم من الخاتم الذي يحمله بصورة مستمرة، وعندما انساب السمّ إلى جوفه، فقد وعيه وسقط عن الحصان ومات على الفور (١٣).

كان نبأ هزيمة المماليك مؤشراً لاندلاع انتفاضة في حلب، فهاجم المواطنون الحامية المملوكية وقضوا عليها ثم أقفلوا بوابة المدينة. وحذت مدينة عينتاب وغيرها من المدن الشمالية حذو حلب، واستسلم عدد من الأمراء وكبار الزعماء والخليفة المتوكل وثلاثة من شيوخ الإسلام المصريين المرافقين للجيش. أما شيخ الإسلام الحنفي فقد حاول الفرار، لكنه تعرض للسّلب في الطريق على يد البدو. وعمّت الفوضى بين المماليك، فانتقل قسم منهم بقيادة خير بك إلى جانب العثمانيين في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥١٦، ولاذ الباقون بالفرار. كما أن الكثيرين منهم سرّحوا خيولهم وألقوا سلاحهم. وظهر المماليك أمام أهل دمشق في ثياب رثّة وأحياناً عراة تماماً، بعضهم يسير على قدميه وآخرون على الحمير والجمال (١٤). وفي دمشق كانت تنتظرهم خيبة أمل جديدة. فقد انتشرت

---

(١١) G. Stripling. op. cit. p. 46.

(١٢) ابن أياس، المجلد الخامس. ص ٦٩.

(١٣) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص ٧٠.

(١٤) المصدر نفسه، المجلد الخامس. ص ٧٣.

الفَوضَى في المدينة لانعدام وجود السلطة فيها . وأخذ المماليك يشقّون طريقهم إلى مصر فرادىً أو جماعات صغيرة . ولم يعد لجيش المماليك وجود فعلي .

في ٢٨ آب (اغسطس) ١٥١٦ ، دخل سليم الأول مدينة حلب وسط هتافات الترحيب من المواطنين . وفي اليوم التالي ، وأثناء خطبة الجمعة ، نودي بسليم الأول « خادماً للحرمين الشريفين » (١٥) . وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكّام مصر منذ صلاح الدين ، وكرّس نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الإسلام ، وبدأ يطلق على نفسه لقب « سلطان المسلمين » أو « بادي شاهي إسلام » كما فعل المماليك . هكذا حقق سليم الأول ، خلال أسبوع واحد ، أهداف الحرب بكاملها : إلحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية .

قوبل تسلُّم العثمانيين للسلطة العليا في الاسلام باعتراف فوري في العالمين الإسلامي والمسيحي (١٦) . والأهم من ذلك كله أنه حظي باعتراف السادة في الحرمين الشريفين مكة والمدينة . في أيلول سبتمبر ١٥١٦ أصدر سليم الأول ، بصفته حامي الحج ، أمراً باستئناف تأدية فريضة الحج . وفي عام ١٥١٧ ، ولأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي ، وصل المحْمَل محروساً من العثمانيين وعليه غطاء الكعبة المقدس .

بعد أن استأثر سليم الأول بحقوق سلاطين المماليك وصلاحياتهم احتفظ بألقاب الخلافة كلها بعد أن أضفى عليها بريقاً جديداً . ففي رسائله إلى رؤساء الدول الإسلامية الأخرى أطلق على نفسه لقب « ظل الله على الأرض » (١٧) . وعلى هذا الأساس طلب من جميع الزعماء إقامة الدليل على إخلاصهم وتقدم الولاء له ، كما كان الأمر في عهد خلافة بغداد .

كان سليم الأول يؤمن برأي واحد للعالم الإسلامي وبخليفة واحد . لكن وجود خليفة آخر موالٍ له لم يكن يثير لديه مشكلة جدّية . ثم إن سليل العباسيين الخليفة المتوكل رحّب بحرارة بدخول سليم الأول إلى حلب ورأى فيه على الفور حامياً جديداً للإسلام واعترافاً منه بالجميل قدّم المتوكل لسليم الأول الذخيرة المقدسة للبيت العباسي وتضم عباءة وبضع شعرات من لحية النبي مع سيف الخليفة عمر . كان سليم الأول في غاية السرور والرضى ، فغمر المتوكل بعطفه وأذن له بالجلوس إلى جانبه وأغدق عليه المال ، ثم نزع عن كتفيه رداءة وقدمه له . وبلغ به الأمر أن وعده باستعادة بغداد (١٨) .

---

(١٥) بارتولد « الخليفة والسلطان » . ص ٦٨ .

(١٦) المرجع نفسه ، صفحات ٦٩ - ٧٢ .

(١٧) ابن أياس « بدائع الزهور ... » ، المجلد الخامس . ص ١٣٥ .

Voir aussi M. Ohsson op. cit. T. 1. p. 127 et Arnold Wilson T. 1. «The Presian Gulf. an Historical Sketch. Oxford 1928. T. 4. p. 59.

(١٨) ابن أياس ، المرجع السابق . المجلد الخامس . ص ٧٤ .

ورغم أن لقاء الخليفتين مر على خير ما يرام، إلاّ أن وجود خليفة آخر للمسلمين لم يكن يتفق مع مخططات سليم الأول. في هذا الصدد يقول بارتولد: «يبدو أنه قرر عدم الاكتراث بوجود ذلك الرجل»[١٩]. ومهما يكن من أمره، فإن فئات الشعب الواسعة لم تكن تعلم شيئاً عنه. ثم رافق سليم الأول في حملته على مصر وبقي إلى جانبه في القاهرة، لكنه لم يكن يتصرَّف بصفته شخصية دينية. وخلافاً للمماليك لم يكن العثمانيون بحاجة إلى «إسمه» ولم يعهدوا اليه بأي مسؤوليات رسمية.

بعد انتصاره في مرج دابق أصبح أمير المؤمنين الجديد سيداً على سوريا كلها. واذا استثنينا الغزوات المرحلية التي كان يشنها البدو، فإن أحداً لم يعد يبدي أي مقاومة، بل إن سكان سوريا استقبلوا سليماً الأول كمنقذ لهم من ظلم المماليك، وساعدوا الجيوش العثمانية بكل الوسائل. اندلعت الإنتفاضة في طول البلاد وعرضها. وقام سكان طرابلس وصفد وغيرهما من مدن جنوب سوريا ولبنان وفلسطين بالقضاء على الحاميات المملوكية، والاستيلاء على القلاع وإسقاط السلطات المملوكية. وبدأت في الأرياف حملة مطاردة حقيقية للمماليك. وأظهر السوريون على المماليك نقمة شديدة وقسوة أكبر من العثمانيين أنفسهم[٢٠]. فعند اقتراب الجيوش العثمانية فتحوا لهم بوابات القلاع والمدن. ففي ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٥١٦، دخل سليم الأول مدينة حماة، وفي ٢٢ ايلول (سبتمبر) دخل حمص وقامت انتفاضة في دمشق، حيث استولى ثوار المدينة على السلطة ونهبوا منازل الفرنجة واليهود ولم تسلم بيوت العلماء والأثرياء. فغادر بعض أعيان دمشق بنسائهم وأولادهم المدينة مع المماليك[٢١].

وفي ٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٥١٦، دخل سليم الأول دمشق وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات مهيبة. واستقبل سليم الأول فيها وفود طرابلس وبيروت وصيدا وغيرها من المدن السورية التي سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق أمراء دروز جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين. ومقابل الاعتراف الشكلي بالتبعية للعثمانيين احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتي الداخلي. وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥١٦، وصل العثمانيون إلى غزه، فأكملوا بذلك احتلال سوريا وفلسطين.

عقب دخول سليم الأول إلى دمشق ببضعة أيام دعا إلى مؤتمر لممثلي مختلف المدن والمناطق عُقد قرب أسوار المدينة. واستمع سليم الأول إلى المندوبين بكل انتباه وحلَّ الخلافات وبَتَّ الشكاوى. ثم عَيَّنَ مسؤولي أهم الوظائف الحكومية مع الاحتفاظ بهيكلية الادارة المملوكية السابقة بشكل

(١٩) بارتولد «الخليفة والسلطان». ص ٦٣.

(٢٠) G. Stripling. op. cit. p. 51.

(٢١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٨٤ و ١٠٦.

عام[٢٢]. وبناء على رغبة السوريين، أعاد النظر في قوانين قايدباي ووضع تفسيراً دقيقاً لها، كما أدْخل قسماً منها فقط في أساس التنظيم الإداري والضرائبي العثماني. وعمد سليم الأول إلى تخفيض الضرائب والرسوم الجمركية من ٢٠ بالمائة إلى ٥ بالمائة، والأهم من ذلك، أنه أعاد توزيع الأرض بشكل جذري، فشكّلت اللجان التي باشرت سن القوانين الجديدة وتقسيم الأرض وتسجيلها وفقاً لمبادىء نظام استغلال الأراضي العثماني. وفي أكثر الأحيان كانت اللجان تستمر في مهمتها لسنتين أو ثلاث سنوات. وفي عام ١٥١٨، كان **الدفتر المفصل** (قانون نامه) لمدينة حلب جاهزاً. اما الدفاتر المفصّلة لطرابلس وبعض المناطق الأخرى، فقد انجزت عام ١٥١٩[٢٣] وفي الوقت عينه ألغى سليم الأول القيود المذلة المفروضة على السكان المسيحيين واليهود وتجار البندقية، وأذنَ لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية[٢٤].

أظهر سليم الأول اهتماماً كبيراً بالأولياء ورفات القديسين وأمكنة العبادة التي يقدّسها الشعب. وانتشرت أسطورة تقول: الفاتح الرهيب وقف في مسجد بني أميّة ذليلاً أمام درويش رث الثياب، ولم يجرؤ على مبادرته بالكلام[٢٥]. وبناء على رغبة مستشاريه قام بالحج إلى القدس لمدة ثلاثة أيام. بيد أن أكبر دوي كان ذاك الذي أحدثته زيارته لقبر ابن العربي في ضاحية دمشق حيث أمر ببناء ضريح رائع له.

ولم ينس سليم الأول دوره كنصير للشريعة والعدالة. فكان يوزع الصدقات ويلجأ إلى كل الوسائل لاظهار عنايته بالفقراء والأرامل واليتامى ومنع السرقة والاغتصاب. فكسب إلى جانبه جماهير الناس البسطاء. وقد أجمعت كل المصادر عملياً، على أن سليم الأول لقي في سوريا استقبالاً ترحيبياً غير عادي لا سيا منْ قبل المزارعين والتجار والحرفيين. ولم يستقبل السلطة الجديدة بالعداء الاّ البدو، والمماليك، وأعيان المدن.

---

(٢٢) G. Stripling. op. cit. p. 50.

(٢٣) Bernard Lewis. «The Ottoman Archives as a Source for the History of the Arab Lands». In «Journal of the Royal Asiatic Society» 1951, October. pp. 149 - 155.

(٢٤) G. Stripling. op. cit. p. 51.

(٢٥) M. Ohsson. op. cit. T. I. p. 312.

مصر والحجاز تحت سلطة العثمانيين

مكث سليم الأول في دمشق حتى منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٦. كان مصير الحرب قد تقرر عملياً ولم تبق إلا مسألة تسوية العلاقات مع المماليك. لم يكن السلطان العثماني يعارض عقد اتفاق سلام مع المماليك شرط ان يعترفوا به كخليفة للمسلمين وخادم للحرمين الشريفين. في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٦، وصلت بعثة عثمانية إلى القاهرة، واقترحت على المماليك تقديم الولاء إلى السلطان العثماني. وفي حال استجابتهم للاقتراح يُعهد إليهم بادارة مصر نيابة عن سليم الأول، ويُحفَر اسمه على النقود المصرية، ويدعى له في خطبة الجمعة، ويدفع المماليك الضريبة التي كانوا يدفعونها «أيام الخلفاء العباسيين»[١].

لم يتقبل المماليك فكرة الهزيمة، واعتبروا من العار عليهم الانحناء وتقديم الولاء إلى أخلاف من عالة الناس كما كانوا ينعتون الحكام العثمانيين. وفي ١١ تشرين الأول (ديسمبر) ١٥١٦ انتخب المماليك **طومان باي** سلطاناً عليهم، وهو ابن شقيقة قانصوه الغوري وكان في الثامنة والثلاثين من عمره.

كان طومان باي مقاتلاً مقداماً تتجسَّدُ فيه أفضل مزايا الفارس المملوكي، ولا يفكر إلا بالثأر من الهزيمة وتحقيق نصر على العثمانيين، فكان من الطبيعي أن يرفض اقتراح عقد اتفاق سلام

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ١٢٥.

معهم. أما المبعوثون العثمانيون الذين تصرفوا بتحدٍّ فاق كل تصور فكان مصيرهم القتل.

هكذا أصبح استئناف الحرب أمراً حتمياً. في فترة قصيرة تمكن طومان باي من جمع فصائل المماليك وتجهيزها. وشكل فصائل من المرتزقة، كما ضمن لنفسه تأييد شيوخ البدو، وحاول اقتباس أحدث المنجزات العسكرية التكنيكية التي يستخدمها العثمانيون بما في ذلك المدفعية المثبتة على عربات، بدأ انتاجها في كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٦ (٢). راهن طومان باي على حرب طويلة وعنيفة. وكان على ما يبدو ينوي انهاك العثمانيين في معارك صغيرة تمتد حتى الربيع وللشروع بالحرب قرر قطع كل اتصال له بآسيا الصغرى (٣). ولهذه الغاية أرسل إلى فلسطين جيشاً من عشرة آلاف مملوك بقيادة عامل دمشق السابق جان بردى الغزالي الذي شارك في معركة مرج دابق. غير أن الجيوش العثمانية بقيادة سنان يوسف باشا، أحد أفضل القادة العسكريين عند سليم الأول، تمكنت من إلحاق هزيمة منكرة بالمماليك في معركة قرب بيسان في فلسطين في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٦. كان المقاتلون العثمانيون يلقون الخطاطيف المربوطة بالحبال على المماليك فيسحبون فرسانهم من على ظهور الخيل ويقتلونهم بالفأس أو البيطقان (سيف محدب ذو حدين).

كانت القوات الرئيسية للجيش العثماني غادرت دمشق في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٦، وخلال عشرة أيام عبرت صحراء سيناء ووصلت إلى دلتا النيل في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٥١٧. وفي بلبيس أصدر سليم الأول نداء إلى فلاحي مصر وشعبها فوعدهم بالعفو العام وضمن الحصانة للأفراد والممتلكات وأعلن أنه جاء ليقاتل المماليك وحدهم (٤). لذلك استُقبلَ العثمانيون بترحيب بالغ من قبل الفلاحين والجماهير الشعبية في المدن المصرية. وأعلن الأهلون في كل مكان رفضهم لدفع الضرائب مهلّلين لسليم الأول (٥). كما قدموا المساعدة لجنوده في القبض على المماليك المتوارين عن الأنظار. ولم يبق إلى جانب طومان باي إلاّ الأعيان الذين ظلّوا أوفياء للمماليك حتى النهاية، والبدو الذين كان طومان باي يدفع لهم ذهباً عن كل قتيل عثماني.

في مواجهة الوضع الناشيء، فضّل طومان باي سحب قواته إلى القاهرة. وبالقرب من الريدانية، الضاحية الشمالية لعاصمة المماليك، حُفرت الخنادق وأقيمت الأسوار والدُّشم لمائة مدفع، وزرعت الخنادق بالحواجز المضادة للخيول، وشكلت العربات سداً يحمي قطع المدفعية المنصوبة هناك، كما رفعت أمامها سواتر ترابية لحمايتها. لقد فعل المماليك في الريدانية ما فعله العثمانيون في

---

(٢) المصدر نفسه. ص ١٣٤.

(٣) G. Stripling. op. cit. pp. 52 - 53.

(٤) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ١٤١. Voir aussi H. Inalcik «The Ottoman Empire. The Classical Age...». p. 34.

(٥) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ص ١٣٣ و ١٤١.

مرج دابق تماماً ، لكن كان ينقصهم القادة العسكريون المحنّكون والجنود المدربون. وجنّد طومان باي في جيشه قرابة الستة آلاف من العبيد السود . وأخرج المجرمين من السجون ووزع السلاح على الأغنياء الذين تشكلت منهم وحدات شبه عسكرية. هكذا بلغ مجموع المجندين قرابة أربعين ألفاً بمن فيهم عشرون ألف فارس من المماليك والبدو (٦) .

كان جيش طومان باي غير متجانس ويفتقر إلى روح قتالية عالية. فقد رفض رجال المدفعية المغاربة ومعهم بعض الأهالي اتخاذ مواقع قتالية لهم. بين المماليك أنفسهم كان هناك أنصار مستترون للعثمانيين. فعشية المعركة سلّمَ جان بردى الغزالي إلى سليم الأول معلومات مفصلة عن تنظيم الجيش المصري ولا سيما بالنسبة لمواقع قطع المدفعية.

بـدأت معركة الريدانية في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ . واصطفت الجيوش في تشكيلات قتالية من المطرية حتى جبل الأحمر. ودارت معركة بالمدفعية تمكّن العثمانيون بنتيجتها من إسكـات مدفعية المماليك دون عناء ، ودمّروا جزءاً كبيراً من قطع المدفعية المصرية. وبفضل التفوق العددي تمكّن سليم الأول من تنفيذ مناورة التفاف حول المقطّم، فحاصر جيش طومان باي. ولم تسفر هجمات الفرسان المماليك والبدو عن أية نتيجة. فمن كل حدب وصوب كان الجنود العثمانيون «كالجراد الذي لا يحصى» (٧) ، يتحركون باتجاه مواقع المصريين. وأبدى طومان باي ومماليكه معجزة خارقة من البسالة والإقدام لاختراق صفوف العدو والتوغل في عمقها. بل قيل إن طومان باي قتل بيده في ذلك اليوم أكثر من ألف رجل بمن فيهم الوزير الأكبر سنان يوسف باشا (٨) ، إلا أنه مع ذلك لم يتمكّن من قهر الجيش العثماني. فتراجع الجيش المصري دون انتظام مخلفاً وراءه قرابة ٢٥ ألف جثة (٩) ، ثم انفرط عقده وتفرّق، فاحتلت الجيوش العثمانية عاصمة السلطنة المملوكية.

في ليل ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ ، اندفع طومان باي على رأس مجموعة من المماليك فجأة إلى القاهرة الغارقة في النوم، وأشعل انتفاضة فيها. واندلعت المعارك في شوارع المدينة واستمرت الاشتباكات ثلاثة أيام بلياليها في الشوارع وعلى سطوح المباني (١٠) . حتى النساء والأطفال شاركـوا في إلقاء الحجارة وقطع القرميد. وكان الجنود العثمانيون يطلقون النار على نوافذ مباني القاهرة ويحطمون أبوابها الضخمة بالمدفعية، فاحترقت مبان كثيرة، وقارب عدد القتلى الخمسين ألفاً من

---

(٦) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 200.

(٧) ابن أياس المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ١٤٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٩) M. Digeon. «Nouveaux contes turcs et arabes». 2 tomes. Paris 1781. T. I. p. 50.

(١٠) Joseph de Hammer «Histoire de l'Empire ottoman. Depuis son origine jusqu'à nos jours». Paris 1836. T. 4. p. 306.

السكان [١١]. وفي نهاية حرب الشوارع هذه، أصدر سليم الأول نداءً أعلن فيه الأمان، وتمكّن الأهالي من إلقاء القبض على أكثر من ثمانمائة فارس من المماليك كان مصيرهم الإعدام العلني.

بعد إخضاع القاهرة، أخذت الاسكندرية وغيرها من مدن مصر السفلى تطارد حاميات المماليك، وأخذ سكانها يوجّهون المندوبين إلى سليم الأول للإعراب عن ولائهم. أما طومان باي فقد عاود نشاطه في مصر الوسطى. وبدعم من قبائل الحوّارة البدوية والمماليك الوافدين من مناطق مصر العليا البعيدة، تابع تنظيم المقاومة ضد العثمانيين. لكن ميزان القوى لم يكن متعادلاً، كما أن البدو نشطوا في أعمال سلب الفلاحين وكانوا يفرّون ويتشتتون أمام أول طلقةٍ من مدفعية العثمانيين. ثم دبّ الخلاف بين البدو والمماليك، إذ اعتبر شيوخ البدو أن لا جدوى من مواصلة القتال، فأعربوا عن رغبتهم بعقد اتفاق مع العثمانيين. وفي آذار (مارس) ١٥١٧ وخلال إحدى المعارك التي نشبت في منطقة الأهرام، حصلت مشادة بين البدو والمماليك. فحاول البدو ابّان المعركة الانضمام إلى العدو، لكنهم أبيدوا بنيران مدفعية العثمانيين [١٢].

اندفع طومان باي إلى الشمال بعد انفصال البدو عنه فوصل إلى منطقة البحيرة. وفي ٢ نيسان (أبريل ١٥١٧)، خاض معركته الأخيرة في منطقة الوردان التي تبعد ٥٠ كيلومتراً إلى الشمال من القاهرة. لكن المعركة انتهت بهزيمته، ففرَّ والتجأ إلى صديقه الشخصي حسن بن موري شيخ إحدى بطون قبائل الحفّارة في قرية بوطة. ورغم قواعد الضيافة البدوية المزعومة، حنث بن موري بقَسَمه على القرآن وسلَّم صديقه المملوكي إلى العثمانيين. وبعد بضعة أيام قام حكام الشرقية شيوخ بني بكر بتسليم شادي بك إلى العثمانيين وهو آخر أمير مملوكي رفض إلقاء السلاح أمام الانكشارية.

وضعت الحرب أوزارها. وفي ٩ نيسان (أبريل) ١٥١٧ أنزل نقد جديد إلى سوق التعامل في القاهرة يحمل اسم سليم الأول، سيد مصر الجديد. واختفت دولة فرسان المماليك الجبارة. وفي ١٣ نيسان (أبريل) وتحت قنطرة بوابة القاهرة ـ باب زويلة، شُنِقَ آخر سلاطين المماليك طومان باي كمجرم عادي. وكتب كانتيمير في ذلك أن هذا المشهد أرعب المصريين، لكنهم كانوا سعداء في سرهم. لقد كان واضحاً كيف ان هذا الشعب الذي أخفى كراهيته لتسلط الشراكسة وطغيانهم منذ زمن بعيد، أسرع زرافات ووحداناً إلى سليم الأول متعهداً له ولكل بني عثمان بالولاء الدائم [١٣].

في شهر أيار (مايو) ١٥١٧ دعا سليم الأول إلى ما يشبه المؤتمر الشعبي العام في القاهرة. وإضافة

(١١) J. de Hammer. op. cit. T. 4. p. 308.
(١٢) Ibid. p. 315.
(١٣) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 205.

إلى القادة العسكريين العثمانيين، حضر المؤتمر القضاة المصريون وممثلون عن التجار والمهنيين ومختلف فئات السكان بمن فيهم ممثلو الطائفة اليهودية [١٤]. ولخّص سليم الأول مبادىء السياسة الجديدة وأعلن عن تعيين الموظفين في مراكز الدولة، فلم يطرأ على هيكلية الإدارة أي تغيير جوهري. في مصر العليا أبقيت السلطة في أيدي شيوخ البدو، أما في مصر السفلى والوسطى فقد بقيت السلطة في أيدي المماليك الذين انحازوا إلى جانب سليم الأول.

لكن تغييرات أساسية طرأت على الحياة الاجتماعية، فقد تمّت إعادة توزيع جذرية للأراضي. وأبطل العثمانيون كل أشكال ملكية الأرض الإقطاعية المملوكية. ورفضوا الإعتراف بأي حقوق للماليك على الأراضي والأملاك، كما لم يعترفوا لهم بما يحملون من صكوك الإقطاع والأرزاق [١٥] ووُزعت كل الضرائب التي كانت قد جمعت في عام ١٥١٧ على الفلاحين والجباة الذين يتهمهم ابن أياس بوضع اليد على المداخيل القانونية للماليك وزوجاتهم وأولادهم. وفي صيف عام ١٥١٧ تمّ إجراء أول مسح عثماني تفصيلي في مصر السفلى، فألحقت كل الأملاك الاقطاعية المملوكية بالخزينة [١٦]. علاوة على ذلك أخذ الجباة يتطاولون على حصانة الأوقاف، وبدأوا يتقاضون الضرائب من أملاك المماليك الوقفية. وفي عام ١٥١٨ وبعد «التدقيق» بالوثائق، انتقلت أكثرية الأوقاف وأرزاق المماليك رسمياً إلى ملكية الحكومة. وفي حزيران (يونيو) ١٥٢٢ طبقت تدابير مماثلة في مصر العليا [١٧]. ومُنع المماليك بتاتاً من تأسيس أوقاف جديدة. ولم تُعتبر قانونية إلاّ الأوقاف والأرزاق التي تُنفَق مداخيلها لغايات دينية محضة. هكذا أصبحت أراضي مصر كلها باستثناء الأوقاف «الشرعية» ملكية عمومية تحت إشراف الخزينة. وأُلغيت كذلك كل الامتيازات الضريبية والحصانات التي كانت قائمة في عهد المماليك [١٨].

في حزيران (يونيو) ١٥١٧ حوّل سليم الأول الممتلكات السكنية والعقارات البلدية في مصر إلى ممتلكات عامة. وكانت في مقدمة الأملاك المصادرة المنازل والأموال غير المنقولة الأخرى العائدة للماليك بما فيها تلك التي يملكونها زوراً باسم الأوقاف [١٩]. أما مالكو المنازل السكنية الأخرى فقد طُلب إليهم إبراز وثائق تؤكد شرعية امتلاكهم، أو إدارتهم للأوقاف. فإذا تبيّن أن الوثائق صحيحة يتسلّم المالك إفراجاً، أي أمراً يجيز له استعمال الملك بعد دفع الرسوم للدولة. وإذا كانت

(١٤) ابن أياس، المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ١٧٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(١٦) المصدر نفسه، صفحات ١٨٩، و ١٩٤ و ٢٤٧ و ٢٩٢.

(١٧) ابن أياس، المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ٤٦٥.

(١٨) M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 241.

(١٩) Ibid. p. 273.

الوثائق باطلة يُصادر الملك ويصبح من ممتلكات الدولة ويمكن تأجيره «للمستأجرين الشرفاء»[٢٠].

تركز اهتمام السلطة الجديدة على الفلاحين والرعايا. وكل ظلم أو تعسّف يتعرض له الفلاحون يُقابل بالعقاب الصارم.

في آب (أغسطس) ١٥١٧، وقبل أن يغادر سليم الأول القاهرة، أذاع نداء أعلن فيه أنه لا يُسمح لأي كان، من الآن فصاعداً، أن يضطهد فلاحاً أو إنساناً من عامة الشعب[٢١]. وفرض على القضاة والمسؤولين جعل حاجات الفلاحين ومطالبهم في مقدمة اهتماماتهم. وقد ورد في قانون ـ نامه مصر[٢٢]، أن القضية الأولى في جدول أعمال كل جلسة يعقدها الديوان المصري ينبغي أن تكون قضية أحوال الرعيّة[٢٣]. وقد اعتبر أي اعتداء على ممتلكات الفلاحين، بل أي محاولة بسيطة للكسب على حساب الفلاحين، وفقاً لقانون ـ نامه مصر، بمثابة جريمة خطيرة يعاقب عليها في أكثر الأحيان بالموت. وكُلّف القضاة بدراسة شكاوى الفلاحين بكل عناية لا سيا فيما يتعلق بمصالحهمُ المادية، وكل مماطلة في دراسة الشكاوى أو أي قرار يصدر دون وجه حق لمصلحة الملاّكين الأغنياء يعرّض القاضي للسجن[٢٤].

وألغى سليم الأول «الضرائب» و«المغارم» المفروضة على الأهالي[٢٥] بصورة غير قانونية، وحدَّ من الغرامات النقدية المفروضة على الفلاحين، ومنعَ تقديم الهدايا المالية والعينية للموظفين والمسؤولين الذين يجوبون القرى[٢٦]. وفي تموز (يونيو) ١٥١٩، ووسط ابتهاج الجماهير الشعبية، كما كتب ابن أياس، تمَّ تحديد أسعار البضائع تحديداً صارماً[٢٧].

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢١، أُدخل نظام جديد للعلاقات بين العملات الفضية والذهبية، وبذلك تقلصت الضرائب والديون بمقدار النصف. ولم تعد العلاقات إلى سابق عهدها إلاّ في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٢٣.

أولت السلطات كذلك اهتماماً كبيراً بإعادة إسكان القرى المهجورة وحماية الفلاحين من البدو.

---

(٢٠) Ibid. p. 274.

(٢١) ابن أياس، المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ٢٠٥.

(٢٢) O. Barkan. op. cit. pp. 355 - 387.

(٢٣) Ibid. p. 378. et M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 247.

(٢٤) M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 262.

(٢٥) الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» المجلد الأول، القاهرة ١٨٧٩، القاهرة ص ٢٠.

(٢٦) O. Barkan. op. cit. pp. 361 et 373 - 374 et M. Digeon. op. cit. T. 2. pp 199 et 233 - 234.

(٢٧) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٣٠٤.

وقد ورد في قانون ـ نامة مصر، أنه يحق لكل من يأتي برأس بدوي نهّاب أن يأخذ حصانه وسلاحه وثيابه [٢٨]. ويقدّم ابن أياس أمثلة كثيرة على مطاردة البدو. وعقاباً للبدو على انتهاك القوانين العثمانية، كانت تصادَر جمالهم وخيولهم وسباياهم وأسلحتهم وأقمشتهم وحلاهم، أما نساؤهم فيُبعنَ في سوق العبيد، ويتعرض رجالهم للقتل وأبشع صنوف التعذيب الوحشي. في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٥٢٠، طاف بعض العثمانيين في شوارع القاهرة وهم يحملون اثني عشر رأساً مقطوعاً وستة مومياءات محنطة لشيوخ البدو من قبيلة السوالم بعد أن سُلخت جلودهم وحُشيَت بالقش وأُلبست ملابس بدوية وطافوا بهم في المدينة لكي يكونوا عبرة لمن يعتبر [٢٩].

واتخذت تدابير لا تقل صرامة وقساوة لتطبيق الفرائض الإسلامية. ففي عام ١٥١٩، أُقفلت في جميع أنحاء مصر الخمّارات وحانات شرب الخمر والحشيش وبيوت البغاء. ووضعت البغايا في أكياس أُلقيَ بها في النيل [٣٠] بعد إحكام اقفالها عليهن. وأعلن حظر العادات الذميمة ورقص المجون الذي كان ابن خلدون معجباً به أيّما اعجاب. ونص قانون ـ نامة مصر، على فرض غرامات باهظة على «ظهور العروس بمظهر غير لائق». فقد كانت العروس أثناء احتفالات العرس، وفقاً للعادات القديمة، تخرج سبع مرات على الضيوف مكشوفة الوجه في «ثياب غير محتشمة» تبدلها سبع مرات [٣١].

أين عظمة الماضي وأبهته؟ وكيف غربت شمس تلك الأيام الرائعة؟ هكذا يتساءل ابن أياس. كان المماليك والأعيان الباقون على قيد الحياة يكرهون سليم الأول الذي وصفه ابن أياس أنه «قاتل أبطال مصر ومُيتّم أطفالها ومُستعبد رجالها»، ذلك لم يحدث من قبل منذ عهد نبوخذ نصَّر. يقول: «مصر أجمل دول العالم قاطبة» [٣٢] فقدت استقلالها ودُمِّرت واستُبيحت». ويضيف ابن أياس: «يقولون إن ابن عثمان عندما غادر مصر أخذ معه ألف جمل محمَّلاً ذهباً وفضة، بالاضافة إلى غنائم السلاح والخزف والبرونز والخيول والبغال والجمال وغيرها، فضلاً عن بلاط الرخام الرائع. من كل ذلك أخذ سليم الأول أفضله مما لم يرَ آباؤه وأجداده مثيلاً له في حياتهم» [٣٣]. وعاش المماليك في فقر مدقع، إذ لم تعد لديهم خيول ولا ملابس لائقة ولا سلاح ولا حتى حجر يسندون إليه رؤوسهم ولم يعد لديهم خدم ولا حشم. كان العثمانيون يطوفون البلاد على الخيول، وهم

---

(٢٨) M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 202.

(٢٩) ابن أياس، المجلد الخامس. ص ٣٢٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٣١) M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 251.

(٣٢) ابن اياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٢٠٦.

(٣٣) المصدر السابق. ص ٢٠٧.

يجوبون الأسواق على أقدامهم. لكن سليماً الأول، ما لبث أن أعلن « العفو » عن المماليك بعد فترة قصيرة، وبدأ يشكّل منهم وحدات خاصة في الجيش العثماني هي « جماعة الشراكسة ». فأعيد إليهم السلاح وخُصصت لهم رواتب مالية ضئيلة. غير أن المماليك مع ذلك أُجبروا على التخلّي عن بزة الفرسان الأنيقة وارتداء القفطان التركي والقبعة الشتوية (القلبق) والحذاء العالي (الجزمة). ولم يبق لهم من كل مظاهر عظمة الماضي إلاّ اللحية التي كانوا يتميزون بها عن الفرسان العثمانيين الذين يحلقون ذقونهم باتقان. وبصفته خليفة المسلمين الشرعي والعادل حصل سليم الأول على جميع حقوق سلاطين المماليك والتزاماتهم في مضمار العلاقات الخارجية. وورث السيادة على المناطق التابعة لهم في أفريقيا وشبه الجزيرة العربية. وأخذ حكام هذه البلدان، الواحد تلو الآخر، يبعثون بالسُّعاة والرسل إلى سليم الأول للإعراب عن الولاء والاستعداد لإستئناف العلاقات التي كانت قائمة بينهم وبين سلاطين المماليك [٣٤]. على أن وصول مبعوثي شريف مكة محمد أبو البركات الهاشمي حاكم الحجاز إلى القاهرة، اتّسمَ بأهمية بالغة. كان شرفاء مكة من بين أوائل المعترفين بسليم الأول زعيماً جديداً للإسلام وحامياً للحرمين. وكانوا في طليعة الذين سارعوا إلى الترحيب بانتصاره.

وصلت بعثة أبو البركات برئاسة ولده وولي عهده أبو نهى محمد في الخامس من تموز (يونيو) ١٥١٧ [٣٥]. فقدمت التهاني والهدايا إلى سليم الأول وسلّمته مفاتيح الكعبة مؤكدة بذلك اعترافها بسلطنة خليفة المسلمين وأمير المؤمنين [٣٦].

حافظ سليم الأول على استقلال الحجاز الذاتي كاملاً، واعترف بوضعها الخاص وبالحقوق الموروثة للأسرة الهاشمية. وكرّس محمد أبو البركات أميراً على البلاد، وأرسل إليه القفطان والخلعة. ومنذ عام ١٥١٧ بدأ مبعوثو السلطان الخاصون يزورون مكة كل عام حيث يقومون بتوزيع الأموال والهدايا، كما كانوا يجمعون الفقراء خارج المدينة على غرار العادة التي اتبعها سليم الأول، ويوزعون عليهم أموالاً بالنقد الذهبي. أما البناء الداخلي والإدارة في الحجاز فلم يتعرضا لأي تغييرات جوهرية، ولم يتدخل الأتراك في صلاحيات أشراف مكة الذين استمروا في ممارسة العادات والتقاليد القديمة. واكتفى العثمانيون بتولّي حراسة الشواطىء البحرية وحماية الحجّاج وقوافل المؤن والمواد الغذائية للمدن المقدسة. وتولت السلطات العثمانية مراقبة أموال المساجد في مكة باهتمام بالغ، والاعتناء بحال الطرق وإهراءات الحبوب وخزانات المياه. أما الإشراف على الوضع في البلاد فقد كُلف به الوالي العثماني في مصر، كما أنيطت به مسؤولية الدفاع عن الحجاز على اعتبار أنه من وجهة النظر العسكرية والسياسية يعتبر ضمن دائرة اختصاصه ومجال سلطته [٣٧].

(٣٤) G. Stripling. op. cit. p. 56.

(٣٥) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ١٨٩.

(٣٦) M. Ohsson. op. cit. T. 3. pp. 202 - 203.

(٣٧) A. Lybyer «The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent». Cambridge.1913. pp. 258 - 260.

وكانت الحاميات العثمانية المرابطة في البلاد تأتمر بأمره وفي طليعتها حامية جدّة التي تحولت إلى قلعة حصينة للسيطرة العثمانية على البحر الأحمر. وفيها أقام الباشا العثماني قائد القوات المسلحة التابعة للباب العالي. وبفضل اعتماده على هذه القوات كان الباشا يتمتع بنفوذ كبير في البلاد، بل يشعر انه سيد الوضع. فجعل من جدّة عاصمة عسكرية وسياسية وتجارية أصلية للحجاز. هكذا دخلت مكة والإمارات التابعة للهاشميين في ظل الحكم العثماني. لم يكن العثمانيون يتدخلون في شؤون الهاشميين الداخلية ولا في حياة المدينة، ولا سيما في مسألة وراثة العرش. بيد أنهم اعتادوا تقديم الدعم إلى من يطالب به، فإذا خرج منتصراً في الصراعات الداخلية، عندئذٍ تُرسل له خلعة التعيين على الفور مع التعويضات والهدايا المناسبة (٣٨).

بعد انحياز أبو البركات إلى العثمانيين أقام خلفاؤه تعاوناً وثيقاً مع الباب العالي، فدعموا نفوذ السلطان وحموا طريق الحج، كما ضمنوا طاعة قبائل البدو الرحّل. وفي عام ١٥١٧، أقيم احتفال أدّى فيه شريف مكّة يمين الولاء للسلطان وأقسَمَ معه زعماء كل القبائل الرئيسية في الحجاز وسوريا. ووفقاً لمدونات كانتيمير خضع زعماء قبائل البدو الرحل، الذين ينتقلون في الصحاري بين مكة والقاهرة ودمشق طوعاً للسلطان سليم الأول، ووقّعوا وثائق ولائهم المطلق وسلموا المحتجزين لديهم من الرهائن (٣٩).

---

(٣٨) M. Ohsson. op. cit. T. 3. p. 278.

(٣٩) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 208.



إلغاء الحكم الذاتي في سوريا ومصر

بعد هزيمة المماليك، احتفظت سوريا ومصر بقدر كبير من الحكم الذاتي الداخلي. ولم تترافق « العثمنة » الاجتماعية لهذين البلدين في المرحلة الأولى مع تطبيق كامل للنظامين العسكري والإداري العثماني. فقد وُضع هذان البلدان التابعان سابقاً للدولة المملوكية تحت إشراف دائم من جانب القادة العسكريين المماليك الذين انحازوا إلى جانب السلطان سليم الأول. فعيّن جان بردى الغزالي حاكماً على سوريا وسيف الدين خير بك على مصر. وبعد أن أكمل العثمانيون احتلال المدن والقلاع الاستراتيجية المهمة منحوا هذين الحاكمين استقلالاً داخلياً شبه تام. حتى أن خير بك أُعفيَ من دفع الضرائب للباب العالي، وكان كل من الحاكمين يملك قواته العسكرية الخاصة، وجهازه الاداري الذي لم يطرأ عليه عملياً أي تغيير جدّي. ويرى بارتولد أن أبناء سليم الأول استاءوا لأن سلطانهم لم ينتزع السلطة من الشراكسة إلاّ لكي يعيدها اليهم دون ان تكون في ذلك أي فائدة للعثمانيين [١].

عُيّنَ جان بردى الغزالي حاكماً على سوريا في ١٦ شباط فبراير ١٥١٨. وفي بداية عهده طبق السياسة العثمانية بحذافيرها فقمع حركات تمرد البدو وانتفاضاتهم دون رحمة، وبخاصةً في عام ١٥١٩ عندما سحق انتفاضة الشيخ البدوي ابن الحَنَش قرب بعلبك الذي حاول فرض سيطرته على وادي البقاع وشنّ حملتين لغزو حوران. وساد البلاد هدوء تام حتى أن « الذئب والحمل

(١) بارتولد « الخليفة والسلطان » ص ٦٣.

استطاعا السير معاً »[٢] على حد تعبير ابن أياس. وإلى جانب الجيوش العثمانية، شكل الغزالي جيشاً خاصاً به قوامه البدو والمماليك بمن فيهم فيلق الفرسان أو الخيالة.

بيد أن أبناء الطبقات المميَّزة القديمة الذين أحاطوا بالغزالي بعد أن وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان سليم الأول، لم تستهوهم مطلقاً المثل العثمانية العليا عن العدالة ومحبة الشعب، بل كانوا يكرهون النظم العثمانية ويشدهم الحنين إلى الماضي لإستعادة السلطات والامتيازات. في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٠ توفي سليم الأول، فانتهز أعيان البدو المماليك في سوريا موته ليعلنوا تمردهم، ورفضوا أداء يمين الولاء للسلطان الجديد سليمان العظيم الملقب بالقانوني (حكم ما بين ١٥٢٠ - ١٥٦٦) وحاولوا احياء دولة المماليك الغابرة.

تزعم التمرد جان بردى الغزالي نفسه وراهن على البلبلة في عاصمة السلطنة وعلى مساعدة المماليك المصريين، فأعلن انفصال سوريا عن السلطنة العثمانية. وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٢٠، اتخذ لنفسه لقباً مملوكياً هو « الملك الأشرف »[٣] وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة، ونقش اسمه على النقود السورية. وقضى على حامية دمشق العثمانية، وطرد العثمانيين من بيروت وطرابلس وحماه وغيرها من المدن. لكن التمرد لم يحظ بتأييد شعبي واسع، ولم يكن المماليك المصريون على مستوى ما عُلِّقَ عليهم من آمال. ولم يبدِ فلاحو سوريا والأهالي فيها أي اهتمام، بل اتخذوا موقفاً عدائياً من الغزالي. كما أن التمرد كان مفاجئاً للسكان، إذ « أدهش البلاد بأسرها »[٤]. ولم يلتحق بالغزالي غير الدروز وبدو جبل نابلس وبعض القبائل، كما أن فرسان يوحنا أرسلوا له بعض قطع المدفعية من جزيرة رودس[٥]. في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٥٢٠، جمع الغزالي ٢٣ ألف مقاتل وشن حملة على حلب التي لم تعترف بسلطته. ورغم القصف المدفعي العنيف الذي تعرضت له المدينة، فإنها تمكنت من الصمود حتى وصول الجيوش العثمانية من الأناضول. وفي ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) بدأ الغزالي بالتقهقر، وفرَّ عملاؤه من طرابلس وبيروت وغيرهما من المدن فور وصول طلائع العثمانيين. وفي ٢٧ كانون الثاني (يناير) عام ١٥٢١، نشبت معركة المصطبة قرب دمشق وانتهت بهزيمة قوات الغزالي[٦] الذي تنكَّر في زي درويش وحاول الهرب، غير أنه وقع في الأسر وأعدم في ٦ شباط (فبراير) ١٥٢١. ودخل العثمانيون دمشق وألغي الحكم الذاتي في سوريا، وقُسمت البلاد إلى ثلاث ولايات مراكزها في دمشق وحلب وطرابلس، ووضعت منذ ذلك الحين تحت إدارة الباشاوات العثمانيين وخضعت

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٣٨٢.

(٣) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٣٧٠.

(٤) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 283.

(٥) بارتولد « الخليفة والسلطان ». ص ٦٢.

(٦) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 13.

للباب العالي مباشرة. أما المماليك فقد تشتتوا وانصهر بعضهم في الطبقة العثمانية الحاكمة. وظلت أسماؤهم خلال القرن السادس عشر تلاحَظُ بكثرة ضمن قوائم أصحاب الأملاك الاقطاعية في سوريا (٧).

أما سيف الدين خير بك الذي حكم مصر منذ العاشر من أيلول (سبتمبر) عام ١٥١٧، فقد حافظ أثناء تمرد الغزالي على ولائه للباب العالي، ووجّه قواته لمحاربة الغزالي. وخلافاً للمعتمدين العثمانيين الآخرين خلع على نفسه لقب «ملك الأمراء»، وكان ذلك أرفع من لقب بكلربك (أمير الأمراء) لكنه دون لقب سلطان. كان يصبو إلى أن يكون هذا اللقب رمزاً لوضع مصر الخاص كحليفة للباب العالي تتميز عن باقي ولايات السلطنة الأخرى. كان لخير بك جيشه الخاص وحاشيته مع بروتوكول مملوكي مثالي، كما أنه تمتع باستقلال تام في شؤونه الداخلية، واحتفظ كذلك بالتنظيمين الديني والإداري السابقين في البلاد، وحافظ على التقاليد المحلية في حياة الدولة. كان انكشارية مصر، خلافاً لانكشارية اسطمبول وغيرها من المدن العثمانية يتقاضون راتباً شهرياً على غرار «مماليك الخندكار» (٨).

أصبح المماليك المصريون وشيوخ البدو الركيزة الأساسية لخير بك، الذي استمالهم إلى جانبه وعيّنهم في المراكز العسكرية والإدارية. وخلافاً لفرق الخيّالة والانكشارية العثمانيين الذين تحوّلوا إلى حاميات في كبريات مدن مصر الذين كانوا يتبدلون بصورة دورية، ظل المماليك المصريون يرابطون في البلاد على نحو دائم ويمارسون السلطة في مناطقهم. استمر النظام التقليدي في شراء المماليك وتعليمهم وترقيتهم على حاله دون تغيير. ومنذ عام ١٥١٩، عاد المماليك إلى تقاضي الرواتب واستلام مخصصات اللحوم والحبوب. وفي عام ١٥٢٠ أعيدت إليهم بزتهم القديمة، لكن دون أراضيهم وأملاكهم.

في عهد سليمان العظيم بدأت في مصر «عثمنة» الادارة تدريجياً. ففي شهر أيار (مايو) ١٥٢٢ أمر السلطان بتنفيذ إصلاحٍ قضائي. فعوضاً عن نظام القضاة الأربعة الكبار (قضاة الشرع) استحدث منصب قاضي القضاة في القاهرة، فأخذ يصدر أحكامه وفقاً للمذاهب الأربعة (٩). وفي الوقت نفسه، تمّ حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا يعاونون القضاة وقد بلغ عددهم مئات عدة، وعين قضاة من الفلاحين، وأُعيدَ تنظيم إدارة الأوقاف وأملاك الخزينة لكي تتفق والنمط العثماني.

---

(٧) B. Lewis «The Ottoman Archives...». p. 149.

(٨) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ص ٣٦٧ و ٤٠٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ٤٥٣.

الخطوة التالية التي اتخذت على طريق «عثمنة» مصر تمثّلت بإنهاء الملكية المملوكية. ففي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٢٢، توفي ملك الأمراء سيف الدين خير بك، وفي ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) عُيّن الوزير الأكبر مصطفى باشا والياً جديداً على مصر، فقام هذا بإعادة تنظيم شاملة لإدارة البلاد. أبقى مصطفى باشا على التقسيمين السياسي والإداري السابقين بما يتلاءم ومتطلبات السلطة الجديدة. فأصبحت مصر ولاية عثمانية جديدة يحكمها بكلربك (أمير أمراء)، وخضع له المماليك وشيوخ البدو وقادة الحاميات المحلية. وتم تسريح الحرس المملوكي وقوات المرتزقة التابعة للمماليك من المغاربة وغيرهم... أو أُلحقوا بقوات سبعة فيالق (أورطة) للجيش العثماني في مصر. أما التنظيم الداخلي ودفع رواتب الانكشارية فكان يتم وفق القوانين العثمانية العامة. وفي مناطق الريف عُهد بمسؤولية المحافظة على النظام إلى شيوخ البدو المماليك الذين حافظوا على تنظيمهم الطائفي. وقد تبيّن في هذا المضمار أن نظام ملكية الإقطاع الصغير ليس ضرورياً وبالتالي لم ينتشر في وادي النيل. وبدأت مصر تدفع ضريبة سنوية للباب العالي بلغت ١٠٠ ألف دينار مع إرسال الجنود لوضعهم في تصرّف الحكومة المركزية. وتعيّن على المماليك وشيوخ البدو ان يتشبّهوا في عملهم ببكوات السناجق العثمانيين. ودوّنت التعليمات المتعلقة بذلك في **قانون- نامه** مصر، الذي نشر في ١٨ تموز (سبتمبر) ١٥٢٣ [١٠]. لسن هذا القانون، استفاد مصطفى باشا بشكل واسع من نظم (قوانين) السلطان المملوكي قايد باي التي جسدت التقاليد القديمة لحياة الريف والإدارة في مصر. جرى التدقيق في تلك القوانين وأعيد النظر فيها كي تتفق ومقتضيات الحياة الحكومية والاجتماعية العثمانية.

أثار حلّ السلطنة المملوكية استياء جدياً في أوساط المماليك والبدو، فدبّروا مؤامرة تزعمها جانم الصيفي وهو مؤيد متحمس لخير بك. وفي عام ١٥٢٣، قام المملوكان جانم وإينال بانتفاضة فقضيا على خونة «القضية المملوكية»، ثم تحركا إلى الشرقية حيث التقيا ووحّدا قواتهما هناك، ووقفا ينتظران وصول متآمرين آخرين. فسارع والي مصر مصطفى باشا إلى تحريك القوات العثمانية لمواجهتها، وكانت تناهز الخمسة آلاف انكشاري وتوفكنجي (خيالة). وتمكنت القوات العثمانية من سحق قوات المماليك وقُتل جانم في المعركة في حين فرَّ إينال. ورغم فشل التمرد، بقي الوضع في مصر على حاله من التوتر الشديد. وفي ٢٠ آب (أغسطس) ١٥٢٣، استُدعي مصطفى باشا إلى اسطمبول وخَلَفَهُ قاسم باشا الذي أبلغ الباب العالي بعد فترة قصيرة أن ليس بمقدوره ضبط الأوضاع في مصر [١١]. عندئذٍ عُيّنَ **أحمد باشا** بكلربك مصر وهو من أصل جيورجي، وقد أطلق

(١٠) في منشورات برقان ورد أن قانون - نامه مصر مؤرخ في ١٥٢٤، وقد يكون ذلك تاريخ تسجيل أو تثبيت قانون - نامه في اسطمبول. M. Digeon «Nouveaux Contes...». T. 2. p. 278.

(١١) M. Digeon. op. cit. T. I. p. 95.

عليه في التاريخ العثماني اسم « قايين ». كان هذا القائد قد هزم فرسان رودس في عام ١٥٢٣، وكان يصبو إلى منصب الصدر الأعظم. غير أن سليمان باشا العظيم عيَّن ابراهيم باشا المقرَّب منه في منصب الصدر الأعظم. وعرض مصر على أحمد باشا، فشعر هذا بالمهانة لكنه مع ذلك قبل منصب بكلربك مصر. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢٣، وصل إلى القاهرة وتمكَّن على الفور من التفاهم مع المماليك المعارضين وشيوخ البدو. لكن التعطش إلى الانتقام الذي استبدَّ بأحمد باشا لم يبقَ على ما يبدو خافياً على السلطان. وتشير المصادر العثمانية إلى أن أحمد باشا عند توجهه إلى مصر أُتبعَ برسول يحمل كتاباً سرياً إلى قائد انكشارية القاهرة قارا موسى أن يتسلَّم زمام الأمور في مصر وأن يعدم أحمد باشا [١٢]

بيد أن الكتاب السري وقع بيد أحمد باشا وكان سبباً لتمرد جديد. فألقى القبض على قارا موسى وبعض قادة الانكشارية الكبار وأعدمهم. ثم حصل على تأييد سريع من بعض المماليك والبدو الذين لعبوا دوراً حاسماً في حركته. وفي كانون الثاني (يناير) ١٥٢٤، وصلت إلى القاهرة فصائل البدو المسلحة التابعة للأمير أحمد بن بَكرة من الشرقية والأمير بن عمر من الصعيد أو مصر العليا [١٣]. وبالاستناد إلى هذه القوات نادى أحمد باشا بنفسه سلطاناً على مصر وأعلن انفصاله عن الباب العالي وأحيا دولة المماليك. ثم عَزَل قاضي قضاة مصر وأعاد العمل بنظام قضاة الشرع الأربعة. وفي مراسم تنصيب السلطان الجديد روعيت أدق التفاصيل التي كانت نافذة في البلاط المملوكي القديم. إضافة إلى قضاة الشرع الأربعة اشترك في مراسم التنصيب الخليفة العبّاسي المتوكل الذي عاد إلى مصر بعد وفاة السلطان سليم الأول [١٤]

بعد استيلاء أحمد باشا على السلطة، عزل كل الموظفين العثمانيين وسرّح الانكشارية وبدأ باعادة تنظيم جيش المماليك. وأعيد تحويل الأملاك السلطانية وبدأ توزيعها على المماليك والبدو [١٥]. وأخذ يفتش له عن حلفاء خارجيين، فحاول إقامة علاقة مع نبلاء روما وقائد فرسان القديس يوحنا الكبير، وملك الصفويين اسماعيل. لذا أطلق عليه العثمانيون لقب « قايين ».

أثار قلب السلطة العثمانية وإبراز دور زعماء البدو استياء عاماً في البلاد. فرفض الفلاحون دفع الضرائب، واندلعت الاضطرابات في المدن. وبسبب مصادرة الأملاك والقروض الإلزامية والحكم

---

(١٢) Ibid. pp. 69 et 96.

(١٣) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 52. Note numero 1.

(١٤) بارتولد « الخليفة والسلطان... ». ص ٦٧.

(١٥) Stanford Shaw. «History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. 1. Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280 - 1808». Cambridge, 1977. p. 89.

بالموت على الأعيان، تحوّل كبار الأعيان والتجار وزعماء الطوائف الدينية إلى أعداء لأحمد باشا. من جرّاء ذلك اتخذ التمرد ملامح انقلاب منذ البداية، ولم يحظ بأي تأييد جدّي في مصر.

وسرعان ما أرسل سليمان العظيم قوات عثمانية لإخماد التمرد. ولم تكد تتحرك حتى تلقت أمراً بالعودة، إذ فشل التمرد في ٢٣ شباط (فبراير) ١٥٢٤، بعد أن انتفض سكان القاهرة وقلبوا «الطاغية الوغد»، أخذ أحمد باشا على حين غرّة، فقد كان في الحمام ووجد صعوبة بالغة في الخروج منه للوصول إلى القلعة، وفي اليوم التالي فرَّ من القاهرة(١٦) وراح يجوب البلاد بحثاً عن ملجأ له، لكنه وقع في الأسر وأُعدم في ٦ آذار (مارس) ١٥٢٤(١٧).

وبهدف إقرار الهدوء والأمن نهائياً في البلاد، أرسل سليمان العظيم إلى مصر الصدر الأعظم ابراهيم باشا الذي وصل إلى القاهرة في ٢٤ آذار (مارس) ١٥٢٥. وخلال ثلاثة أشهر من وصوله أعاد الشرعية العثمانية إلى مصر وأعدم شيوخ الحفارة وبكر الذين شاركوا في التمرد بحماس، وطرد المماليك المشتبه باشتراكهم بأحداث ١٥٢٣ - ١٥٢٤. واستخدم ابراهيم باشا كل الوسائل التي تؤكد عزم الباب العالي على الحزم في الإدارة وفقاً لمبادىء الشريعة والعدالة. ودُفعت التعويضات السخية إلى كل من تعرض للظلم في عهد أحمد باشا، ونشط العمل لإعادة بناء أنظمة الري ومنشآته، واعمار القُرى وتحضير سجلات الريف وغيرها. وأطلق سراح الفقراء المسجونين بسبب الديون، وصدر أمر بإعالة اليتامى على حساب الدولة وإصلاح المساجد والمآوي وغيرها من المؤسسات الإسلامية. وطاف المنادون في الشوارع يدعون كل من له شكوى ان يتقدم بها إلى الصدر الأعظم مباشرة(١٨).

جمع ابراهيم باشا بين «محبة الشعب» للطريقة العثمانية النموذجية وأقسى صنوف الاضطهاد والتنكيل. فتمكّن بذلك من إقرار الأمن والهدوء في البلاد خلال فترة قصيرة. وفي ١٤ حزيران (يونيو) ١٥٢٥، عاد إلى اسطمبول. ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٥٨٧ لم تشهد مصر أي اضطرابات سياسية جدّية. ولم تتسبب هذه البلاد بأي متاعب للحكومة المركزية العثمانية وعلى مدى جيلين ظلت مصر تتمتع بالهدوء والسكينة. فيضانات النيل، وحفلات استقبال الباشاوات وتوديعهم، وإرسال فصائل المقاتلين في الحملات العسكرية، ووصول القوافل والحجّاج، والزلازل والحرائق هي تقريباً كل ما دونت كتب التاريخ من أحداث في حياة الولاية الهادئة ذات الزراعة الخيّرة تلك كانت مصر في عهد البكاوات العثمانيين الأوائل.

(١٦) M. Digeon. op. cit. pp. 103 - 104.

(١٧) P. Holt. «Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922. A political History». New York 1966. p. 50.

(١٨) J. de Hammer. op. cit. T. 5. pp. 57 - 59. Et S. Shaw. op. cit. pp. 89 - 90.

ضم العراق وشرق شبه الجزيرة العربية إلى السلطنة العثمانية

قامت السلطة العثمانية في العراق، كنتيجة غير مباشرة لحرب العثمانيين مع إيران الصفوية والبرتغال. ومع ان جانباً كبيراً من تاريخ تلك الحقبة الزمنية لا يزال غامضاً، نستطع التأكيد ان الطوائف المسيحية ولا سيما الأشوريين، والمسلمين السُّنة رأوا في الباب العالي منقذاً من الصفويين فقد ترافق فتح الشاه اسماعيل الصفوي للعراق تنكيل جماعي لكل فكر مناهض حكمه، ولم تسلم بعض الأماكن السُّنية المقدسة من الضرر.

وقد شهدت بغداد وغيرها من المدن العراقية موجات من الفرس، وانتشرت فيها اللغة الفارسية، وأغدقت الهبات على الأماكن المقدسة الشيعية في النجف وكربلاء وسامرّاء. وبأمر من الشاه اسماعيل، بدأ بناء ضريح ضخم على قبر الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم الذي يعتبر الأب الروحي للصفويين. وحصلت قبائل القِزِل باشي على أفضل الأراضي والمراعي، وأصبح خاناتهم (جمع خان) حكاماً من ذوي السلطة المطلقة في العراق.

لذا استقبلت أخبار انتصار سليم الأول في مرج تشالديران في عام ١٥١٤ بمظاهر الابتهاج في أوساط جميع طوائف العراق باستثناء الشيعة، وذلك في مناطق ما بين النهرين السفلى والعليا، أي في العراق والجزيرة[١]. كان الأكراد أول من انتفض عام ١٥١٤ وأعلنوا انضمامهم إلى السلطان

(١) الجزيرة هي القسم الذي يضم مناطق ما بين نهري دجلة والفرات يبدأ من خط تكريت ـ عانه في الجنوب حتى سلسلة جبال طوروس الأرمنية الشرقية في الشمال، وهي أراضي مملكة الأشوريين القديمة تقريباً. في الوقت الراهن يقع الجزء الشمالي من=

العثماني. واعترف حكام بيطليس الأكراد، وهم أكبر الأمراء في كردستان الغربية بسلطة العثمانيين، أكراد العمادية وحكام جزيرة ابن عمر وبكوات أردالان. وأصبحت الإمارات الكردية في حماية الباب العالي لكنها احتفظت بنظامها الداخلي وقوانينها وعاداتها. واقتصر تبديل السلطة في الواقع على توزيع الملابس وإصدار الفرمانات كما يقول س. لونغريغ، «وقبول الهدايا وتأكيد الولاء»[٢].

وفي عام ١٥١٥، حصلت انتفاضة في الجزيرة كان على رأسها قادة من السُّنة لا سيما زعماء العائلات الكردية. وشارك الأشوريون أو الميديون السود ـ كما سمّاهم كانتيمير ـ مشاركة فعّالة في الانتفاضة. فاستطاع المتمردون تحرير عدد من مناطق الجزيرة من القِزِل باشين واستولوا على عاصمتها مدينة آمد أو قَرَه آمِد التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم ديار بكر وهي أحد أهم المراكز الدينية والثقافية للشعب الأشوري. ومن هناك أرسلوا وفداً إلى اسطمبول لطلب المساعدة والحماية. لكن سليماً الأول لم يستجب لاقتراح المتمردين بادىء الأمر، وظل ممتنعاً عن التدخل في شؤون بلاد ما بين النهرين العليا سنة كاملة. ويرى كانتيمير أن السلطان العثماني لم يكن يثق بهذا الشعب، لذلك خشي الموافقة على طلبه[٣]. ولم يكن يرغب في تشتيت قواته التي كانت تستعد لتوجيه ضربة قاضية للمماليك. وخلال عامي ١٥١٥ و ١٥١٦ خاض المتمردون قتالاً ضارياً وجهاً لوجه ضد جيوش القائد الصفوي قَرَه خان والي آمد الذي استطاع بمساعدة قبيلة **أوستاجلو** وهي إحدى عشائر القزل باشين السبعة، الصمود في مدينة **ماردين**. وشهدت معظم مناطق البلاد معارك صغيرة مع القزل باشين الذين تمكنوا من الاحتفاظ بأكثرية المدن والقلاع في بلاد ما بين النهرين العليا تحت سيطرتهم.

عام ١٥١٦، أرسل المتمردون بعثة جديدة إلى سليم الأول. فوافق العثمانيون هذه المرة على مساندة الانتفاضة. و «بناء على اتفاق شرف» وافق السلطان وضع المتمردين تحت حمايته وأعلن سيادة الباب العالي على الجزيرة، كما أرسل إلى مدينة آمد أحد الأمراء الأكراد **محمد بك بيّقْلو** ممثلاً عنه بعد أن منحه لقب بكلربك ترافقهُ حاشية صغيرة. وبموافقة سائر المجموعات المشاركة في الانتفاضة، استلم محمد بك إدارة البلاد وقاد الحرب ضد القَزِل باشين. وبعد أن شكل جيشاً صغيراً من المتمردين توجّه على رأسه لمحاربة القوى الأساسية لقرَه خانَ.

= الجزيرة ضمن أراضي تركيا، والجنوبي ضمن العراق وسوريا. أما «العراق العربي» في القرون الوسطى فيضم أراضي مملكة بابل القديمة تقريباً ـ المؤلف.

(٢) Stephen Longrigg. «Four Centuries of Modern Iraq». Oxford 1925. p. 20.

(٣) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 186.

دارت المعركة الأساسية قرب موقع كوتش ـ خيسار على بعد ١٧ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من ماردين. وتقول أسطورة عثمانية أن المعركة بدأت بقتال بين الفراشات، فقد حَطَّ بين جيش محمد بك بتّقْلو وجيش قرَه خان، سِربان من الفراشات: واحد أبيض والآخَر أحمر. سِرْب الفراشات البيض حَطَّ من ناحية المتمردين، أما سرب الفراشات الحمر فحط من ناحية القِزل باشيين. ودار قتال بين السربين فانتصرت الفراشات البيض، وكان ذلك فأل خير ألهبَ الحماس بين جنود محمد بك، فاندفعوا نحو القوات الصفوية وهزموها شر هزيمة، ووقع قَـرَه خـان نفسـه في الأسر وقُطِعَ رأسه. ثم تقدم المتمردون إلى مدينة ماردين وحاصروها. لكن القَزِل باشيين الذين تولّى قيادتهم سليمان خان شقيق قَرَه خان القتيل أبدوا مقاومة عنيدة. وطال الحصار ولم يتمكن محمد بك من الاستيلاء على المدينة إلاّ بعد وصول قوات كبيرة من الجيش العثماني أرسلها سليم الأول فور انتصاره في معركة مرج دابق في ٢٤ آب (أغسطس) ١٥١٦. ثم تقدم محمد بك إلى مدينة الموصل فاستولى عليها بعد معركة عنيفة، وبذلك ثبّت سلطته في شمال العراق كله.

شكّلت بلاد ما بين النهرين العليا ولاية متميزة في السلطنة العثمانية. وظلت مدن الموصل وخانه ومناطق أخرى من شمال العراق سناجق في تلك الولاية حتى عام ١٥٣٤. وعلى حدود مناطق الصفويين رابطت حاميات عثمانية قوية؛ وأقام في مختلف القرى قرابة عشرة آلاف فارس عثماني، كما طبّق النظام الزراعي الإقطاعي الصغير المشروط بالخدمة العسكرية[٤]. انتهج العثمانيون في البداية سياسة التسامح الديني، وقدّموا الحماية للكنيسة النسطورية. وبعد شيء من التردد اختيرت الموصل، وهي أهم المدن المسيحية في الجزيرة، مقراً لإقامة الكاثوليكوس النسطوري.

ساهمت سلطة العثمانيين على بلاد ما بين النهرين العليا في انتعاش الحياة الاقتصادية لهذه المنطقة الغنية بالأراضي الزراعية. واستُصلحت الأراضي المهجـورة مـن جـديـد على أيـــدي المزراعين الأشوريين الذين تركوا المناطق الجبلية الصعبة المنال وأخذوا ينزحون بكثافة إلى سهول سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا[٥]. وطبقت القوانين العثمانية لاستغلال الأراضي في مختلف المناطق، ونظمت لذلك دفاتر خاصة. فألغى العثمانيون الضرائب «الجائرة»، وعمليات ابتزاز المال التي كانت تمارس على الفلاحين في عهود أقُّـويـو نلـو والصفـويين. وفي عـام ١٥١٨، ظهـرت أولى القوانين ـ نامه العثمانية لديار بكر وأورفا وماردين وغيرها من سناجق بلاد ما بين النهرين[٦]. ومن

(٤) A. Lybyer. op. cit. p. 258.

(٥) سباسكي، «النساطرة السوريون وانضمامهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية». مجلة «البشارة الإلَهية» العدد الخامس لعام ١٨٩٨. ص ٢٣١.

(٦) O. Barkan. op. cit. pp. 145 - 171.

قوانين أوزون - حسن أوبادي شاه حسن، كما كان يسميه الموظفون العثمانيون، اقتُبِست بنود كثيرة للحقوق والأعراف المحلية.

بقيت المناطق الوسطى والجنوبية من العراق تحت سلطة الصفويين. وتعاقب حكام بغداد الصفويون على السلطة بعد أن منحهم الشاه لقب «خليفة الخلفاء» كلقب للسخرية. وقد انتهج هؤلاء الحكام سياسة التطرف المذهبي. لكن الملاحقة والاعدام لأسباب مذهبية وأعمال الابتزاز والاغتصاب التي مارسها القَزل باشيون، كانت تنمّي تعاطف السكان مع العثمانيين. وكان العثمانيون من جهتهم، يشجعون ذلك بكل الوسائل مؤكدين عدم استعدادهم لعقد أي سلام أو صلح مع الصفويين، وتميزت الرسالة التي بعث بها السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٥ إلى شاه الصفويين الجديد **طهماسب** (١٥٢٤ - ١٥٧٦)، بشهرة واسعة حيث اختلط فيها التهديد بالسخرية. وقد عرض سليمان القانوني في ختامها على حاكم إيران الجديد أن ينزع التاج عن رأسه ويرتدي ثوب الدراويش كما فعل أسلافه [٧].

في الجنوب، أي في البصرة وشرق شبه الجزيرة العربية، كان الحنين إلى العثمانيين يتخذ مظهراً أقوى. فقد انتظر الناس العثمانيين كمنقذين لهم من نهب «الفرنجة» واغتصابهم. ومن المعلوم أن الفرنجة كانوا منذ العام ١٥١٥ قد ثبّتوا مواقعهم في مضيق هرمز، وهو معقل السيطرة البرتغالية في عُمان وشرق شبه الجزيرة العربية. ومنذ ذلك الوقت أخذت مراكب الفرنجة التي تقل البرتغاليين تجوب مياه الخليج الفارسي دون أي عقبات. وفي عام ١٥٢٢، تمكّن الفرنجة من إخماد الانتفاضة العامة التي اندلعت في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢١ في هرمز وظفار ومسقط وغيرها على ساحل شبه الجزيرة العربية من البحرين حتى ميناء قريات [٨]. عزز البرتغاليون وزادوا الضرائب المفروضة على عُمان والقطيف والبحرين. وفي العامين ١٥٢٦ و ١٥٢٧ أخمدوا تمرداً جديداً في مسقط وقريات ثم في البحرين في العام ١٥٢٩. وفي ذلك العام أيضاً، ظهر البرتغاليون للمرة الأولى في البصرة، وطالبوا الحاكم العربي المحلي التابع للصفويين بتقديم سبع سفن تجارية عثمانية لهم، ومنع الرعايا العثمانيين من ارتياد المنطقة للقيام بأعمال تجارية. وعندما قوبل هذا الطلب بالرفض قصف البرتغاليون مدينة البصرة وتوغّلوا صعوداً في شط العرب وأحرقوا عدداً من القرى العراقية [٩]. وبعد أن ثبّت البرتغاليون سلطتهم في عُمان وشرق شبه الجزيرة العربية تمركزوا في مواقع تجارية على الشاطىء، فبنوا فيها الحصون المشرفة على المدن، وفرضوا رقابة على الجمارك، وأخذوا

---

(٧) J. de Hammer. op. cit. T. 5. pp. 63 - 65.

(٨) A. Wilson. op. cit. p. 123. and S. Miles. «The Countries and Tribes of the Persian Gulf». London 1966. pp. 156 - 160.

(٩) A. Wilson. op. cit. p. 124.

يتقاضون الضرائب والرسوم الجمركية الباهظة. وكانوا في بعض الأحيان يصادرون جزءاً من البضائع. وفي عرض البحر راحوا يهاجمون السفن التجارية الاسلامية. أما قباطنة السفن ذوي الشكيمة والمراس، فكانوا يُنزلون جنودهم إلى الشاطىء لإلقاء القبض على السكان المحليين وتعذيبهم بقصد الحصول منهم على معلومات عن خبايا وكنوز تلك المناطق. وحلّت نكبات كثيرة بصيّادي اللؤلؤ الذي يبيعه الغزاة بأثمان مرتفعة.

لكن البرتغاليين بعد أن أخضعوا الإمارات والمدن الساحلية لم يتدخلوا في شؤون حياتها الداخلية. واقتصرت تصرفاتهم بشكل عام على حبك الدسائس وأعمال الرشوة والقتل.

وعلى اليابسة، نادراً ما كان البرتغاليون يخرجون إلى مسافات تزيد عن مدى مدفعية سفنهم. ولم يكن يهمهم في الواقع إلاّ جمع ما أمكنهم من الذهب والمجوهرات والأقمشة النادرة وغيرها من النفائس بما فيها المستحضرات الطبية والتوابل وغيرها.

بعد انهيار السلطة المملوكية، أصبح العثمانيون الأمل الوحيد لمسلمي الخليج الفارسي. أما الصفويون فلم يشكلوا أي عائق في وجه الاستعمار البرتغالي. وبموجب اتفاقية ١٥١٥، تمكن ديالبو كركي، مقابل عقد تحالف عسكري ضد العثمانيين، من الحصول على اعتراف الصفويين بحق السيطرة البرتغالية على هرمز [١٠]. وتنازل الصفويون للبرتغاليين عن حق تقاضي الرسوم الجمركية في مرافىء شرق شبه الجزيرة العربية وأعطوا موافقتهم على نشاط البرتغاليين في الخليج الفارسي. وبدأ الحكام المحليون واحداً بعد الآخر يتوجهون إلى اسطمبول طالبين دعمها. وفي عام ١٥٢٦، أرسل هؤلاء الحكام مبعوثين يحملون رسائل إلى سليمان العظيم يطلبون منه المساعدة [١١] ووصلت رسائل مشابهة من البصرة وبغداد.

في عام ١٥٢٩، حصلت في العراق الأوسط انتفاضة قوية معادية للصفويين لم يعرف عنها إلا القليل. وتقول المصادر الفارسية إن الانتفاضة كانت بقيادة ذو الفقار بك [١٢] هو أحد أعيان بدو لورستان الرحّل. فقد تمكن هذا القائد في موقع على أحد المضائق الجبلية من قهر قوات الصفويين، ثم دخل بغداد. ووسط تأييد السكان، أقام سلطته على العراق الأوسط بكامله، ثم أعلن قطع كل علاقة مع الصفويين وأرسل مفتاح بغداد إلى سليمان العظيم [١٣]. وصدر الأمر بالدعاء للسلطان

---

(١٠) Ibid. p. 121.

(١١) عباس العزاوي. «تاريخ العراق بين الاحتلالين». المجلد الرابع. «العهد العثماني الأول». بغداد ١٩٤٩. ص ٨٧.

(١٢) ن. بيغوليفسكايا و أ. ياكوبوفسكي، و ي. بتروشيفسكي وآخرون. «تاريخ ايران منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن الثامن عشر». لينينغراد ١٩٥٨. ص ٢٥٧.

(١٣) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 204.

العثماني في خطبة الجمعة من على جميع منابر المساجد، ونقش اسمه على النقود العراقية. ووصلت إلى اسطمبول بعثة لطلب المساعدة وبسط حماية الباب العالي على البلاد (١٤).

بيد أن ذو الفقار بك لم يتمكن من الاحتفاظ بالسلطة حتى وصول الجيوش العثمانية. ففي عام ١٥٣٠، اجتاح جيش شاه الصفويين طهماسب العراق فهزم قوات المتمردين وحاصر بغداد. لكن الأهالي صدّوا عدداً من الهجمات، ولم يتمكن الفرس من قهر مقاومة المدافعين عن المدينة والاستيلاء على بغداد إلاّ بعد مقتل ذو الفقار بك على يد أشقائه الذين تنكّروا له وخانوه. وعُيِّن على العراق والٍ جديد هو محمد خان سليل قبيلة قزِل باش التركمانية الذي أعاد بناء سلطة الصفويين هناك.

كان العثمانيون طيلة تلك الفترة منشغلين بالحرب في أوروبا أي في المجر والمانيا حيث كانت تتقرر حدود دار الاسلام في نظر الباب العالي. ولم يشعروا بحرية التحرك في الشرق إلاّ بعد عقد اتفاق سلام مع آل هابسبورغ حكام النمسا صيف ١٥٣٣. فبدأ سليمان العظيم حملته الأولى على بلاد فارس في أيلول (سبتمبر) ١٥٣٣. فوجه لمحاربة الصفويين جيشاً ضخماً بلغ تعداده، وفقاً لبعض المعطيات، ١٤٠ ألف رجل (١٥) بقيادة الصدر الأعظم ابراهيم باشا. وقبل حلول الشتاء تمكن من استعادة بيطليس وسائر المناطق الواقعة بين أرضروم وبحيرة ڤان. وفي ربيع ١٥٣٤ انتقل إلى الهجوم الشامل، فأخذ القزل باشيون يتراجعون على عجل. وتخلّى الشاه طهماسب عن الأرض على أمل الاحتفاظ بالجيش والدولة. وفي ١٣ تموز (يوليو) ١٥٣٤ دخلت الجيوش العثمانية مدينة تبريز عاصمة الصفويين. ووصل إليها السلطان سليمان العظيم نفسه مع الجيش المحارب وبعد أن وحَّد العثمانيون قواتهم تحرّكوا إلى الجنوب نحو همذان، ومنها نحو المساكن الشتوية في العراق للتوقف فيها.

تبيَّن ان عبور جبال زاغروس كانت أقسى تجربة مر بها العثمانيون خلال الحملة كلها. فقد كانت الأمطار الغزيرة الباردة تهطل دون انقطاع، وعندما بدأ الجيش العثماني بالهبوط على المنحدرات الجبلية تكبّد خسائر فادحة. فقد كانت السيول الجبلية العارمة تجرف المدفعية والأمتعة، ونفقت مئات من دواب النقل. ولأجل تسهيل حركة القوات، قررت القيادة إحراق أكثر من مائة عربة مدفعية. ولكي لا تقع المدفعية في أيدي العدو جرى طمرها عميقاً في الأرض.

بعد أن ذلّل الجيش العثماني في عقبات لا تحصى وصل إلى سهول ما بين النهرين، فاستقبل

---

(١٤) S. Longrigg. «Four Centuries...» pp. 20 - 21.

(١٥) J. de Hammer. op. cit. T. 5 p. 533.

السكان سليمان العظيم بالسرور والترحيب، ولم يُبدِ أحدٌ أي مقاومة باستثناء القزل باشيين. في بغداد حصلت انتفاضة بزعامة رجال الدين فانقض المواطنون على حامية المدينة وقضوا على جزء كبير منها. وهاجموا بعض رجال الدين الشيعة. أما الحاكم الصفوي محمد خان الذي خدّع أقرباءه وأنسباءه بالتصميم على مواصلة القتال حتى النهاية، فقد هرب من بغداد إلى إيران بطريق الحيلة. وبدأت المدن العراقية، الواحدة تلو الأخرى، تعلن انضمامها إلى سلطة الباب العالي. وانطلق وفد من بغداد فقابل السلطان وقدّم له مفتاح المدينة. وفي ٢ كانون الثاني (يناير) ١٥٣٤، تمّ الاحتفال بدخول سليمان العظيم إلى بغداد حيث استقبل مشايخ قبائل البدو الرئيسية وزعماء مدن العراق الأوسط الذين أدّوا في حضرته يمين الولاء [١٦].

مكثَ سليمان العظيم في العراق أربعة أشهر قام خلالها بتنظيم الإدارة على أسس عادلة [١٧] بادئاً بتثبيت التفاهم الديني في البلاد بعد أن أعاد للسُّنة نفوذهم القيادي السابق. كما أُعيد بناء الأماكن المقدسة السُّنيّة كضريح عبد القادر الكيلاني وأبو حنيفة.

ولا بد من التأكيد ان تجديد زعامة السُّنة في عهد العثمانيين لم يصاحبه أي اضطهاد ديني، بل إن العثمانيين قدّموا الحماية للشيعة المحليين كما قدموها لليهود والمسيحيين. حتى إن اليزيديين في بادىء الأمر تمتعوا بعطف السلطان. في عام ١٥٣٤ عيَّن السلطان رئيس الطائفة اليزيدية حسين بك الداسيني مديراً لسنجق أربيل [١٨]. واحتفظ الشيعة بحريتهم الكاملة في العبادة والشؤون الذاتية لطائفتهم. وزار سليمان العظيم قبر موسى الكاظم وأمر بإنجاز بناء الضريح الذي بوشر به في عهد الشاه اسماعيل. ثم قام السلطان بعد ذلك بالحج إلى كربلاء والنجف. وأوقفت للأماكن المقدسة الشيعية، على غرار السُّنية، أملاك كبيرة [١٩].

أُخضع الجهاز الإداري والحكومي لعملية إعادة تنظيم شاملة. فاستُحدثت ولايات بغداد والموصل بعد فصلها عن ديار بكر عام ١٥٣٤. ثم استُحدثت ولاية شهريزور في عام ١٥٥٤. وأصبحت الإمارات الكردية والبدوية تابعة لهذه الولايات مع احتفاظها بحق وراثة السناجق. وتطلبت إقامة نظام حقوقي جديد سن قوانين ـ نامه محلية في الموصل وتكريت وبغداد [٢٠] وغيرها بهدف القضاء على الظلم والاستبداد و «بدع الهرطقة» التي كانت منتشرة في عهود القزل باشيين. في كل قوانين ـ نامه أُدخلت مبادىء «حب الشعب» و «العدالة» التي اعتادها العثمانيون. وفي

(١٦) S. Longrigg. «Four Centuries...». p. 23.

(١٧) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 220.

(١٨) عباس العزاوي «تاريخ العراق...» صفحات ٤٣ و ٢٥٠.

(١٩) S. Longrigg. «Four Centuries...». p. 23.

(٢٠) العزاوي، المرجع السابق، ص ١٤٩.

فَرمان ١٤ شباط (فبراير) ١٥٣٧ عندما ثبّت سليمان العظيم قانون ـ نامه بغداد، أعلن أنه «لا يُسمح لأحد بعد الآن أن يعامل سكان المدن والقرى خلافاً للقانون والشريعة». وكُلِّف قاضي وبكلربك بغداد إعلام الجميع وكل فرد. وللتأكد من ذلك أمر السلطان بقراءة قانون ـ نامه «من أوله إلى آخره» في جميع المدن والقرى ومناطق التجمعات السكنية [٢١]. ووُضعت في الوقت ذاته مبادىء لفرض الضرائب واستغلال الأرض كما أُجري مسحٌ تفصيلي ونُظمت دفاتر سُجّلت فيها كل التفاصيل المتعلقة بالمقاطعات والأملاك [٢٢].

في نيسان (أبريل) ١٥٣٥ غادر سليمان العظيم العراق. وبقيت في البلاد قوات عثمانية بلغ عددها ٣٢ ألفاً تضمّ ألفاً من الفرسان ـ الخيالة. ولو أضيفت إليها الفصائل المسلحة التابعة للأمراء الأكراد والبدو لبلغت هذه الجيوش درجة عالية من القوة. لقد تحول العراق إلى أقوى رأس جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق الأوسط.

أبعَد تثبيت السلطة العثمانية في العراق الأوسط شبح سيطرة الصفويين عن البصرة وشرق شبه الجزيرة العربية. غير أن الخطر الآتي من جانب البرتغاليين المنتشرين في الخليج العربي بقوات بحرية كبيرة، أجبر حكام هذه المنطقة على عدم التساهل أو التباطؤ في تقوية ارتباطهم بالباب العالي. فقد بادروا فور الاستيلاء على بغداد إلى التعبير عن ارتياحهم لانتصارات السلاح العثماني وإرسال الهدايا. ورأوا في حماية السلطنة العثمانية الضمانة الوحيدة ضد اعتداءات البرتغاليين، فقرروا الواحد تلو الآخر الاعتراف بسيادة السلطان العثماني.

في عام ١٥٣٨ وصلت إلى اسطمبول بعثة حاكم البصرة رشيد بن مُغامس، فالتمست قبول البصرة في التابعية العثمانية وأعلنت البعثة التي كان في عدادها ابن الحاكم مانع ووزيره عامر محمد عن رغبة أهالي البصرة بالانضمام إلى سلطة الباب العالي. كما قدمت للسلطان هدايا قيمة ومفتاح المدينة [٢٣]. قبل سليمان العظيم عرض رشيد بن مغامس وأغدق عليه عطفه وعينه حاكماً مدى الحياة على مقاطعة البصرة.

وأعلن الانضمام إلى سلطة الباب العالي حكام لورستان وخوزستان والبحرين والقطيف وغيرها من إمارات نجد والفرات الأسفل. فأصبحوا كلهم تابعين للباب العالي ومنحوا ألقاباً عثمانية وتأكيدات ثابتة بالدعم والحماية [٢٤].

(٢١) H. Inalcik. «The Ottoman Empire. The Classical Age...». p. 134.

(٢٢) العزاوي، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢٣) العزاوي: «تاريخ العراق...» صفحات ٤٦ و ٢٨٤.

(٢٤) S. Longrigg. «Four Centuries...». pp. 25 - 26.

تجسدت سلطة الباب العالي في المرحلة الأولى وبشكل أساسي في تكريس خطبة الجمعة للسلطان ونقش اسمه على النقود. وفي أفضل الحالات كان العثمانيون يرسلون السلاح ويبنون الحصون ويركزون الحاميات الصغيرة. ومع مرور الوقت وانطلاقاً من مصالح السلطنة العامة بدأوا يتدخلون في شؤون الحياة الداخلية للإمارات التابعة لهم وفي تنظيم العلاقات فيما بينها. على ان الإتصالات المنفردة التي أخذ يجريها الحكّام المحليون مع البرتغاليين وايواءهم للأفراد البرتغاليين الهاربين من عقاب السلطان والقضاء العثماني تسببت بسوء تفاهم كبير مع العثمانيين. وحدث مرة ان تطور سوء التفاهم إلى صدام خطير بين السلطات العثمانية وحاكم البصرة. واعتبر الباب العالي رشيد بن مغامس متمرداً، فتحركت القوات العثمانية والأسطول النهري بقيادة والي بغداد في حملة باتجاه البصرة. وبعد بضعة معارك تمكن العثمانيون من سحق فصائل المتمردين المسلحة غير النظامية وإحراق سفنها. وفي ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤٦ دخلوا البصرة وفرّ رشيد بن مغامس وحاشيته إلى الحسا.

تحول جنوب العراق إلى ولاية تابعة للسلطنة العثمانية. وخفّض الوالي الضرائب، وألغى «ابتزاز الأموال» غير القانوني الذي كان يمارسه رشيد بن مغامس، وأدخل النظام العثماني العام للأراضي والضرائب، كما نشر على الشعب قانون ـ نامه البصرة. ما اتسم بالأهمية البالغة ان والي بغداد حول جمارك البصرة التي كانت تتقاضى مبالغ طائلة من الرسوم المفروضة على البضائع الهندية المستوردة، إلى ممتلكات عامة. وفي عام ١٥٥١، استكمل تحضير الدفتر العثماني الأول الذي سُجلت فيه تفاصيل أملاك الحاكم الخاصة والمقاطعات ونظام الإقطاع الصغير في ولاية البصرة(٢٥).

أصبحت البصرة القاعدة البحرية والعسكرية الثانية بعد السويس للسلطنة العثمانية في البحار الجنوبية. وحاول العثمانيون انطلاقاً من هذه القاعدة، طرد البرتغاليين من الخليج العربي وضمان أمن ولاية الحسا التابعة لهم والتي كانت تضم نجد وكل شواطىء الخليج من الكويت حتى رأس مُسندم على الشاطىء العربي لمضيق هرمز. وليس سهلاً الاجابة عن سؤال كيف ومتى بسط الباب العالي سلطته المباشرة على شرق شبه الجزيرة العربية؟ لكن ولاية الحسا كانت من أواسط القرن السادس عشر حتى نهايته تحت حكم ولاة عثمانيين برتبة بكلربك. ولم تكن سلطتهم وهمية أو إسمية أبداً كما يظن بعض المؤرخين. فآثار المساجد والقلاع العثمانية تدل على النشاط الديني والعسكري والإداري الواسع للعثمانيين الذين انتهجوا فيها السياسة ذاتها كما في الولايات العربية المجاورة(٢٦).

بعد ان تركز العثمانيون في مناطق الحسا الداخلية عمدوا إلى محاصرة القلاع البرتغالية على

---

(٢٥) B. Lewis. «The Ottoman Archives...». p. 150.

(٢٦) عباس العزاوي، «تاريخ العراق...». ص ٢٨٤.



الشواطىء. فاستسلم عدد كبير منها. وفي عام ١٥٥٠، احتل العثمانيون القطيف وهي نقطة الارتكاز الرئيسية للبرتغاليين في الخليج العربي. فقد حطم المواطنون الحامية البرتغالية واستولوا على القلعة وطلبوا مساعدة القوات العثمانية. ولم يكد العثمانيون يدخلون المدينة حتى ظهر الأسطول البرتغالي بقيادة أنطونيو دي نوروني قبالة ساحل القطيف. فاضطر العثمانيون والأهالي الثائرون إلى مغادرة المدينة تحت ضغط قصف مدفعية الأسطول البرتغالي.

عاد البرتغاليون إلى القطيف، لكنهم لم يملكوا قوات وإمكانيات كافية للاحتفاظ بالمدينة، ففجّروا القلعة وأزالوا تحصينات القطيف من على وجه الأرض وانسحبوا إلى عرض البحر.

أدرك العثمانيون بجلاء ان لا أمل بتحقيق انتصار حاسم وطويل الأمد في الخليج العربي دون أسطول قوي. فبدأت استعدادات محمومة للحرب في البحر. وبنيت في البصرة ترسانات وأحواض لبناء السفن. المهم أن العثمانيين قرروا توحيد قواتهم في المحيط الهندي ووضعها بقيادة أميرال أو باشا قابودان البحر الأحمر.

في عام ١٥٤٧ عُيّن الملاح العثماني وواضع الخرائط الجغرافية الشهير **محي الدين بيري رئيس** في منصب باشا قابودان البحر الأحمر. وفي عام ١٥٥٢، عُهد إليه بإقامة حاجز بحري في الخليج العربي وعدم السماح بتكرار مأساة القطيف. وخرج **بيري رئيس** على رأس عمارة بحرية كبيرة مؤلفة من ثلاثين سفينة حربية على متنها ١٦ ألف رجل من السويس متجهاً إلى شواطىء عُمان [٢٧]، فدمّر بضع محطات تجارية برتغالية، وبعد ١٨ يوماً من القصف المدفعي احتل مسقط وهي القلعة البرتغالية الرئيسية على مشارف هرمز ودخل مضيق هرمز. وخلافاً للتعليمات الشكلية التي أصدرها إليه الباب العالي، قرر بيري رئيس مهاجمة عاصمة المستعمرات البرتغالية في الخليج الفارسي. وبعد حصار دام شهراً كاملاً اقتنع باستحالة التغلب على تحصينات هرمز، فتقهقر بعد أن تكبد خسائر فادحة إلى البصرة حيث حاصره الأسطول البرتغالي فيها. ولم ينج بيري رئيس من الحصار إلا بثلاث سفن فقط، فخرج إلى عرض البحر وعاد إلى السويس. ومن هناك استدعي إلى اسطمبول وأعدم بسبب تفرده في قرار الهجوم على هرمز فسبب ذلك انحلال الأسطول وانخفاض الهيبة العسكرية «للدولة التي يحرسها الله» [٢٨].

عُيّن والي القطيف القرصان السابق مراد باشا قائداً للأسطول العثماني في البصرة. وفي آب (أغسطس) ١٥٥٣ غادر بأسطوله البصرة على أمل الوصول إلى البحر الأحمر. غير أن الأسطول البرتغالي بقيادة دييغو دي نوروني هاجمه بغتة في مضيق هرمز فنشبت معركة قرب رأس مسندم

---

(٢٧) B. Miles. op. cit. p. 168.

(٢٨) العزاوي، المصدر السابق، ص ٨٨. وأداموف «العراق العربي...»، ص ٣٢٩.

تكبّد فيها مراد باشا هزيمة كاملة واضطر للعودة إلى مرفأ البصرة مع ما تبقى من أسطوله.

تمكّن العثمانيون خلال عام واحد من إعادة بناء قدرتهم القتالية البحرية. وفي تموز (يوليو) ١٥٥٤ خرج أسطولهم مرة أخرى إلى البحر بقيادة الأميرال «الكاتب الشهير»[٢٩] سيدي علي، الذي كان في وقت سابق قد عمل في البحرية تحت قيادة خير الدين بربروسا، وعقد عليه الباب العالي آمالاً كبيرة. تمكن سيدي علي من الاستيلاء على البحرين ووضع حامية عثمانية فيها. غير انه في وقت لاحق أصيب بخيبة مفاجئة. ففي ٢٥ آب (أغسطس) ١٥٥٤ وفي معركة بحرية بالقرب من مسقط تمكن البرتغاليون من تحطيم أسطوله تماماً. واستطاع مع بعض سفنه من الهرب إلى شواطىء الهند حيث مكث هناك ثلاث سنوات في تجوال متواصل عاد بعدها إلى اسطمبول[٣٠].

لم يتمكن العثمانيون من هزّ قوة البرتغاليين البحرية فتخلّوا عن مخططاتهم الرامية إلى القضاء على الأسطول البرتغالي بضربة واحدة. وأخذوا يقومون بعملياتهم الأساسية انطلاقاً من السويس ومرافىء البحر الأحمر الأخرى. وأصبح الخليج العربي مسرحاً لحرب بحرية صغيرة تقوم على مهاجمة السفن التجارية المنعزلة وقوافل العدو البحرية.

في البر تمكن العثمانيون من تعزيز انتصاراتهم، فخلال حملتي سليمان العظيم إلى بلاد فارس: الثانية (١٥٤٨ ـ ١٥٤٩) والثالثة (١٥٥٤ ـ ١٥٥٥) ألحقَ العثمانيون هزائم جديدة بالصفويين. أما مصير الحرب فقد تقرر في الشمال، في ما وراء القفقاس وفي إيران الوسطى حيث استولى العثمانيون مرة أخرى على تبريز واجتاحوا أرمينيا وآذربيجان. أما العراق فلم ينجر في الواقع إلى العمليات العسكرية وإنما حدثت فيه صدامات محلية وتحركات قام بها العملاء في محاولة لإثارة الفتن والقلاقل في قلب معسكر العدو.

كانت أقوى هذه التحركات انتفاضة عرب المستنقعات بقيادة عليّان الذي استولى على جزء كبير من جنوب العراق في عام ١٥١٩. وقد شكلت هذه الانتفاضة دعماً للصفويين واتصل قادتها بحاكم البصرة السابق رشيد بن مغامس الذي تمكن بمساعدة البرتغاليين من تحريض بعض قبائل البراري العربية. كما ان رشيد بن مغامس وعد البرتغاليين، في حال وصوله إلى السلطة، بعدد من الامتيازات، بما في ذلك حق بناء قلعة برتغالية في البصرة[٣١].

لكن انتفاضة عليّان أخمدت وتمكن العثمانيون خلال فترة قصيرة من تعبئة قوات ولاية بغداد،

---

(٢٩) S. Longrigg. «Four Centuries...». p. 32.

(٣٠) أداموف «العراق العربي». ص ٣٣٠.

Voir aussi B. Miles. op. cit. pp. 173 - 177.

(٣١) A. Wilson. op. cit. p. 125.

وبمساعدة الأسطول النهري العثماني تمكنوا من سحق المتمردين. بعد هجوم استمر ثلاثة أيام احتل العثمانيون «مدينة» وهي مقر قيادة علّيان على نهر الفرات الأعلى قرب القرنة، فشتتوا قوات المتمردين وفرضوا رقابتهم على الشبكة النهرية في جنوب العراق. أما العمارة البحرية البرتغالية بقيادة أنطونيو دي نوروني التي دمرت القطيف فعندما اقتربت من البصرة في عام ١٥٥٠ لم تعثر فيها على أي أثر للمتمردين [٣٢].

لم يتمكن البرتغاليون والصفويون من زعزعة مواقع العثمانيين في العراق وشرق شبه الجزيرة العربية. وقد تعززت سلطة الباب العالي فيه لدرجة كبيرة بحيث انها في النهاية أرغمت القزل باشيين على التخلي عن مواصلة القتال.

وفي ٢٩ أيار (مايو) ١٥٥٥ عقد اتفاق سلام في أماسيه تخلّى الصفويون بموجبه عن حقوقهم في العراق واعترفوا به جزءاً من السلطنة العثمانية.

---

(٣٢) S. Longrigg. «Four Centuries...». p. 32.

السلطة العثمانية في الجزائر

جاء ضم الجزائر إلى ممتلكات السلطان العثماني نتيجة لحرب طويلة شرسة خاضها الفلاحون الجزائريون بدعم من العثمانيين ضد الاستعباد الاقطاعي والسيطرة الأجنبية. لعب العثمانيون في المغرب، للمرة الأولى، دوراً عسكرياً وسياسياً فعّالاً عام ١٤٨٦ عندما وصل أسطول كمال رئيس بأمر من بايزيد الثاني لمساعدة المسلمين ا لإسبان. ومنذ ذلك الحين، ظلت السفن العثمانية راسية بصورة دائمة في مياه غرب البحر الأبيض المتوسط تقوم بالقرصنة ضد السفن التجارية الأوروبية، أو تنقل الأسلحة إلى الموريسكيين وأحياناً تدافع عن الموانىء الأفريقية الشمالية ضد هجمات الغزاة الأوروبيين. كان بعض البحارة العثمانيين يعملون في خدمة الباب العالي مباشرة، فيما كان البعض الآخر يعمل في خدمة سلطان تونس الحَفَصي وغيره من الحكام المحليين. وفي أكثر الأحيان كان الريّاس (القباطنة) العثمانيون يتصرفون بمبادرة ذاتية تماماً وكثيراً ما كانوا يعملون كقراصنة مستقلين متسترين باسم السلطان الحفصي أو السلطان العثماني.

منذ أيام كمال رئيس الذي استُدعي إلى اسطمبول في عام ١٤٩٥، أقام العثمانيون علاقات وثيقة مع مسلمي اسبانيا حتى من بقي منهم تحت سلطة ملوك الفرنجة أو التجأ إلى شمال أفريقيا. كان الأندلسيون أكثر الخلفاء وفاءً ومدعاة للثقة عند العثمانيين في غرب العالم الإسلامي. إذ رأوا في العثمانيين حاميهم الوحيد من ظلم الحكام الإقطاعيين وقبائل البدو. وتحوّل بعض الرياس العثمانيين إلى أبطال شعبيين حقيقيين وأحيطوا بهالة رومانسية كمناضلين بواسل ومدافعين عن الشريعة الحقة.

فكانوا يُستقبَلون بحرارة في موانىء المغرب البحرية حيث اعتادوا قضاء فصل الشتاء ليصلحوا سفنهم ويبيعوا غنائمهم ويعوضوا خسائرهم البشرية لإكمال أطقم سفنهم.

كانت القواعد الرئيسية للقراصنة العثمانيين في جزيرة جربة في القسم الجنوبي من الشاطىء التونسي وفي مرفأ جولييت أو فم الواد.وبورتو فاريتا. وحتى عام ١٥١٠ ظل العثمانيون يستخدمون عنَابة وبجاية وشرشال وغيرها من مرافىء الجزائر. وكان الريّاس يدفعون عادة إلى الحكام المحليين ١/٥ (خُمس) غنائمهم، وأحياناً يوزعونها على الفقراء والدراويش ورجال الدين الذين باركوا القراصنة وأقاموا الصلوات على نيتهم، علاوة على مختلف احتفالات الترحيب بهم. مما دفع المؤرخ الأميركي المعاصر إ. هيس إلى القول بوجود علاقات مهمة بين العثمانيين وقادة المغرب الشعبيين والدينيين وكل من كان يخوض جهاداً مقدساً [١].

بعد اتفاق السلام مع البندقية عام ١٥٠٢ وصلت إلى القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط موجة جديدة من القراصنة العثمانيين بينهم الأخوان عروج بربروس، وهما ولدا فارس انكشاري عثماني اسمه يعقوب من جزيرة ميشيلين في الأرخبيل اليوناني، كان في أوقات فراغه يتعاطى تجارة البازيلا والفاصوليا والأواني الخزفية. وقد اتخذا كنيتهما بربروس التي تعني «ذو اللحية الحمراء» نسبة إلى لحاها الشهباء التي ورثاها عن أبيهما المولود في مكدونيا. أما والدتهما كاترينا فكانت أرملة لكاهن أرثوذكسي. وعند إنجاب الأولاد في مثل هذه الحالة، كانت العادة ان البنت تعتبر مسيحية وتتربى على هذا الأساس بينما يُعتبر الذكر مسلماً. ارتبط مصير ثلاثة من هؤلاء الأولاد بالبحر، وواحد تعاطى مهنة النجارة، وآخر التحق بمؤسسة علمية. أما البنات فقد أصبحت إحداهن راهبة.

سار عروج وخيزير على خطى شقيقهما الأكبر إلياس والتحقا بالأسطول العثماني بصفة غلمان أولاً، ثم أصبحا بحارة واشتركا في المعارك ضد فرسان القديس يوحنا فتميّزا بالشجاعة والذكاء. لذلك حصلا على ترقيات سريعة، وأصبحا ملاّحين شهيرين واكتسبا خبرة مهمة وثقافة واسعة في مختلف المجالات. وإضافة إلى اللغتين العربية والتركية كان الأخوان بربروس يقرءان الايطالية ويتكلمانها بطلاقة. وكتب مؤرخ العرش الاسباني الرسمي في وقت لاحق ان خيزير كان يعتبر نفسه ملمّاً كذلك باللغة القشتالية [٢]. ظل الأخوان بربروس لفترة طويلة يفضلان البقاء بعيداً عن اسطمبول وكانت لهما على ما يبدو مبررات وجيهة. فمن المعلوم ان عروج كان وثيق الصلة بالأمير

(١) Andrew Hess. «The Forgotten Frontier». A History of the Sixteenth Century Ibero - African Frontier». Chicago 1978. p. 60.

(٢) «Histoire d'Aroudj et de Khaïr - ed - Din, fondateurs de la Régence d'Alger». Chronique arabe du XVI ème siècle». 2 tomes. Paris 1837. T. 2 p. 98.

قرقود وهو أحد أبناء بايزيد الثاني وقد افتداه من أسر فرسان القديس يوحنا ومن الممكن أن يكون قد استخدمه في صراعه على السلطة وبخاصة ضد سليم الأول. عام ١٥٠٩، ظهر عروج مع الأمير قرقود في مصر، وفي عام ١٥١٠، وبإذن من السلطان المملوكي قانصوه الغوري توجه عروج، وكان آنذاك قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره، إلى شواطىء تونس حيث ما لبث ان التقى بأخيه خيزير الذي كان أيضاً متوارياً بسبب ملاحقة السلطات العثمانية له. وفي المغرب انصرف الأخوان بربروس إلى ممارسة أعمال القرصنة وكانا يدفعان خُمس غنائمهما إلى سلطان تونس الحفصي الذي أذن لهما بدخول مرفأ فم الواد وإقامة قاعدة ثابتة في جزيرة جربة التي كانت ملجأ للصوص البحر. هناك استطاع الأخوان بربروس، حتى عام ١٥١٢، جمع ١٢ سفينة قديمة بلغ عدد الأفراد العاملين عليها قرابة ألف مجاهد [٣].

آنذاك كانت الجزائر تمثل لوحة محزنة لبلد مدمَّر، مستعبد وتتنازعه الصراعات الداخلية. فقد استولى الاسبان على الشواطىء بينما سطا البدو على المناطق الداخلية فأطفأوا فيها آخر جذوات المدينة الزراعية، وتحولت المدن والأماكن الأثرية القديمة إلى أوكار للضواري والغربان. ولم يعد سكان المدن والقرى يملكون شيئاً غير المعاناة والقهر، فكانوا على استعداد للقيام بأي عمل بهدف التخلص من غزوات البدو الرحَّل على أن حكام البلاد لم يفعلوا شيئاً في سبيل ذلك، إذ إنهم كانوا رهائن لزعماء البدو ويأتمرون بأمرهم. أصبحت قبائل البدو الرحل العربية المرجع الأساسي الذي استند إليه حكام الجزائر الكبار والصغار فقدموا لهم الأرض وأمنوا لهم رعاية مواشيهم في الأراضي الخصبة وغضّوا الطرف عن أعمال السلب والنهب التي كانوا يمارسونها.

في الواقع لم تقع في المغرب الأوسط أي سلطة حكومية موحدة. كانت البلاد ممزقة ومجزأة إلى إقطاعيات مستقلة متعددة، وإمارات للبدو الرحَّل، ومدن يحكمها طغاة. وكان غرب الجزائر تحت حكم سلطان تلمسان أبو عبدالله محمد عبد الواد (١٥٠٥ ـ ١٥١٦) وحاكم دليّس الذي كان يسيطر على وادي الشليف ومدينتي ميديا ومليانا. أما الأراضي الواقعة إلى الشرق من الوادي الكبير فقد اعتُبرت تحت حكم سلطان تونس الحفصي [٤]. فشكلت هناك إمارات مستقلة عاصمتها بجّاية حتى عام ١٥١٠، ثم قسنطينة التي حكمها الأمراء الحفصيون المحليون. أما سلاطين قبيلة كوكو أو القبيلة الكبرى وقبيلة ولد عبّاس أو القبيلة الصغرى فلم يعترفوا بسلطة أحد، وفي بعض الحالات كانوا يعترفون للحفصيين بسلطة اسمية. وفي جنوب البلاد كانت الزاب والحضسة وغيرها من المناطق المتاخمة للصحراء تحت حكم أمراء البدو. على أن مناطق ومدناً كثيرة ولا سيما على الساحل لم تكن تخضع لأحد، بل كان يحكمها المرابطون ومختلف المغامرين الذين استولوا على السلطة في ظروف مختلفة.

(٣) H. de Grammont. «Histoire d'Alger sous la domination turque (1516 - 1830)». Paris 1887. p. 18.
(٤) J. L. l'Africain. op. cit. T. 2. p. 325.

ففي مدينة شرشال مثلاً في عام ١٤٩٢ استقر الموريسكيون الهاربون من غرناطة فشكلوا سلطة خاصة بهم سميت مقاطعة المهاجرين. وفي مدينة الجزائر تمركز عام ١٥١٠ أحد المشايخ واسمه الشيخ سالم التومي تدعمه عصابات من أقربائه وأنسبائه من قبيلة آل تغلب وراحت تلك العصابات تمارس أعمال السلب والنهب في سهول متيجة. وخلال عامي ١٥٠٩ و ١٥١٠ أصبحت الجزائر الممزقة والخاضعة للبدو فريسة سهلة للإسبان وبفضل الامتيازات العسكرية المتعددة التي كان يملكها الإسبان ولا سيما الأسلحة القاذفة للنار التي لم يكن يعرفها البدو أبداً، استطاعوا إخماد كل البؤر الأساسية للمقاومة بسهولة. ويصف شارل أندريه جوليان كيف انه في بداية الحرب تحقق انتصار باهر [٥]. واجتاحت جحافل الاسبان، بالحديد والنار، مختلف مناطق البلاد حتى وصلت إلى سفوح جبل الزعمورة. فقتل آلاف الجزائريين بأيدي الفرنجة، ونُهبت وأُحرقت عشرات القرى والدساكر، كما دمّرت مدن كثيرة. وفي وهران حول الكاردينال الاسباني شخصياً أكبر مسجدين في المدينة إلى كاتدرائيتين كاثوليكيتين.

تثبّتت مراكز السلطة الاسبانية عبر وهران في غرب الجزائر وبجّاية في شرقها. ولما لم تكن لهم أي مرتكزات داخل البلاد اضطر الاسبان إلى الاكتفاء بنظام الاحتلال المحدود [٦] الذي تلخص بفرض اشراف شكلي على أراضي المغرب الأوسط. وفي المواقع الاستراتيجية المهمة وهران والمرسى الكبير ومستغانم ودليّس ومدينة الجزائر وغيرها. أقام الاسبانيون قلاعاً حصينة رابطت فيها حاميات اسبانية وكدست فيها احتياطات كبيرة من التموينات الغذائية والأعتدة والذخائر العسكرية. وقد مُنع دخول المسلمين إلى تلك القلاع الصليبية منعاً باتاً. وتأمنت مراقبة المداخل القريبة لها وطرق مواصلاتها بمساعدة «المغاربة المسالمين» أي القبائل البدوية التي انحازت للإسبان ووضعت نفسها في خدمتهم. وخلع الحكّام المحليون في مدينة بجاية أو أُرغموا على الإقرار بأنهم أتباع لإسبانيا. والتزموا بدفع الضرائب وإقامة «علاقات صداقة» مع الغزاة.

في ظل نظام الاحتلال المحدود الذي لا يأخذ في الحسبان مسألة البقاء الثابت والطويل الأمد في البلاد، لم يعمل الاسبان على تأسيس جهاز إداري قوي خاص بهم. فبقيت السيطرة في المناطق بأيدي الحكّام التابعين الذين لم يخفوا عبادتهم للذهب وخضوعهم للسيف الاسباني. ولم تطرأ أي تغييرات جوهرية على الحياة الداخلية وأنظمتها في مملكة فرديناند الخامس الجزائرية. وأخذ الحكّام المحليون يتزلفون للأجانب ويحيكون الدسائس ويدبرون المؤامرات للإطاحة بعضهم بالبعض

(٥) شارل اندريه جوليان. «تاريخ شمال أفريقيا: تونس، الجزائر، مراكش، من الفتح العربي حتى العام ١٨٣٠». ترجمه عن الفرنسية أ. ي. انيتشكوفا، تحرير وتقديم: ن. أ. ايفانوف. موسكو ١٩٦١. ص ٢٩٩.

(٦) المرجع ذاته. ص ٣٠٠.

الآخر بتشجيع من الإسبانيين والبدو. وتحولت الجزائر كلها إلى قاعدة للمرتشين والجواسيس والحكام الساقطين الذين انتقلوا عبر المدن والقرى طمعاً بالسلطة طالبين عون الأجانب من اسبان وتونسيين وحتى من القراصنة العثمانيين. أما الأهالي البسطاء وفي مقدمتهم الفلاحون والتجار والحرفيون فكانوا يكنّون للحكّام مشاعر الازدراء والكراهية حتى نفد صبرهم، وأصبحت البلاد على شفير انتفاضة عامة تنتظر قيادة توحدها.

كان شعار «المجتمع الإسلامي النقي» حلماً لإنهاض الجماهير وتشجيعها في ظروف كانت فيها النظم العثمانية مثالية، وكان الفقراء المسحوقون في جنوب إيطاليا وغيرها من بلدان غرب البحر الأبيض المتوسط يتوقون إلى ظهور البوارج العثمانية. وحدها فكرة الانتساب إلى عالم العثمانيين كانت كافية لبعث العطف العميق نحوهم. إذ كان الناس ينتظرون على يدهم الخلاص من الطغيان والفقر والعوز. لذلك بعثوا إليهم رسلاً تتوسل إليهم للمساعدة. وانتشرت في أوساط الشعب شائعات كثيرة من رؤى وتنبؤات بشأن اقتراب موعد مجيء المهدي الذي لا بد أن يظهر من الشرق ويصبح أميراً على الجزائر والبلدان المجاورة. وأكدت تلك النبوأت ان المهدي سيكون غريباً من بلاد بعيدة يعلو وجهه النمش الأحمر [٧]. وكان المرابطون ودعاة الطرق الصوفية يدعمون تلك الشائعات بكل الوسائل. الواقع ان الرؤساء الروحيين لعبوا دوراً نشيطاً في ذلك الوقت ويرى الطاهر جيحا أنهم أظهروا طريق الخلاص أمام سكان السواحل [٨]. وقد أقام العلماء والمرابطون علاقات وثيقة مع القراصنة، وكانوا يزودونهم بأخبار أوضاع البلاد ويقدمون لهم التشجيع بمختلف الوسائل. فاستفاد الأخوان بربروس من تلك الأجواء وأقاما في شتاء ١٥١٠ - ١٥١١ علاقات وثيقة مع الأئمة المسلمين، وفي عام ١٥١٢، أثارا انتفاضة ضد الحكم الإسباني في المغرب.

في آب (أغسطس) ١٥١٢ نزل عروج مع مجموعة كبيرة من القراصنة إلى شاطىء منطقة بجاية وهاجم الحامية الإسبانية فيها. فانضم إليه على الفور قرابة ثلاثة إلى أربعة آلاف فلاح من القبيلة الصغرى [٩]. وأنزلت السفن المدافع والبنادق وكل مستلزمات القتال. وفي اليوم الثامن تمكن المهاجمون من فتح ثغرة في جدار القلعة وشرعوا في عملية اقتحام. في تلك اللحظة أصيب عروج بقذيفة قطعت يده اليسرى فسادت البلبلة بين المهاجمين وأسرعوا بالانسحاب ثم تفرقوا في جو من الفوضى والاضطراب.

---

(٧) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 144.

(٨) Tahar Guiga. «Dorgouth Raïs. Le magnifique seigneur de la mer». Tunis 1974. p. 16.

(٩) H. de Grammot. op. cit. p. 19.

بيد أن الهزيمة لم توهن عزيمة الأخوين بربروس، بل استعدا من جديد على نحو أكثر اتقاناً ودقة لاستئناف القتال، فاستوليا على سفن العدو ومجمعا السلاح. وقد تمكنا من إقامة علاقات مع الباب العالي وحصلا على « مباركة » رسمية من السلطان العثماني. لهذه الغاية توجه إلى اسطمبول رسّام الخرائط العثماني الشهير **بيري رئيس** حفيد **كمال رئيس** العظيم والذي أصبح فيما بعد قبودان باشا أسطول البحر الأحمر. وتكللت مهمة البعثة بالنجاح، وصفح سليم الأول عن كل الأخطاء الماضية التي ارتكبها الأخوان بربروس وأهداهما القفطان وأسلحة الشرف كما أرسل إليهما سفينتين محملتين بالذخائر الحربية (١٠).

في عام ١٥١٥، بدأ عروج وخيزير بربروس، ثم انضم إليهما بعد فترة قصيرة شقيقهما الثالث إسحق، بمحاصرة مدينة بجاية من جديد. وهب لمساعدتهم آلاف الفلاحين الثائرين. ويشير حسن الوزّان الزياتي إلى ان جميع قبائل الجبال المجاورة جاءت لمؤازرة الأخوة بربروس. واندفع المتمردون إلى المدينة فاستولوا على القلعة القديمة وبدأوا بمحاصرة الحصن الإسباني الجديد وهو مركز دفاع بجاية كلها. بيد أنه حدث ما لم يكن في الحسبان. ففي أواخر شهر أيلول (سبتمبر) هطلت أمطار خريفية غزيرة فتفرق الجيش عن كله وتوجه الجنود إلى منازلهم لفلاحة الأرض وزراعة الحقول (١١).

بقي عروج وحده مع أربعين من أوفى رفاقه، فاضطر للانسحاب إلى مدينة جيجلّي التي انضم سكانها إليه، ومكث فيها ينتظر انتهاء أعمال فلاحة الحقول. ثم عاد إلى تجميع جيش الفلاحين وسار على رأسه فاستولى في شتاء ١٥١٥ - ١٥١٦ على السلطة في القبيلة التي أصبحت منذ ذلك الحين القاعدة الرئيسية « للفتح » العثماني في الجزائر.

استقبلت الجماهير الشعبية عروجاً كمنقذ للبلاد من نير « الفرعون » الاسباني والمغتصبين المحليين. وحيثما كان يتوجه عمل على تطبيق سياسة الترغيب العثمانية المعروفة. كما أن كلاً من عروج وخيزير أظهرا اهتماماً خاصاً بحاجات الفقراء والأتقياء. فمن المعروف مثلاً أن خيزير كان يخص بالاحترام العميق أحد المرابطين الذي يجلّه الشعب، وكان يقطن في إحدى ضواحي مدينة الجزائر ولم يكن يرفض له طلباً (١٢). كما أن الفقراء وبسطاء الناس وكل من عانى من وطأة الظلم والحرمان أصبحوا يعتمدون على عطف الأخوة بربروس ويتلقون المساعدات المادية منهم. وبقيت صورة الأخوة بربروس في التقليد التاريخي المغربي كأبطال مدافعين عن حقوق المضطهدين والبؤساء والمحرومين. فقد كتب المؤرخ التونسي طاهر جيجا ان مجد الأخوة بربروس بني على

(١٠) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 237.
(١١) J. L. L'Africain. op. cit. T. 2. pp. 348, 349 et 361.
(١٢) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 150.

الأوقات المديدة التي أمضوها في فصول الشتاء الطويلة بالصلاة وسماع الأحاديث الدينية مع علماء تونس والجزائر، مما أكسبهم احترام رجال الدين ومحبة الشعب. لقد كانت حساسيتهم شديدة حيال حاجات الفقراء وقدموا مساعداتهم للمضطهدين (١٣). وفي كل مرة عندما كانت سفنهم تأتي بالحبوب والملح وغيرها من البضائع والمنتوجات بعد الاستيلاء عليها في عرض البحر، كانوا يوزعونها على بسطاء الناس وفي رواية من القرن السادس عشر انه كان يأخذ من القادرين على الدفع ثمناً زهيداً، أما الفقراء فكان يوزع عليهم الحبوب دون مقابل (١٤) وبعد انتقال بعض المناطق إلى سلطة الأخوة بربروس، ألغوا فيها كل الضرائب التي كان يتقاضاها قبل ذلك حُكّام المغرب الأوسط. وفي كل مكان حَكَمه عروج وخيزير مَنعا ابتزاز مال الفلاحين ولم يجمعا إلا عُشر محاصيل الحبوب والفاكهة كأمر شرعي واجب (١٥).

من هذه الزاوية ينبغي البحث عن السبب الرئيسي لانتصارات الأخوة بربروس ونجاحاتهم. ويرى الطاهر جيجا بحق انه مهما كانت عظمة «الغزاة» العثمانيين ومهما كانت عبقريتهم، لم يكونوا وحدهم صانعي ذلك النهوض القومي والديني في المغرب الذي حكم بالفشل على عدد كبير من المشاريع الصليبية في أحلك ظروف تاريخنا (١٦).

لم يكن جيش عروج وخيزير ثابتاً من حيث تعداد أفراده. أما نواته فكانت بضع مئات من العثمانيين والأندلسيين المسلحين ببنادق نارية. وكانت تلتحق بهم فصائل الفلاحين المسلحين التي تبلغ نسبتها على الدوام من ٨٥ إلى ٩٠ بالمائة من مجموع أفراد الجيش كله. وعلى مشارف مدينة الجزائر مثلاً رابط في ربيع العام ١٥١٦ ثمانمائة من العثمانيين والموريسكيين أي المسلمين الأندلسيين، وحوالى خمسة آلاف من فلاحي القبائل (١٧). وعند شن الهجمات كان ينضم إليهم مئات بل آلاف المتطوعين لا سيما من أبناء المناطق التي كانوا يحلّون فيها. كان جيش الأشقاء بربروس بشكل عام يمثل قوة فاعلة وتستند إلى تأييد الأهالي، ولكنها كانت تبدو عاجزة تماماً في القتال ضد عدو قوي وحسن التدريب.

تمثل أول انتصار كبير حققه عروج بالاستيلاء على مدينة الجزائر. فبعد وفاة فرديناند الخامس (٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٥١٦)، رفض سكان المدينة الذين أنهكهم ظلم الأجانب أداء يمين الولاء لملك إسبانيا الجديد كارل الخامس، وطلبوا مساعدة عروج الذي استجاب للطلب فوراً. في

---

(١٣) T. Guiga. op. cit. p. 35.
(١٤) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 190.
(١٥) J. L. l'Africain. op. cit. T. 2. p. 362.
(١٦) T. Guiga. op. cit. p. 167.
(١٧) H. de Grammont op. cit. p. 22.

ربيع عام ١٥١٦ ، احتلت قوات المتمردين مدن **متيجة وشرشال** ودخلت القوات مدينة الجزائر بعد أن تزعم عروج الحركة المعادية للإسبان. ورغم الجهود المضنية التي بذلها لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة جزيرة رباط الخيل البحرية في المدينة، فظلت مدافعها تقصف الأحياء السكنية دون توقف مخلفة خسائر بشرية ومادية كبيرة.

طال القتال بكل أهواله التي حلّت بالسكان، فأدّى ذلك إلى نشوب خلافات في معسكر المتمردين، وبدأ عدد كبير من الأهالي، وعلى رأسهم حاكم مدينة الجزائر الشيخ سالم التومي، يندمون على تسرّعهم في قطع اتصالاتهم بالاسبانيين، ومالوا إلى استئناف العلاقات السابقة معهم. إلى ذلك وردت أنباء تفيد أن أسطولاً إسبانياً كبيراً يسرع الخطى باتجاه رباط الخيل لنجدتها. ولم ينتظر عروج تطور الأحداث، فأقدم على قتل الشيخ سالم التومي غدراً واستولى على السلطة كلها في المدينة، ونادى به المتمردون سلطاناً عليهم وأمروا بالدعاء له في خطبة الجمعة ونقش رسمه على النقود المحلية (١٨). وفي قلعة جنينة دعا عروج إلى اجتماع حضره ممثلو القيادات الروحية وحرفيو المدينة وتجارها. وطلب عروج في الاجتماع النصيحة والدعم، ثم أعلن تعيين أعضاء الديوان أو المجلس العسكري السياسي وموظفي الحكومة الذين كلفهم بإدارة البلاد (١٩).

ثبّت عروج سلطته في المدينة بواسطة الإضطهاد والتنكيل والقتل الجماعي. ومن موقعه كعدو لدود لإسبانيا اتخذ عدة تدابير لتدعيم دفاعه وشدّد الحصار حول قلعة رباط الخيل حتى ان مياه الشفة للحامية الإسبانية فيها كانت مضطرة للحصول عليها من جزر البابار. في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥١٦، اقترب الأسطول الاسباني بقيادة الدون دييغو دي فيرا من الجزائر، غير أن أحداً لم يغامر بالانضام إليه بمن فيهم أصدقاء إسبانيا السريّون وسرعان ما تكبّد الإسبان هزيمة قاسية. ففي ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥١٦، تمكن عروج في معركة على نهر وادي الحرّاش قرب مدينة الجزائر من إبادة ثلاثة آلاف جندي إسباني أنزلوا من البحر. قُتِلَ غالبية الجنود الإسبان ووقع كثيرون منهم في الأسر. أما دييغو دي فيرا نفسه فنجا من الموت بأعجوبة.

شجع ذلك الانتصار المتمردين ودعّم نفوذ عروج إلى حد كبير. فتم الاعتراف به زعيماً للجهاد وطالب بالخضوع له دون قيد أو شرط، وقطع كل علاقة بالإسبانيين. وعندما حاول حاكم دلّيس الموالي لاسبانيا مولاي أبو عبدالله معارضة عروج أرسل قواته المسلحة لقتاله. وفي شتاء ١٥١٦ ـ ١٥١٧ حطّم قوات مولاي أبو عبدالله في وادي الجير على بعد قرابة ٢٥ كيلومتراً إلى الغرب من بليدا، واستولى على مدن ميديا ومليانا ودلّيس وأقام سلطته على منطقة الضهرة بكاملها ومنطقة تيارت ووادي الشليف.

---

(١٨) H. de Grammont. op. cit. p. 22 et J. L. l'Africain. op. cit. T. 2. p. 349.

(١٩) Mouloud Gaïd «l'Algérie sous les Turcs». Alger 1974. pp. 38-39.

عام ١٥١٦ ، توفي سلطان تلمسان العبد الوادي أبـو عبـدالله محمد . وبعـد مـوافقـة مـركيـز دي كوماريسا حاكم وهران ، انتقلت السلطة إلى ابنه أبو حمود الثالث . لكن تزلفه للإسبان وابتزازه للأموال الباهظة أثار كراهية السكان ضده . وفي مطلع عام ١٥١٧ ، طلب السكان من عروج طرد « مغتصب السلطة » وتسليم العرش إلى عمّه أبو زيّان المعتقل في زنزانته ، ووافق عروج على الطلب . وفي ربيع عام ١٥١٧ ، تحرك المتمردون في هجوم على عاصمة آل عبد الـواد.. وفي معركة في ضاحية سيدي بالعبّاس حطّم عروج جيش أبو حمود الثالث المؤلف من تسعة آلاف رجـل ، ودخل تلمسان بعد أن فتح السكان أبوابها أمامه . ولم يتمكن أبو حمود الثالث الخروج من المدينة إلاّ بصعوبة بالغة وهرب بحماية حرّاسه [٢٠].

بعد أن استولى عروج على تلمسان عزل أسرة آل عبد الـــواد أما أبو زيّان الذي أخرج لتوه من السجن فقُبض عليه مع أولاده السبعة ومع سبعين أميراً من العائلة الحاكمة بتهمة « الخيانة » ، وشُنقـوا جميعاً على تضاريس قصر المشورة وهـي دار الحكومة في تلمسان . وانتقلت السلطة بأسرها إلى أيدي المتمردين . وخلال أقل من عامين تمكّن المتمردون من تأسيس دولة واسعة الأرجاء . وفي عام ١٥١٧ ، وبعد الاستيلاء على تلمسان ، أصبحت تلك الدولة تضم كامل أراضي الجزائر الوسطى والغربية ، وأصبحت بنيتها الاجتماعية والسياسية نموذجاً أصيلاً لتنظيم دولة « العرش الجزائري » المُقبل ، الذي ظل على مدى ثلاثمائة عام مصدراً للرعب في أوروبا الغربية كلها .

أثارت انتصارات عروج قلقاً جدياً لدى حكومة إسبانيا . فكتب أ . د . غرامـون انـه مـن أجـل استعادة المقاطعة بقوة السلاح أرسل كارل الخامس تعزيزات بلغ تعدادها قرابة عشرة آلاف رجل . وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٥١٧ ، شرع الماركيز **دي كوماريس** بـالهجـوم . وبمسـانـدة الفرسان الاسبان قطع بدو أبو حمود الثالث كل طرق مواصلات مدينة الجزائر فيما قام المركيز بمحاصرة تلمسان . وفي كانون الثاني (يناير) ١٥١٨ ، قتل اسحق شقيق عروج في معركة مع قوات أبو حمود الثالث قرب قلعة بني رشيد . أما عروج نفسه فقد ظل على مدى ستة أشهر يصد هجمات الإسبانيين المحيطين بتلمسان ، في المدينة أولاً ثم في قصر المشورة . وفي أيار (مايو) ١٥١٨ ، وعندما نفدت احتياطات عروج ، خرج مع كوكبة اليولداشيين وهي خليط من العثمانيين والموريسكيين ، فاخترق التشكيلات القتالية الاسبانية ليلاً وسلك طريقه باتجاه **عين تيموشنت** . لكـن المركيـز علم بالأمر ، فأرسل قوة لمطاردته . وفي منطقة سيدي موسى قرب ريو كالادو أدرك الاسبان الكوكبة المتمردة ، فنشبت معركة غير متكافئة قتل فيها عروج ورفاقه والسلاح في أيديهم . وأرسل رأس القائد عروج إلى وهران ثم إلى بلاط كارل الخامس في إسبانيا . كما أن قفطان عروج الملطخ بدمه ظل يعتبر غنيمة ثمينة لمدة طويلة ، وحُفظ في أحد أديرة قُرطبا [٢١].

(٢٠) M. Gaïd. op. cit. p. 36. et H. de Grammont. op. cit. p. 24.

(٢١) M. Gaïd. op. cit. p. 41.

اتفق زعماء الانتفاضة على إعلان **خيزير بربروس**، شقيق عروج سلطاناً جديداً على الجزائر فعرف منذ ذلك الحين باسم خير الدين بربروس. أمرت الدولة الجديدة بأوقات عصيبة، فخير الدين لم يكن يملك أكثر من ثلاثمائة يولداشي أي كوكبة من الفرسان العثمانيين والموريسكيين. كما أن العائلات الاقطاعية القديمة والقبائل اتخذت منه موقفاً شديد العداء، فاتهمها خير الدين بالمروق عن الدين الحنيف والاستعداد للانحياز إلى الكفار [٢٢]. واشترك البدو في كل المؤامرات والحركات الموجهة ضد عروج وخير الدين. كان مدبر تلك المؤامرات سلطان تونس الحفصي الذي قرر منذ عام ١٥١٥، عام الاستيلاء على بجاية والانتصارات الأولى للانتفاضة الفلاحية، قرر إعادة النظر كلياً بعلاقته مع الأخوة بربروس وشن حرب لا هوادة فيها ضدهم. وقد أيده عملياً كل إقطاعيي الجزائر، يدعمهم أعيان المدن وعائلات النبلاء والأثرياء وورثة الثقافة القروسطية المغربية. هؤلاء كانوا ينظرون إلى الغزاة العثمانيين نظرتهم إلى المصيبة القادمة التي تحل بأبناء العائلات الكريمة. أما سلطان تلمسان عبد الوادي أبو حمود الثالث الذي قرر الدفاع عن « إرث الأباء والأجداد »، فكان ينعت خير الدين بالهمجي حفيد ابليس. وإذا أخذنا بالأساطير الرومانسية، فإن نساء أعيان الجزائر كن يفضلن تناول السم على الزواج من « الهمج الأجلاف » العثمانيين على حسب قولهم [٢٣].

كان الإسبانيون يعلمون بالموقف العدائي الذي اتخذه الأعيان ضد خير الدين، فحاولوا استغلاله لمصلحتهم. وبعد ان تشجّعوا بانتصارات المركيز دي كوماريس عزموا في عام ١٥١٨ على خنق الحركة الفلاحية نهائياً، وقرروا إنزال الضربة الأساسية بمدينة الجزائر وهي المعقل الرئيسي للإنتفاضة المعادية للإسبان. وبأمر من كارل الخامس تسلّم قيادة الحملة العسكرية نائب الملك سيسيل أوغو دي مونكادا شخصياً. وفي ١٧ آب (أغسطس) ١٥١٨، أنزل الأسطول الإسباني، المؤلف من ٣٨ سفينة حربية وعدد كبير من سفن النقل، ثمانية آلاف جندي على شواطىء ضواحي مدينة الجزائر [٢٤]. ومع ذلك رفض خير الدين بربروس الاستسلام، وجمع أكثر من خمسة آلاف فلاح قبلي وموريسكي واتخذوا لهم مواقع حصينة في المدينة. وترقبوا تطور الأحداث. وفي ٢٥ آب (أغسطس) المصادف يوم عيد القديس بارتولاماوس، هبّت عاصفة قوية مفاجئة. ووسط زمجرة الأمواج الهائجة تقطعت حبال السفن الاسبانية، فاقتلعت من مراسيها وراحت تلاطم بعضها بعضاً « حتى تحطمت وتناثرت إرباً إرباً كما لو انها صُنعت من زجاج هش » [٢٥]، على حد تعبير المؤرخ الاسباني ساندوفال في القرن السادس عشر. فاستغل خير الدين بربروس العاصفة التي حرمت الاسبانيين من دعم الأسطول ليحرّك فرسانه ضدهم، وكان انتصاره

---

(٢٢) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 150.

(٢٣) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. pp. 161 - 162.

(٢٤) J. L. l'Africain. op. cit. T. 2. p. 350.

(٢٥) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 188.

ساحقاً. أربعة آلاف إسباني قُتلوا أو غرقوا في لجّة المياه، وثلاثة آلاف وقعوا في الأسر. وتقول إحدى الروايات إن خير الدين بربروس رفض ١٢٠ ألف دوكات من العملة الذهبية للبندقية التي عُرضت عليه فدية للضباط الاسبان النبلاء وبعث بهم جميعاً إلى المشنقة»[٢٦].

لكن الحرب لم تنته عند ذلك الحد. فقد كانت إسبانيا إحدى أقوى الدول عسكرياً آنذاك ولم تكن ترض بالتخلّي عن ممتلكاتها الأوروبية. لم يكن الوضع أقل خطورة في المغرب الأوسط، فقد أعلن أبو حمود الثالث الذي اعتلى عرش آل عبد الواد مرة أخرى الحرب على بربروس. وجمع سلطان تونس الحفصي قواته وحرّض كبار الاقطاعيين ومن بينهم زملاء خير الدين و اخواناً له لتنظيم مقاومة مكشوفة ضد السلطة الفلاحية عندها قرر خير الدين بربروس اللجوء إلى السلطنة العثمانية لطلب المساعدة. وبعد إلحاق الهزيمة بأسطول أوغو دي مونكادا، دعا كبار ممثلي رجال الدين المسلمين والأهالي إلى اجتماع عُقد في جنينة. فشرح لهم الوضع المتفاقم واقترح الالتحاق بسلطة الباب العالي. فوافق المجتمعون على رأي خير الدين، وصادقوا على نص كتاب تقرر إرساله إلى السلطان سليم الأول تضمّن مطلباً بأن يقبل ببسط حمايته على الجزائر[٢٧]. وتوجه أحد أخوان خير الدين وهو حاجي حسين حاملاً الكتاب إلى اسطمبول وتخلّى خير الدين عن صلاحيات السلطان السابق وأمر بالدعاء للسلطان سليم الأول في صلاة الجمعة.

نظر الباب العالي بعين العطف إلى طلب المنتفضين، فأعلن سيادته على الجزائر. كعادته عيّن سليم الأول خير الدين بربروس نفسه أول بكلربك على غرب الجزائر، وأرسل له الفرمان المتعلق بذلك مع شارة الاستحقاق وهي: السيف وصولجان السلطة والطبل[٢٨]، كما سمح بصك نقود تحمل اسم سيد الجزائر الجديد والدعاء له في خطبة الجمعة. علاوة على ذلك أُرسلت إلى خير الدين المدافع والبنادق وغيرها من الأسلحة مع فَرمان يسمح له بدعوة المتطوعين للخدمة في الجزائر. وأنعم سليم الأول على المتطوعين بمنحهم حقوق الانكشارية وامتيازاتهم[٢٩].

هكذا تحولت البلاد إلى مقاطعة تابعة للباب العالي مع احتفاظها بقدر كبير من الإدارة الذاتية الداخلية. ونتيجة لحماية السلطان الرسمية تعزّز نفوذ خير الدين وتعزّز موقفه في الحرب ضد الاسبان. وفي عام ١٥١٨، تمكن خير الدين من تحطيم قوات صديق الإسبان أبو حمود الثالث وأرغمه على الاعتراف بسيادة السلطنة العثمانية ودفع ضريبة بلغت عشرة آلاف دوكات[٣٠] ذهبية من

(٢٦) M. Gaïd. op. cit. p. 43.
(٢٧) Ibid. pp. 43 - 46.
(٢٨) J. de Hammer op. cit. T. 5. p. 239.
(٢٩) M. Gaïd. op. cit. p. 46 et H. de Grammont. op. cit. p. 30.
(٣٠) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 239.

سك البندقية. بيد أن الاجتياح الذي قامت به القوات الحفصية، وتمرّد الاقطاعيين، ومحاربة جيش بربروس، وخيانة قَرَه حسين حاكم شرشال وصيانة أحمد ابن القاضي سلطان كوكو (القبيلة الكبرى) الذي انحاز إلى الحفصيين، أدت تلك العوامل إلى تفاقم الموقف وتعقيده إلى درجة كبيرة.

ففي عام ١٥١٩، اضطر خير الدين بربروس إلى إخلاء مدينة الجزائر نفسها بعد أن استولى عليها أحمد ابن القاضي، والتجأ مؤقتاً إلى مدينة **جيجَلّي** ثم عاد إلى جزيرة جَربة. في الواقع، فقد خير الدين سيطرته على كامل الجزء الشرقي من البلاد ثم على الجزء الغربي. فاستغل أبو حمود الثالث الوضع، وتوقف عن دفع الضرائب وقطع ارتباطه مع الباب العالي.

كان على خير الدين بربروس ان يبدأ من جديد، فراح يعمل بكل ما لديه من طاقة. ساعده في ذلك أمران: أولها الاضطرابات الداخلية التي نشبت في إسبانيا فأبعدتها لخمس سنوات عن أي عمل عسكري وسياسي مؤثر في الحياة الداخلية للمغرب، لأن ثورة كومونيروس (١٥٢٠ - ١٥٢٢) التي بقيت ذيولها حتى عام ١٥٢٦، لم تُتح لكارل الخامس فرصة اتخاذ أي إجراء مهم في شمال أفريقيا؛ وثانيها، استياء الجماهير الشعبية التي قاومت إعادة إحياء النظم الاقطاعية البدوية القديمة. وعندما ظهر خير الدين بربروس عام ١٥٢١ مع قراصنته في **جيجلّي** «تقاطر مغامرون جدد تحت رايته جماعات جماعات» حسب تعبير أ. د. غرامون[٣١]

وخلال بضع سنوات تمكن خير الدين بربروس من إعادة بناء كامل دولة عروج. وانطلاقاً من جيجلّي، استولى على القالة عام ١٥٢١، واحتل عنابة وقسنطينة عام ١٥٢٢، فرحَّب به الفقراء بسرور بالغ. وطاف أنصار العثمانيين في جميع أنحاء البلاد يجندون الأنصار والمؤيدين ويشكلون الجماعات السرية. أما الحكام المحليون فما وثقوا بقواتهم المسلحة التي كثيراً ما كانت تنحاز إلى جانب خير الدين. وفي عام ١٥٢٥، وبعد مقاومة عنيفة، قُتل أحمد ابن القاضي على يد أحد أعوانه، وأعلنت القبيلة الكبرى ولاءها للعثمانيين. وفي ذلك العام أيضاً دخل خير الدين بربروس مدينة الجزائر دون مقاومة، فاستُقبل بالتهليل والابتهاج من قبل أنصاره الذين فتحوا له أبواب المدينة. وبالسهولة ذاتها استولى خير الدين على مدينتي دلّيس وشرشال. أما الخائن قَرَه حسين فقد سُلِّم إلى الجنود وعُذِّب قبل أن يعدم. وحاول أبو حمود الثالث مقاومة خير الدين بربروس، إلاّ أنه هُزم وأُرغم على الاعتراف بسيادة الباب العالي وأُلزم بدفع ضريبة بلغت ٢٠ ألف دوكات، أي ضعفي ما كان يدفعه على أساس اتفاق عام ١٥١٨[٣٢].

(٣١) H. de Grammont. op. cit. p. 33.
(٣٢) M. Gaïd op. cit. p. 51.

هكذا أعاد خير الدين تثبيت سلطته في جنينة، فأحيي الديوان والدوائر الحكومية الأخرى وأعاد تنظيم الانكشارية. وإبان الأحداث المهمة كان يدعو إلى اجتماعات موسعة للديوان الكبير.

وكان يدعو إلى الاجتماعات كبار الأئمة الروحيين وأعيان المدينة وشيوخ الطرق الصوفية والأئمة وغيرهم من رجال الدين إلى جانب قادة تشكيلات الانكشارية [٣٣]. وقُسمت البلاد إلى مقاطعات ودوائر يرئسها بكوات وقادة. وكُلِّف أكثر القضاة نزاهة وتجرداً بمهمة جمع الضرائب [٣٤]. وكان أي عصيان يُقمع بحزم وشدة. انتهج خير الدين بربروس سياسة الإرهاب الجماعي معتبراً ذلك الوسيلة الرئيسية لقمع أي معارضة، فكان الشك وحده كافياً لشن حملة اعتقالات واسعة، كل من ينعت بلقب خائن أو صنيعة الاسبان يتعرض للتنكيل الفوري، فيُلقي به في غياب السجون ويُعذّب أو يوضع على خازوق أو يُقطع رأسه. أما العبيد المسيحيون المتهمون بالتخريب فيُشوَون على نار حامية [٣٥]. كما كانت تُنزع أموال المعذَّبين وتُسبى نساؤهم وأولادهم.
كانت مناطق بكاملها تتعرض للعقاب الجماعي. ففي عامي ١٥٢٦ و ١٥٢٧ تعرضت منطقتا قرت والحفسة إلى اضطهاد وتنكيل شديدين بالنار والسيف. وقُمعت انتفاضة قسنطينة بقسوة شديدة، بحيث أنه في العام التالي تحولت الحدائق المحيطة بالمدينة إلى غابة يقطنها فقط رجال العصابات والوحوش الكاسرة [٣٦]. وسارعت المناطق النائية إلى اعلان خضوعها. وفي عام ١٥٢٧ اعترف حاكما تُقُرتْ وورقلة في الصحراء الشمالية بسلطة الباب العالي، والتزما بدفع الضريبة.

اتخذ خير الدين من الموريسكيين وبعض المرتدين من الأوروبيين إلى الدين الاسلامي أقرب أعوانه وكانوا في أكثريتهم أيضاً من أصل إسباني. فكان البولداشيون بمن فيهم القادمون من جزيرة لِسبوس (ميتيلين) يشكون أن كل المناصب العليا ولا سيما المحيطة **بالبكلربك** يشغلها الأجانب [٣٧]. وعلى سبيل المثال، فإن كاخيه خير الدين الذي كلفه خير الدين بربروس بإدارة البلاد أثناء غيابه، لم يكن إلا عَبدُه حسن آغا المولود في جزيرة سردينيا.

في مطلع عام ١٥٢٩ أصبحت الجزائر بكاملها، باستثناء الممتلكات الاسبانية، تحت سلطة خير الدين بربروس. ولم يبق إلا تحريرها من تلك البقية الباقية من الممتلكات الاسبانية. على أن أكثر ما أثار استياء خير الدين بربروس قلعة جزيرة رباط الخيل في مدينة الجزائر والتي لا تبعد أكثر من

---

(٣٣) «Histoire d'Aroudj...». T. I. pp. 183 et 287.
(٣٤) Ibid. pp. 202 et 294.
(٣٥) Ibid. T. I. p. 227.
(٣٦) H. de Grammont. op. cit. p. 34.
(٣٧) «Histoire d'Aroudj...».. T. 5. p. 294.

مائتي متر عن الأحياء السكنية في العاصمة إضافة إلى أنها كانت تفرض حصاراً على مدينة الجزائر من جهة البحر وتعرقل ملاحة السفن إلى مرفأ المدينة.

كان الجزائريون، منذ زمن بعيد يرغبون، بابعاد هذا الجار الكريه. وخلال سنوات عديدة، ظل خير الدين بربروس يخطط لتدمير القلعة، فحصل على مدفعية ثقيلة ونصبها مع تأمين ما تحتاجه من احتياط البارود. وأخيراً، في ٦ أيار (مايو) ١٥٢٩ باشر بالقصف المدفعي. فأخذت قلعة رباط الخيل ترد بقصف معاكس بوابل من القذائف الضخمة كانت الواحدة منها كافية لاقتلاع مئذنة مسجد. وبالفعل لم تبق في المدينة مئذنة واحدة. واشتعلت النيران في المدينة وتحولت أحياء بكاملها إلى أنقاض. بيد أن خير الدين بربروس تمكن مع ذلك بسرعة نسبية من إخماد معظم بطاريات المدفعية الاسبانية. وحطّمت مدافع الجزائريين حواجز القلعة وأسوارها وفتحت في جدرانها ثغرات عدّة. وفي ٢٧ أيار (مايو) شرعوا بالهجوم. وتحت وابل من القصف الاسباني العنيف، انطلق خير الدين بربروس على رأس ألف وثلاثمائة رجل من اليولداشيين في سفن صغيرة عبر المضيق، ونزل على الجروف الصخرية للجزيرة. ونصبت سلالم الحصار، واندفع المهاجمون في عملية اقتحام كثيفة. وبعد بضع ساعات تمكنوا من الاستيلاء على قلعة رباط الخيل وأُبيدت حاميتها عن بكرة أبيها. وبأمر من خير الدين بربوس، أزيلت تحصينات القلعة من أساسها وسوِّيت بالأرض وحُوِّلت إلى حديقة، أما المضيق الفاصل بين المدينة والقلعة الاسبانية السابقة فطُمر بحجارة القلعة وأنقاض تحصيناتها [٣٨]. واستُخدم الأسرى الاسبانيون في إعادة تعمير المدينة، وفي عام ١٥٣٢، أمر خير الدين بربروس ببناء مجمّع كامل من المنشآت الدفاعية في مكان القلعة السابقة لاستخدامها في تغطية الواجهة البحرية للمدينة. وبذلك تحولت مدينة الجزائر إلى قلعة بحرية لا يمكن اقتحامها، وأصبحت رمزاً للقوة العسكرية للسلطنة في غرب العالم الإسلامي.

كان لسقوط قلعة رباط الخيل تأثير عظيم على تطور الأحداث اللاحقة في الجزائر وأفريقيا الشمالية كلها. ويرى دي غرامون أنه تم وضع حجر الأساس لبسط وصاية العرش نهائياً [٣٩]. ووجّه سليمان العظيم إلى خير الدين بربروس فرمانا خاصاً (خطّي شريف) هنّأة فيه بالنصر الباهر ورفْع الراية العثمانية في قلب المغرب العربي. ويعتقد توفيق بشروش انه ينبغي اعتبار عام ١٥٢٩ بالذات تاريخ الفتح العثماني للجزائر [٤٠]. والحقيقة أن السلطة العثمانية في تلك البلاد قامت فعلاً منذ الاستيلاء على القعلة، وقامت من جديد وحدة وطيدة بين المناطق التي تكوّنت منها ولاية **عثمانية** شاسعة الأرجاء، وهي عموماً مجمل أراضي الجزائر الحالية. وتحولت وهران ومستغانم وبجّاية وغيرها

(٣٨) «Histoire d'Aroudj...». T. I. pp. 221 - 225 et T. 2. pp. 200 - 201.
(٣٩) H. de Grammont. op. cit. p. 36.
(٤٠) T. Bachrouch. op. cit. p. 7.

من المقاطعات الاسبانية الصغيرة إلى مناطق معزولة ومحاصرة من البر، تظل أحياناً كثيرة في عزلة تامة عن البلاد كلها.

يبقى السؤال مطروحاً: متى وكيف أصبحت الجزائر تحت الحكم المباشر للباب العالي؟ تنقسم الفتوحات العثمانية إلى مرحلتين واضحتي المعالم: في البداية يقيم الباب العالي إشرافاً غير مباشر على المناطق ثم يضمها إلى النظام العام للمقاطعات العثمانية. أما الانتقال إلى المرحلة الثانية المتعلقة بتصفية الحكم الذاتي ومخلفات النظم السابقة، فقد كان عادةً يتحقق بعزل الحاكم المحلي التابع وتعيين وال عثماني بصفته رئيساً للإدارة المحلية الجديدة. أما في الجزائر التي أصبحت منذ عام ١٥١٨ تحت الاشراف غير المباشر للباب العالي فلم يحدث ذلك، اذ ظل خير الدين بربروس حتى وفاته يُعتبر حاكماً على الجزائر ولو كان حكمه في بعض الأحيان ذا طابع اسمي فقط. ألغيت البنية الحكومية القديمة أثناء الانتفاضة ثم خلال الحرب الأهلية التي تلتها. وتبعا لذلك، يصعب التأكد من تاريخ محدد لدولة الجزائر التابعة في تحولها إلى ولاية عثمانية عادية. ويمكن القول إن عدداً كبيراً من المؤرخين، لا سيما مؤرخي المدرسة الفرنسية، لا يلاحظون هذا الفارق ويكتفون عموماً بالتركيز على مجرد حقيقة الفتح العثماني للجزائر. أما المؤرخون الأتراك المعاصرون فيعتبرون المسألة نتيجة «للزيارة التاريخية» التي قام بها خير الدين بربروس إلى اسطمبول في خريف ١٥٣٣، ويقولون ان تلك الزيارة كانت تستهدف الاعلان عن قرار الجزائر الطوعي بالانضمام إلى السلطنة العثمانية [٤١]. ومهما كانت صحة ذلك، فإن أحداث عام ١٥٣٣ كان لها تأثير بالغ الأهمية على مصير البلاد، إذ قادت إلى «ضم الجزائر رسمياً إلى السلطنة العثمانية على حد تعبير المؤرخ الأميركي س. شو» [٤٢].

تضمّن كتاب «الغزوات» وهو سفر مدونات تاريخية من القرن السادس عشر لمؤلف مجهول، اشارة إلى أنه في صيف عام ١٥٣٣ تلقّى خير الدين بربروس دعوة لزيارة اسطمبول. فقد استدعاه السلطان سليمان العظيم الذي «فكر شخصياً بالتوجه لفتح إسبانيا» [٤٣] كما ورد في الكتاب. كان السلطان بحاجة إلى رجل على معرفة جيدة بشواطىء شبه الجزيرة الإيبيرية والمناطق التي ينوي إنزال الجنود فيها. ووقع الاختيار على خير الدين بربروس. ولهذه الغاية وصل إلى الجزائر مبعوث الباب العالي فقدّم لخير الدين فَرمان بادي شاه. لكن مؤلف «الغزوات» لا يتطرق إلى مضمون الفرمان، ولا يذكر إلا أن خير الدين بربروس تسلّم الفرمان باحترام عميق وقبّله ووضعه على جَبينه ثم قرأه

(٤١) Emel Esin. «Quelques manuscrits illustrés turcs des XVI ème et XVII ème siècles concernant la Tunisie». «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis 1979. p. 48.

(٤٢) S. Shaw op. cit. p. 97.

(٤٣) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 286.

بكل اهتمام وبعد فترة قصيرة دعا خير الدين بربروس إلى اجتماع موسع للديوان في جنينة، وتلا على المجتمعين نص فَرمان السلطان، ثم قال إنه لا يستطيع الاستمرار في تأجيل سفره إلى اسطمبول. وأعلن خير الدين في النهاية أن كل شيء معدٌّ للسفر، وأنه عيَّن شخصاً جديراً أن يكون رئيساً عليهم(٤٤).

ولم يكن أمام العلماء الجزائريين والقادة العسكريين إلا الموافقة على قرار خير الدين. وفي منتصف شهر آب (أغسطس) ١٥٣٣، انطلق في طريقه إلى اسطمبول، لم يكن واثقاً تماماً مما ينتظره على شواطىء البوسفور كما تشير كل الدلائل. لكن خير الدين كان يعوّل كثيراً على مساعدة الوزير الأكبر إبراهيم باشا الذي كان خير الدين يعتبر نفسه تحت رعايته وحمايته. ويرى معظم المؤرخين المعاصرين أن خير الدين تصرَّف في اسطمبول كأنه أحد رجال الحاشية المتحمسين في بلاط السلطان، فاستطاع اكتساب عطفه ورضى المقربين منه. فغَمره سليمان العظيم بلطفه وعهد إليه بمسؤولية الاهتمام بترسانة الأسلحة وبناء السفن(٤٥). لكن ذلك لم يرض طموحه، وفي أواخر عام ١٥٣٣، توجه إلى حلب حيث كان ابراهيم باشا يقيم آنذاك. وما لبث أن لحق به رسول يحمل فرماناً بتعيينه قبودان ـ باشا (أمير البحر) على الأسطول العثماني، ومنحه لقب باشا من الدرجة الثالثة. ومع انه شغل بذلك منصباً في الديوان السلطاني إلاّ أنه فضل الاحتفاظ لنفسه أيضاً بحكم الجزائر بعد أن تمكَّن من الحاقها بادارته البحرية. أما شؤون الحكم العادية اليومية في الجزائر فقد عهد بها إلى نائبه الذي تسلَّم السلطة في البلاد. وكان خير الدين يتردد على الجزائر في زيارات خاطفة. وعام ١٥٣٥، استقر نهائياً في اسطمبول بعد أن نقل إليها زوجاته وأولاده وكل حشمه وخدمه(٤٦). منذ ذلك التاريخ بدأت عثمنة الحياة الاجتماعية والحكومية في الجزائر. وانتشر الموظفون العثمانيون في البلاد، فأعادوا تنظيم إدارتها على النمط العثماني. كتب أ. غيس ان النموذج الذي اعتمد في التنظيم العسكري والإداري للجزائر هو نفسه المتبع في مصر العثمانية(٤٧). فأصبح أفراد الجيش والجهاز البيروقراطي يتقاضون الرواتب من خزينة الدولة. ولم يطبَّق نظام الملكية الاقطاعية الصغيرة. وفي الأرياف عُهد بمهمة حفظ الأمن إلى فصائل مسلحة من السكان المحليين لا سيما القبائل التي شكَّلت الهيكل الأساسي لقبائل الدولة.

وأعلنت الأرض وغيرها من مصادر الدخل أملاكاً للسلطان، وانخفض العبء الضريبي إلى درجة كبيرة. وعلى غرار ما فعل العثمانيون في الولايات الأخرى، قاموا بإجراء مسح للأراضي

---

(٤٤) «Histoire d'Aroudj...». T. 1. p. 287.
(٤٥) Ibid. T. I. p. 30.
(٤٦) Ibid. T. 2. p. 16.
(٤٧) A. Hess. «The Forgotten Frontier. A History of the Sixteenth Century Ibero - African Frontier». Chicago 1978. p. 244 - Note No. 4.

وتنظيم الدفاتر الخاصة بذلك. وفي هذا الإطار، أخذت بعين الاعتبار الحاجات والتقاليد المحلية في استغلال الأرض وأساليب دفع الضرائب[٤٨]. وقد جرت العادة أن يثبّت ذلك بواسطة قـانـون ـ نامه للولايات. ورغم عدم وجود قانون ـ نامه للجزائر، فان الضرائب كانت منظمة بصورة مبدئية. فإجراء مسح للأرض على نحو منتظم، وتنظيم الدفاتر وفقاً للمعدلات والمعايير المعتمدة في مختلف أنحاء السلطنة العثمانية، كما تبرز المحفوظات العثمانية في اسطمبول[٤٩]، كل ذلك يؤكـد أن النظام الذي اعتُمد للأرض والضرائب في الجزائر كان مماثلاً لما كان عليه في الولايات الأخرى التابعة للباب العالي. كانت المهمات العثمانية في الجزائر تتلخص في الاهتمام بالفلاحين (الرعية) ومنع تعرضهم لأي اضطهاد واحقاق العدالة، والمحافظة على أحوال الجسور والطرق ومنشآت الري وبناء المساجد وخانات القوافل وغيرها[٥٠].

لقد اتخذت علاقات الجزائر بالباب العالي طابعاً مبدئياً جديداً. فاستُبدلت الحسومات من ضريبة العُشر التي ظلت تُرسَل للسلطان مع ما تيّسر من الهدايا حتى عام ١٥٣٣[٥١] بضريبة منتظمة، بلغت في النصف الثاني من القرن السادس عشر ٢٥ ألف دوكات. وبدأ قسم كبير من المداخيل يتحول إلى خزينة قبودان ـ باشا مباشرة لإنفاقها على صيانة الأسطول العثماني. وكان على الجزائر ان تضع قواتها ولا سيما سفنها الحربية في تصرف الحكومة المركزية كلما اقتضت الضرورة. وقد تمتع أسطول الجزائر بقدر كبير من الاستقلالية وشكل وحدات خاصة للقوات العثمانية البحرية الحربية تحت اسم كتيبة الغرب البحرية[٥٢].

لم تعترف اسبانيا بضم الجزائر للسلطنة العثمانية، وأصبحت قضية استرجاع قلعة رباط الخيل و «سنجق بربروس» حجر عثرة في مفاوضات السلام التي جرت عام ١٥٣٣ بين الباب العالي وأمبراطورية آل هابسبورغ الكاثوليكية. فقد رفض العثمانيون النظر في هذه القضية واضطر وفد آل هابسبورغ في نهاية المطاف إلى شطبها من جدول أعمال المفاوضات[٥٣]

في الواقع، لم تنته الحرب في المغرب، بل اتخذت طابعاً أكثر عنفاً في البحر. واستمر الأسطول الجزائري يعترض طرق مواصلات اسبانيا في البحر الأبيض المتوسط ويجتاح شواطىء العدو

(٤٨) Ibid. pp. 159 - 160.
(٤٩) Ibid. p. 245. Note No. 12.
(٥٠) Ibid. p. 156.
(٥١) M. Gaïd. op. cit. p. 53.
(٥٢) H. de Grammont. op. cit. p. 50.
(٥٣) J. de Hammer. op. cit. T. 5. pp. 185 - 187.

لتخريبها، كما استمر ينقل الذخائر الحربية والأسلحة إلى الموريسكيين وبخاصة خلال انتفاضتهم في فالنسيا. وإخراج عشرات الآلاف من اللاجئين. فقام خير الدين شخصياً بسبع رحلات بحرية إلى شواطىء إسبانيا. وتمكنت سفينته، بين ٣٦ سفينة حربية، من انقاذ ٧٠ ألف موريسكي وفقاً لمعطيات مؤلف كتاب «الغزوات»[٥٤]. وبات من المألوف أنه عند اقتراب الأسطول الجزائري من شواطىء العدو يحمل معه أكبر عدد ممكن من الموريسكيين فينقل معظمهم إلى الجزائر وبخاصة إلى مدينة تينيا التي أصبحت مركز التجمّع الرئيسي للجالية الموريسكية. ويرى هيس ان الموريسكيين أصبحوا هناك الركيزة الوفية للنظام العثماني، والتحق كثيرون منهم بالجيش والأسطول فيما حوّل الآخرون تلك المقاطعة إلى منطقة مزدهرة بفضل أعمالهم الزراعية[٥٥].

هكذا ظلت العلاقات وثيقة بين الباب العالي والموريسكيين. فكتب المؤرخ الاسباني خوان بينيلاّ أن العثمانيين ظلّوا في أدبيات الموريسكيين على الدوام يمثلون حلفاءهم الدينيين والسياسيين المستعدين لتقديم حمايتهم لهم واستقبالهم على الرحب والسعة[٥٦]. وفي مدن قشتالة وغرناطة وفالنسيا وأراغون سرت بين الموريسكيين شائعات غريبة وتنبُّؤات عن رُؤىً وأحاديث تنبىء «بيوم التحرير العظيم»، وزعموا أن ذلك اليوم آتٍ مع مَجيء عثمان العظيم ومقاتليه الأمجاد. واعتبر الموريسكيون ان ذلك اليوم سيكون يوم الحساب والثأر والغضب[٥٧]. وقد عمل مسلمو اسبانيا كل ما استطاعوا لتقريب ذلك اليوم. ساعدوا العثمانيين وزودوهم بالنصائح والمعلومات العسكرية والسياسية، وكانوا يبتهجون لكل هزيمة تلحق بالكاثوليك معتبرين ذلك نصراً لهم. وفي الجزائر نفسها، يقول دنيز الابراهيمي، كان المسلمون الاسبان الأداة السياسية للاحتلال العثماني. فقد قدموا للعثمانيين عدداً كبيراً من كوادر الادارة والجنود. لذا، وصفهم المؤلف بأنهم «مستعمرون متأوربون»[٥٨]. بعيداً عن مثل تلك الاستعارات، فمن المؤكد أن المسلمين الاسبان شكّلوا مع المرتدين إلى الاسلام والمتحدرين من أصل أوروبي البنية الأساسية للادارة العثمانية في الجزائر. كما تشكلت منهم وحدات كبيرة من القوات «العثمانية» في الجزائر. ولما كانوا «أكثر الجماعات المعادية للمسيحيين حقداً في أفريقيا الشمالية»[٥٩]، فقد لعبوا دوراً قيادياً في الحرب البحرية الصغرى وفي القرصنة الشهيرة في البحر الأبيض المتوسط التي اتخذت في ذلك الحين حجماً بالغ الاتساع. ويرى حسن عبد الوهاب، أن الموريسكيين اعتبروا تلك القرصنة الوسيلة الوحيدة

(٥٤) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 282.
(٥٥) A. Hess. op. cit. p. 70.
(٥٦) J. Penella. op. cit. p. 196.
(٥٧) L. Cardaillac. op. cit. T 2. p. 44.
(٥٨) D. Brahimi. op. cit. p. 135.
(٥٩) A. Hess. op. cit. Vol. LXXIV. p. 7.

للانتقام من الدول الأوروبية المسيحية[٦٠]، ولمواصلة الكفاح بهدف استعادة الوطن السليب أي الأندلس. وأخذت إسبانيا ترد على الضربات كلما سنحت لها الظروف. ففي الفترة الممتدة من عام ١٥٢٩ حتى عام ١٥٣٢ على وجه التخصيص، نفذ الأسطول الاسباني بضع هجمات فاشلة، على مدن شرشال والخَميس وغيرها من قواعد القراصنة الجزائريين. وبيد أن الهزيمة الكبرى لحقت بالاسبانيين في معركة مع القوات الرئيسية للأسطول العثماني. ففي ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٥٣٨، نشبت معركة عنيفة قرب بريفيزا عند شواطىء اليونان الغربية، تمكن منها خير الدين بربروس من تحطيم الأسطول المشترك لإسبانياوالبندقية. فغيّر ذلك الانتصار الباهر بصورة جذرية ميزان القوى في البحر وأدّى إلى بسط السيادة العثمانية على الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط.

وضع تفوق العثمانيين في البحر إسبانيا في موقف بالغ الحرج، وأثّر بصورة حاسمة على كارل الخامس عندما أقدم عام ١٥٤١ على وضع خطة لاجتياح الجزائر. ولكي يتحاشى الإلتقاء بأسطول خير الدين بربروس أقدم على مغامرة مدروسة ومتعمّدة عندما اختار الخريف موعداً لتنفيذ العملية. والمعلوم أن سفن الأطراف المتحاربة تهرع للاختباء في موانىء أمينة على أبواب الشتاء بسبب احتمال هبوب العواصف الخريفية، إذ إن الخروج إلى عرض البحر لا يخلو إذ ذاك من المخاطر، وبالتالي يكون الاصطدام بأسطول العدو أقل احتمالاً في ذلك الوقت بالذات. لكن كارل الخامس رغم تحذير أميراله **أندريا دوريا**، أصدر أوامره للبدء بالهجوم.

كان أسطول الأرمادا الإسباني يتألف من ٥١٦ سفينة حربية وسفينة نقل[٦١] بلغ عدد أطقمها ١٢ ألف بحار. وكانت سفنه تحمل على ظهرها كمية كبيرة من الذخائر الحربية و٢٤ ألف جندي، بما في ذلك سبعة آلاف إسباني وستة آلاف ألماني وستة آلاف إيطالي، وثلاثة آلاف من الفرنجة من جنسيات أخرى، وأربعمائة فارس مالطي[٦٢]. كان على رأس تلك القوة الأمبراطور كارل الخامس نفسه وقائده العسكري المحنّك الدوق البا. ويشير أ.د. دي غرامون إلى أن كل نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا أرسلوا متطوعين إلى هناك[٦٣] ورافقهم عدد كبير من السيدات المرموقات «فقد يكون من الواجب عقد قران لمن يخرج من المبارزة منتصراً»[٦٤].

في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٤١، شاهد سكان مدينة الجزائر أشرعة الأسطول الاسباني

---

(٦٠) H. A. Wahab. op. cit. p. 19.

(٦١) Jurien de la Gravière. «Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Grand». Paris 1887. p. 41.

(٦٢) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 346.

(٦٣) H. de Grammont. op. cit. p. 58.

(٦٤) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 346.

تغطّي الأفق كله. كان عدد السفن كبيراً جداً بحيث يصعب تعدادها [٦٥]. ولما كان حسن آغا الذي يحكم البلاد بديلاً عن خير الدين بربروس يعلـم أن الاسبان يستعدون للحملة فقد اتخذ كل الاستعدادات والتدابير الضرورية لمواجهتهم. فتم تفقّد التحصينات وتدعيمها، وأجري إحصاء للسكان القادرين على حمل السلاح، واتخذت تدابير أمنية إضافية، ومُنع الدخول إلى المدينة والخروج منها، وتم إلقاء القبض على عدد من المشتبه بهم، وقطعت كل الأشجار في ضواحي المدينة بدءاً بحديقة الخليفة نفسه، واحتشدت ستة مجموعات كبيرة من البدو المسلحين، وعدد لا يحصى من فلاحي القبائل على مشارف العاصمة. بلغ مجموع ما كان في إمرة حسن آغا من قوات ثمانمائة عثماني وخمسة آلاف موريسكي وعدد مماثل تقريباً من الأهال المسلحين. أما البدو الفلاحون فلم يحصهم أحد [٦٦].

عند ظهور الأسطول الاسباني دعا حسن آغا شيوخ المسلمين والأهالي إلى اجتماع في جنينة، وأعلن أن أمامهم خيارين لا ثالث لهما « النصر أو الموت » [٦٧]. ثم فتح أبواب مستودعات الأسلحة وسلّم السلاح إلى المقاتلين ووزعهم على المناطق.

ذكر شهود عيان أن الأعلام الحمراء، ومنها علم الجزائـر المثلـث الألـوان [٦٨] رُفعـت فـوق تحصينات القلعة وأبراجها ومرابض مدفعيتها على امتداد أسـوار المدينـة وفي المسـاجـد أقيمـت الصلوات لينعم الله على الجزائر بالنصر، حتى أن أحد المتدينين من المرابطين تنبأ « بعون من السماء » [٦٩]. كل ذلك بعث الحماس والشجاعة في نفوس المدافعين عن المدينة الذين أصيبوا ببعض الانهيار المعنوي لدى مشاهدتهم أسطول الأمبراطور.

في ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٤١، أنزلت قوات كازل الخامس في منطقة رأس مَطيف وتحركت بسهولة نحو مدينة الجزائر، وتقرر عدم إنزال قسم من المدفعية والخيم والمؤن إلى حين الاقتراب من المدينة. لم يكن النبلاء الاسبان بشكل عام يحسنون تقدير المزايا القتالية للمحاربين الجزائريين، وظنّوا أنهم سيتغلبون على مجموعات « العبيد الهاربين وحفنة العثمانيين الواقفة وراءهم دون أي صعوبة ».

في البداية سارت الأمور على ما كان يأمل الاسبان. فكانت بضع قذائف من مدفعية السفن الحربية الاسبانية كافية لتشتيت البدو الذين حاولوا التصدّي لانزال الجنود على الشاطىء، ودون

(٦٥) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 272.
(٦٦) Ibid. T. 2. pp. 270 - 272 et H. de Grammont. p. 60.
(٦٧) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 55.
(٦٨) Ibid. T. 2. p. 272 - 274.
(٦٩) J. de Hammer. T. 5. p. 347.

صعوبة كبيرة تمكن الاسبانيون من صد الهجمات الليلية التي شنها الأهالي.

في ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) أصبح جيش الأمبراطور على مقربة من أسوار المدينة، وتمركزت هيئة قيادة الجيش على تلة تحمل اسم «قوديّة الصابون» أي تلة الصابون والتي سُمّيت فيما بعد «قلعة السلطان» تذكاراً لوصول كارل الخامس إليها. تقرر البدء في اليوم التالي بإنزال المدفعية وأدوات الحصار من السفن. آنذاك حدث ما لم يكن في الحسبان. فبعد ظهر ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) تلبدت السماء بالسُّحب، وتدنت الحرارة إلى درجة منخفضة جداً وما أن حلّ المساء حتى هبت عاصفة رهيبة. يقول مؤلف كتاب «الغزوات»: «اندفعت الرياح الهوجاء من كل حدب وصوب، وتكشفت الغيوم وقصف الرعد في كبد السماء وانهمرت على الأرض أمطار كالسيول أو بالأحرى كالطوفان الكوني». ومن شدة الريح انشقت لجج البحر وصعدت منها «أمواج كالجبال[٧٠]. وتقطعت الحبال كأنها خيوط واهنة، فاقتلعت السفن من مراسيها وتاهت في البحر. وألقت الأمواج بقرابة ثلث سفن الأسطول إلى الشاطىء أو تحطمت على الصخور. حتى أن أرناندو كورتيس فاتح المكسيك الشهير نفسه كاد يُقْتَل على ظهر أحد القوارب. وعلى الشاطىء كان البدو يُجْهزون على البحارة المنهوكي القوى الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى البر إلا بشق النفس. وعندما هدأت العاصفة كان الشاطىء كله من شرشال إلى دليس مغطى بالجثث والأنقاض[٧١].

وتلفت المدفعية خلال العاصفة، وقضت القوات الليل بطوله تحت سيل من المطر دون ان تكون لديها خيمٌ أو أغطية تستطيع الاحتماء بها، فأصابها الاعياء حتى أصبحت على الرمق الأخير. وتلف البارود بفعل الرطوبة فأصبحت البنادق بلا فائدة، وغاص الجنود المعتمرون دروعاً وخوذاً فولاذية ثقيلة في الوحول حتى الركب. لقد كانت الريح من القوة بحيث كاد فرسان ألبا المجرَّبون في الغزوات لا يقوون حتى من الوقوف على أرجلهم. واستغل حسن آغا ذلك فشن بضعة هجمات صباحية، ثم لجأ الجنود العثمانيون إلى المناورة فتظاهروا بالهرب والتراجع، وبذلك استدرجوا العدو إلى قرب أسوار القلعة. وإذ كان الطرفان مرغمين في ساحة القتال على الالتحام بالسلاح الأبيض دون غيره، فإن العثمانيين والموريسكيين كانوا إلى جانب أسوار المدينة للاحتماء فيها من الأمطار واستخدام الأسلحة النارية لقتال الاسبان الذين باتوا في وضع لا أمل فيه، فلا ألبا ولا كارل الخامس كان يأمل بالخروج من الوضع الناشىء. وفي نوبة من اليأس قرر الاسبان الانقضاض على مدينة الجزائر في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) دون مدفعية أو إعداد مسبق. ووسط عاصفة من

(٧٠) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 63.
(٧١) H. de Grammont. op. cit. p. 62.

الريح المجنونة والأمطار الغزيرة، وبعيون مغمضة، اندفع جنود الأمبراطور باتجاه أسوار القلعة، فقتل آلاف الايطاليين الذين كانوا في الصفوف الأمامية بنيران المدفعية الجزائرية وسهام الرماة الموريسكيين وسيوف الفرسان العثمانيين، فأصيب الاسبان بالرعب ولاذوا بالفرار، حتى أن سيف الأمبراطور لم يستطع إرغامهم على العودة لمواجهة العدو. فاندفع حسن آغا يقتفي إثر طوابير الجنود المتقهقرة محاولاً دفعها إلى وادي الحرّاش وهو نهر صغير حولته الأمطار إلى سيل عارم، أخذ يجرف في طريقه الجنود والخيول والمدفعية. وبتغطية من الحرس الاسباني وفرسان مالطة ظل جنود كارل الخامس طيلة الليل يعملون في بناء جسر من أنقاض السفن التي لفظها البحر. وفي ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٤١، بدأوا العبور أخيراً فانفصلوا بذلك عن قوات حسن آغا التي توقفت أيضاً أمام وادي الحرّاش الصاخب.

استمرت العاصفة والأمطار الغزيرة ثلاثة أيام بلياليها. ولم يجد الجنود ما يقتاتون به إذ لم تبق لديهم كسرة خبز واحدة، فأخذوا يأكلون الخيول وما يعثرون عليه من السلاحف والأعشاب الخريفية الجافة. وعندما هدأت العاصفة كان الجنود الذين لم يذوقوا طعم النوم منذ ثلاثة أيام عاجزين تماماً عن مواصلة القتال، فأصدر كارل الخامس أمره بالانسحاب. وأصبح عدد كبير من الجنود الذين ألقوا سلاحهم فريسة سهلة للجزائريين[٧٢].

عند أسوار مدينة الجزائر فقد كارل الخامس قرابة مائة وخمسين سفينة واثني عشر ألف جندي. وصعدت فلول الجيش في مطلع شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إلى السفن بانتظار هدوء العاصفة ومكثوا في بجاية ثم عادوا إلى قرطاجة عبر جزر الباليـار في أول كـانـون الأول (ديسمبر) ١٥٤١. احتفلـت الجزائر بالنصر، أما الرسول الذي حمل نبأ النصر إلى اسطمبول فقدمه خير الدين بربروس بنفسه إلى البادي شاه (السلطان) شخصياً، ورُقي حسن آغا إلى رتبة باشا وعُيِّن **بكلربك** على الجزائر[٧٣].

كانت حملة كارل الخامس آخر محاولة جدية لاستعادة «المملكة الجزائرية». أما العمليات العسكرية التي قام بها الجنرال ـ قبطان وهران الكونت دالكوديت ما بين عامي ١٥٤٣ و ١٥٤٦ في غرب البلاد فلم تكن ذات أثر مهم، ولم تؤدّ حملاته على تلمسان ووهـران ومستغانم إلى أي تغيير يذكر. علاوة على ذلك، تكبّد الكونت دالكوديت هزيمة كبرى قرب مدينة مستغانم في ٢٧ ـ ٢٨ آب (أغسطس)، وأرغم على التراجع إلى وهران وهي المدينة الوحيدة التي صمد فيها الاسبان وتمكنوا من الاحتفاظ بها. وحوصرت بجاية وظلت في حالة حصار دائم لا يصلها الخبز والبارود واللحم المملّح إلاّ من جزر الباليار.

(٧٢) H. de Grammont. op. cit. p. 65.
(٧٣) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 68.

ظل سلطان تلمسان من آل عبد الـواد لبضع سنوات ألعوبة كبرى بيد الاسبان. ولم يحدث ان طلب أحد من الأطراف المتناحرة على السلطة وحلفائهم البدو أي مساعدة من سلاطين مراكش السّعديين في وهران وفاس. وفي كل مرة كان الاسبان مضطرين إلى إرسال قواتهم لنجدة أنصارهم. وفي نهاية المطاف أسقط العثمانيون نهائياً أسرة عبد الواد. وفي عام ١٥٥١ بعد تنظيـف تلمسان من المجموعات المراكشية المسلحة أقـاموا فيها نظام الإدارة المباشرة. وفي الصحراء تعززت سلطة البكلر بك العثماني إلى درجة كبيرة بعد الحملات الناجحة التي قام بها **صلاح رئيس** في واحة توقرت (Tougourt)، ووقلة في صيف عام ١٥٥٢. في ذلك الوقت انضمت الصحراء الشمالية بأسرها وواحتا طرطرات والأغواط ومعظم مناطق الصحراء الغربية حتى سواحل المحيط الأطلسي إلى السلطنة العثمانية أو على الأقل اعترفت بالسيادة العليا للباب العالي.

بعد فشل حملة كارل الخامس تعايشت اسبانيا إلى حد بعيد مع حقيقة فقدان الجزائر. وجــاء وفاة خير الدين بربروس في قصره على البوسفور في ٤ تموز (يـوليـو) ١٥٤٦ في أوج المبـاحثـات الاسبانية ـ العثمانية التي اختتمت في العام ١٥٤٨ بتوقيع اتفاق هدنة لمدة خمس سنوات. وفي العام التالي، أعلم الديوان الجزائري كارل الخامس أنه عازم جدياً على التمسك بهذا الاتفاق وأنه يوقف كل الأعمال العسكرية [٧٤].

وأخيراً عرفت هذه البلاد الشاسعة الهدوء والتـوازن الداخلي، فكتـب مـؤلـف «الغـزوات» المجهول أن الجزائر بدأت بعد تلك الأحداث المجيدة «تنعم بلذة الهدوء مثل شاب عقد قرانه حديثاً،. يتمتع بمفاتنه وجماله تحت إدارة حكيمة خيّرة تضمـن الهنـاء والسكينـة» [٧٥] وتـوقفـت الحروب الاقطاعية الداخلية بشكل شبه كامل واضطر البدو إلى مراعاة النظم العثمانية واحترام أملاك السكان من المزارعين.

أما أعمال اللصوصية والابتزاز المنفردة فكان مرتكبوها يتعرضون لأقسى أنواع العقاب. وأصبحت الحياة في الجزائر مقبولة نسبياً. ويرى عدد واسع من المؤرخين أن «الاحتلال» العثماني كان أفضل بما لا يقاس من المرحلة الفوضوية التي سبقته. «لأن الرعية حصلت خلاله على هدوء وأمن نسبيين» [٧٦].

---

(٧٤) A. Hess. op. cit. p. 75.

(٧٥) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 69.

(٧٦) H. de Grammont. op. cit. p. 413.

فتح اليمن وحضرموت

بعد سقوط دولة المماليك اعترفت معظم بلدان حوض البحر الأحمر بالسيادة المعنوية للسلطان سليم الأول. ونشر العثمانيون روايات كثيرة عن جبروت الخليفة العثماني الجديد ومحبة الشعب له. إلى ذلك، فإن الخطر البرتغالي وضعف الحكام المحليين وعجزهم عن حماية انفسهم، وأزمة المؤسسات التقليدية، كل ذلك خلق ظروفاً مناسبة لتصاعد موجة العطف على العثمانيين التي لم يكن يستطيع ردعها شيء. ولم يكن الفلاحون وحدهم يطلبون مساعدة العثمانيين، بل شاركهم أيضاً رجال الحكم المحليون فعلقوا عليهم الآمال في تجديد المجتمع الإسلامي وبالأخص في صد العدوان البرتغالي.

وازداد القلق بسبب الوضع المتفاقم في مناطق اليمن وحضرموت الساحلية التي كانت تعاني من هجمات البرتغاليين وفقدان الأمن على خطوط الملاحة البحرية، فيما كان الوضع في المناطق الداخلية أفضل نسبياً. فقد أدّت النزاعات الدينية وأعمال السلب والنهب التي كان يمارسها البدو الرحل وغياب سلطة الحكومة القوية إلى جو من عدم الثقة وإلى صدامات قبلية لا حصر لها.

في مطلع القرن السادس عشر كانت سلطنة الطاهريين السنيّة وعاصمتها مدينة زُبَيْد هي الدولة الأقوى في جنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت عاصمتها المركز الديني والثقافي الرئيسي في البلاد. فبسطت هذه الدولة سلطتها على المناطق الزراعية وأكثر المدن المتطورة والمزدهرة في اليمن بما فيها تعز وصنعاء وعدن ومُخا. ارتكز الطاهريون أساساً على رجال الدين السُنّة أتباع المذهب الشافعي

يساندها جيش كبير من العبيد أو المماليك السود. وشكلت الطائفتان المتنازعتان الزيدية والاسماعيلية اللتان كانتا تسيطران على المناطق الجبلية في شمال اليمن ووسطه، المنافس الدائم والعدو اللدود للسلطنة الطاهرية.

تميزت الإمامة الزيدية بشدة المراس في القتال وعُرفت بتطرفها المذهبي. وقد جعلت مركز حكمها في المناطق الجبلية الشمالية. أما المركز الرئيسي للإسماعيليين فكانت نجران التي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من يمن القرون الوسطى، وهي الآن ضمن أراضي المملكة العربية السعودية حيث أقام الاسماعيليون دولتهم برئاسة قائدهم الديني والسياسي الذي حمل لقب الإمام المكرّم. وضمت دولتهم جبل خرز وبعض المناطق الجبلية الأخرى. وفي حضرموت إلى الشرق من دولة الطاهريين قامت سلطنتان أخريان كبيرتان نسبياً هما سلطنة اليمنيين وعاصمتها تريم. وسلطنة الكواسر وعاصمتها الشّحْر وكانت أكبر المدن وأغناها على ساحل شبه الجزيرة العربية الجنوبي. وكما في حضرموت كذلك في اليمن اعتُبر كثير من الحكام المحلّيين وأمراء القبائل البدو والفقهاء البارزين والمناصب أو الزعماء الروحيون مستقلين تمام الاستقلال، ولم يكونوا يُعيرون أي اهتمام للطاهريين أو الكواسر، أو لليمنيين. أما أكثرهم نفوذاً فكانوا أشراف جيزان حكام عسير الجنوبية، والفقيه أبو بكر بن مقبول حاكم لحج وصاحب أسرة العامود التي كانت مدينة البيضاء معقلاً لهم. وفي مَهْرَة وظفار كانت السيطرة للسلاطين المحليين وأحياناً لأعيان الكواسر أو لحكام عُمان.

تنازع شيوخ القبائل على السلطة في جنوب شبه الجزيرة العربية، فعقدوا الاتفاقات المؤقتة والهشّة بين الأطراف والجماعات المتصارعة ولم يتخذوا في الواقع أي تدبير للنضال المشترك ضد البرتغاليين، فضلاً عن أن مصالحهم العائلية الوراثية كانت كثيراً ما تتقدم على مصالح مكافحة التوسع البرتغالي.

كان الطاهريون، وهم القوة الرئيسية المسيطرة في جنوب شبه الجزيرة العربية، يتهربون عموماً من أي مشاركة نشيطة في الجهاد المقدس. وعندما تحرك أسطول المماليك بقيادة حسين الكردي نحو شواطىء الهند في تشرين الأول (اكتوبر) ١٥١٥، رفض سلطان الطاهريين عامر الثاني بن عبد الوهاب (١٤٨٩ - ١٥١٧) تقديم الموانىء والقوى البشرية والتموين الغذائي للأسطول منتهكاً بذلك كل التزامات[١] التحالف مع المماليك وقد أدت خيانة السلطان الطاهري إلى إرباك مخططات المماليك، فتأجلت الحملة على الهند. وظل أسطول المماليك راسياً عند شواطىء جزيرة قمران لمدة ثمانية أشهر منشغلاً ببناء التحصينات الدفاعية. وبدأت الوفود والرسل تتقاطر إلى

---

(١) J. de Hammer. op. cit. T. 6 p. 356 et David Lopes «Extractos da Historia da dconquista do Yaman Pelos Othomanos». Lisboa 1892. p. 14.

معسكر المماليك هناك من المناطق والقوى المعادية بمن فيهم الزيديين، للتعبير عن استنكارها لموقف عامر الثاني ولمطالبة حسين الكردي «بتحرير اليمن من استبداد الطاهريين»[٢].

بعد أن ضمن جيش حسين الكردي المؤلف من ستة آلاف رجل تأييد إمام الزيديين يحي شرف الدين وفقيه لحج أبو بكر وشريف جيزان عز الدين بن أحمد شن هجوماً على عامر الثاني. كان المماليك يتمتعون بتفوق عسكري غير محدود، سيما وأنهم كانوا يملكون أسلحة نارية لم يكن جنوب شبه الجزيرة العربية يعرفها أبداً. فنشرت البنادق والمدافع الرعب بين المقاتلين اليمنيين وتمكن حسين الكردي دون كبير عناء من تحطيمهم في بضع معارك. وفي ٢٠ حزيران (يونيو) ١٥١٦، دخل حسين الكردي مدينة زبيد عاصمة البلاد وانتقلت تهامة اليمنية بأسرها ومخا وتعز إلى أيدي المماليك وحليفهم الشريف عز الدين بن أحمد.

اختبأت فلول القوات الطاهرية في المناطق الجبلية وهرب قسم منها جنوباً إلى عدن، فأصبحت تلك النقطة الاستراتيجية المهمة الهدف الأساسي للحملة العسكرية التي شنتها القوات الرئيسية لجيش المماليك في عام ١٥١٦. وفي ٢ آب (اغسطس) أصبح أسطول حسين الكردي وقواته البرية على مقربة من المدينة. ورغم القصف العنيف الذي تعرضت له عدن من البر والبحر، ورغم ضخامة عدد الضحايا والتدمير الواسع، تمكن عامل الطاهريين في عدن عامر بن داود من الدفاع عن المدينة بمساعدة قوات عبد الملك شقيق السلطان، التي وصلت لنجدته في الوقت المناسب. وفي ١٠ آب (اغسطس) ١٥١٦ رفع المماليك الحصار وعادوا إلى القواعد التي انطلقوا منها[٣].

في تلك الأثناء تغيّر الوضع في جنوب شبه الجزيرة العربية تغيُّراً جذرياً بعد أن تكبد المماليك هزيمة ساحقة في ضواحي حلب وقتل سلطانهم قانصوه الغوري في مرج دابق. وجرجرت فلول قوات المماليك المهزومة أذيالها إلى القاهرة، وأخلى حسين الكردي بلاد اليمن. وبعد أن أبقى حامية صغيرة في مدينة زُبيد، قاد قواته إلى جدة على مقربة من مصر. وما كادت هذه القوات تخرج من اليمن حتى ظهرت السفن البرتغالية في البحر العربي بقيادة لوبو سواريش. وفي آذار (مارس) ١٥١٧ اقتربت من عدن. ولم يبد **عامر بن داود** أي مقاومة بل قدم مفتاح المدينة إلى الأميرال البرتغالي وأعلن اعترافه بسيادة العرش البرتغالي[٤]. غير أن لوبو سواريش، لحسن حظ ابن داود، تكبد الهزائم المؤثرة الواحدة تلو الأخرى، وفقد في البحر الأحمر قسماً كبيراً من جنوده ومن أسطوله وعاد إلى الهند خاوي اليدين. وعليه أخليت عدن طوعاً. فاستغل عامر بن داود ذلك

---

(٢) عبد الحميد البطريق، «من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠»، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢١.

(٣) D. Lopes. op. cit. p. 17.

(٤) R. S. Whiteway. op. cit. p 182.

ليعزز سلطته وليؤسس في جنوب اليمن امارة طاهرية مستقلة دامت حتى عام ١٥٣٨. وضمت، اضافة إلى عدن، مناطق لحج والشيخ عثمان.

في زبيد تمكن المماليك من حماية مواقعهم والاحتفاظ بها. واستغل عاملهم الأمير **بارسباي** تأييد السكان المحليين له وتشجيع الشريف عز الدين بن احمد فركز ادارة البلاد، ورغم جلاء قسم كبير من فيلق حملة المماليك العسكرية استطاع مواجهة الطاهريين بنجاح. وفي ربيع عام ١٥١٧، وبعد احتلال السلطان سليم لمصر، عاد من جده إلى زبيد معظم المماليك الذين رحلوا قبلاً مع حسين الكردي هرباً من مطاردة السلطة الجديدة. وبمساعدتهم تمكن الأمير بارسباي من صد هجوم قوات عامر الثاني، وفي ١٥ أيار (مايو) ١٥١٧، وفي معركة قرب صنعاء، ألحق به هزيمة ساحقة وقتل عامراً الثاني مع أخيه عبد الملك أثناء دفاعها عن المدينة، فانتهى بذلك وجود سلطنة الطاهريين (٥).

بعد غزو اليمن وجد المماليك أنفسهم في وضع لم يألفوه من قبل فقد سقطت دولتهم الأم في مصر وقلبت حكومتهم، ولم يعد لهم أي مكان يلوذون به وأصبحوا مرغمين على البقاء في اليمن وتثبيت مواقعهم فيها بعد أن اصبحوا أسياد السلطة فيها. لذلك قرروا عدم المغامرة بمصيرهم، فأسسوا في اليمن دولة مملوكية مستقلة. وفي شهر تموز (يوليو) ١٥١٧، تخلت هذه الدولة عن سياسة المواجهة مع العثمانيين وأعلنت اعترافها بالسيادة العلنية للباب العالي (٦).

بيد أن سليم الأول لم يكن راضياً عن أتباعه الجدد (٧)، ومع ذلك ثبّت الأمير اسكندر، خليفة الأمير بارسباي الذي توفي بعد الاستيلاء على صنعاء بفترة قصيرة، والياً على اليمن وبسط حمايته على المماليك، فوضع بذلك بداية موضوعية لوجود الباب العالي العسكري والسياسي في جنوب شبه الجزيرة العربية. فتأسيس دولة جديدة تحت اشراف غير مباشر من الباب العالي، ومدها بالسلاح، والتدخل في الشؤون الداخلية لبلدان حوض البحر الأحمر، قادت إلى تدعيم مواقع العثمانيين في تلك المنطقة. وبدأ العثمانيون يتوافدون، أفراداً وجماعات، للعمل مع الحكام المحليين وتقديم الخدمات لهم.

من نتائج سقوط الطاهريين كذلك، تزايد نفوذ الأئمة الزيديين. فقد عمد عامر الثاني أثناء القتال العنيف ضد الشيعة إلى شن عدة هجمات على جبال اليمن. وفي عام ١٥٠٦، سيطر على صنعاء وقضى على سلطة الأئمة الزيديين فلم يبق آنذاك تحت إشرافهم المباشر سوى مدينة صَعْدَة

(٥) البطريق، مرجع سابق، ص ٢٢ Voir aussi J. de Hammer. T. 6. p. 357 et D. Lopes. op. cit. p. 15.

(٦) G. Stripling op. cit. p. 28.

(٧) البطريق، مرجع سابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

وبعض المناطق الجبلية في شمال البلاد. على أن الإمام المتوكل يحيى شريف الدين (١٥٠٧ - ١٥٥٨) استطاع أن يوقف الانهيار النهائي لدولة الزيديين. فقد تحالف بادىء الأمر مع المماليك وتصدّى للطاهريين إلى حين سقوطهم فارتدّ على حلفائه يناصبهم العداء. وفي عام ١٧١٧، تمكنت قوات الامام من استعادة صنعاء، وبعد فترة قصيرة فرضت إشرافها الفعلي على جميع مناطق الزيديين في الجبال[٨].

لم يتعرض الباحثون عملياً في مؤلفاتهم التاريخية الحديثة لدراسة الجذور الاجتماعية والسياسية لانبعاث سيطرة الزيديين. وبدورها لم تكن العلاقات بين يحيى شريف الدين والصفويين موضع تدقيق. بامكاننا الافتراض فقط أن الشاه اسماعيل الصفوي إلى جانب البرتغاليين كانوا يعتبرون الزيديين حلفاء لهم. والبرتغاليون، منذ عام ١٥١٣، توقفوا عن اعتبار الزيديين أعداءً. ومنذ بداية ظهورهم في البحر الأحمر اتخذوا موقفاً وديّاً حيال أهالي جزر قمران باعتبارهم من رعايا الأئمة الزيديين، وتميّزوا عن باقي المسلمين بعدم تعرضهم للسلب أو للتعذيب[٩].

ثم إن الأئمة الزيديين ظلوا على مدى القرن السادس عشر بكامله قاعدة أساسية لنضال لا هوادة فيه ضد الزعامة السنيّة المتشددة في جنوب شبه الجزيرة العربية. فجرت أشد هجمات الزيديين ضد عامر بن داود وأمراء زُبيد المماليك وفيما بعد ضد الحكام العثمانيين في فترات تفاقم التناقضات السنيّة الزيدية. ففي منتصف الثلاثينات مثلاً شن الزيديون حملة ناجحة على إمارة الطاهريين في جنوب اليمن. وفي شباط (فبراير) ١٥٣٥، استولوا على تعز التي كانت آنذاك تحت إشراف أمير عدن عامر بن داود، وبسطوا سلطتهم على الجزء الجنوبي من الجبل. ثم عمدوا إلى تنشيط تحركهم في حضرموت، فحاولوا الاستيلاء على تهامه. وشنت القوات الزيدية بقيادة المطهّر وشمس الدين علي ولدي الإمام يحيى شريف الدين هجوماً على عاصمة اليمن مدينة زبيد، لكنها هُزمت عام ١٥٣٨ وأرغمت على التقهقر إلى الجبال[١٠].

وظلت الإمارة المملوكية في تهامة المعقل الرئيسي للمسلمين السنّة. وبدأ نفوذ الباب العالي هناك يتصاعد وينمو بوضوح بعد اخماد تمرّد الأمير اسكندر الذي أثار انتفاضة شبيهة بانتفاضة جان بردى الغزالي في أواخر عام ١٥٢٠[١١]. وبعد أن نصّب نفسه سلطاناً أعلن انفصاله عن السلطنة العثمانية، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة ونقش اسمه على النقود المحلية. وفي البلاط طبق

---

(٨) البطريق، مرجع سابق، ص ١٧. وكوتلوف «دليل الجمهورية العربية اليمنية» موسكو ١٩٧١، ص ١٣٧.

(٩) R. S. Whiteway. op. cit. pp. 155 - 156.

(١٠) J. de Hammer. T. 6. p. 360.

(١١) G. Stripling. op. cit. p. 88.

البروتوكول المملوكي بحذافيره: فعيّن كُتّاب السر (داور دار) والحجّاب والأمراء [١٢]. بيد أن اسكندر لم يتمكن من الحصول على تأييد الأهالي، مما سهّلَ على الوحدات العسكرية العثمانية التي أرسلت من جدّة إخماد التمرد دون عناء كبير ودخول زبيد وإعدام زعماء الانتفاضة. وفي عام ١٥٢١، أُرسل رأس اسكندر وكبير أمناء سره إلى القاهرة [١٣].

بعد فشل التمرد في زبيد نشب نزاع متواصل على السلطة بين أعوان مختلف المجموعات المسلحة المحسوبة على الباب العالي. فما بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٢٩، حدثت خمسة انقلابات عسكرية على الأقل وتغير الحكام سبع مرات أو أكثر. تراجع القادة المحليون مبدئياً إلى الصف الثاني بينما ظهر في الواجهة الغرباء القادمون من وراء البحار، أي المماليك وقادة المرتزقة الإيطاليون العاملون مع العثمانيين وحتى المرتدون إلى الإسلام المتحدرون من أصل اوروبي. كانت دهشة البرتغاليين عظيمة عندما علموا أن بين المقربين في حاشية الحاكم السابع مصطفى بيرم الذي هرب إلى الهند عام ١٥٢٩ كان المرتدّان الايطاليان صفر آغا وقَرّه حسين وغيرهما. وفي الشرق البعيد كان هؤلاء يقيمون الأمسيات الشعرية لقراءة قصائد الشعراء الإيطاليين **اريوستو وبتراركي ودانتي** [١٤].

لقد قدمت الفتن التي عصفت باليمن للعثمانيين مبرراً ممتازاً للتدخل. وبعد أن قام بكلر بك مصر بحملة تأديبية في عام ١٥٢٠، أرسل قواته إلى اليمن مرتين على الأقل لكي يضع حداً لتلك السلسلة من اغتصاب السلطة القائمة على القتل [١٥].

وبعد هرب مصطفى بيرم الذي خشي الانتقام بعد قتله لعامل باشا القاهرة بقيت اليمن بلا حكومة. وبموافقة القوات العسكرية والأهالي تسلم السلطة الأمير المملوكي اسكندر مُوز (١٥٢٩-١٥٣٦). فركّز شؤون ادارة البلاد وانتهج سياسة التعاون المخلص مع الباب العالي. يقول المستشرق النمساوي هامر أن اسكندر ضمن بعدالته تأييد العلماء والجنود [١٦]. أما ابنه أحمد الذي حاول السير على نهج والده، فاصطدم بعقبات غير متوقعة أهمها توسّع الزيديين، كما أنه استثار غضب القوى الموالية للعثمانيين.

المعقل الثاني للنفوذ العثماني في جنوب شبه الجزيرة العربية كانت سلطنة الكواسر في حضرموت. وكان ظهور العثمانيين هناك مرتبطاً بنشاط أمير الكواسر الشاب الطموح **بدر الثالث**

---

(١٢) ابن اياس، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ٤١٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٤١٤ - ٤١٥.

(١٤) R. S. Whiteway. op. cit. p. 214.

(١٥) J. de Hammer op. cit. T. 6. p. 358.

(١٦) Ibid. p. 359.

بوتُوَيْرك (١٥١٦ ـ ١٥٦٨). فما أن اعتلى العرش وهو في سن العشرين حتى أحاط نفسه بنفر من رجال الحاشية الطامحين بمساعدة العثمانيين لوضع حد للتقاليد الوراثية البالية واختراق حاجز التفتت القبلي وتأسيس دولة قوية وذات مركزية صارمة. كانت باكورة أعماله إقامة علاقات مع الباب العالي والحصول على إذن بتشكيل جيش خاص به. وفي شهر أيار (مايو) ١٥٢٠ وصل إلى الشَّحْر أول فصيل من المتطوعين العثمانيين المزودين بأسلحة نارية بقيادة **رجب التركي**. وأطلق سكان حضرموت على تلك البنادق الغريبة اسم «الأسلحة الرومية» وقد منحت جنود رجب تفوقاً عسكرياً لا نزاع فيه. ويصف سعيد عوض باوزيد كيف استبد الهلع والرعب بالأهالي، ولم يعد لهم من حديث إلاّ رجب التركي وشاربيه الطويلين وجنوده[١٧]. تمكن بدر الثالث في فترة زمنية وجيزة، وبمساعدة رجب التركي، من إخماد مقاومة زعماء القبائل وتوحيد حضرموت لأول مرة في تاريخها. في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢١، وبعد حصار دام عشرين يوماً، احتل **تريم** ووضع نهاية لأسرة اليمانيين. وهرب آخر السلاطين اليمانيين **عبدالله الرابع** وغيره من أفراد السلالة إلى اليمن[١٨]. واضمحلت في تلك الفترة سلطة الأمراء الكواسر. وزعماء القبائل الأقوياء، واستولت قوات بدر الثالث على شيبام والحجر وشبوة ومدن كثيرة غيرها في حضرموت كانت البلاد كلها من العوالق في الغرب حتى سيحوت في الشرق، ومن شواطىء البحر العربي في الجنوب حتى رمال الربع الخالي في الشمال تحت حكم السلطان الكاسري[١٩]، لكن بضع حملات عسكرية شنها بدر الثالث باتجاه الشرق أرغمت مهرة وظفار على الاعتراف بسيادته العليا والالتزام بدفع الضريبة له.

أبدت الزعامات المحلية والأمراء الكواسر والأئمة وزعماء قبائل البدو مقاومة عنيدة. غير أن قوات بدر الثالث بقيادة الضباط العثمانيين تمكنت في عام ١٥٣٠ من إخماد مقاومة قبائل الهامي التي كانت اغتصبت السلطة في منطقة **الشحر**. وفي عام ١٥٣١ تمكنت من تصفية حكم شيوخ باوَزير. وفي عام ١٥٣٤ هزمت قبائل البدو التي تمردت في غرب البلاد. أما أعنف قتال اضطرت تلك القوات إلى خوضه وكان ضد أمير الكواسر المتمرد علي بن عمر ابن عم بدر الثالث، وهو «سلطان صوفي» اعتمد على دعم دراويش **شيبام** لمواجهة أحد أقوى الزعماء الروحيين في حضرموت زعيم **البيضا** عثمان العامودي الذي كان يتلقى المساعدة من الإمام الزيدي يحيي شريف الدين[٢٠].

---

(١٧) سعيد عوض باوزير «صفحات من التاريخ الحضرمي»، القاهرة ١٣٧٨ هجرية (١٩٥٩)، ص ١٢١.

(١٨) محمد بن أحمد بن عمر الشاطري. «أوراق التاريخ الحضرمي»، المكَلاّ ١٩٧٢، ص ٢١.

(١٩) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢٠) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٨ ـ ١٢٩. والشاطري، المرجع السابق، ص ٣٢ ـ ٣٣.

بات التحالف مع الباب العالي في أساس السياسة الداخلية والخارجية التي انتهجها بدر الثالث بوتُويرك وأقام حاكم حضرموت علاقات صداقة مع السلطنة العثمانية بصفتها الدولة الإسلامية القوية الحامية وفي رسائله إلى سليمان العظيم أكد باستمرار إخلاصه للباب العالي طالباً مساعدته ودعمه في حربه ضد أعدائه. فكان العثمانيون يزودونه بالسلاح والمدرِّبين. وفي سنوات الجوع كانوا يرسلون إليه السفن المحمّلة بالمواد الغذائية (٢١). وكان بدر الثالث بدوره يرسل الهدايا ورؤوس الأعداء القتلى إلى اسطمبول. وفي عام ١٥٣٦ أسر على شواطىء حضر موت ٣٥ برتغالياً أرسلهم هدية إلى سليمان العظيم (٢٢).

كانت البرتغال في تلك الفترة العدو المشترك لجميع مسلمي جنوب شبه الجزيرة العربية. وابتداء من عام ١٥١٧، أخذت السفن الشراعية التي ترفع شارة الصليب على أشرعتها تظهر كل عام تقريباً في مياه البحر العربي والبحر الأحمر فتسطو على السفن التجارية الإسلامية وتهاجم القرى والمدن الساحلية. فقام أسطول البرتغال خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ١٥١٧ و ١٥٣١ بتسع حملات عسكرية كبيرة على الشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والقرن الافريقي. كما شنت مجموعات مسلحة صغيرة من الزوارق الحربية البرتغالية وقراصنة البحر وبعض السفن المنفردة التي كانت تمخر عباب البحر بإذن ملكي خاص، عدداً أكبر من الهجمات على تلك المناطق. ومنذ عام ١٥٢٣، بدأ القراصنة البرتغاليون يظهرون على شواطىء شبه الجزيرة العربية، ويتعاطون مهنة القرصنة لحسابهم الخاص دون إذن من أحد. فكانت السلطات الشرعية تلاحقهم شكلياً، لكنهم في الحقيقة كانوا يستندون إلى تأييد ممثلي الملك ويتقاسمون الغنائم معهم، كما كانوا عند الضرورة يجدون الملاذ لهم في المرافىء الملكية. مهما يكن من أمر، فلم يكن من السهل أبداً تحديد النمط الدقيق الفاصل بين لصوصية البحر الرسمية وأعمال القرصنة الفردية. ويؤكد الباحثون أن قباطنة القلاع البرتغالية كانوا يمنحون الاذن بسهولة كتعبير عن الحماية لأكثر أنواع القرصنة شراسة. كتب وايت في بحثه عن التوسع البرتغالي ان الخيط الفاصل بين لصوصية البحر المرخص بها وبين القرصنة الفاقعة واه للغاية إذ كان ممكن اعتبار كل غنيمة مشروعة (٢٣).

كانت شواطىء ظفار وحضرموت والمناطق القريبة من مضيق باب المندب المسرح الأساسي للقرصنة البرتغالية. وأكثر ما تعرضت للهجمات كان **قشن وسيحوت والشحْر** وغيرها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية، وكذلك **مُصوَّع وزيلع وبربرا** على الشاطىء الافريقي. أما شواطىء

(٢١) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٢٥ Voir aussi R. S. Whiteway. op. cit. p. 255.

(٢٣) R. S. Whiteway. op. cit. p. 47.

شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر **وسواكن** التي كانت تحت حماية القلاع العثمانية البحرية في جدة وجزيرة قمران، فكانت في وضع أفضل بكثير. إذ لم يكن لصوص البحر المنفردون يستطيعون أبداً الوصول إليها.

اعتبر البرتغاليون أن مهمتهم الأساسية تنحصر في فرض احتكارهم على تجارة التوابل. ولهذه الغاية، حاولوا تدمير الأسطول العثماني المعادي لهم وإلغاء تجارة العرب البحرية وبالتالي «إقفال» «طريق مكة التجاري». ثم إن **دالبوكركي** اعتبر أن أبسط طريقة وأكثرها فعالية لتحقيق ذلك الهدف هو احتلال جنوب شبه الجزيرة العربية، وتأسيس قلعة برتغالية حصينة في **عدن**، ووضع حامية قوية فيها مؤلفة من ألف أو ألف وخمسمائة جندي [٢٤]. إلاّ أن طول خطوط المواصلات وقلة عدد القوات البرية البرتغالية في حوض المحيط الهندي، جعل تلك المهمة مستحيلة التحقيق عملياً. ولم يكن القتال ضد العثمانيين سهلاً، كما أن الأسطول البرتغالي لم يتمكن من تدمير القواعد العسكرية العثمانية والاستيلاء على جدة وقمران. وفي عام ١٥١٧، رابطت عمارة **لوبو سواريش** المؤلفة من ٣٧ سفينة حربية وعلى متنها ٥٥٠٠ رجل، لمدة أحد عشر يوماً قبالة مدفعية جدّة ولم تجرؤ على مهاجمتها [٢٥] وفي عام ١٥٢٨، لم تستطع السفن الشراعية االبرتغالية بقيادة **انطونيو دي ميراندي** «بسبب ريح غير مؤاتية» الاقتراب من جزيرة قمران وإحراق السفن العثمانية [٢٦].

استمر طريق مكة التجاري يعمل كالعادة. ولاحظ البرتغاليون بقلق أن العرب يواصلون نقل كميات كبيرة من التوابل إلى جزيرة **ديو** وهرمز وجدة. فضلاً عن ذلك لوحظ أن التجارة الخارجية قد نشطت بعد مجيء العثمانيين [٢٧]. وعندما تعرّف العرب على السفن الشراعية البرتغالية عن كثب اكتشفوا نواحي الضعف فيها، فاستعاضوا عن سفن الشحن الكبيرة بقوارب صغيرة وخفيفة تستطيع المرور في مياه قليلة العمق وبين الشعاب الصخرية والقريبة من الشاطىء التي تحاذر المرور فيها سفن الأسطول البرتغالي الكبيرة وفاقدة القدرة على المناورة.

عام ١٥٢٤، أمر الملاح الشهير **فاسكو دي غاما**، الذي عُيِّن نائباً لملك الهند، ببناء أسطول كامل من السفن الصغيرة القادرة على مطاردة العرب في المناطق المحاذية للشواطىء. وبواسطة تلك السفن الصغيرة كان يأمل بتغيير طبيعة العمليات البحرية وأساليبها. ويصف وايت كيف ان فاسكو

---

(٢٤) R. S. Whiteway. op. cit. p. 172.

(٢٥) Ibid. p. 184.

(٢٦) F. C. Danvers «The Portuguese in India. Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire». Volume I. New York 1960. p. 385.

(٢٧) Ibid. p. 411 et R. S. Whiteway. op. cit. p. 207.

دي غاما بدأ حرباً لا هوادة فيها ضد جميع المصالح التجارية التي تتعارض ومصالح البرتغال (٢٨) شدّد أولاً الضغط إلى درجة كبيرة على منتجي التوابل وموردّيها. ففي الهند وسيلان ومَلَقّة البعيدة، حُظّر على الحكام المحليين والتجار بيع التوابل للعرب تحت وطأة التهديد بإنزال أقسى العقوبات بهم، ثانياً عارض فاسكو دي غاما بشدة عقد أي اتفاقيات أو مساومات مع حكّام دول شبه الجزيرة العربية الساحلية لكي لا تبقى لهم أي مبررات للإحتفاظ بأسطول حربي وتجاري. وتقرر ثالثاً تشديد الحصار على المرافىء الإسلامية وتوسيع الإرهاب الجماعي في البحر كما أمر **لوبوفاز دي كامبايو** (١٥٢٥ - ١٥٢٩) خليفة فاسكو دي غاما في حكم الهند ومكمّل سياسته، بـ « تنظيف » البحار الجنوبية من السفن التجارية العربية. فخرجت عشرات من سفن قراصنة البحر وأسطول كامل من العمارات البحرية تجوب البحار بهدف واحد هو الإستيلاء على كل ما تجده من السفن الإسلامية لإحراقها. وبدأت مطاردة حقيقية لكل البحارة العرب. وفي عام ١٥٢٨ أرسل لوبوفاز بضع عمارات لتجوب البحر للغاية ذاتها وعادت كل منها بغنائم كبيرة، وحالف الحظ إحداها على سبيل المثال فعادت من ذلك الموسم بخمسين غنيمة (٢٩).

أبدى المسلمون مقاومة عنيفة ورداً على الارهاب شنوا حرباً بحرية شعواء اشتركت فيها سفن مهرة وحضرموت وغيرهما من الدول البحرية. وكثيراً ما اتخذت تلك الحرب طابع القرصنة الفوضوية وأبشع أشكال السطو على السفن البرتغالية التي كانت تتحطم على مقربة من الشاطىء، علاوة على أن قراصنة مَهَرة وغيرهم كانوا يسطون أيضاً على سفن « الفرنجة » والسفن الإسلامية المعادية. وأصبح الموقف بالغ الإرتباك والخطر في إطار حرب بحرية شاملة وعنيفة.

جرت أكثر الاشتباكات على اليابسة وبصورة همجية فلم يكن البرتغاليون يفرقون أبداً بين السكان المسالمين والقوات المسلحة وشارك السكان كلهم في المعارك فتكبّد المسلمون خسائر فادحة سيّما وان البرتغاليين كانوا يلبسون الدروع ويحسنون استخدام السيف والبندقية فلا يصابون إلاّ برضوض بسيطة ولم يتكبّدوا خسائر مؤثرة إلاّ في المناطق التي ترابط فيها الحاميات العثمانية المزودة بالأسلحة النارية. والمقاومة الأكثر عُنفاً صدرت عن مدن حضرموت حيث تمكنت قوات **الشحر** بمساعدة الأهالي من صد هجمات الأسطول البرتغالي مرات عديدة. ثم تكبد البرتغاليون هزيمتين قاسيتين كانت الأولى عام ١٥٢٣ عندما هاجموا مدينة الشحر فاستبسل أهلها في الدفاع عنها واستمر القتال ثلاثة أيام من ٢٣ حتى ٢٥ شباط (فبراير). وفي عام ١٥٣٦ نشبت معركة في ٥ رمضان (٢٧ شباط (فبراير)) حطمت قوات بدر الثالث بوتويرك إنزالاً برتغالياً معادياً شر

(٢٨) R. S. Whiteway. op. cit. p. 207.

(٢٩) F. Danvers. op. cit. p. 386.

تحطيم. واستولى مقاتلو بدر الثالث على أربع عشرة سفينة حربية برتغالية، كما قتلوا عدداً كبيراً من «الفرنجة» وأخذوا سبعين أسيراً. ولم تتمكن إلاّ سفينة برتغالية واحدة على ظهرها مائة جندي من الإفلات والتوغل بعيداً في عرض البحر. ووُزِّع الأسرى على القوات بصفتهم غنائم حرب كما قُدِّم بعضهم هدية إلى حكام الدول الصديقة بمن فيهم السلطان العثماني سليمان العظيم (٣٠).

اتخذ حاكم عدن الطاهري عامر بن داود موقفاً مزدوجاً فتظاهر بتأييد القراصنة والتجار المسلمين في آن واحد. وقام رجاله بالاستيلاء على السفن البرتغالية فسلبوا البحارة البرتغاليين وعذّبوهم. وعمل عامر بن داود بكل مهارة على تجنُّب أي مواجهة مع قوات الأسطول البرتغالي النظامية، بل سمح للأسطول بدخول مرفأ عدن والتزود بالماء والمواد الغذائية. ومن الواضح أن الاستسلام والإتفاق المعقود عام ١٥١٧ لم يكن وليد صدفة. ففي آذار (مارس) ١٥٢٤، وقع حاكم عدن اتفاقاً جديداً يتضمن اعترافه بسيادة البرتغال. صحيح أن فاسكو دي غاما لم يصادق على الاتفاق، إلاّ أن الموظفين البرتغاليين خلال انتظارهم الرد من غوا تصرّفوا وفقاً للوثيقة الموقعة الجديدة، فبسطوا رقابتهم على تجارة الأمير الطاهري ومداخيله ورابطت سفينة برتغالية بصورة دائمة في ميناء عدن فبعثت الرعب في المدينة بأكملها (٣١). وفي شباط (فبراير) ١٥٣٠، عقد عامر ابن داود اتفاقية أخرى مع البرتغال اعترف فيها للمرة الثالثة بتبعيته للعرش البرتغالي ملتزماً بدفع الضريبة. ولقاء ذلك مُنحت سفن عدن التجارية حرية الملاحة شرط عدم نقلها عبر القوافل المكّية أي عدم نقل التوابل وغيرها من البضائع إلى السلطنة العثمانية (٣٢).

في تلك السنوات كان أسطول الباب العالي الذي أصبح قديماً وضعيفاً نسبيّاً في البحر الأحمر، يتخذ مواقع محض دفاعية، ولم يكن عملياً يتجاوز في تحركاته حدود البحر الأحمر. كان السلطان العثماني آنذاك بصفته الحامي الجديد للإسلام ملزماً بالدفاع عن المسلمين من اعتداءات الكفّار وقطع دابر هجمات الفرنجة في البحار الجنوبية. ومنذ مطلع عام ١٥١٧، أخذت تلك القضية تسبب قلقاً جدياً لكبار مسؤولي الباب العالي، فعمدوا واحداً تلو الآخر إلى تقديم المشاريع بهدف تعزيز الوجود العثماني العسكري في حوض المحيط الهندي. وفي نهاية المطاف اتفقوا جميعهم على ضرورة تجديد أسطول البحر الأحمر وتعزيزه باعتبار أن أي قتال ضد البرتغال دون ذلك الأسطول سيكون محكوماً عليه بالفشل سلفاً.

قدمت الدوائر البحرية التابعة للباب العالي أجدى الحلول وأكثرها فعالية. فعلى غرار عمرو بن

---

(٣٠) عباس العزاوي «تاريخ العراق...»، ص ١٢٤ - ١٢٥، والشاطري، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

(٣١) F. Danvers. op. cit. pp. 369 - 370.

(٣٢) Ibid. pp. 399 - 400.

العاص، اقترحت تلك الدوائر إحياء قناة السويس التي كانت في عام ٧٦٥ قد رُدمت بأمر من الخليفة العباسي المنصور. كان من شأن إعادة فتح القناة ان تتيح للأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط بالانتقال إلى البحر الأحمر والعودة منه دون أية عقبات. وكان الأميرالات العثمانيون كلما تكبّدوا أي هزيمة يعودون إلى تلك الخطة. ففي عام ١٥٥٦، وبعد هزيمة بيري رئيس وسيدي علي، بادر وُلد علي، أحد خلفاء الأخوة بربروس لطرح موضوع القناة من جديد. أما أكثر المتحمّسين للخطة فكان محمد باشا سوقولو (٣٣) فلما تقلّد منصب الوزير الأكبر ١٥٦٥ - ١٥٧٩) حاول وضعها موضع التنفيذ (٣٤). غير أن المحاولات الفاشلة لبناء قناة الفولغا - الدون (١٥٦٩) التي كانت أيضاً حلماً من أحلام هذا الباشا، أرغمت الباب العالي على التخلّي عن مشروع قناة السويس نهائياً.

بيد أن غالبية كبار رجال الدولة وسليمان العظيم نفسه اتخذوا موقفاً أكثر واقعية. فعوضاً عن احياء قناة السويس اقترحوا بناء أسطول المحيط الهندي التابع للباب العالي ومركزه في البحر الأحمر، ليكون قادراً على مواجهة البرتغاليين. وفي عام ١٥٣٢، أمر سليمان العظيم بإصلاح أحواض بناء السفن المملوكية في السويس والمباشرة ببناء سفن حربية ضخمة (٣٥). وتبيّن له أن الأمر ليس سهلاً. ففي الصحراء القاحلة المحيطة بمدينة السويس والتي لا بشر فيها ولا مياه ولا مواد بناء يصعب العمل مع الحصول على تلك المواد من مناطق بعيدة، إضافة إلى عدم توافر معلّمي بناء السفن والعمال المهَرة والمتخصصين وحتى البحارة العاديين.

في ذلك الحين كان البرتغاليون يشددون الضغط على الحكام المسلمين في جنوب شبه الجزيرة العربية وهندوستان، فاستولوا على پسونا في عام ١٥٣٤ وديو في عام ١٥٣٥ وغيرهما من مرافىء شاطىء الهند الغربي. وتصاعدت النداءات من كل مكان تطلب المساعدة. كانت الرسل تتوافد إلى اسطمبول وبخاصة من كلكوتّا عام ١٥٢٧ وديو عام ١٥٣٢ ومن سلطنة دلهي (١٥٣٦). وفي هذا العام وصلت بعثة من قبل بهادور شاه (١٥٢٧ - ١٥٣٦) حاكم ولاية غوجرات برئاسة صَفَر خان، الذي أظهر سخاءً بالغاً في توزيع الهدايا على كبار أعوان الباب العالي، ووعدهم بتغطية جميع نفقات ارسال عشرة آلاف جندي عثماني إلى ما وراء البحار (٣٦).

وما إن حصلت البعثة على موافقة سليمان العظيم حتى وردت إلى اسطمبول أنباء مقتل بهادور شاه على

(٣٣) G. Hanotaux. op. cit. T. 6. p. 236.

(٣٤) J. de Hammer op. cit. T. 6. p. 341.

(٣٥) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 299.

(٣٦) Ibid. T. 5. p. 300. Voir aussi G. Stripling. op. cit. p. 89 et Whiteway. op. cit. pp. 239 et 256.

يد البرتغاليين. وتغيّر الموقف أيضاً في بعض المناطق الأخرى، وضعفت آمال معظم حكام الهند بتدخل العثمانيين. ومع ذلك فإن سليمان العظيم الذي كان قد حقق لتوّه انتصارات باهرة على آل هابسبورغ وعلى الصفويين، قرر الاستجابة لنداءات المسلمين وإعادة تثبيت مواقع الإسلام في حوض المحيط الهندي. ولهذه الغاية حاول تنفيذ مشروع سليم الأول القديم. فمنذ عام ١٥١٩ كان سليم يريد إنهاء سيطرة البرتغاليين بضربة واحدة وتدمير قواعدهم على ساحل مالابار (٣٧). واثر عقد اتفاق سلام مع أوروبا أمـر سليمان العظيم بكلر بك مصر بالإسراع في بناء الأسطول والبدء بالاستعداد المباشر للقيام بحملة على الهند (٣٨). وانتشرت في السويس حُمّى البناء، فتوافد اليها العمال والبحارة من كل حدب وصوب. وفي الاسكندرية ألقي القبض على بضع مئات من البحّارة القادمين من البندقية وأُرسلوا للعمل في أحواض السفن في السويس. أما المياه والمواد الغذائية فكانت تنقل اليها من القاهرة وكانت أخشاب السفن والأعتدة والتجهيزات وما اليها تنقل من كيليكيا بطريق البحر إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة بواسطة نهر النيل ومن هناك إلى السويس على ظهور الجمال. وأشرف على إدارة الأعمال أحد أبرز مهندسي جنوة. وتولّى أمهر الصنّاع مهمة صب المدفعية. على أن أكثر ما اثار قلق البرتغاليين صنع تسعة مدافع عملاقة بإمكانها إطلاق قذائف تزن الواحدة منها مائة كيلو غرام. ويرى هامر أن الذي أثار الدهشة ليس مجرد صب هذه المدفعية وإنما نقلها عبر برزخ السويس (٣٩).

في مطلع أيار (مايو) ١٥٣٨، كان الأسطول على أهبة الإستعداد. أما تجهيز السفن بالصواري والمدفعية فتم في جدّة. وعهد بقيادة الحملة إلى بكلر بك مصر سليمان باشا الخادم وهو شيخ في الثمانين من عمره لم يُعرف عنه تمتعه بأي مواهب. ووضعت بأمرته أكثر من سبعين سفينة حربية وقرابة مائة سفينة نقل تحمل على متنها عشرين الفاً من البحارة والجنود بمن فيهم سبعة آلاف إنكشاري (٤٠).

في ١٣ حزيران (يونيو) ١٥٣٨، تحركت هذه الأرمادا العثمانية باتجاه شواطىء الهند. وفي ٣ آب أغسطس دخلت عدن بعد توقـف قصير في قمـران. وبطلـب مـن سليمان بـاشـا الخادم تسلم عامر بن داود المدينة فوعد بتقديم كل مساعدة للباب العالي. غير أن العثمانيين لم يثقوا به فقد كانوا على علم بعلاقاته مع البرتغاليين وكانوا يعتبرون عمله نفاقاً يستحق العقاب الشديد. ولم يتأخر العقاب. فقد استُدعي الأمير عامر إلى سفينة القيادة دون ان يرتاب بشيء. وفور وصوله أُرسل إلى

(٣٧) G. Stripling. op. cit. p. 88.
(٣٨) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 90.
(٣٩) Ibid. p. 303.
(٤٠) Ibid. p. 302.

المشنقة دون محاكمة، وشنق معه على بوابة باب الساحل اثنان من أقرب مستشاريه [٤١]. واعترف سكان عدن بسلطة الباب العالي. واحتل سليمان باشا الخادم المدينة وحُوِّلت الإمارة الطاهرية إلى سنجق عثماني، ورابطت في عدن حامية عثمانية صغيرة [٤٢].

في ٤ أيلول (سبتمبر) ١٥٣٨، وصل الأسطول العثماني إلى الهند حيث فوجىء سليمان باشا الخادم بمشكلة لم تكن في الحسبان. فقد توترت العلاقات بينه وبين الحكام المسلمين المحليين الذين بدأوا يرتابون في نواياه للاستيلاء على السلطة في غوجرات [٤٣]. أما الأسطول البرتغالي فقد أبحر بعيداً إلى الجنوب ليصبح خارج متناول العثمانيين الذين اضطروا للاكتفاء بخليج كامبايا وفرض حصار على ديو، وهي أقوى القلاع البرتغالية على المحيط الهندي. لكن العثمانيين فشلوا في حصارهم الذي دام عشرين يوماً ولم تتمكن المدفعية العثمانية أن تنال من تحصينات ديو التي أبدى المدافعون عنها شجاعة بلغت حد المعجزة، وبدأت ذخائر العثمانيين بالنفاد، عندها اعتبر سليمان باشا الخادم ان لا فائدة من متابعة الحرب، فرفع الحصار عن ديو. وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٨ غادر شواطىء الهند [٤٤].

في طريق العودة، عرّج الأسطول العثماني على ميناء الشَّحْر حيث تلقى تأكيدات الولاء من حكام حضرموت. وبعد توقف قصير في عدن، ألقت سفنه مراسيها في مخا في كانون الأول (ديسمبر) ١٥٣٨. وتابع قسم من السفن طريقه نحو الشمال فاحتل جيزان وبعض المواقع الأخرى على الشاطىء ولم يصطدم العثمانيون بأي مقاومة، فتقدموا إلى مناطق اليمن الداخلية واحتلّوا زبيد عاصمة البلاد وأقامو فيها نظام الحكم المباشر. واستدعى سليمان باشا الخادم إلى مخا الأمير أحمد الناهود آخر أمراء اليمن المماليك، ومن دون إجراءات شكلية أمر بإعدامه مع اثنين آخرين من أبناء اسكندر مُوز، وألغيت الإمارة المملوكية، وتحولت مقاطعاتها إلى سناجق عثمانية. سُلِّمت السلطة إلى مصطفى بك بِتِّقلو أو غلو، فعمد أولاً إلى تثبيت سلطته في زبيد ثم حاول التقدم إلى المناطق الجبلية والاستيلاء على تعز، لكنه صُدَّ من قبل الزيديين. في ذلك الحين كان الأسطول العثماني قد عاد إلى السويس. أما سليمان باشا الخادم فنزل في جدّة وقام بتأدية فريضة الحج إلى مكة، وفي ٢٧ شباط (فبراير) ١٥٣٩ وصل إلى اسطمبول حيث استُقبل بصفته فاتح الجزيرة العربية [٤٥].

هكذا كانت النتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها الحملة العثمانية على الهند عام ١٥٣٨ هي غزو

---

(٤١) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٤٢) البطريق، المرجع السابق، ص ٢٥. Voir aussi J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 302.

(٤٣) R. S. Whiteway op. cit. pp. 258 et 265.

(٤٤) البطريق، المرجع السابق، ص ٢٦. Voir aussi F. Danvers. op. cit. p. 426 et J. de Hammer. T. 5. p. 303.

(٤٥) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 303 et T. 6. p. 361.

اليمن أما الجهود الهائلة التي بذلت لبناء الأسطول فذهبت هدراً. في شبه الجزيرة العربية لم تظهر أي مقاومة باستثناء الزيديين والبدو إضافة إلى أن محبة العثمانيين التي تجذرت عميقاً في نفوس سكان تلك البلاد جعلت وصولهم يثير مشاعر حماس حقيقي. فلجأ العثمانيون إلى شتّى الوسائل لتغذية تلك المشاعر على أساس أنهم يدافعون عن بسطاء المسلمين. واسترشاداً بمبادىء الترغيب أخذوا يتباهون بـ «صدقهم» و «عدالتهم» ونكّلوا بـالإقطـاعيين «والخونـة»، وأظهـروا قلقـاً متعمداً على مصالح بسطاء الناس. وعند احتلال عدن مثلاً مُنعت كل أنواع السلب والاغتصاب وشنق أحد البحارة العثمانيين بأمر شخصي من الباشا لارتكابه جريمة سلب [٤٦]. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٨ نزل الجنود العثمانيون بسلام إلى الشَّحْر وتجولوا في المدينة فاشتروا وباعوا [٤٧].

تزامن انتقال مقاطعات الطاهرين إلى الإدارة المباشرة للباب العالي مع متابعة عثمنة البلاد التي ظلت مجهولة لدينا. لكن يمكن القول إن العثمانيين قضوا على المؤسسات الاجتماعية لحكم الطاهريين وألغوا الاقطاع وغيره من أشكال ملكية الأراضي الاقطاعية وصادروا ممتلكات العائلات الحاكمة القديمة. وانتقلت الأراضي والجمارك وغيرها من موارد الدخل إلى إدارة الدولة. وتمت بلا شك إعادة النظر في جميع الضرائب القديمة حيث طبقت المبادىء العثمانية في فرض الضرائب وتقاضي المكوس. تدل على ذلك بشكل خاص تسمية وطبيعة الضرائب التي ظلت تتقاضاها السلطات في الحقبات التي أعقبت تلك المرحلة التاريخية.

وأعيد النظر جذرياً في نظام القضاء والإدارة ففي عام ١٥٣٩ تأسست ولاية اليمن وعُين أول بكلر بك عثماني فيها وهو مصطفى باشا النشّار [٤٨] الذي حل محل مصطفى بك بتّقلو أوغلـو الذي كان يقوم بأعمال الحاكم بصورة مؤقتة. واتخذ النظام العسكري الإداري المطبق في مصر العثمانية نموذجاً لذلك. أما نظام الملكية الاقطاعية الصغيرة فلم يُطبق [٤٩]. وعلى غرار مصر عُهد بمهمة حفظ النظام في الأرياف إلى الوحدات العسكرية المحلية المشكّلة من الأهالي الاصليين التي كونت معظم القوات المسلّحة في الولاية. وطبقاً لمعطيات مستقاة من مصادر متعددة بلغ عدد أفراد التشكيلات العسكرية المحلية من ٦٨ إلى ٧٠ بالمائة من مجمل عدد القوات المسلحة التي شاركت في الحملة العسكرية انطلاقاً من جنوب شبه الجزيرة العربية [٥٠].

---

(٤٦) G. Stripling. op. cit. p. 91.

(٤٧) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٤٨) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 361.

(٤٩) تفريتينوفا «الرسالة الثانية لكوتشو بك» معهد الاستشراق، المجلد السادس ١٩٥٣، ص ٩٢.

(٥٠) اوسبينسكي «الشرق المسيحي ـ الحبشة»، كييف ١٨٦٦، ص ٦. و لوكيتتسكي «الحبشة منذ أقدم العصور حتى عصر الامبريالية» لينينغراد ١٩٣٦، ص ٣٨٨. Voir aussi R. S. Whiteway. op. cit. p. 227.

ووفقاً لنهج الباب العالي في الإدارة وتقاليده السياسية، كان على حكام اليمن أن يولوا جل اهتمامهم لمراعاة الشريعة والقوانين العثمانية، وقطع دابر أعمال السلب والنهب التي يمارسها البدو، وإبقاء طرق المواصلات وخانات القوافل والمساجد في حالة جيدة. وقد عومل قطاع الطرق بكل قسوة، كذلك كل أشكال مقاومة السلطات العثمانية. ووفقاً لمدوّنات هامر، أطلقت على أول حاكم عثماني في اليمن كنية «النشّار» لأنه اعتاد أن ينشر قسمين كل من يقع بين يديه من قطاع الطرق واللصوص [٥١].

تطابقت التبدلات التي طرأت على الحياة الاجتماعية والسياسية في اليمن في نواح كثيرة مع التبدلات التي حصلت في حضرموت في عهد بدر الثالث. وظلت علاقات تلك البلاد بالباب العالي تتنامى وتتطور باستمرار. فأقدمت حضرموت خلال الحملة العثمانية على الهند عام ١٥٣٨ على نقض الاتفاق الذي كان قد عقد لتوه مع البرتغال، وأعلنت تبعيتها للسلطنة العثمانية. وفي آب (اغسطس) ١٥٣٨، وصلت بعثة عثمانية إلى الشحْر برئاسة فرحات شوماي وهو أحد مماليك سليمان الباشا الخادم. ووسط ترحيب شعبي عظيم وبحضور سلطان حضرموت والمبعوث العثماني تمت في مسجد الشحر الكبير المراسم الاحتفالية التي جرى خلالها الدعاء للسلطان العثماني لأول مرة في خطبة الجمعة [٥٢]. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٨ ثبَّت سليمان باشا الخادم صلاحيات بدر الثالث بوتُويرك بصفته حاكماً على حضرموت التابعة للسلطنة العثمانية، وأن يمارس سلطته على منطقة تمتد من «بوابة عدن حتى حدود ظفار» [٥٣]. وتعهد بدر الثالث بتأييد الباب العالي تأييداً مطلقاً ودفع ضريبة له تقدر بعشرة آلاف دينار أشرفي ذهبي. فعجّل الإعتراف الرسمي بسيادة الباب العالي بعثمنة حضرموت. كان بدر الثالث، على غرار العثمانيين يقاوم البنية الاجتماعية التقليدية بشدة ونظام القيم الاجتماعية القائم برمته. فوقف بدر الثالث بشدة ضد النظام الطائفي أو على وجه أدق ضد الامتيازات الطائفية. ولم يكن يعير أي اهتمام للانتقادات التي يوجهها له «السادة» و «المشايخ» أي المجموعات الطائفية العليا بشأن التقيد بتنفيذ الطقوس الدينية والسياسية وأخذ يشجع أفراداً من أصل وضيع إلى صفوف الجيش والجهاز الحكومي [٥٤]. ثم أبعد الأمراء الكواسر عن السلطة وشن حرباً لا هوادة فيها ضد الأئمة الزيديين وحلفائهم البدو، فحرمهم من الأرض والمداخيل وأرغمهم على دفع الضرائب وتأدية الخدمة العسكرية على قدم المساواة مع غيرهم من المسلمين. وعوضاً عن الممتلكات الاقطاعية المبعثرة أقام دولة عسكرية ثيوقراطية مركزية. أما

---

(٥١) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 361.

(٥٢) ابطريق، المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٥٣) الشاطري، المرجع السابق، ص ٢٧.

(٥٤) البطريق، المرجع السابق ص ١٢٧.

إدارة المدن والمقاطعات فقد أعيد تنظيمها وفقاً للنمط العثماني. وتركزت السلطة في جميع المناطق بأيدي أعوان السلطان العثماني فمارسوها بالتعاون مع قضاة الشرع الذين تعينهم الحكومة المركزية (٥٥).

وتعرض الجيش الذي يشكل الركيزة الأساسية للنظام لإعادة تنظيم جذرية. فبدلاً من الفصائل المسلحة الإقطاعية تم تشكيل قوات محترفة جديدة مكونة بكاملها من الجنود المرتزقة على نمط فصيل المتطوعين العثمانيين الذين وفدوا إلى هذه البلاد عام ١٥٢٠. كما تشكلت وفقاً لهذا النموذج « الفرق الرومية » الجديدة (بولوق رومي) المزودة بالأسلحة النارية. اما سكان حضرموت الأصليون فلم يُسمح لهم بالانخراط في صفوف تلك القوات. وقد جُنِّدَ فيها بصفة مرتزقة بشكل أساسي العثمانيون واليافعيون (سكان منطقة يافع الجبلية في جنوب اليمن) والعبيد الأفارقة أو الموَلّدون، ورجال قبائل اليمن الشمالي (٥٦). ولم يقيموا أي علاقات مع سكان البلاد الأصليين وكانوا أداة طيّعة في يد السلطان. وقد خُصص اهتمام كبير لبناء القلاع والحصون لا سيما على الحدود مع الأئمة الزيديين. ولتعزيز الأسطول التجاري والحربي استخدمت بصفة أساسية السفن التي تم الاستيلاء عليها من البرتغاليين (٥٧).

واقتداء بالحكام العثمانيين طبق بدر الثالث نظاماً موحداً للضرائب، واعتنى بالحفاظ على أمن الطرقات وبناء المساجد والمدارس.

يصف المؤرخون العرب حكم بدر الثالث باعتزاز فيقولون إنه « عصر ذهبي » في تاريخ حضرموت، وحقبة ازدهرت فيها العلوم الدينية والأدب، وعاش فيها علماء ومتصوفة بارزون، وعدد كبير من الشعراء والأدباء والمؤرخين (٥٨).

كان الجيش ورجال الدين السنة الركيزة الأساسية التي استند إليها سلطان حضرموت والبكلر بكوات العثمانيون في اليمن، كما أن سياستهم تمتعت بتأييد واسع بين الأهالي والفلاحين في المناطق التي تدين بالمذهب الشافعي. لكن العثمانيين لم يتمكنوا من اكتساب تأييد كامل ومطلق من قبل الفلاحين في المناطق الجبلية. سبب ذلك غير معروف جيداً حتى الآن لكن المؤكد أن الفلاحين الشيعة في كل مكان (وفي الأناضول نفسها وإيران واليمن) لم يتعاطفوا مع العثمانيين، ولم يتقبّلوا الأسطورة المزعومة عن « الطبيعة الفلاحية » التي مهدت الطريق باستمرار أمام السلاح العثماني. وفي

---

(٥٥) البطريق، المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٥٦) المرجع ذاته، ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٥٧) المرجع ذاته، ص ١٢٢، والشاطري، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٥٨) البطريق، المرجع السابق، ص ١٢٣، والشاطري، المرجع السابق، ص ٣٠.

اليمن وقف الفلاحون الشيعة موقفاً حذراً حيال هستيريا محبة العثمانيين وشكلوا مع قبائل البدو دعامة جماهيرية قوية استندت اليها الحركات المعادية للعثمانيين في جنوب شبه الجزيرة العربية.

كان أشراف الشيعة وفي مقدمتهم أبناء عائلات الأسياد العليا الذين يحملون لقب « سادة » أو « أشراف » أعداء ألدّاء للسيطرة العثمانية. وكانت النزعة العثمانية الداعية إلى مساواة الناس بعضهم مع البعض الآخر وعدم التمييز بينهم وعدم اختيار صفوة منهم وتجاهل عاداتهم المذهبية، السبب الرئيسي الذي أدّى إلى هشاشة السلطة العثمانية في اليمن وحضرموت. فلم يتمكن العثمانيون بالتالي من غرس جذور عميقة لهم هنا خلافاً لما فعلوا في البلدان العربية الأخرى. وتبيّن أن أنصار العثمنة هناك كانوا دخلاء وغرباء عن روح المجتمع في شبه الجزيرة العربية. فتكتل أنصار التقاليد المذهبية على اختلاف انتماءاتهم الدينية في جبهة واحدة ضد النظم العثمانية، إضافة إلى ان بعض تدابير السلطات العثمانية لم تكن تثير حنقهم بقدر ما كانت تغضبهم العقلية العثمانية بشكل عام والقوانين العثمانية كلها. يقول كانتيمير إن بعض الأئمة الزيديين لم يكونوا على استعداد لسماع مجرد الحديث عن القانون العثماني [٥٩]. ويقول باوزير إن الأمراء الكواسر لم يغفروا لبدر الثالث بوتويرك أبداً، لأنه كان يتصرف على نحو تعسفي ويتخذ القرارات دون استشارتهم في قضايا الدولة الكبرى ويعتمد على مساعدين لا ينتمون إلى الكواسر [٦٠]. إلى ذلك تضامن « السياد » في حضرموت علناً مع أئمة اليمن الزيديين من السنة الذين، من دون مبرر، رأوا فيهم الحُماة الرئيسيين للنظام المذهبي. وفي عام ١٥٣٨، لم يكن الزيديون أو « سياد » حضرموت قد اعترفوا بعد بزعامة الباب العالي. وعندما نادى بدر الثالث بوتويرك بسيادة سليمان العظيم، أعلن عثمان العامودي على الفور اعترافه بالإمامة الزيدية وتبعيته لها [٦١].

كانت مجاعة عام ١٥٣٩ أحد أهم العوامل التي أثارت قلق العثمانيين وأتعبتهم. فقد تفشّى الجوع في المستعمرات البرتغالية في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية والشواطىء الشرقية للبحر الأحمر في آن معاً. ولوحظت على شواطىء كوروماند على خليج البنغال بعض وقائع تثبت أكل لحوم البشر [٦٢]، كما أكلت الجلود في حضرموت. سبقت المجاعة العامة كوارث طبيعية ندر مثيلها من حيث عنفها. ففي منتصف الثلاثينات هطلت على جنوب شبه الجزيرة العربية أمطار غزيرة، فاندفعت سيول هائلة جرفت الحقول وهدمت منازل القرويين. وفي حضرموت أتلف عدد كبير من أشجار النخيل [٦٣]، فانخفضت عائدات الرسوم إلى درجة كبيرة، ولم تُدفع للجنود رواتبهم

---

(٥٩) Cantimir. op. cit. T. 3. p. 6.

(٦٠) باوزير، المرجع السابق، ص ١٣١.

(٦١) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٦٢) R. S. Whiteway. op. cit. p. 269.

(٦٣) الشاطري، المرجع السابق، ص ٩٠.

ولا تمكّنوا من الحصول على حصصهم من المواد الغذائية [٦٤]. فتمردوا في عدن وذهبوا إلى مرفأ الزيلع على الساحل الافريقي الشرقي [٦٥]. وانتشرت الاضطرابات، فما كانت تهدأ في منطقة حتى تنشب في منطقة أخرى على حد قول باوزير [٦٦].

الدور الأساسي في التحريض على تلك الأحداث والاضطرابات. قام به الأئمة الزيديون وسيّاد حضرموت والأمراء الكواسر وزعماء قبائل البدو، أي كل من عارض تطبيق النظم العثمانية. فشكلت الصعوبات الاقتصادية والمجاعة والاضطرابات أفضل ما كانوا يتمنون من الظروف المؤاتية. وبعد أن تحصّن الزعماء المعارضون للعثمانيين في قلاع منيعة، شرعوا يستعدون لحرب طويلة وعنيفة، فاتصلوا بالبدو وشكلوا وحدات قتالية ودرّبوها على استخدام البنادق النارية، في بداية الامر اتخذت، مقاومة الاقطاعيين للعثمانيين طابعاً محلياً. شمل التمرد إمام الزيديين يحي شريف الدين مع أولاده الكثيرين وأتباعه والدعاة الزيديين وأمير الكواسر علي بن عمر المستند إلى تأييد أعيان المشايخ القحطانيين المشايخ في حضرموت، وعثمان العامودي زعيم السياد أو الأشراف وزعيم قبيلة العامود القوية التي يعود نسبها إلى الخليفة أبو بكر. كان كل من هؤلاء يعمل بصورة منفردة وظلّوا يتحركون من مواقع دفاعية حتّى عام ١٥٤١ حين عقد عثمان العامودي تحالفاً مع البدو وبعض القبائل الاقطاعية، وقام بانتفاضة علنية. لكن قوات بدر الثالث، بمساندة العثمانيين القادمين من عدن، تمكنت بسرعة نسبية من اخماد انتفاضة قبائل البدو وإرغام الاقطاعيين المنتفضين على الخضوع. وفي كانون الأول (ديسمبر)، انقضّت على مدينة كيدون المقدسة في حضرموت واستولت عليها [٦٧]. وفي السنوات التالية شن بدر الثالث بوتويرك بضع هجمات ضد عثمان العامودي دون أن يتمكن من احراز نصر حاسم عليه. وفي عام ١٥٤٥ عقدت معاهدة سلام بين الطرفين [٦٨]. ورغم أن عثمان العامودي احتفظ لنفسه بمدينة البيضاء وغيرها من مناطق حضرموت الغربية، فإن بوتويرك تمكّن كذلك من تعزيز مواقعه بدرجة كبيرة.

وفي المناطق الجبلية من اليمن راح العثمانيون يوسعون مواقعهم تدريجياً. وتكبد زعيم الإسماعيليين محمد بن اسماعيل هزيمة على يد قوات الامام يحي شريف الدين. فطلب مساعدة العثمانيين واعترف بسلطة الباب العالي [٦٩]. وفي طائفة الزيدية نفسها نشبت خلافات حادّة ما لبثت ان تحولت إلى

---

(٦٤) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٦٥) R. S. Whiteway. op. cit. p. 269.

(٦٦) باوزير، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٦٧) باوزير، مرجع سابق: ص ١٢٩ و ١٥٤.

(٦٨) Hicham Djaït et autres «Histoire de la Tunisie - Le Moyen Age» Tunis. Sans date. p. 130.

(٦٩) البطريق، المرجع السابق، ص ٢٨.

نزاعات دموية بعد فترة قصيرة. وفي عام ١٥٤٥، انحاز المطهَّر وهو الابن الأكبر للإمام، إلى جانب العثمانيين بعد استيائه من قرار والده بتعيين أخيه شمس الدين خليفة له (٧٠). وكان سكان عدد كبير من مدن الجبل يتوقون لمجيء العثمانيين بعد أن ارهقتهم الاضطرابات والنزاعات التي لا تنتهي، وكثيراً ما كانوا يثيرون الفتن ضد رجال الإمام. فقرر بكلربك اليمن عويس باشا استغلال هذا الوضع لبسط سلطة الباب العالي على المناطق الجبلية، فتحرك لنجدة المطهَّر واستولى على مدن تعز وذمار وصنعاء، وفي عام ١٥٤٧، بسط سيطرته على معظم مناطق الجبل (٧١).

بيد أن إفراط عويس باشا في فرض الإنضباط الصارم على قواته أثار التذمر بين الجنود العثمانيين ولا سيما بين المتطوعين المرتزقة. فأقدم أحد قادتهم حسن بهلوان على تدبير مؤامرة ضد عويس باشا وقتله بيده بطعنة خنجر (٧٢). فاستولى المتمردون على صنعاء، وبعد فترة قصيرة استولوا على عاصمة الولاية زبيد.

تشجع زعماء المعارضة بمقتل البكلر بك والتمرد في صفوف الجيش العثماني، فأثاروا عدداً من الانتفاضات خلال عامي ١٥٤٧ - ١٥٤٨ في مختلف أنحاء اليمن وحضرموت. ففي الشمال تحرك أشراف جيزان ضد العثمانيين وفي الجنوب انتفض علي بن سليمان الطوالقي فحرض القبائل في مناطق الشيخ عثمان ولحج واستولى على عدن وأقام فيها سلطة البدو. وفي جبال اليمن لجأ الزيديون إلى السلاح من جديد بمن فيهم اتباع المطهَّر وشمس الدين علي وعدد من اقطاعيي المناطق الجبلية. وفي حضرموت الوسطى تكتل زعماء الانتفاضات حول أمير الكواسر علي بن عمرالذي احتل شيبام بعد فترة قصيرة ونصَّب نفسه سلطاناً. وفي عام ١٥٤٧ عمَّت الفوضى في مَهْرَه والقسم الشرقي من حضرموت حيث نشبت انتفاضة جديدة هي الثالثة ضد بدر الثالث بوتويرك. وفي غرب حضرموت أقدم عثمان العامودي وهو الد أعداء العثمانيين واقواهم، على تمزيق معاهدة السلام المعقودة عام ١٥٤٥ وتزعَّم تحالف جديد للقبائل والعشائر الإقطاعية. ويرى باوزير ان وحداته المسلحة مارست أعمال السلب في البلاد وترويع السكان، واستولت على بوزوم وقامت بغزو تريم وحنين (٧٣). وأحاطت جحافل البدو بمدينة شَبْوَة من جميع الجهات وبدأت حصاراً لهذه القلعة الاستراتيجية المهمة التي كانت تسد الطريق إلى اليمن.

علق زعماء الانتفاضة آمالهم الكبرى على المساعدات الخارجية. حتى أن الكثيرين منهم كانوا

---

(٧٠) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 361.

(٧١) البطريق، المرجع السابق، ص ٢٨. Voir aussi G. Stripling. op. cit. p. 98.

(٧٢) J. de Hammer. op. cit. T. 6. pp. 361 - 362.

(٧٣) باوزير، المرجع السابق، ص ١٣٠.

يفضلون مجيء البرتغاليين على حكم العثمانيين، بل إن قائد انتفاضة مهره سعيد بن عفار نفسه، وزعيم بدو الشيخ عثمان علي بن سليمان الطوالقي اتصلا بالبرتغاليين وطلبا مساعدتهما مقابل وعد الاعتراف بسيادة العرش البرتغالي[٧٤]. وقرر البرتغاليون في جاو ان لا يضيعوا هذه الفرصة المؤاتية، وبأمر من نائب الملك أرسل قبطان هرمز على الفور ثلاث سفن حربية لوضعها في تصرّف الانتفاضات. وكانت السفن محملة بالرجال والذخائر والاعتدة بقيادة دون بايو دي نورونيا، كما كان من المنتظر ان تصل من الهند تعزيزات أقوى. واستولى سعيد بن عفار بمساعدة البرتغاليين على مدينة قش عاصمة مهره وسحق قوات بدر الثالث. اما دون بايو دي نورونيا فقد بقي مع سفنه في عدن، وتعهد بالدفاع عن المدينة وعن اسرة علي الطوالقي ما دام هذا منشغلاً بمقاتلة العثمانيين وسلطات حضرموت[٧٥].

لكن وضع الانتفاضة وحلفائهم من البرتغاليين لم يستقر. إذ إن جماهير السكان كانت تؤيد العثمانيين ولم تكن ترغب مطلقاً أن يكون البدو بديلاً عنهم. ففي عدن، مثلاً، كانت مشاعر السكان بالغة العداء لدرجة ان دون بايو دي نورونيا كان يخشى على حياته في كل دقيقة. وبعد أن قضى في المدينة ليلة واحدة لم يذق فيها طعم الكرى قرر عدم البقاء فيها ليلة أخرى.

أتاح ضيق القاعدة الاجتماعية للانتفاضة مجدداً للباب العالي امكانية إعادة تثبيت وضعه دون عناء كبير، وتمكن قائد القوات العثمانية في اليمن اوزدمير بك الشركسي الأصل، من سحق الإنتفاضة في صنعاء وزبيد قبل وصول البكلر بك الجديد فرحات باشا، وأعدم زعيمي الانتفاضة حسن بهلوان وحيدر[٧٦]. تحركت قوات البكلر بك الجديد نحو عدن وتمكنت بمساعدة جنود بدر الثالث من سحق علي الطوالقي. في ذلك الوقت ظهر قرب شواطىء شبه الجزيرة العربية أسطول البحر الأحمر التابع للباب العالي بقيادة بيْري رئيس. وعندما علم دون بايو دي نورونيا بنبأ اقتراب الاسطول العثماني انسحب تاركاً البدو أمام مصير مجهول. وفي ٢٦ شباط (فبراير) ١٥٤٨، احتل بيري رئيس عدن «بسهولة متناهية»[٧٧] واتصل بقوات البكلر بك التي كانت تواصل هجماتها في الداخل.

بعد ستة أيام اقتربت من عدن عمارة برتغالية ضخمة. وكان واضحاً إن ميزان القوى لم يكن في صالح البرتغاليين. فقرر قائد العمارة دون الڤارو تحاشي المواجهة والتحرك إلى الشحر لكنه لم

(٧٤) F. Danvers. op. cit. p. 482. et Whiteway. op. cit. p. 316.

(٧٥) R. S. Whiteway. op. cit. p. 317.

(٧٦) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 362.

(٧٧) F. Danvers. op. cit. p. 482.

يجازف بمهاجمتها هي أيضاً. وإذا استبد به الغضب أمَر بتدمير قلعة صغيرة لصيد السمك مبنية من الآجر في ضاحية الشحر. لم يكن عدد المدافعين عن القلعة يزيدون عن ٣٥ عربياً، ومع ذلك لم يتمكن البرتغاليون من السيطرة عليها إلاّ بعد أن خسروا أربعين برتغالياً قتلوا في المعركة واستهلكوا كمية كبيرة من البارود، فأبادوا حاميتها تماماً وأسروا شيخاً طاعناً في السن مع زوجته العجوز بعد وصولها بصفة رسولين للتفاوض. وبهاتين الغنيمتين عاد دون الفارو إلى جاوا في نيسان (ابريل) ١٥٤٨ (٧٨).

مع رحيل البرتغاليين تقرر مصير الانتفاضة في مناطق حضرموت الساحلية ففرض أسطول بدر الثالث سيطرته على الشواطىء كلها ثم نقل «الفيالق الرومية» التابعة للسلطان إلى مدينة قش. وتوقف سعيد بن عفار عن المقاومة، وقام شخصياً بزيارة بدر الثالث بصفة «صديق قديم»، وعقدت بينهما معاهدة سلام، واعترفت قبائل مهره من جديد بسيادة حضرموت، وتعهدت بعدم مهاجمة مرافئها او سفنها. واعترف بدر الثالث بدوره بحق مهره بالحكم الذاتي الداخلي (٧٩).

جرت أعنف المعارك على حدود حضرموت الغربية، ولم يتمكن أي من الطرفين تحقيق نصر حاسم على الآخر. وفي عام ١٥٤٨، قامت قوات السلطان بمحاصرة مدينة البيضاء معقل عثمان العامودي دون جدوى، كما أن الفصائل المسلحة لهذا الشريف لم تتمكن من الاستيلاء على شَبْوَة، واكتفت بالسطو على ممتلكات العدو. فتكبد الطرفان خسائر فادحة. وفي آب (اغسطس) ١٥٤٩ اتفقا على توقيع معاهدة سلام جديدة، ظل الطرفان متمسكين بها حتى عام ١٥٦٨ (٨٠).

بفضل معاهدة السلام مع عثمان العامودي تمكن بدر الثالث من إعادة الهدوء والأمن إلى ربوع حضرموت الوسطى والشرقية. وفي عام ١٥٥١ تمكن من تصفية آخر ما تبقى من بؤر الإضطرابات في شرق البلاد ثم استولى على شيبام وسجَنَ علي بن عمر. فأوقف الأمراء الكواسر القتال بصورة مؤقتة، وخضعوا لحكم سلطان حضرموت. وفي اليمن اتخذت انتصارات العثمانيين حجماً أكبر ففي عام ١٥٤٨ في معركة قرب أبو عريشة هزَمَ العثمانيون القوات المتحدة لأشراف جيزان ثم دخلوا المناطق الجبلية، واستولوا على صعدة، وهي حصن الزيديين في مناطق الجبل الشمالية، وعادت مدن اليمن ومناطقها الرئيسية إلى حكم بكوات السنجق من العثمانيين غير أن الإمام المتوكل يحي شريف الدين وولداه المطهَّر وشمس الدين علي وغيرهم من زعماء الزيديين لم يتخلوا عن سلاحهم، فلجأوا إلى العشائر، ومن هناك بدأوا يغيرون على العثمانيين.

---

(٧٨) R. S. Whiteway. op. cit. pp. 317 - 318.

(٧٩) باوزير، المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٠) المرجع ذاته، ص ١٥٤ - ١٥٥.

عُهد بمهمة تصفية العصابات الزيدية التي كانت تهاجم القرى المسالمة ومخافر الحراسة وخفراء القوات العثمانية إلى القائد العسكري اوزديمير باشا الذي عرف بشجاعته وإقدامه، والذي عيّن بكلر بك على اليمن في عام ١٥٤٩ «مكافأة له على صموده» على حد تعبير البطريق. ووصلت تعزيزات من القاهرة لنجدته قدر عدد أفرادها بأربعة آلاف رجل، منها ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الخيالة بقيادة مصطفى باشا النشار الذي كان قبل ذلك يشغل منصب بكلر بك اليمن [٨١].

خلال عامي ١٥٤٩ و ١٥٥٠ شن العثمانيون عدة حملات على جبال اليمن. وتبعاً لمعطيات المصادر العثمانية تمكن أوزديمير باشا من الاستيلاء على سبع قلاع حصينة منها: خولان والسغرة وخامل وحرض وسامين وغيرها من القلاع التي كانت تشكل المعاقل الأساسية للمقاومة الزيدية، وأقرّ الهدوء والسكينة في البلاد. انسحب شمس الدين علي ويحيى شريف الدين إلى مناطق الريف البعيدة الصعبة المنال. أما المطهّر فقد آثر التخلّي عن القتال. يقول البطريق إن المطهّر اعترف بسيادة الباب العالي وهو يضمر الثأر في نفسه. ووفقاً لمعاهدة كانون الثاني (يناير) ١٥٥١، عُيِّن مرة أخرى بصفته سنجقدار عثماني حاكماً على المناطق عينها التي كان يمارس سلطته فيها كزعيم ديني للزيديين [٨٢].

هكذا أخمدت انتفاضة أعيان شبه الجزيرة العربية والبدو. ونتيجة للحملات التأديبية التي شنها العثمانيون. في الفترة ١٥٤٧ - ١٥٥١ تمكنوا من إعادة تركيز سلطتهم على كامل أراضي اليمن باستثناء بعض المناطق الجبلية الصغيرة المنعزلة التي بقيت تحت حكم شمس الدين علي وعثمان العامودي وسادت في اليمن وحضرموت فترة هدوء نسبي.

بيد أن جنوب شبه الجزيرة العربية لم يعرف استقراراً ثابتاً. فوجود العثمانيين كان عامل اضطراب متواصل للوضع نتيجة اصرارهم على تحدي زعامات الطوائف في البلاد.

كانت الشريعة العثمانية غريبة على تقاليد مجتمع جنوب شبه الجزيرة العربية وتثير التبرم بين السكان، إلى ذلك كان خلفاء أوزديمير باشا في منصب بكلر بك، أي مصطفى باشا النشار ومصطفى باشا قَرَه شاهين ومحمود باشا، حكاماً اتسموا بالضعف وعدم الكفاءة. ولم يجدوا غير القوة الغاشمة وسيلة لحل جميع النزاعات. تميّز محمود باشا بأشد ضروب المكر والغدر والقسوة حتى أصبح اسمه على كل لسان. وظلت كلمة «محمودية» [٨٣] لسنوات طويلة مرادفة لأبشع مظاهر

(٨١) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 362.

(٨٢) Ibid.

(٨٣) Ibid. T. 6. p. 364.

الغدر والقتل الخسيس في اليمن. إلى جانب ذلك تعمقت الأزمة الاقتصادية في البلاد.

وفي ستينات القرن السادس عشر حصل انهيار مدمّر في قيمة العملة، واحتار مصطفى باشا النشار وقره شاهين ومحمود باشا ماذا يفعلون وأي قرار يتخذون. قرر محمود باشا، على سبيل المثال، محاربة التضخم بأسلوب التنكيل والاضطهاد. ومنذ الأيام الأولى لحكمه أمر باعدام مدير دائرة النقد في بلاطه. لكن ذلك لم يفده بشيء، واستمر سعر النقد بالهبوط. قال قطب الدين المكّي: اذا كانت قيمة الدوكاتو السلطاني الواحد قد بلغت ٦٠ متليك في الرميلة فهي في مصر ٨٠٠ وفي اليمن ٣٠٠ و ٢٠٠٠ متليك، إضافة إلى أن الدوكاتو في اليمن كان يحتوي على كمية أقل من الفضة. وأصبح الراتب البالغ ٣٠٠٠ متليك في الشهر الواحد، (١,٥ دوكاتو في الحساب الحقيقي)، لا يكاد يكفي لشراء قهوة فقط[٨٤]. وفي محاولة لإيجاد توازن بين الدخل والنفقات بدأ كبار مسؤولي الادارة العثمانية بسرقة أموال الدولة والابتزاز بالرشاوى والهدايا ـ في شباط (فبراير) ١٥٦٥ اصطدم بكلر بك اليمن الجديد رضوان باشا بالأعمال المنافية للقانون، فأرسل إلى الباب العالي تقريراً حول سوء الادارة في البلاد[٨٥].

انتشر التذمر في أوساط السكان وفي صفوف القوات المسلحة. وعملت القوى المعارضة للعثمانيين على تسعير التذمر بكل الوسائل. وتفاقم الوضع بموت السلطان سليمان العظيم في أيلول (سبتمبر) ١٥٦٦. فوصلت أنباء الوفاة إلى اليمن في أوج المشاحنات والفضائح التي عصفت بالفئات الحاكمة في البلاد. رد محمود باشا على الاتهام الذي تضمنه تقرير رضوان باشا، فقدم عدة مبررات زعم فيها أن الصعوبات التي تعانيها الإدارة ناتجة عن اتساع رقعة الولاية. وبناء عليه تقرر تقسيم الولاية إلى وحدات إدارية أصغر. فبدلاً من ولاية واحدة تقرر إنشاء ولايتين هما: اليمن العليا واليمن السفلى. وشملت اليمن العليا وعاصمتها صنعاء المناطق الجبلية لليمن الوسطى والشمالية. أما اليمن السفلى فقد ضمت تهامة والجزء الجنوبي من جبال اليمن، واعتبرت زبيد عاصمة رسمية لها في حين كانت عاصمتها الفعلية مدينة تعز لأن البكلر بكوات العثمانيين قفلوا الإقامة فيها. أثار تقسيم الولاية خلافات كبيرة بشأن تقسيم القوات المسلحة والخزينة وأملاك الدولة، وحتى بشأن التبعية الإدارية لبعض القرى. وفي النهاية تحولت تلك المشاحنات إلى صراع طويل أدّى إلى شل كل تحرك للسلطة وأفقدها أهليتها لمجابهة المعارضة الموجهة ضد العثمانيين[٨٦]. وخلال انتفاضة الاسماعيليين خلال ١٥٦٥ ـ ١٥٦٦، لم يتمكن رضوان باشا الذي

---

(٨٤) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 520.

(٨٥) Ibid. p. 364.

(٨٦) البطريق، المرجع السابق، ص ٢٩.

شغل منصب بكلر بك صنعاء، من الحصول على مساندة مراد باشا المعيَّن بكلر بك على زبيد رغم الوعود والتأكيدات الكثيرة.

كان التشتت في الأوساط الحاكمة مجال استغلال من جانب الإمام الزيدي المطهَّر الذي كان يكره العثمانيين في قرارة نفسه رغم منصبه الرسمي كسنجقدار عثماني، وكان يستعد شيئاً فشيئاً لاستئناف القتال ضدهم. وفي عام ١٥٥٨، انتخب المطهّر خليفة لوالده الإمام المتوكل يحيى شريف الدين بعد موته، وما لبث أن أصبح بعد فترة قصيرة أقوى قادة الطائفة الزيدية وأكثرهم نفوذاً. أما شقيقه الأصغر شمس الدين علي فتخلّى عن حقوقه بالإمامة [٨٧]. مع ذلك استمر في معاضدة أخيه في القتال ضد العثمانيين. اما المطهّر نفسه فظل مدة طويلة يستعد بدقة للانتفاضة. وتحت راية النضال ضد القوانين العثمانية تمكن من توحيد كل الجماعات الزيدية حوله، ثم أمّن لنفسه مساعدة القبائل العربية وفعل كل ما أمكنه لضمان أوسع تأييد في مختلف أنحاء السلطنة العثمانية. فالقوى الزيدية لم تلق سلاحها أبداً بعد معاهدة أماسيه التي عقدت في عام ١٥٥٥، وأن فلول المنتفضين الهاربين من جنوب العراق عام ١٥٤٩ لجأت إلى اليمن [٨٨]، وأن قائدهم عليّان أو غلو كما تدعوه المصادر العثمانية، كان يتمتع بثقة لا حدود لها عند إمام الزيديين الذي أمّن له أطيب العلاقات مع بلدان الخليج والصفويين. وفي عام ١٥٦٧ تلقّى من المطهَّر «مساعدة مالية وبشرية وأسلحة» [٨٩]، فعمد بالتعاون مع حاميةِ الإمام إلى تدبير انتفاضة في جنوب العراق [٩٠].

وفي اليمن نفسها، تم توقيت الإنتفاضة بحيث تتفق مع رحيل رضوان باشا عن صنعاء. وفيما كان خليفته حسن باشا الروسي الأصل في طريقه إلى صنعاء، كانت اليمن العليا في الواقع قد أصبحت دون حكومة. ولم يتدخل بكلر بك اليمن السفلى مراد باشا على ما يبدو في شؤون الولاية المجاورة، ولم يلاحظ أي أمر مريب. كتب هامر ان المطهر الذي ضلّل مراد باشا، قبل ذلك بتأكيد ولائه وصداقته له، نزع القناع عن وجهه فجأة وفرض حصاراً على صنعاء [٩١]. وعندما فهم مراد باشا حقيقة الأمر أخيراً شن حملة مضادة، لكنه وقع في كمين فسُحِقت قواته وقتل. وفي ٩ آب (اغسطس) استسلمت صنعاء، وبدخوله المدينة انتهك شروط الاستسلام فتعرضت عاصمة اليمن العليا إلى أبشع عمليات السلب والنهب. أما الحامية العثمانية التي كانت تضم قرابة ١٤٠٠ رجل فقد احتجزت، وقبض الزيديون على ١٧ سنجقدار وأربعة أغوات، وقطعت رؤوس زعماء البلاد جميعاً. لكن بعض الحصون والحاميات المنفردة والمتناثرة واصلت المقاومة بمغامرة كبيرة.

(٨٧) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 367.

(٨٨) M. Kortepeter «Ottoman Imperialism...» p. 45.

(٨٩) اداموف «العراق العربي...»، ص ٣٣١.

(٩٠) G. Stripling. op. cit. p. 83. et Cantimir. op. cit. T. 3. p. 4.

(٩١) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 365.

بعد احتلال صنعاء أعلن المطهّر عن إسقاط السلطة العثمانية. وفي ١٥ آب (أغسطس) ١٥٦٧، نودي به خليفة وأميراً للمؤمنين، واحتفلت قواته بالنصر في جميع أنحاء البلاد. وفي ٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٦٧، هاجم أحد قادته العسكريين وهو علي بن شُفَيع مدينة تعز واستولى عليها بعد حصار قصير، ثم تحرك بقواته إلى الجنوب فاحتل عدن وموزة ومُخا وبدأ من هناك هجوماً على مدينة زبيد عاصمة اليمن [٩٢].

في أيلول (سبتمبر) ١٥٦٧ وصل حسن باشا إلى المنطقة فبادر إلى توحيد قوات اليمن العليا والسفلى تحت قيادته، لكنها لم تكن ذات شأن من حيث العدد فلم يجرؤ الباشا على اقتحام الجبال، واكتفى بالدفاع عن المشارف القريبة من العاصمة. ساعده في ذلك أن الزيديين لم يتمتعوا بأي نفوذ يذكر في تهامه، علاوة على انغلاقهم المذهبي الذي أبعد عنهم قسماً كبيراً من السُّنَّة. أما شافعيو اليمن فظلّوا على سابق عهدهم يفضلون سلطة البكلر بكوات العثمانيين.

حتى الإسماعيليون الذين تحالفوا مع الزيديين في خلال فترة ١٥٦٥ - ١٥٦٦ بدلوا مواقفهم وانحازوا إلى العثمانيين. وهكذا تعززت القوات العثمانية في اليمن كما قال هامر «بعدد كبير من العرب» الذين ساهموا في المعركة ضد المطهّر [٩٣].

وقفت زبيد حجر عثرة في طريق جيش الزيديين. فعلى مشارف العاصمة تكبدت قوات علي بَن شفيع هزيمة أرغمتها على التقهقر. هكذا تمكن حسن باشا من حماية زبيد والمناطق الساحلية، وبقيت اليمن الجبلية وعدن ومخا مؤقتاً تحت حكم الخليفة المطهَّر وأتباعه من المريدين الزيديين.

اعتبرت انتصارات الزيديين مؤشراً لبدء تحرك المعارضين ضد العثمانيين في حضرموت. فخرق شريف البيضاء العامودي معاهدة السلام الموقعة عام ١٥٤٩، وانحاز علناً إلى جانب المطهَّر. وفي عاصمة حضرموت شتّون وقع انقلاب في قصر الحاكم، فقبض المتآمرون من الأمراء الكواسره بزعامة الأمير عبدالله بن بدر الثالث على السلطان في آب (اغسطس) ١٥٦٨ وسجنوه في قلعة مرياط حيث عاجله المرض ومات بعد فترة قصيرة في شباط (فبراير) ١٥٧٠ [٩٤]. وكان في آذار (مارس) ١٥٦٥ قد توفي العلامة الشافعي الشهير بهرام أقرب أعوان بدر الثالث بوتويرك ووزيره الأول، وبذلك فقد أنصار الإصلاح أبرز قادتهم. وأصبح في مركز الصدارة أنصار الإمام علي وجماعة الصابئة. وكان السلطان الجديد عبدالله الثالث (١٥٦٨ - ١٥٧٨) عدواً لدوداً للإصلاح، لذلك أقدَمَ عملياً على تصفية كل ما أنجز في عهد والده.

---

(٩٢) J. de Hammer, op. cit. pp. 366 - 367.

(٩٣) Ibid. p. 372.

(٩٤) باوزير، المرجع السابق، ص ١٣٢.

بعد وفاة بدر الثالث تفتتت حضرموت من جديد إلى مشيخات منفصلة وحاول عبدالله الثالث الحفاظ على وحدة الدولة فتمكن من إخماد عصيان أخيه جعفر، لكنه لم يتمكن من التغلب على النزاعات المعادية لمركزية الدولة. وفي نهاية القرن السادس عشر وقعت حضرموت من جديد ضحية للحروب والنزاعات القبلية التي جرَّت ويلاتها على أنصار السلطنة العثمانية والزيديين على حد سواء. وأخذ العثمانيون يعززون قواتهم في اليمن تدريجياً. وفي نسان (ابريل) ١٥٦٨ ألغى السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) نظام تقسيم البلاد إلى ولايتين، وركَّز جميع السلطات في أيدي بكلر بك واحد. وعُيِّن عثمان باشا بكلر بك على اليمن بأسرها، وهو ابن اوزديمير الذي لعب الدور الأبرز في القضاء على انتفاضة ١٥٤٧ - ١٥٥١. وخلال فترة قصيرة تمكن عثمان باشا من اكتساب ثقة بعض القبائل وتكتيل جزء كبير من السكان السّنة حوله. ووسط هذا التأييد أعاد تثبيت سلطة الباب العالي كذلك في بعض المناطق الأخرى. وتمكنت قوات عثمان باشا بشكل خاص من استعادة مُخا وتعز [٩٥].

غير أن صمود الزيديين قلب حسابات العثمانيين ولم يمكنهم من إحراز نصر سريع. ففي تعز مثلاً تحصنت الحامية الزيدية في قلعة «القاهرة» وظلت تقاوم حتى بعد إستسلام المدينة وأدرك العثمانيون أنهم بحاجة إلى تعزيزات، فقرر الديوان السلطاني إرسال أسطول البحر الأحمر التابع للباب العالي إلى اليمن مع فيلق تشكَّل خصيصاً لتنفيذ الحملة، وتألف بشكل أساسي من الوحدات المصرية ولا سيما المماليك [٩٦]. وعُيِّن بكلر بك مصر سنان باشا قائداً للحملة وهو من أغنى أعيان السلطنة ويتحدر من أسرة فلاحية ألبانيَّة، واشتهر بعناده وأنانيته وجهله.

انطلقت قوات الحملة من القاهرة في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٥٦٩، فانتقلت بحراً إلى ينبع ومنها توجهت بطريق البر إلى اليمن.

أما الأسطول فتوجه إلى مخا وألقى مراسيه فيها. لكن سير العمليات تعرقل إلى حد كبير بسبب الخلافات التي نشبت بين سنان باشا وعثمان أوزديمير أوغلو، علماً أنهما ينتسبان إلى عائلات مختلفة في سُلّم التنظيم العثماني. ووصل الأمر إلى درجة أن سنان باشا أقدم في تموز (يوليو) ١٥٦٩ على عزل عثمان من منصب البكلر بك ونفاه من البلاد. وعُيِّن حسن باشا الروسي الأصل من جديد بكلر بك على اليمن لكنه، كما يقول هامر «أصبح يحمل هذا اللقب اسمياً فقط [٩٧]».

مع وصول سنان باشا استسلمت حامية قلعة القاهرة الزيدية في تعز إلى المنتصرين. فتمكن

---

(٩٥) البطريق، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٩٦) G. Stripling. op. cit. p. 121, et M. Digeon. op. cit. T. I. p. 100.

(٩٧) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 372.

العثمانيون من تحويل تعز إلى قاعدة عملانية رئيسية لجيشهم في اليمن. ثم تحولت القوات العثمانية الأساسية بقيادة سنان باشا نفسه إلى صنعاء، كما توجه جزء من القوات العثمانية بقيادة مهاي بك إلى عدن التي اقتربت منها أيضاً سفن الأسطول العثماني. وبعد حصار لم يدم طويلاً تمكن العثمانيون من الاستيلاء على عدن في ١٥ أيار (مايو) ١٥٦٩، وأعاد تثبيت سلطتهم في جنوب اليمن. وجاء دور صنعاء، فحطمت قوات سنان باشا الوحدات الزيدية المسلحة عند جبل حُطيش، واستولت على ذُمار وهي إحدى المعاقل الزيدية الرئيسية. وفي ٢٦ تموز (يوليو) ١٥٦٩، اقترب جيش سنان باشا من صنعاء ثم استولى عليها دون صعوبة وفشلت كل محاولات المطهّر لاستعادة صنعاء، وقُتل ابنه الهادي في إحدى المعارك. وفي المعركة الحاسمة قرب أسوار المدينة، أنزل العثمانيون هزيمة ساحقة بقوات الزيديين التي بلغ تعدادها أكثر من تسعة آلاف رجل بينهم ألف خيّال وثمانية آلاف من المشاة. وتمكن المطهّر نفسه من النجاة بصعوبة بالغة، حيث هرب واختبأ في قصره في صُليح [٩٨].

بيد أن الحرب لم تتوقف، فعندما رأى المنتفضون أنهم عاجزون عن مواجهة العثمانيين في قتال علني مكشوف، انتقلوا إلى تكتيك حرب العصابات. وساعدتهم ظروف المناطق الجبلية على ذلك على أفضل ما يكون. وانتشرت العمليات العسكرية في عدة مناطق في آن معاً ولا سيما حول القلاع الجبلية الصغيرة. وتشكلت بضعة مراكز متفرقة للمقاومة واتخذت الحرب طابعاً محلياً.

كان العثمانيون مرغمين على خوض حرب طويلة الأمد استهدفت استنزاف قواتهم. وقبل أن يتسع لهم الوقت لإعادة توزيع جيشهم تورّطوا في معارك تصفية بؤر المقاومة الواحدة تلو الأخرى. لكن عمليات نقل القوات من منطقة إلى أخرى، وشحن المدفعية والذخائر ومعدات الحصار تطلبت وقتاً طويلاً ومجهودات ضخمة. وفي سبيل رفع معنويات جيشه أعلن الوالي عن زيادة رواتب الجنود وأباح لهم سلب المدن والقرى التي يستولون عليها. فمُسحت خولان وشيبام وغيرهما من القلاع في منطقة صنعاء من على وجه الأرض بكل ما في ذلك من معنىً، ودُمرت عشرات المناطق الآهله بالسكان وأحرقت عن بكرة أبيها.

أبدى الزيديون مقاومة ضارية، وتضاعفت قواتهم بعد أن انتشرت في الجبال الشاعات عن العجائب والرموز وحتى عن ظهور النبي محمد ومجيئه لمساعدتهم [٩٩]. وتمكن أبناء المطهّر وأخوه شمس الدين علي وقطران الذي لقبه العثمانيون بـ «المجنون» وعلي بن طاهر وغيرهم من زعماء الانتفاضة من إنزال عدة ضربات موجعة بقوات سنان، كما أن بعض الفصائل العثمانية أبيدت تماماً. وفي الرابع من آذار (مارس) ١٥٧٠ «ونتيجة لخيانة مهاي بك العثماني»، سقطت صنعاء نفسها وبقيت فترة قصيرة في أيدي قوات الانتفاضة.

(٩٨) J. de Hammer, op. cit. T. 6. pp. 372 - 378.

(٩٩) Ibid. p. 378.

اكتسب حصار القلعة الجبلية كوكبان (قرب صنعاء) طبيعة أسطورية. فبدأ الحصار في ١٧ آب (اغسطس) ١٥٦٩، وظل المدافعون عن كوكبان بقيادة محمد بن شمس الدين علي تسعة أشهر يصدّون محاولات العثمانيين للاستيلاء عليها. كانت كوكبان مبنية على قمة صخرية على ارتفاع ٢٧٠٠ متراً، وكانت القلعة تبدو من بعيد وكأنها تسبح في الغيوم. مداخلها محمية بأخاديد عميقة تغطّي قعرها وحول قذرة عميقة، وكانت تلك الأخاديد متصلة بداخل القلعة بواسطة مسالك سرية. لذلك كلما ألقى العثمانيون بأكياس التراب إلى قعر الأخاديد ليتمكنوا من المرور عليها، كان حُماة كوكبان ينزلون عبر المسالك المذكورة ويسحبون تلك الأكياس، أما الصخور فهي من أصلب الأنواع بحيث إن القوات المهاجمة، ورغم الجهود الجبارة التي بذلتها، لم تتمكن من حفر أي ثقوب لوضع الألغام فيها. واضطر جنود سنان إلى حمل المدافع وغيرها من المعدات العسكرية على ظهورهم، وكانوا في بعض الأحيان يستخدمون الرافعات. أخيراً أحضر العثمانيون جسراً من صنعاء مؤلفاً من أجزاء حديدية ثقيلة، لكنه تحطم وانهار لفرط ثقله بعد المحاولة الأولى لنصبه عبر أحد الأخاديد. وفي ثورة من الغضب أمر سنان باشا بسوق مئات العمال إلى المكان، حيث أخذوا يعملون تحت نيران العدو في بناء جسر جديد يصل إلى مكان قريب من أسوار القلعة [١٠٠].

وطالت الحرب، وظهرت لدى الطرفين علامات الأعياء والملل، لكن أكثر ما أثار خوف الزيديين غياب أي إشارات تنبىء بتوقف القتال وعناد الجيش العثماني وصموده، فدبّت الخلافات بينهم. وفقد كثيرون منهم إيمانهم بالنصر، فأخذوا ينحازون إلى جانب العثمانيين. وكان منهم على سبيل المثال سعيد ناصر الذي كان يعتبر أحد أخلص أتباع الامام وأقواهم [١٠١].

فلق سنان باشا كذلك لسير الحملة، فقد تكبد خسائر فادحة في المعارك والمواجهات الصغيرة وفي الكمائن وعلى الطرقات الجبلية، ونضب احتياطي الذهب. وبهدف تعزيز مالية الخزينة، لجأ سنان باشا إلى فرض ضرائب طارئة، ومن الطبيعي ان يؤدي ذلك إلى إثارة استياء الأهالي والتهديد بتقويض موقع الحكم العثماني في اليمن [١٠٢].

ونشأت ظروف أحسّ الطرفان فيها برغبتها في وقف العمليات العسكرية. وفتح سقوط كوكبان طريق السلام. لكن الدور الحاسم في سقوط كوكبان لم تلعبه الانتصارات العسكرية التي أحرزها سنان باشا، بل استعداده لحل وسط. وفي ١٨ أيار (مايو) ١٥٧٠ أتمّ العثمانيون تركيب الجسر. لكن سنان باشا وقبل بدء الهجوم عرض على محمد بن شمس الدين شروطاً مشرفة

(١٠٠) J. de Hammer. op. cit. T. 6. pp. 377 - 379.

(١٠١) Ibid. p. 378.

(١٠٢) البطريق، المرجع السابق، ص ٣١.

للاستسلام. فقد وافق على تعيينه سنجقدار عثماني على كوكبان نفسها، وعيّن له راتباً يبلغ ٦٠٠ ألف متليك في السنة لقاء اعترافه بالسيادة العليّة للسلطان العثماني. فقبل محمد بن شمس الدين شروط الاستسلام على الفور [١٠٣]».

وعلى نحو مماثل تم في نهاية عام ١٥٧٠ عقد معاهدة مع الإمام المطهّر وغيره من الزعماء الزيديين. واعترف زعيم الزيديين بصورة علنية بسيادة الباب العالي، ووافق على مرابطة القوات العثمانية في جميع القلاع والمدن التي كانت ترابط فيها قبل اندلاع انتفاضة ١٥٦٧ - ١٥٧٠، وتعهد كذلك بالامتناع عن تقديم أي مساندة «للمتمردين». فاعترف العثمانيون به زعماً دينياً للزيديين وأتبعوا بحكمه عدداً من المناطق في القسم الشمالي من جبال اليمن منها صُليح وحَجَّه وصَعدة وعفَار وحصن المر والأماكن القريبة منها، حيث رابطت الحاميات العثمانية مع بقاء السلطة المباشرة في يد المطهّر كممثل للإدارة العثمانية [١٠٤].

أدت معاهدة عام ١٥٧٠ إلى إعادة استتباب السلام في اليمن ولم يبق إلاّ بعض بؤر المقاومة المتفرقة والمتباعدة كانت أهمها الخاب، وهي بلدة شمس الدين علي. وكلّف بهرام باشا الذي حكم البلاد من ١٥٧٠ حتى ١٥٧٧ بمهمة القضاء على بؤر المقاومة. أما سنان باشا نفسه فغادر اليمن في الأول من آذار (مارس) ١٥٧١. وبعد قرابة السنة توفي المطهّر، ومات شقيقه شمس الدين علي مسموماً فاستولى العثمانيون على الخاب [١٠٥]. واحتدم الصراع على السلطة بين أقرباء الإمام وأولاده مما أدّى إلى انهيار الإمامة تماماً. وعصفت الخلافات بالطائفة الزيدية؛ فظهرت تجمعات عدة في داخلها وتفتت وحدة الطائفة نهائياً في عهد مراد باشا (١٥٧٧ - ١٥٨٠). في ذلك الوقت ظهر في صعدة إمام جديد لم يكن معروفاً من قبل وهو حسن بن علي المؤيّد الذي حاول إثارة انتفاضة جديدة، لكن غالبية الزيديين لم تسانده، بل ان معظم الزيديين وأبناء المطهّر قدّموا للعثمانيين خدمات جُلّى عندما أقدموا بأنفسهم على سحق حركة حسن بن علي المؤيّد [١٠٦].

ساد الاعتقاد أن حكم الباب العالي قد استقر في اليمن وحضرموت ولم يعد يتهدده شيء. وكانت سلطة البكلر بكوات مطلقة بلا حدود. ففي عهد حسن باشا (١٥٨٠ - ١٦٠٥) وصلت سلطته إلى أبعد مناطق اليمن بما فيها جيزان ونجران. وكانت حركات التذمر والتململ تُقمع في بدايتها، وتخلّت معظم القبائل عن القتال ثم انحازت إلى العثمانيين وبدأت تتقاضى منهم الدعم المالي والهدايا والهبات [١٠٧].

(١٠٣) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 379.

(١٠٤) البطريق، المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٢.

(١٠٥) J. de Hammer op. cit. T. 6. p. 380.

(١٠٦) البطريق، المرجع السابق، ص ٣٢.

(١٠٧) البطريق، المرجع السابق، ص ٣٣.

مع ذلك، ظلت مواقع الباب العالي غير وطيدة وغير مستقرة كما كانت سابقاً. لأن تفكك الإمامة الزيدية وانتصار السلاح العثماني لم يعنيا أبداً استقرار النظام العثماني، وكما في عهد البكلر بكوات الأوائل لم تستند السلطة العثمانية إلى أي قاعدة اجتماعية واسعة. وتقلص دور جماعة الصابئة لكنهم لم يقبلوا بالهزيمة المطلقة. وتبعاً لذلك اتخذت عملية «عثمنة» اليمن طبيعة شكلية وسطحية، واصطدمت بعقبات لا تُذَلَّل ليس فقط إبّان السيطرة غير المباشرة (١٥١٧) وإقامة السلطة العثمانية المباشرة (١٥٣٨) فقط، بل وكذلك بعد انتفاضات ١٥٤٧ - ١٥٥١ و١٥٦٧- ١٥٧٠.

في الواقع، لم تندمج البلاد في النظام الاجتماعي والسياسي للسلطنة العثمانية، حتى في مناطق الشافعيين لم تكن «العثمنة» تعني أكثر من مجرَّد سيطرة عسكرية وسياسية للباب العالي.



ضم السودان إلى ساحل البحر الأحمر الأفريقي

لا بد من اعتبار غزو العثمانيين لليمن هزيمة كبرى للبرتغاليين من زاوية الاستراتيجية الشاملة للقوى العالمية آنذاك. فبعد أن ثبّتوا مواقعهم في جنوب شبه الجزيرة العربية، أصبح لهم رأس جسر مناسب من الناحية العسكرية يشكل تهديداً جدياً لخطوط مواصلات الأوروبيين البحرية. وأثبتت الأحداث أن غزو العثمانيين لليمن شكّل خطراً حقيقياً على القواعد البرتغالية في الهند وسواحل أفريقيا الشرقية. وبهدف تدعيم مواقعهم في حوض المحيط الهندي قرر البرتغاليون إحياء تحالفهم القديم مع أثيوبيا، هذا البلد الغامض الذي علق عليه البرتغاليون آمالاً في أواخر القرن الخامس عشر.

تم أول اتصال بين أثيوبيا والبرتغال عام ١٤٩٠، أي قبيل حملة فاسكو دي غاما بثماني سنوات وفي قمة استعداد البـرتغال لفتح الهند، كانت أثيوبيا حينئذ مهددة بالفتح الاسلامي فقبلت طوعاً عرض البرتغال لعقد تحالف معها قدمه بيدرو دي كوفيليا، أول برتغالي وطأت قدماه أرض تلك البلاد. وفي عام ١٥٠٩ وصلت إلى ليشبونه بعثة أثيوبية برئاسة الراهب الأرمني الرحّالة ماتيوس الذي كان يعمل في بلاط ملكة أثيوبيا هيلانة، وذلك بهدف إجراء تحالف مع البرتغاليين [١].

بيد أن معاهدة ١٥٠٩ بقيت لفترة طويلة حبراً على ورق. وبسبب طول خطوط المواصلات

(١) رايت وآخرون «أثيوبيا: تاريخ النضال التحرري الوطني لشعوب افريقيا في العصر الحديث» موسكو ١٩٧٦، ص ٢٤٨.

وجدت البرتغال وأثيوبيا صعوبة كبرى في إقامة اتصالات مستمرة بينهما. ولم يعد ماتيوس إلى أفريقيا إلاّ عام ١٥٢٠، حين وصلت معه بعثة برتغالية برئاسة دون رود ريغو دي ليما، وأحضرت معها كمية من البنادق على اعتقاد انها ستجد جيشاً مقاتلاً قوياً بأمرة حاكم أفريقيا المسيحية المزعوم. غير أن حقيقة الأمر كانت غير ذلك. فكتب وايت وي أن أول لقاء مع الأحباش كان خيبة أمل قاسية للبرتغاليين[٢]. فقد فتر حماس البرتغاليين لفترة طويلة وتبخرت كل الآمال الزاهية التي خلقتها مخيلاتهم والضرورة الملحة لإيجاد حليف لهم في الشرق.

كانت أثيوبيا في تلك السنوات تعيش إحدى أقسى المراحل وأشدها حراجة في تاريخها. ففي أواخر القرن الخامس عشر حُرمت من أي منفذ لها على البحر، ولم يتمكن النجاشي الجبار من الصمود أمام هجمات جيوش المسلمين إلاّ بصعوبة كبيرة. ولم يعد حكّام أثيوبيا يتّكلون على سلاحهم بقدر ما اعتمدوا على مناعة جبالهم وعلى القدرة الدفاعية الطبيعية لبلادهم[٣]. والأهم من ذلك أن الحكّام فقدوا ثقة الشعب وتعلقه بهم. وان جماهير الكادحين في أثيوبيا التي كانت تكابد الويلات تحت نير الكنيسة والاقطاعيين المدنيين لم تكن ترغب في القتال دفاعاً عن مصالح النجاشي ونظامه البالي المقيت. كتب لوكنيتسكي أن فلاحي أثيوبيا كانوا في أفضل الحالات ينظرون بعين اللامبالاة لمجيء المسلمين[٤]. كما أن أعداداً كثيرة من الأثيوبيين اعتنقت الاسلام وانحازت للمسلمين في القتال ضد حكام أثيوبيا المسيحيين وبذلت كل ما بوسعها للتعجيل في تحقيق انتصار الفاتحين المسلمين.

سادت مشاعر مماثلة أيضاً في دول شرقي السودان المسيحية. كانت الكنيسة النوبية تشكّل وحدة متكاملة مع الكنيسة اليعقوبية المونوفيزية التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح في أثيوبيا، وقد وصلت الكنيسة النوبية إلى حافة الانهيار التام في مطلع القرن الرابع عشر حين اضمحلت الدولة الماقورية المسيحية التي كانت عاصمتها مدينة دُنقل القديمة على الضفة اليمنى لنهر النيل. ورد آخر ذكر للمسيحيين في بلاد النوبة الشمالية[٥] عام ١٤٨٤ حين كانت دولة الوديعة المسيحية لا تزال قائمة في النوبة الجنوبية على الأراضي الواقعة بين نهري النيل الأبيض والنيل الأزرق. كانت تلك الدولة في جميع شؤونها الدينية والسياسية، تعتمد على مساندة أثيوبيا لها. وسرعان ما مزقتها التناقضات الداخلية فتفسخت وتفككت دولة الوديعة إلى «قبطانيات» متفرقة، كما سماها

---

(٢) R. S. Whiteway. op. cit. p. 191.

(٣) بارتينسكي «أثيوبيا...» ص ١٢٨.

(٤) لوكينتسكي «الحبشة منذ أقدم العصور...» ٣٨١.

(٥) W. Adams. «Nubia, Corridor to Africa» London 1977, p. 542.

البرتغاليون، ولم تتمكن إلا بصعوبة بالغة من صد هجمات المسلمين الذين كان لهم دون شك أنصار كثيرون بين السكان المحليين في النوبة وفي أثيوبيا المجاورة.

من الناحية الاقتصادية، سبق انهيار المسيحية النوبية انحطاط المدن والأعمال الزراعية. وظل السودان على مدى أربعة قرون ونيف تحت حكم قبائل البدو العرب الرحّل الذين اجتاحوا البلاد منذ القرن الحادي عشر فنهبوها وخرّبوها. وعلى مشارف القرن السادس عشر أصبحوا وحدهم أصحاب تلك البلاد بأراضيهم الشبه صحراوية الواسعة التي لا يحدها بصر والمنبسطة على ضفتي النيل. وقبيل فجر العصر الحديث، كما قال الباحث آدامز، طغى عـدد البـدو العـرب على عـدد السكان الأصليين [٦]. ولوحظ تقهقر في حياة المدن، كما أن الحفريات التي جرت في سوبا «تظهر تخلفاً جدياً في الثقافة [٧] المعاشة إذ إن مدناً كثيرة كانت مزدهرة يـومـاً مـا، أصبحـت أطلالاً وخرائب، وتعطلت التجارة. يقول آدامز «اختفى التجار كطبقة» [٨].

على أنقاض حضارة السودان المسيحية تأسست دول إسلاميـة جـديـدة حلـت تـدريجيـاً محل دويلات البدو الرحل البدائية. وفي مطلع القرن السادس عشر، كانت عدة إمارات للبدو في بربرستان كما كان العثمانيون يطلقون على بلاد النوبة السفلى الواقعة بين الشلالين الأول والثالث لنهر النيل، تحكم فلاّحي وادي النيل الذين كان معظمهم من النوبيين (البرابرة).

وعلى سواحل البحر الأحمر كان المماليك المصريون سادة البلاد. وفي أيار (مايو) ١٥٠٦ وأمام تزايد الخطر البرتغالي، قام المماليك باحتلال مرفأ سواكن [٩] ووضع حامية مملوكية كبيرة فيها. ومنذ ذلك الحين أصبح الساحل الغربي للبحر الأحمر كله حتى سواكن وامتداداً إلى جنوبها من جديد تحت حكم المماليك مباشرة. كما بسطوا سلطتهم الاسمية على كل مناطق السودان وأراضيه الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر. كانت الأكثرية الساحقة من السكان تتألف من قبـائـل بـدو بجاه، وهي قومية يتكلم أفرادها اللغة الكوشيتية البَدوية [١٠]. وقد تزعم قبائل بجاه بضعة أمراء كانت سلطتهم ونفوذهم يتغيران بتغيُّر الزمن. وكان زعماؤهم من أمراء حضارب التي يعتقد أنها تحوير للحضارمة وهم فخذ من أصل حِمَيري. فبعد انتقالهم من حضرموت احتفظوا بلغتهم وعاداتهم العشائرية واعتنقوا الاسلام في وقت مبكر، أي قبل باقي عشائر «بجاه» التي اعتنقت الإسلام في القرن الرابع عشر [١١].

---

(٦) W. Adams. op. cit. p. 590.

(٧) Ibid. p. 537.

(٨) Ibid. p. 545.

(٩) G. Hanotaux. op. cit. T. 4. p. 618.

(١٠) س. سميرنوف. «تاريخ السودان (١٨٢١ ـ ١٩٥٦)» موسكو ١٩٦٨، ص ٤١.

(١١) A. Paul. «A History of the Beja Tribes of the Sudan». Cambridge. 1954. pp. 64-65 et 70.

وبصفتهم أتباعاً للسلاطين المماليك، حافظ أمراء حضارب من ناحية البر على أمن سواكن التي كانت في مطلع القرن السادس عشر المركز التجاري والديني والسياسي الرئيسي لمسلمي السودان بأسرهم. وكانت الركيزة الأساسية للحضاربة تتمثل في زعماء العشائر البجاهية وشيوخ قبائل البدو العرب الرحّل لا سيما قبيلة جهينة وأولاد كحَيل [١٢]. كما أن الفصائل المسلحة لتلك القبائل شكلت الهيكل الأساسي لجيوش الأمراء الحضاربة التي تمكنت بمساعدة هذه الفصائل من بسط حكمها على المناطق الشاسعة في الصحراء النوبية وهضاب ساحل البحر الأحمر، وشن «حرب مقدسة» ضد الدول المسيحيّة في شمال شرق أفريقيا، والقيام بحملات عسكرية على النوبة وأثيوبيا. وفي مطلع القرن السادس عشر أصبح الهدف الرئيسي لتوسعهم مناطق تيجْري الشمالية [١٣].

وفي السودان الأوسط، كان حلفاؤهم في محاربة المسيحية لصوص قبائل البدو العرب الرحّل والعصابات المسلحة من ذوي البشرة السوداء، وكان البرتغاليون يطلقون عليهم اسم «المغاربة السود». وقد شكل هؤلاء عند أواخر القرن الخامس عشر دولتين اسلاميتين مستقلتين، أقامتا فيما بينها علاقات وثيقة للغاية. تألفت احداها من بدو قبيلة جهينة التي كانت تابعة للأمراء الحضاربة بزعامة عبدالله جمّاع، ويقول باحثون معاصرون إنه كان على قرابة نسَب مع «ملك الشرق» الحضاربي، وبدأ حياته السياسية والعسكرية في منطقة سواكن، ثم عُيّن عاملاً للحضاربة في وادي النيل [١٤]، حيث أسس اتحاداً قوياً للقبائل العربية البدوية، ووحّد تحت حكمه الأمراء البدو المتفرقين القاطنين في مناطق منعطف النهر العظيم، «فجمعهم» في دولة واحدة. في نهاية القرن الخامس عشر أخذت تلك الدولة على عاتقها العبء الأساسي في محاربة دولة الوديعة النوبية وأخذت توسّع حدودها شيئاً فشيئاً على حساب النوبة الجنوبية. آنذاك كانت تقطن منطقة ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق مجموعات متماسكة من السكان الحَضَر تحت حكم عبدالله الجمّاع الذي كان يخضع له أيضاً بدو السودان الأوسط [١٥].

تأسست الدولة الاسلامية الثانية على يد «المغاربة السود» حلفاء الأمراء الحضاربة وعبدالله الجمّاع. وعرف هؤلاء في التاريخ باسم سرّي هو «الفونج» الذي يثير أصلهم ودورهم مناقشات عديدة بين المؤرخين. فهم قبائل من النوبة، أسست مملكة سنار في القرن الخامس عشر واختلطوا بالعرب وادعوا أنهم من سلالة الأمويين. دخلوا الاسلام لكنهم لم يتخلوا عن طقوسهم الوثنية ويرى سميرنوف المتخصص في تاريخ السودان أن الفونج هم الأحفاد الأبعدون للموريت (قبائل

(١٢) R. O'Fahey and J. Spaulding «Kingdoms of the Sudan». London 1974, p. 21.

(١٣) A. Paul. op. cit. p. 135.

(١٤) R. O'Fahey. op. cit. p. 23 et W. Adams op. cit. p. 599.

(١٥) P. Holt «Modern History of the Sudan». From the Funj Sultanate to the Present Day. London 1961, p. 9.

الكوش الأثيوبية التي حل النوبيون محلها)، وهم قديماً السكان المزارعون الأساسيون في وادي النيل، وقد تأثروا بجيرانهم الجنوبيين النيليين ثم بالعرب[١٦]. ويتوافق مع هذا الرأي موقف المؤرخ البريطاني سبولدينغ الذي يعرّف الفونج أنهم شعب نوبي جنوبي استوطن أراضي النيل الأبيض بجوار المستنقعات الكبرى[١٧]. ولا يتناقض كذلك مع وجهة نظر المؤرخين البريطانيين الكبار المتخصصين بشؤون السودان مثل آدامز و ترايمينغهام اللذين يعتقدان أيضاً أن أجداد الفونج هم سكان البلاد الأصليون. صحيح ان المؤرخين البريطانيين لا يعتبرون كلمة فونج ذات دلالة إثنية بل «مصطلحاً سياسياً»، لكن آدامز وترايمينغهام يؤكدان عدم وجود لغة للفونج ولا قبيلة باسمهم، وانه نظراً لغياب القرائن الإثنية واللغوية، فإن كل الآمال باكتشاف حقيقة الفونج ولا سيما لجهة أصلهم القبلي محكومة بالفشل[١٨]، ويفضل المؤرخان البريطانيان عموماً عدم ربط هذا المصطلح بأي جنس أو عرق أو ثقافة. وأغلب الظن، كما يعتقد ج. ترايمينغهام، أن المصطلح يعني «أقلية صغيرة حكمت، ولا يعود أصلها إلى القبائل الرحّل»[١٩]. أو أنها كما ذكر آدامز «عشيرة حكمت بالوراثة التحقت بها مجموعة من القبائل المحلية غير العربية في مناطق وادي النيل الأزرق العليا»[٢٠]. ويقول ترايمينغهام إن الفونج بهذه الصفة كانت لهم علاقات وثيقة بسكان الجزيرة الأصليين الذين كان الفونج بدورهم يطلقون عليهم لقب «الهمج»[٢١]. ويستنتج آدامز أن «الهمج» بصفتهم الأتباع الرئيسيين للفونج «كانوا في السابق أتباعاً غير أوفياء لدولة الوديعة النوبية»[٢٢]. ومهما كانت حقيقة الفونج ففي مطلع القرن السادس عشر شاهدهم الرحالة الأوروبيون للمرة الأولى كمسلمين ناطقين باللغة العربية، بل إنهم ادّعوا انتسابهم إلى الأمويين رغم أن ملامحهم الخارجية لا تدل على عرقهم العربي، إضافة إلى أنهم ظلّوا أمداً طويلاً يتخاطبون فيما بينهم باللغة المحلية التي سبقت ظهور اللغة العربية هناك[٢٣].

لذا، يمكن اعتبار الفونج أو «المغاربة السود» قد تحدروا من سكان النوبة الجنوبية (المرويت القديمة) الأصليين، وأنهم تزعّموا حركة الانتفاضة الإسلامية ضد الكنيسة اليعقوبية والإقطاعيين المسيحيين في دولة الوديعة.

---

(١٦) سميرنوف، المرجع السابق، ص ٦٩.

(١٧) R. O'Fahey, op. cit. p. 24.

(١٨) W. Adams. op. cit. p. 600.

(١٩) J. Trimingham. «Islam in the Sudan». New York 1965, p. 85.

(٢٠) Adams. op. cit. p. 600.

(٢١) J. Trimingham. op. cit. p. 85.

(٢٢) W. Adams. op. cit. p. 600.

(٢٣) Ibid. p. 600 et O'Fahey. op. cit. p. 29.

بدأ الفونج أو « المغاربة السود » بصورة منفردة أو بالاشتراك مع الفصائل البجاهية ـ العربية المختلطة والتابعة للقادة العسكريين الحضاربة، بشن الغارات والغزوات على القلاع والمدن النوبية الجنوبية، وإحراق القرى المسيحية، وتدمير الكنائس، وتخريب شواطىء النيل الأبيض والنيل الأزرق. وبرز خلال تلك الحرب زعماء من الفونج أبرزهم قائد لم يكن معروفاً في السابق هو عمارة دونكاس الذي أصبح فيما بعد أول سلاطين سنّار السود. كان عمارة أحد أبناء السكان الأصليين. وتؤكد أسطورة عربية إن دونكاس كان مسيحياً في بادىء الأمر ثم التحق بحركة الانتفاضة واعتنق الإسلام[٢٤].

يقول آدامز إن التقليد السوداني الثابت يربط سقوط دولة الوديعة بالغزوات المشتركة التي قام بها العرب والفونج[٢٥]. ويميل المؤرخون المعاصرون إلى إسناد الدور الرئيسي للعرب في المرحلة الأولى من الحرب على الأقل، فهم الذين ساعدوا الفونج على تثبيت أقدامهم في الجزيرة وإقامة دولة لهم فيها[٢٦]. وفي وقت لاحق، وبعد تزايد عدد ونفوذ المنتفضين ذوي البشرة السوداء ونفوذهم، انتقل الدور القيادي إلى الفونج. وتشير « المدونات التاريخية الفونجية » ـ وهي أوراق سنّار في القرن التاسع عشر المقتبسة عن أخبار شفوية ومصادر مدونة لم تصل إلينا ـ عن علاقات الفونج بالعرب في المرحلة النهائية من الحرب. وتتصدر تلك الأخبار قصة تقول: إنه بعد الاستيلاء على مدينة سوبا عاصمة دولة الوديعة (على مقربة من مدينة الخرطوم الحالية)، عقَدَ عمارة دونكاس و عبدالله الجمّاع اتفاقاً حددا فيه العلاقات بينهما داخل معسكر المسلمين على الوجه التالي: « من المعلوم ان عمارة دونكاس بدأ حكمه أن جمع من حوله أناساً أخذ عددهم يتزايد باستمرار، وكان يقيم معهم في جبل مَيّة غربي سنّار. ثم زاره عبدالله الجمّاع من عرب القواسمة وهو والد الشيخ عجيب الكافوتي جد أبناء عجيب. وقرر الفونج شن الحرب على ملكَي سوبا وقرّي. فتوجه عمارة دونكاس وعبدالله الجمّاع على رأس قواتهما نحو سوبا وقير واشتبكا في معركة ضد ملكيهما أسفرت عن انتصار عمارة وعبدالله ومقتل ملكي سوبا وقرّي. بعد ذلك اتفق عمارة دونكاس وعبدالله الجمّاع على أن يصبح عمارة ملكاً على دولة الوديعة أي على سوبا لأنه الأقوى، وأن يصبح عبدالله الجمّاع ملكاً على قرّي. هكذا ذهب عبدالله الجمّاع وأسس مدينة قرّي قرب جبل الرَّويان على الضفة الشرقية وجعلها مقراً لعرش مملكته. أما عمارة فقد أسس مدينة سنّار في مكان كانت تعيش فيه امرأة اسمها سنّار وجعلها عاصمة لمملكته. حدث ذلك في عام ٩١٠ هجرية (١٥٠٤ ميلادية). وظل عمارة وعبدالله يعيشان كأنهما أخوان. غير أن عمارة كان يتقدم على عبدالله متى

(٢٤) R. O'Fahey. op. cit. p. 31.
(٢٥) W. Adams. op. cit. p. 538.
(٢٦) A. Paul. op. cit. p. 77.

وُجدا في مكان واحد. وحين يفترقان كان عبدالله يستأثر بالاحترام والنفوذ الذي يتمتع به عمارة سواء بسواء (٢٧).

هكذا تم الاعتراف بعمارة دونكاس بصفته الحاكم الأعلى لمسلمي السودان الأوسط وأول سلاطين الفونج في سنّار (١٥٠٤ ـ ١٥٣٤). وامتدت سلطته على النوبة العليا والجنوبية بأسرها من شلالات النيل الثالثة حتى سفوح جبال الحبشة. غير أن عمارة دونكاس لم يمارس سلطته الفعلية المباشرة إلا على أراضي النيل الأبيض والنيل الأزرق وفقاً لاتفاق ١٥٠٤، أي على المناطق التي أطلق عليها العثمانيون اسم «فونجستان». وتطابقت حدود تلك الدولة أساساً مع حدود النوبة الجنوبية باستثناء مناطقها الشمالية. هكذا أصبحت حدود السلطنة الإسلامية الجديدة إلى حد ما حدود دولة الوديعة المسيحية السالفة في القرون الوسطى. وبعد تدمير سوبا انتقلت عاصمة الدولة إلى سنّار في وسط الجزيرة التي كانت النواة الأساسية لدولة الفونج.

أما عبدالله الجمّاع فقد عين في منصب حاكم المسلمين الأصغر أو نائب حاكم المسلمين في السودان الأوسط. وبناء على اتفاق عام ١٥٠٤، أصبحت تخضع لحكمه المباشر بلاد النوبة العليا أو بصورة أدق كل الأراضي الواقعة بين شلالات النيل الثالثة وملتقى نهري النيل الأبيض والنيل الأزرق. وهي منطقة بيّوضا الواقعة ضمن منعطف النيل من دُنقل القديمة حتى الشلالات السادسة. وأصبح عبدالله الجمّاع وريثاً لملوك الدولة المقريّة في القرون الوسطى، بل انه وفقاً للروايات العربية أصبح وريثا «لعرش ملوك النوبة المرصع بالحجارة الكريمة» (٢٨)، واختار عاصمة له، مدينة القرّي التي تميل مصادر كثيرة إلى تشبيهها بمدينة حديثة حملت هذا الاسم وتقع على مسافة سبعين كيلومتراً إلى الشمال من الخرطوم. أما القوة الأساسية التي كان عبدالله الجمّاع يستند إليها، فقد تمثلت بالبدو الذين شكلوا اتحاداً لقبائل العرب الرحّل والذين أصبحوا منذ ذلك الوقت يُعرفون باسم عبد اللاويون، أي سلالة عبدالله وأولاده.

ونظراً لعدم توافر مصادر أخرى تؤكد رواية «المدونات التاريخية الفونجية» بشأن اتفاق عام ١٤٠٥، ظهرت آراء مختلفة ومتعددة في الأرشيف التاريخي البريطاني. وهذه الآراء كلها ذات طبيعة افتراضية، وفي أفضل الحالات يمكن اعتبارها نوعاً من المغالاة والاسترسال في التخمين. وبالاستناد إلى روايات غامضة لا ترتبط من حيث تاريخها بزمن محدد، بل تتعلق على الأرجح بحقبة تاريخية جاءت بعد ذلك بزمن طويل، قرر عدد من المؤرخين البريطانيين سلوك مَنحى آخَر في معالجة مسألة العلاقات العربية ـ الفونجية. ثم تبين ان معطيات «المحفوظات التاريخية

(٢٧) J. Trimingham. op. cit. p. 74, note No 3 et W. Adams. op. cit. p. 538.

(٢٨) W. Adams. op. cit. p. 599.

الفونجية »[٢٩] غير دقيقة وانها رُوِّجت إما لتخدم مصلحة « الدعاية العبـدللاويـة » التي قيـل إنها حاولت « إخفاء حقيقة عهد الهيمنة الفونجية واسدال الستار عليها ، أو بعكس ذلك لتخدم مصلحة « الدعاية الحكومية » لسلاطين الفونج الطامحين إلى إضفاء طابع الشرعية على سلطتهم »[٣٠].

بدأت الفرضيات المسترسلة في التخمين عام ١٩٣٢ بمقالة نشرها المؤرخ أركيل تحت عنوان « منشأ الفونج ». فنعت ترايمينغهام هذا المؤرخ بأنه أثار قضية عدلية حقيقية ضد « المحفوظات التاريخية الفونجية » ، وزرع الشكوك حول قيمتها كمصدر لتاريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر[٣١]. وأيده في ذلك كل من هولت وسبولدنغ وكثيرون غيرهما من الباحثين البريطانيين. فبعد تجاهل تام للمقولة السودانية التاريخية التي تربط سقوط دولة الوديعة النوبية بالهجمات العربية - الفونجية المشتركة ، قرر هؤلاء الباحثون نقل العلاقات بين هاتين القوميتين إلى مستوى الصراع القومي والعرقي. وعلى أساس نظرياتهم فإن العبدلاويين لا عمارة دونكاس ، هم الذين استولوا على دولة الوديعة في البداية ، ثم اصطدموا بالفونج. أما عمارة دونكاس فقد هاجم الجزيرة من الغرب والجنوب وتحدّى قوات عبدالله الجماع[٣٢]. وعلى مقربة من مكان يحمل اسم عربجي نشبت معركة أسطورية في عام ١٥٠٤ أيضاً ، قيل إن الفونج حطموا فيها جيش عبد اللاّويين وانتزعوا منهم « ثمار انتصارهم الذي حققوه قبل ذلك على سوبا »[٣٣] وأرغموهم على الإعتراف بسلطتهم. ويرى أركيل أن تلك المعركة ، جعلت العرب يوافقون على « الخدمة » بصفة نائب حاكم عند السلاطين السود[٣٤]. كذلك قرر الفونج ، لأسباب غير واضحة تماماً أن ينسبـوا لتـاريخهـم الخاص مـآثـر العبداللاّويين واختلقوا رواية « المحفوظـات التاريخية الفونجية »[٣٥].

تبرز هذه النظريات المتباينة نقطة الضعف الأساسية للمسألة المتعلقة باعتناق الفونج للإسلام. فكيف يُفسّر ذلك إذا كان الفونج فعلاً أعداء العبداللاّويين الألدّاء ؟ ألم يكن منطقياً أكثر لو أنهم حافظوا على معتقداتهم الدينية القديمة كأحد أشكال « الرموز القومية » أو « راية المقاومة » ؟ غير أن الفونج تصرّفوا على نحو مغاير تماماً. بل إنهم علاوة على ذلك ، لجأوا إلى كل الوسائل لإثبات تحدّرهم من أصل أموي فأكدوا بذلك انتسابهم للعرب. حيال هذا الارتباك الواضح ، أعلن هـولـت فرضية ثالثة معتبراً أن أسلمة الفونج قد حصلت بدوافع سياسية خارجة عن إطار الصراع بين

---

(٢٩) R. O'Fahey. op. cit. p. 191.
(٣٠) W. Adams. op. cit. pp. 538 - 539.
(٣١) J. Trimingham. op. cit. p. 74.
(٣٢) R. O'Fahey. op. cit. p. 24.
(٣٣) W. Adams. op. cit. p. 600.
(٣٤) A. Arkel «A History of the Sudan. From the Earliest Times to 1821». London 1961, p. 208.
(٣٥) W. Adams. op. cit. p. 538.

العرب والفونج، وهي تتمثل تحديداً بالخوف من العثمانيين. لكن سبولدنغ أصرّ على أن ذلك هو آخر ما يمكن تصديقه [٣٦]. فأي خوف من العثمانيين يمكن التحدث عنه إذا كان الفونج لم يحتكّوا أبداً بالعثمانيين منذ عام ١٥١٧، بل لم تكن لهم أي علاقة بهم. أضف إلى ذلك أن دولة المماليك الجبّارة المعادية للعثمانيين والمنافسة لهم كانت حريصة على حقوقها في السيادة على السودان. ومن الجدير ذكره أن هولت لم يجد أي واقعة تاريخية من شأنها إثبات صحة فرضيته، في حين أن القبائل التي اعتبَرت الضحية العظمى للمعتدي، سارعت إلى تقبّل نظامه الديني والاجتماعي والسياسي دون ضغط أو إكراه.

وتبدو أقل قابلية للإقناع أيضاً البواعث الاقتصادية واللغوية التي يستند إليها سبولدنغ. فهو يعتبر أن «تقوية العلاقات التجارية» مع سواكن والانتشار التدريجي للغة العربية كلغة أجنبية في الإدارة النوبية والتجارة، كانت كلها عوامل حاسمة أقنعت الفونج باعتناق الإسلام [٣٧]. لكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة العداء المتحكم في العلاقات التي ظلت قائمة بين وسط السودان المسيحي وشواطئه الاسلامية لأمد طويل، يبدو من المنطقي الافتراض أن الروابط التجارية واللغوية وغيرها لم تكن سبباً بل نتيجة لدخول الفونج الدين الإسلامي.

هكذا تبرز مقولة أخرى قد تكون أكثر واقعية وهي أن أسلمة الفونج تمت على قاعدة بواعث اجتماعية وسياسية. وعلى غرار الملاسانيين، أي المسلمين الأصليين في أثيوبيا يرجّح أن الفونج مالوا إلى الإسلام باعتباره أحد أشكال الايديولوجية «المقوِّضة» لمجمل نظام العلاقات المعنوية والاجتماعية القائمة في دولة الوديعة المسيحية. لقد اعتنق الفونج الإسلام كونه العقيدة الوحيدة التي تمنحهم ثواباً دينياً على محاربتهم للكنيسة والاقطاعيين النوبيين المكروهين. وإذا كان للعثمانيين من دور في هذا المجال فينحصر أنهم حملوا معهم مشروع «العدالة الاجتماعية» و«محبة الشعب»، مما ألهب حماس الفلاحين في ذلك الوقت لدى العديد من سكان البلدان العربية الأخرى.

لا بد أخيراً من الاشارة إلى ان مقولة «المواجهة» لا تتفق مطلقاً ومنطق الأحداث التي حلت بالمنطقة عند مشارف القرن السادس عشر. ففي تلك الحقبة اندلعت حرب طاحنة تحت راية الصليب والهلال لم يسبق لها مثيل من حيث عنفها وقسوتها. وبدت المسيحية اليعقوبية على حافة الهلاك، ولم يتمكن النجاشي وحلفاؤه إلاّ بصعوبة بالغة من الصمود أمام هجوم جيش المسلمين الجرّار المحارب. وظهرت أمامهم لأول مرة في التاريخ آفاق تصفية المسيحية في أفريقيا الشمالية الشرقية تصفية نهائية. وما من شك ان الحرب في بلاد النوبة شكلت المرحلة الكبرى في تلك المأساة

(٣٦) R. O'Fahey. op. cit. p. 32.

(٣٧) R. O'Fahey. op. cit. pp. 32 - 33.

التاريخية. ومن المشكوك فيه ان تنجرّ الحركتان الاسلاميتان المشاركتان في تلك الحرب ضد عدو واحد وهما حركة العبداللاّويين والفونج بالتقاتل فيما بينهما.

لكن الاستيلاء على مدينة سوبا وتدميرها عام ١٥٠٤ لم يعنِ أبداً انتهاء الحرب النوبية. ويرى المؤرخون أنه لا بد من اعتبار سقوط مدينة قرّي آخر المعاقل المسيحية في السودان [٣٨] جزءاً من تلك الحرب. صحيح أنه لا يمكن معرفة متى حصل ذلك، لكن المعارك التي نشبت بعد الاستيلاء على سوبا استغرقت ربع قرن على الأقل. كان لكلٍّ من «المشيخات» المائة والخمسين مركز على شكل قلعة حصينة في وسطها كنيسة من القرميد ربطت مصيرها بمصير عاصمة البلاد. طيلة ذلك الوقت أبدى مسيحيو جنوب النوبة مقاومة متواصلة بالاعتماد على المساعدات الواردة لهم من أثيوبيا المجاورة. فقد شاركت تلك الدولة اليعقوبية في الحرب ضد «المغاربة السود الأشرار» الذين قيل عنهم الكثير في بلاط النجاشي [٣٩]. ومن أثيوبيا تدفق السلاح والمال والمحاربون، وفي نيسان (أبريل) ١٥٢٠ عندما وصلت البعثة البرتغالية إلى مصوّع، لم تجد الحاكم المحلّي هناك، إذ كان «على رأس حملة عسكرية باتجاه مصر». ويروي البرتغاليون أنه في إحدى معارك الحملة قُتل ابن الحاكم مع ٤٠٠ فارس [٤٠].

في حرب النوبة نزفت دماء غزيرة، إذ تميزت بالعنف الشديد والتدمير الجماعي، ولا تزال خرائب سوبا قائمة حتى الآن، وهي اليوم تقوم على أراضي السودان كما يروي آدامز، وترمز إلى التدمير التام الذي لا مثيل له [٤١]. إضافة إلى ذلك، فعلى ضفاف النيل الأبيض والنيل الأزرق تمكن مشاهدة أطلال عشر مدن مسيحية على الأقل دمرها الفونج [٤٢]. فقد أقدموا بالاشتراك مع العبدلاويين والبجاهين على تدمير الكنائس وإبادة اليعاقبة وملاحقتهم، ومن بقي منهم حياً اعتنق الإسلام... وما بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٢٧، وخلال وجود البرتغاليين في أثيوبيا وصلت إلى قصر النجاشي بعثة نوبية من ستة أشخاص «لطلب إرسال كهنة ورهبان إلى النوبة الجنوبية لتعليم السكان» [٤٣]. أما مصر التي كانوا في السابق يتلقون منها المرشدين والمعلمين الدينيين فلم يعد يأتي منها أحد. ثم إن النجاشي نفسه، كما تشير كل الدلائل، لم يخاطر بإرسال رجال الإكليروس من أثيوبيا إلى النوبة الجنوبية [٤٤].

في مطلع ثلاثينات القرن السادس عشر انقرضت المسيحية في النوبة الجنوبية تماماً. وانتهت

(٣٨) W. Adams. op. cit. p. 539.
(٣٩) R. O'Fahey. op. cit. pp. 31 - 32 et 34.
(٤٠) R. S. Whiteway. op. cit. pp. 190 - 191 et R. O'Fahey. op. cit. p. 34.
(٤١) W. Adams. op. cit. p. 539.
(٤٢) J. Trimingham. op. cit. p. 79.
(٤٣) J. Trimingham. op. cit. p. 77.
(٤٤) Ibid. p. 77 et A. Arkel. op. cit. p. 204.

الحرب النوبية في أواخر عهد عمارة دونكاس. ثم إن انتصارات المسلمين العفاريين والصوماليين الذين استولوا على تيجري في أعوام ١٥٢٩ ـ ١٥٣١ واجتاحوا « أثيوبيا العليا بأسرها حتى حدود سنار »[٤٥] هي التي استهدفت فصل اليعاقبة السودانيين عن أبناء عقيدتهم الأثيوبيين لتضعهم بذلك أمام الهزيمة النهائية.

وفي الشرق كانت دول القرن الأفريقي الإسلامية الحليف الأقرب للفونج وأمراء الحضاربة. وكانت أهم تلك الدول سلطنة عَضَل التي تقع أهم مراكزها على ساحل خليج عدن بما فيها العاصمة زيلع.

وفي الداخل كانت تلك الدول تتلقى المساعدات من قبائل البدو الرحَّل التي اعتنقت الإسلام، ومن الملاسانيين الذين أسسوا مدينة هرر وحولوها إلى مركز للإسلام في أثيوبيا[٤٦]. وفي عهد السلطان محمد (١٤٨٨ ـ ١٥١٨)، كان يدير شؤون الدولة الأمير محفوظ وهو أحد الأعيان من أصحاب النفوذ، كما كان يقود « الحرب المقدسة ». وحوالي عام ١٥١٦ أو بعده بفترة قصيرة، ألحق النجاشي الحبشي الشاب داود الثالث هزيمة ساحقة بالقوات العفارية الصومالية، وقتل محفوظ نفسه. ولجأ داود الثالث إلى النار، فدمّر عدداً من المدن والقرى الاسلامية مما أدى إلى تصاعد العنف والقسوة من جانب الطرفين المتقاتلين، كما أدّى في آن معاً إلى تدهور الوضع في سلطنة عَضَل. وبعد وفاة السلطان محمد نشب صراع عنيف على السلطة في مدينة زيلع ظهر خلاله أحد ألدّ أعداء أثيوبيا وهو الأمير أحمد بن إبراهيم الغازي وهو من أصل صومالي، وكان معروفاً أكثر باسم أحمد غران أي أحمد « الأعسر »، الذي خلف الأمير محفوظ. وبعد أن تزوج ابنته اتخذ لنفسه لقب إمام، وما لبث بعد فترة قصيرة أن قبض على زمام السلطة كلها في سلطنة عَضَل بعد إبعاد السلطان أبو بكر، ثم وضع على عرشها نصيراً له هو السلطان عمر الدين[٤٧].

كانت المهمة الأساسية لأحمد غران تدمير أثيوبيا اليعقوبية. وعلى هذا الأساس أقام علاقات مع جميع الأعداء السياسيين لأثيوبيا، وعقد تحالفاً عسكرياً للدول الاسلامية التي اعتبرت أثيوبيا عدوها المشترك، فتكاتفت في وحدة الأهداف القريبة وتساعدت في الحرب ضد أثيوبيا. هكذا وُجدت وحدة المصالح وأدت بالتأكيد إلى تسوية المواقف بالنسبة إلى دول العالم، وبالدرجة الأولى للبرتغال والسلطنة العثمانية بالمقارنة مع أثيوبيا. كان البرتغاليون يمثلون الخطر الأكبر، إذ كان أسطولها يزرع الموت على شواطىء السودان والصومال، كما كانت سفن البرتغاليين تقصف دون رحمة وتدمر

(٤٥) أوسبينسكي « الشرق المسيحي، الحبشة »، ص ٥٨.

(٤٦) بارتينسكي « تاريخ أثيوبيا »، ص ١٦.

(٤٧) بارتينسكي « تاريخ أثيوبيا »، ص ١٣١.

المناطق الساحلية في المدن الصومالية. مقديشو (١٤٩٩)، وبرافا (١٥٠٦) وغيرها. وفي عام ١٥٠٧، ظهر البرتغاليون في البحر الأحمر لأول مرة. وفي عام ١٥١٣، قام البرتغاليون بهجوم على مدينة سواكن عاصمة السودان المسلم، وقد أدهشتهم تلك المدينة باتساع رقعتها وثرواتها وجمالها [٤٨]، ووجد أمراء الحضاربة صعوبة بالغة في حمايتها. ولولا مساعدة المماليك لسقطت المدينة في قبضة البرتغاليين. وفي شهر تموز (يوليو) ١٥١٧، أقدم لوبو سواريش على قصف مدينة زيلع عاصمة سلطنة عضل وأحرقها. وقام البرتغاليون بنهب المدينة بعد سقوط قلعتها في أيديهم. وفي عام ١٥١٨، تعرضت مدينة بربرة وهي أحد أهم مرافىء عضل لاجتياح وحشي، فقد قام القراصنة البرتغاليون المتمركزون في خليج عدن بالسطو على كل السفن التجارية الإسلامية التي صادف وجودها في تلك المنطقة، ونهبوا الشواطىء واستولوا على المواد الغذائية والعبيد والمقتنيات الثمينة. وفي عام ١٥٢٠، اضطر سلطان عضل أبو بكر إلى نقل عاصمته من زيلع إلى مدينة هرر الملاسانية [٤٩].

فليس ما يثير العجب أن ظهور العثمانيين في مصر قوبل في دول أفريقيا الاسلامية بسرور بالغ. لأن سقوط دولة المماليك في نيسان (أبريل) ١٥١٧، التي لم تستطع حماية تلك الدول من اعتداءات الكفار، لا بد بالتالي أن يعتبر تجسيداً لإرادة السماء التي أحيت فيها آمالاً جديدة. كان هم تلك الدول أن يكون لها في مصر حليف قوي وموثوق يؤمن لها الحماية ويمكنها الاعتماد عليه في محاربتها لأثيوبيا. وذلك يعطي جواباً قاطعاً عن سؤال لماذا هرع حكام أفريقيا المسلمون فبعثوا الرسل إلى السلطان سليم الأول واعترفوا بالسيادة العلنية للباب العالي [٥٠]، وأعلنوا ولاءهم للسلطان وأعربوا عن استعدادهم لاقامة علاقات معه تكون مشابهة للعلاقات التي كانوا يقيمونها مع حكام مصر السابقين. حتى ان الحكام الجدد أمثال عمارة دونكاس قرروا كغيرهم إرسال مندوبيهم إلى القاهرة. وقدم رسل دونكاس بشكل خاص إلى سليم الأول شجرة النسب التي أعدها السمرقندي، والتي تثبت أن الفونج يتحدرون في أصلهم من الخليفة الأموي مروان بن عبد الملك. فقصدوا من ذلك أن يؤكدوا بالوثائق صلتهم القديمة بالإسلام [٥١].

عام ١٥١٧، أصبحت دول شمال شرق أفريقيا الإسلامية بأسرها، من الوجهة الحقوقية على الأقل، ضمن سيادة السلطنة العثمانية فازداد تأثير الباب العالي ونفوذه بصفته العنصر الأهم في تطور المنطقة في المجالين العسكري والسياسي. ما يبعث على الأسف أننا لا نملك إلا القليل من

---

(٤٨) R. S. Whiteway. op. cit. p. 271 et F. Danvers. op. cit. p. 448.

(٤٩) بارتينيسكي «تاريخ أثيوبيا»، ص ١٣١.

(٥٠) G. Stripling. op. cit. p. 56.

(٥١) W. Adams. op. cit. p. 604 et A. Arkel. op. cit. p. 188 et 208.

المعطيات المتعلقة بسياسة الباب العالي في السودان في المرحلة الأولى لبسط السيادة العثمانية عليه. لكن المرجح ان تلك السياسة لم تكن تختلف بشيء عن سياسة العثمانيين في البلدان العربية الأخرى التي رضخت لسيطرتهم غير المباشرة. فمن البديهي أن يكونوا قد شجعوا على « عثمنة » الحياة الاجتماعية ولو بشكل جزئي، وعملوا على بناء المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية، وزوّدوا البلاد بالسلاح والمال والوعّاظ ورجال الدين. ولما كان العثمانيون سادة السودان الجدد، كان عليهم أن يقدموا المساعدات للحكام المحليين ويثبّتوا صلاحياتهم. وبهدف حماية البلاد من البرتغاليين وضع العثمانيون حاميات عسكرية لهم عند مرافىء البحر الأحمر، ولا سيما في مدن سواكن ومصوّع وزيلع، وزوّدوها بالأسلحة النارية بعد أن وضعت تحت أمرة باشا جدّة الذي عيّن نواباً له في تلك المدن. وظهرت تلك الحاميات لأول مرة، عام ١٥٢٠ [٥٢] عند احتلال البرتغاليين لمقديشو أو بعيد ذلك مباشرة.

مقابل المساعدات والحماية أخذ حكام السودان التابعون يرسلون الهدايا إلى الباب العالي وفي بعض الحالات يدفعون الجزية. ففي سواكن على سبيل المثال كان العثمانيون يتقاضون نصف العائدات الجمركية على شكل جزية بلغت قيمتها قرابة ثلاثين ألف دينار أشرفي (ذهب) في السنة الواحدة [٥٣]. وظل ما تبقى منها بتصرّف الحاكم الحضاربي المحلي. وتوسعت الدعوة الإسلامية إلى حد كبير. وعلى غرار العبداللاويين فتح الفونج الأبواب على مصاريعها، على حد تعبير آدامز، للمرشدين الدينيين المسلمين. ورغم أن هؤلاء عملوا في السابق كمبشرين زائرين بين اليمنيين وحجاج شمال أفريقيا، فهم الآن سودانيون أنهوا دورة كاملة في دراسة علم الدين في القاهرة. فأقدموا على بناء المساجد والمدارس الدينية والخلوات، وجمعوا حولهم التلامذة وعلموهم القرآن.

تميز أولاد جابر في المناطق العبدلاوية بالغيرة على الدين الإسلامي، وأسسوا في مدينة دنقل عدة مراكز دينية جديدة [٥٤]. وفي فونجستان يعتبر الشيخ محمود العراقي أول مرشد في الشريعة. ولد في السودان على شواطىء النيل الأبيض حيث درس الفقه الإسلامي على المذهب المالكي، ثم تعلم في مصر. ولما عاد عام ١٥٢٠، أقام قلعة قصر محمود على النيل الأبيض التي أصبحت فيما بعد المقر الرئيسي لإقامته، وبنى ١٥ مدرسة دينية أو خلوة [٥٥]. وقد شجع سلاطين الفونج على أسلمة البلاد بكل الوسائل، فبسطوا حمايتهم على محمود العراقي وغيره من الزعماء الدينيين، وراقبوا الإلتزام بتطبيق مبادىء الاسلام لا سيما بالنسبة لفريضة الحج، حتى أنهم أخذوا على عاتقهم دفع جميع نفقات الحج إلى مكة [٥٦].

(٥٢) A. Paul. op. cit. p. 77 et S. Longrigg «A Short History of Eritrea» Oxford 1945, p. 44.
(٥٣) F. Danvers. op. cit. p. 448 et Whiteway. op. cit. p. 272.
(٥٤) W. Adams. op. cit. p. 100.
(٥٥) Ibid. p. 115.
(٥٦) Ibid. p. 100.

وأولى الباب العالي اهتماماً بسلطنة عضل التي كانت تمثل القاعدة الأساسية للعمليات الهجومية ضد أثيوبيا. وكانت تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً على مدخل مضيق باب المندب. لذا، تابع العثمانيون تطور الأحداث في سلطنة عضل بكل اهتمام ودعموا بكل الوسائل «حزب الجهاد» برئاسة أحمد غران الذي ظل طيلة حياته السياسية يتلقى المساعدات الكبيرة من العثمانيين، ولا سيما من بكلربك مصر، الذي وضع بتصرفه فصيلاً من البشناقيين اليوغوسلاف والألبانيين وكمية كبيرة من الأسلحة النارية بما فيها المدافع [٥٧].

في عام ١٥٢٥، أقدم أحمد غران على قطع علاقاته السلمية مع أثيوبيا. وفي العام التالي قهر النجاشي داود الثالث وطرد الأثيوبيين من المناطق الساحلية. لكنه طيلة السنوات الثلاث التالية لم يخرج في حربه ضد الأثيوبيين عن إطار «حرب الحدود»، مكرساً كامل جهوده لإعادة تنظيم جيوشه. واستطاع بمساعدة الانكشارية العثمانيين [٥٨] من تشكيل جيش صغير الحجم لكنه انضباطي ومجهز بأسلحة نارية. كان العرب المحليون نواة ذلك الجيش إضافة إلى الوحدات الأفريقية والصومالية. ولم يشارك العثمانيون رسمياً في العمليات الحربية ولم يرسلوا جيوشهم النظامية إلى عَضَل، بل كانوا من وقت إلى آخر يرسلون إليها بعض تشكيلات المتطوعين والمجاهدين في سبيل الدين المستقدمين من جنوب شبه الجزيرة العربية [٥٩].

كان جيش النجاشي أكثر عدداً، لكنه سيىء التنظيم ضعيف التسلّح، عديم الانضباط ويعاني من نقص في الأسلحة النارية، وتجدر الملاحظة إلى أن الأثيوبيين لم يحسنوا استعمال تلك الأسلحة، فكانوا مضطرين لطلب المساعدة المستمرة من رجال المدفعية العرب [٦٠].

عام ١٥٢٩، وبعد أن أتم أحمد غران استعداداته الضرورية، شرع في أول حملة عسكرية كبيرة. ثم قام بحملات جديدة تمكن خلالها من إلحاق عدة هزائم ساحقة بداود الثالث. وفقد الأثيوبيون مقاطعة الشواء (١٥٢٩)، ومدينتي داوارو وتيجري (١٥٣١)، وأمحَرَه (١٥٣٣)، وبعض المقاطعات الأخرى، وأصبحت عشرات المدن بما فيها اكسوم في أيدي المسلمين. فأقدم جنود أحمد غران على نهب الكنائس والأديرة دون رحمة استناداً إلى كتاب «فتوح الحبشة» للمؤرخ عبد القادر شهاب الدين الذي قال: ان الفاتحين نزعوا الذهب عن سقوف الكنائس وجدرانها [٦١] وأجبروا عشرات الألوف من الناس على اعتناق الإسلام. كما أن أعراقاً عدة تركت داود الثالث

---

(٥٧) أوسبينسكي «الشرق المسيحي»، ص ٥٨ وبارتينسكي «تاريخ الحبشة»، ص ١٣٨.

(٥٨) بارتينسكي، المرجع السابق، ص ١٣٢ وأوسبينسكي، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٥٩) S. Longrigg «A Short History of Eritrea» p. 49 - 50 et R. S. Whiteway, op. cit., p. 49.

(٦٠) بارتينسكي «تاريخ أثيوبيا»، ص ١٥٦.

(٦١) لوكينتسكي «الحبشة...»، ص ٣٧٠.

وانحازت إلى أحمد غران. قبيل حلول عام ١٥٤٠، أصبح الجزء الجنوبي والأوسط من أثيوبيا بكامله مع عدد من مناطق الشمال تحت سيطرته. واعتنق الإسلام ٩٠ بالمائة من السكان كما تقول بعض الروايات [٦٢]. وانهار الجيش الأثيوبي ولم يعد قادراً على الاحتفاظ بالمناطق الجبلية النائية إلاَّ بصعوبة بالغة. واختبأ النجاشي نفسه مع وحدة عسكرية صغيرة في « المناطق الصحراوية وجبال تيغري » [٦٣].

توفي النجاشي داود الثالث في الثاني من أيلول (سبتمبر) ١٥٤٠ في أقصى الشمال قرب دير ديبري دامو بعد أن فقد السلطة والجيش والأنصار [٦٤] وتبوأ العرش ابنه كلاوديوس (١٥٤٠-١٥٥٩)، الذي تمكن من وقف انهيار الجيش واستعادة ثقة الأحباش المتمردين الذين كانوا ينتظرون أحداثاً حاسمة لكي يقفوا إلى جانب القائد الأقوى [٦٥]. وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤٠ أحرز النجاشي الشاب أول انتصاراته « فتغير مصير الحرب كضرب من السحر » [٦٦].

ففي تلك اللحظات الحاسمة وصل البرتغاليون لمساعدة كلاوديوس. كانوا في السابق اكتفوا بأعمال التخريب والنهب على شواطىء خليج عدن. وحصلت أقوى الغزوات على ضواحي مدينة مصوّع (١٥٢٠ و١٥٢٦)، وعلى مدينة زيلع (١٥٢٨). ويمكن القول ببساطة إن البرتغاليين لم يتجرأوا على التمادي أكثر. وعندما طلب داود الثالث من البرتغاليين مساعدته عام ١٥٣٥ لم يأبهوا للطلب [٦٧]. ولم يقتنعوا بضرورة الانتقال إلى مرحلة حاسمة إلاَّ بعد احتلال العثمانيين لليمن (١٥٣٧) والانتصارات الجديدة التي أحرزها أحمد غران.

عام ١٥٤١، وبعد استعدادات دامت سنتين، قام الأسطول البرتغالي الشرقي بعملية كبيرة في البحر الأحمر، جاءت رداً على الحملة الهندية التي نفذها سليمان باشا الخادم، فكانت العملية الجديدة تهدف إلى أسطول البحر الأحمر التابع للباب العالي. قاد العملية حاكم الهند البرتغالي (١٥٤٠ - ١٥٤٢) دون اسطفان دي غاما، وهو ابن البحار العظيم فاسكو دي غاما وبأمرته ٧٢ سفينة مع عدد كبير من الجنود والذخائر الحربية. وفي ١١ شباط (فبراير) ١٥٤١، ظهرت الأرمادا البرتغالية على أرصفة مرفأ مصوّع وشرع البرتغاليون في القتال على الفور. ورغم أمر القائد الذي لم يكن يريد تشتيت قواته نزل مائة جندي برتغالي من الرماة المزودين بالأسلحة النارية إلى

---

(٦٢) المرجع ذاته، ص ٣٨١.

(٦٣) أوسبينسكي «الحبشة...»، ص ٥٩.

(٦٤) بارتينسكي، المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٦٥) أوسبينسكي، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٦٦) بارتينسكي، المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٦٧) A. Arkel «A History of the Sudan», p. 206.

الشاطىء، وقرروا التقدم لمساعدة «الابونا» أي البطريرك الأثيوبي. حاول دون ما نويل دي غاما شقيق الحاكم إيقاف هؤلاء الحمقى ومنعهم من التقدم فدفع حياته ثمناً لذلك، وتقدم الجنود المائة بأسلحتهم النارية إلى عمق أفريقيا خلف راية مرفوعة وعلى أنغام الموسيقى العسكرية، فتصدّى لهم جنود الانكشارية العثمانيون وأبادوهم عن بكرة أبيهم، ولم ينجُ منهم إلاّ جنديان فقط تمكنا من العودة إلى السفن البرتغالية (٦٨).

رغم هذه المجزرة الأليمة التي حلت بجيشه في بداية المعركة، قرر دون اسطفان دي غاما مواصلة الحملة لتدمير قوات العثمانيين البحرية، وفي ٢٢ شباط (فبراير) اقترب أسطول البرتغاليين من مدينة سواكن بأمل الحصول على فدية والعثور على مرشدين بحريين يستطيعون إرشادهم إلى السويس، القاعدة الرئيسية لأسطول البحر الأحمر، جربوا المفاوضات أولاً، لكن مدينة سواكن رفضت الانصياع، فأنزل البرتغاليون قواتهم في ٨ آذار (مارس) وهاجموا المدينة، فهرب سكانها مع حاميتها الصغيرة المؤلفة من حوالي أربعين جندياً عثمانياً. واندفع البرتغاليون إلى سواكن وراحوا يعيثون فيها أبشع أنواع السلب والنهب، ثم أحرقوا المدينة الخاوية والسفن الراسية في مينائها (٦٩).

وفي ١٠ آذار (مارس) ١٥٤١، تابع البرتغاليون تقدمهم دون معرفة دقيقة لظروف الملاحة في تلك المنطقة. فأخذت سفنهم تتحرك بصعوبة في المياه الضحلة وبين الصخور. ثم تباطأت حركة الأسطول أكثر فأكثر من جراء تكرار توقف السفن لنهب المدن الساحلية ولا سيما مدينة القُصَيْر (١٤ - ١٨ نيسان) (أبريل) حيث سطا البرتغاليون على أغنى مستودعات التموين العثمانية، ومدينة الطور (٢١ - ٢٢ نيسان) (أبريل)، في أقصى الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء. وعندما بلغ دي غاما أخيراً مشارف السويس في ٢٦ نيسان (أبريل) كان العثمانيون قد تمكنوا من نقل سفنهم إلى أماكن أمينة تحميها المدفعية البرية، فلم يجازف حاكم الهند البرتغالي بمهاجمة العثمانيين. وفي ٢٨ نيسان (أبريل) قفل راجعاً من حيث أتى (٧٠).

في مطلع شهر تموز (يوليو) ١٥٤١، عاد دي غاما إلى مصوّع من جديد، وقرر هذه المرة إنزال فيلق تشكّل خصيصاً من قوات الحملة لمساعدة النجاشي وبلغ عدد أفراده أربعمائة رجل بقيادة دون كريستوفان دي غاما وهو الأخ الأصغر للحاكم البرتغالي. وفي ٧ تموز (يوليو) حدث آخر لقاء بينهما، وفي ٨ تموز (يوليو) رفع الأسطول أشرعته و اتجه نحو عدن (٧١).

---

(٦٨) R. S. Whiteway. op. cit. pp. 271 et 275.

(٦٩) Ibid. p. 272 et F. Danvers. op. cit. p. 448.

(٧٠) R. S. Whiteway. op. cit. pp. 272 - 274 et F. Danvers 448 - 449.

(٧١) R. S. Whiteway. op. cit. p. 275 et A. Arkel. op. cit. p. 206.

وفي ٩ تموز (يوليو) ١٥٤١، تحرك دي غاما إلى الجبال باتجاه ديباروع مع الحذر الشديد في تحاشي أي مواجهة مع العدو، ولم يتنبَّه أثناء تقدمه إلى فصائل أحمد غران التي كان تلاحقه، كما لم يأبه لمطالبة المسلمين له بمغادرة أفريقيا. وفي مطلع الشتاء تمكن دي غاما من الاختباء في منطقة جبلية صعبة المنال للاحتماء فيها. قلق أحمد غران لهذا الوضع فطالب العثمانيين بتقديم المساعدة، وبادر بكلربك اليمن على الفور إلى فصل ٩٠٠ إنكشاري وألفي فارس عربي وأرسلهم لمساعدة أحمد غران الذي أحجم عن القيام بأي عملية حاسمة قبل وصول النجدات العثمانية.

في منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤١، استأنف كريستوفان دي غاما مسيرته في جبال أثيوبيا. وفي ٤ نيسان (أبريل) ١٥٤٢، وصل إلى أناصي والتحق مع جنوده بقوات النجاشي، لكن كلاوديوس كان خارجها مع فصائل جيشه الأساسية. ومع ذلك قرر دون كريستوفان دي غاما بالاشتراك مع الأثيوبيين مهاجمة المسلمين انطلاقاً من أناصي. لكن المعركة الأولى لم تسفر عن أي نتائج تذكر. وفي المعركة الثانية ألحق البرتغاليون هزيمة جديّة بالقوات العفارية الصومالية [٧٢]. وجاء موسم الأمطار ليفصل بين الأطراف المتقاتلة بصورة مؤقتة. بيد انه بعد وصول النجدات والتعزيزات من اليمن ودون ان ينتظر أحمد غران انتهاء موسم الأمطار شن في ٢٨ آب (أغسطس) ١٥٤٢ هجوماً على المعسكر الأثيوبي ـ البرتغالي في أناصي. ولم يتمكن الأثيوبيون من الصمود أمام هجوم الإنكشارية فهربوا بشكل فوضوي، وتبعهم البرتغاليون متخلّين عن جرحاهم وجثث قتلاهم التي بلغ عددها قرابة المائتي قتيل وجريح. وهُزِمَ كريستوفان دي غاما هزيمة تامة، وتشتتت قواته، وأصيب بجراح ثم أسره الانكشارية وأعدموه [٧٣].

كان أسطفان دي غاما يحاول إقامة اتصال مع شقيقه. وفي ربيع عام ١٥٤٢، أرسل إلى البحر الأحمر أسطولاً صغيراً بقيادة انريك دي فاسكو نسيلّوشا، غير أن محاولاته لانزال قوات في مصوّع وسواكن باءت بالفشل بسبب مقاومة العثمانيين فعاد إلى الهند [٧٤].

بعد هزيمة القوات البرتغالية في أثيوبيا، سرّح أحمد غران [٧٥] عدداً كبيراً من الانكشارية والفرسان اليمنيين ولم يبقِ إلاّ على مائتي جندي عثماني أي ما يعادل عدد البرتغاليين الذي احتفظ بهم كلاوديوس بعد معركة اناصي، واستمرت الحرب المتقطعة في أثيوبيا. وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٥٤٣، نشبت معركة زِنطِر على مقربة من بحيرة تانا ألحقَ كلاوديوس بنتيجتها هزيمة ساحقة بالقوات الصومالية. في بداية المعركة أصيب أحمد غران برصاصة برتغالية فقتل، كما قتل

(٧٢) بارتينسكي «تاريخ أثيوبيا»، ص ١٥٧.

(٧٣) بارتينسكي «تاريخ الحبشة»، ص ١٥٨. وتفيرتينوفا، المرجع السابق، ص ٦٠.

(٧٤) F. Danvers. op. cit. p. 451.

(٧٥) A. Arkel. op. cit. p. 206.

معه أربعون انكشارياً عثمانياً، وهُزِمَ جيش الصومالين وتحطَّم بأكمله تقريباً. فأسرع كلاوديوس لاستعادة مواقعه ومقاطعاته الواحد تلو الأخرى [٧٦].

آنذاك قرر البرتغاليون عقد مفاوضات مع الباب العالي. فألحوا في بداية الأمر في الحصول على اعترافه بهيمنتهم على منطقة المحيط الهندي. وربما يعلم الاسبانيين الطامحين إلى عقد صلح مع العثمانيين في أوروبا. أرسل البرتغاليون بعثة إلى اسطمبول وصلتها عام ١٥٤٤، واقترحت على العثمانيين عقد معاهدة سلام مدتها عشر سنوات [٧٧]. ووفقاً للتعليمات التي زودت بها البعثة، كان على أعضائها إبلاغ العثمانيين عن استعداد البرتغال لتزويد الباب العالي سنوياً عبر البصرة بـ (١٢٧) ألف كيلوغراماً من البهارات. مقابل ذلك يتعهد العثمانيون تزويد البرتغال سنوياً بعشرين ألف ربعية قمح أي قرابة ٢٥٠ ألف كلغ. ويشتَرطَ على الباب العالي الامتناع عن بيع البهارات المقدمة إليه أو شرائها من بلدان أخرى. وان تحرم تجارة البهارات تحريماً تاماً. وأصر البرتغاليون على منحهم حق الإشراف على مضيق باب المندب للقيام بتفتيش السفن التجارية فيه. وكان على الباب العالي نزع سلاح أسطول البحر الأحمر التابع له وتجميد عدد قواته المسلحة في عدن والاعتراف للبرتغاليين بحريتهم التامة في الملاحة والتجارة على سواحل شبه الجزيرة العربية، ولا سيما في عدن وزبيد وجدة. ومن شروط المعاهدة كذلك ان تحصل السفن العثمانية على إذن خاص من البرتغاليين شرط دفع الرسوم المتوجبة، وإلاّ قام البرتغاليون باحتجازها ومصادرة حمولتها. وكان على الحكومة العثمانية أيضاً التعهد بعدم بناء سفن حربية جديدة والامتناع عن إنتاج أسلحة قد تشكل خطراً على الملاحة البرتغالية في المحيط الهندي. أخيراً تشترط المعاهدة موافقة العثمانيين على تزويد البرتغال، إذا نشأت ظروف تستوجب ذلك، بعشرة آلاف ربعية من القمح بالأسعار المتداولة في الأسواق [٧٨].

كان واضحاً ان شروط السلام المذكورة ليست مقبولة لدى الباب العالي. ويصفها المؤرخ المعاصر دينفيرس بأنها «شروط لا يقبلها إلاّ خصم مغلوب على أمره». فرفضها سليمان العظيم ولم تتوقف العمليات العسكرية في أفريقيا. قبيل منتصف القرن السادس عشر عزز البرتغاليون مواقعهم في أثيوبيا إلى درجة كبيرة. وظهر فيها، إضافة إلى الجنود، مستوطنون ومبشرون أوروبيون، كما نشطت أعمال بناء الكنائس الكاثوليكية. ثم سمح كلاوديوس للمسيحيين اليعاقبة المحليين بارتياد الكنائس الكاثوليكية والالتحاق بالمذهب اللاتيني. وفي عهده أصبحت للزعماء الروحيين الكاثوليك

(٧٦) بارتينسكي، «تاريخ الحبشة»، ص ١٥٨.

(٧٧) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 389 et F. Danvers. op. cit. p. 450.

(٧٨) F. Danvers. op. cit. pp. 450 - 451.

مكانة مهمة في حياة أثيوبيا الاجتماعية والسياسية فحوّلوها إلى مركز أساسي للسياسة البرتغالية في الشرق [٧٩].

أدّت إعادة بناء الدولة الأثيوبية كحليف قوي للبرتغال يتمتع بكفاءة قتالية عالية إلى تغيير الموقف في المنطقة. فأخذ وضع المسلمين يتدهور تدريجياً بعد الهزائم المتتالية التي مُني بها الأسطول العثماني الذي فشل في إضعاف قوة البرتغال البحرية. كما أن الهزائم التي مُني بها بيري رئيس (١٥٥٢) ومراد باشا (١٥٥٣) وسيدي علي (١٥٥٤)، لم تُبقِ على أي أمل بتحقيق الأهداف التي ارتبطت بتشكيل أميرالية البحر الأحمر عام ١٥٤٧. وأحسّ البرتغاليون بثقة متزايدة بقوتهم، وأصبحوا في الواقع سادة البحار الجنوبية لا ينازعهم في ذلك أحد. ولم تعد مواجهتهم ممكنة إلاّ عبر هجمات القراصنة على بعض السفن البرتغاليين المنفردة. فلم يعد العثمانيون في وضع يتيح لهم حماية شواطىء شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر.

أصبحت الدول الاسلامية في السودان والقرن الأفريقي أمام خطر حقيقي يهدد باحتمال تعرضها للغزو الأثيوبي ـ البرتغالي، سيما وان تلك الدول لم تكن فعلاً تملك وسائل الدفاع المناسبة.

في تلك الظروف قرر الباب العالي احتلال السودان عسكرياً، معللاً ذلك أن بسْط سيطرته القوية على المنطقة من الداخل يضمن أمن البلدان الإسلامية ويقضي على آمال البرتغاليين بالتمركز في تلك المناطق أبعد من الخط الساحلي. واعتبر الباب العالي أن مرابطة وحدات عسكرية عثمانية قوية في السودان ستؤدي إلى حماية الأفارقة من أي اجتياح أثيوبي. وأعدّ الخطة بكلربك اليمن السابق أوزدمير باشا الذي كان على معرفة جيدة بالوضع في أفريقيا. وفي عام ١٥٥٥، صادق سليمان العظيم على اقتراحاته وعينه بكلربك على ولاية الحبشة المنشأة حديثاً.

بادر اوزدمير باشا بعد تعيينه إلى تشكيل جيش في مصر قوامه ثلاثون ألف رجل من المماليك [٨٠] والصقالبة البوسناك إلى جانب بعض الوحدات العسكرية القادمة من بلاد الروم أي مقاطعات البلقان والمقاطعات الآسيوية التابعة للباب العالي. وفي عام ١٥٥٦، انطلقت تلك القوات في حملة عسكرية بمحاذاة نهر النيل صعوداً. ودون أن يصطدم أوزدمير باشا بأي صعوبات تُذكر احتل السودان وسيطر على كل مناطق النوبة السفلى. وتابع قسم من قواته تحركه نحو سواكن. غير أن العقبات التي واجهت قواته عند عبورها لصحراء النوبةأرغمته على تغيير خط سيره، فعاد مع فصائل جيشه الأساسية إلى مصر. وفي العام التالي انطلق إلى سواكن واحتلها، ومن هناك تحركت

(٧٩) رايت «أثيوبيا...»، ص ٢٤٩.

(٨٠) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 363.

قواته نحو الجنوب واحتلت مصوّع وزيلع بمساعدة الأسطول العثماني كما احتل جميع سواحل البحر الأحمر الأفريقية. وفي عام ١٥٥٧، تمكن اوزديمير باشا من تحقيق خطته بسهولة نسبية وبسط سلطة الباب العالي على الجزء الشمالي الشرقي من أفريقيا (٨١).

اختار اوزديمير باشا مدينة مصوّع عاصمة للولاية الجديدة وحوّلها إلى رأس جسر قوي انطلقت منه «حرب الجهاد المقدس». وساء وضع المسيحيين إلى درجة كبيرة. فبعد أن ثبّت العثمانيون سلطتهم على شواطىء مضيق باب المندب من الجانبين اغلقوه في وجه السفن البرتغالية. لذلك يرد آخر ذكر لهجوم برتغالي على سواكن والسويس (٨٢) في عام ١٥٥٦. وفي أثيوبيا تغيرت الصورة كذلك. فانتقل المسلمون من جديد إلى الهجوم بمساعدة العثمانيين. واستأنفت القوات البجاهية ـ العربية التابعة للأمراء الحضاربة وربما بمشاركة قوات الفونج هجماتها على تيغري وغيرها من مناطق أثيوبيا الشمالية. وفي عضل أقام اوزديمير باشا اتصالاً مع نور الدين بن مجاهد ابن شقيق أحمد غران وخليفته الذي تزعم الحرب ضد المسيحيين الأثيوبيين بعد وفاة عمه. وقام العثمانيون بمساعدتـه للقيـام بهجمات عديدة على مناطق البلاد الداخلية خلال عامي ١٥٥٨ و ١٥٥٩، فبسطوا سيطرتهم على كل الأراضي الممتدة من مصوّع إلى ديباروع، أي على أريتريا الشمالية بكاملها (٨٣). وفي ٢٣ آذار (مارس) ١٥٥٩، سحقت قوات نور الدين جيش النجاشي. وقتل النجاشي كلاوديوس نفسه في المعركة ووضع رأسه بأمر من نور الدين على عمود خشبي فوق بوابة مدينة هرر (٨٤). استنزفت هذه الحرب المتواصلة التي دامت ثلاثين عاماً قوى الأطراف المتحاربة ودمرت غالبية المناطق المسيحية والإسلامية في أثيوبيا على حد سواء. وفي منتصف القرن السادس عشر تعرضت تلك المناطق أيضاً لغزوات قبائل هالة، عمّ الخراب الاقتصادي البلاد بأسرها، وأصبحت بعض المناطق على شفير الهلاك جوعاً. تلك الظروف جعلت مواصلة الحرب أمراً يكاد يكون مستحيلاً. فوافق الطرفان عام ١٥٥٩ على عقد معاهدة سلام. كتب أ. بارتنيسكي: هكذا اكتملت في عام ١٥٥٩ ثلاثون سنة من الحرب دون أن تُسفر عن أي تغيير أساسي في ميزان القوى بين العدوّين. واستمرت سلطنة هرر تمارس الحكم على الجزء الشرقي من أثيوبيا الجبلية. وظلت الأمبراطورية الأثيوبية تبسط سلطتها على الجزء الغربي من المناطق الجبلية حتى عام ١٨٨٧...» (٨٥). أما أريتريا والسودان فخضعا نهائياً لسلطة المسلمين ولم يبق فيها أي أثر لسلطة الدويلات المسيحية التي كانت قائمة هناك في يوم من الأيام، باستثناء الأطلال والقبور المتناثرة.

(٨١) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 363 et Holt «A Modern History of Sudan». pp. 24 - 25.

(٨٢) F. Danvers. op. cit. p. 507.

(٨٣) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 363 et Holt. op. cit. p. 25.

(٨٤) بارتينسكي «تاريخ أثيوبيا»، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٨٥) بارتينسكي «تاريخ أثيوبيا...»، ص ١٦٠.

ألحقت أكثرية المناطق الإسلامية في شمال شرق أفريقيا بولاية الحبشة. وفي القرن السادس عشر كانت السناجق الأساسية في تلك الولاية هي: إبريم وسواكن واركيكو ومصوّع وزيلع، وضمت النوبة السفلى وكل الأراضي الواقعة على شواطىء البحر الأحمر، من حدود مصر حتى خليج عدن، أي مناطق بلدان البحر الأحمر الحديثة وهي: السودان واريتريا وجيبوتي ومنطقة زيلع في جمهورية الصومال الحالية [٨٦] عسكرياً وإدارياً بولاية الحبشة كذلك قلعة جدة على ساحل الحجاز، إذ كان بكلربك الحبشة يتخذ منها أحياناً مقراً لإقامته. وطبق العثمانيون في البلاد قوانين الشريعة الاسلامية والإدارة الحازمة مع تجاهل نظام الإقطاعية الصغيرة أو نظام الزعامات [٨٧]. وتمركزت السلطة في المناطق بأيدي المماليك العثمانيين على غرار النظام المطبق في مصر، حيث تم الاعتماد على الحاميات العثمانية المرابطة في أهم المراكز والمدن والقلاع التي أعيد بناؤها. أما مهمة حراسة الأرياف وطرق القوافل فقد أوكلت إلى التشكيلات العسكرية للقبائل البجاهية والعربية التي احتفظت بأنظمتها العشائرية القبلية وتمتعت باستقلال داخلي ذاتي. وعلى غرار حماة القلاع والانكشارية، كانت تلك القبائل معفاة من الضرائب وغيرها من الفرائض الإلزامية التي لا علاقة لها بالخدمة العسكرية.

لم تَلحق عضل وفونجستان والنوبة العليا بولاية الحبشة بل احتفظت بحكمها الذاتي كمناطق تابعة للباب العالي مباشرة. وتعاون سلاطين الفونج نايل (١٥٣٤ - ١٥٥١)، وعبد القادر الأول (١٥٥١ - ١٥٥٨) وعمارة الثاني الذي حمل لقب «أبو سكاكين (١٥٥٨ - ١٥٦٩) بإخلاص مع العثمانيين. فقد طبق السلاطين، الشريعة الاسلامية و «عَثْمنوا» النوبة الجنوبية تدريجياً. وفي عهد عمارة الثاني «أبو سكاكين» أي بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً في أثيوبيا مباشرة، قام الشيخ إبراهيم البولاد بنشر «علم الفقه» في كل أرجاء شبه الجزيرة العربية [٨٨]. واتخذ ديكين (١٥٦٩ - ١٥٨٦) خطوة أكبر على طريق العثمنة. فعلى خطى العثمانيين أعاد تنظيم حكم البلاد كلياً وأدخل «القانون الموحد القائم على أساس الشريعة» إلى فونجستان [٨٩].

ورد في «المحفوظات التاريخية الفونجية» ان «ديكين كان واحداً من أعظم سلاطين الفونج. فقد أعاد تنظيم حكم البلاد على أفضل ما يكون، ووضع قوانين صارمة لم يتجرأ أحد في دولة الفونج على انتهاكها؛ كما انه عيّن لكل منطقة في دولته حاكماً» [٩٠].

---

(٨٦) Habesh T. Isiksal. - «The Encyclopedia of Islam» New Edition. Vol. III. Sans date. p. 11.

(٨٧) تفيرتينوفا «البناء الزراعي في السلطنة العثمانية...»، موسكو ١٩٦٣، ص ٩٢.

(٨٨) J. Trimingham. op. cit. pp. 115 - 116.-

(٨٩) سميرنوف، المرجع السابق، ص ١٠.

(٩٠) W. Adams. op. cit. p. 601.

أما النوبة العليا فظلت تحت حكم عبدالله الجمّاع حتى حملة أوزديمير باشا. واستناداً إلى أحد المصادر غير المؤكدة توفي عبدالله الجمّاع في عهد عمارة الثاني «أبو سكاكين»، أي في أواخر خمسينات القرن السادس عشر [٩١]، وخلفه العجيب عبدالله أو العجيب العظيم الذي تغيرت العلاقات مع العثمانيين والفونج في عهده تغيُّراً جوهرياً. خلافاً للفونج، رفض العجيب العظيم عثمنة المناطق التابعة له معتبراً أن النظم العثمانية لا تناسب البدو الذين عارضوا الحد من حريتهم واستقلالهم وامتيازاتهم. وكان ذلك على ما يبدو سبب تدهور العلاقات مع الخلفاء السابقين.

بدأ الصدام منذ حملة أوزديمير باشا الأولى. ففي عام ١٥٥٦، قام العجيب بتصفية الإمارات البدوية التي كانت شبه مستقلة في النوبة السفلى والتي كانت تقيم علاقات وثيقة مع العبد اللاويين، أو على الأقل مع بعض القبائل عبد اللاوية. ثمة معطيات تقول إن عدداً كبيراً من تلك الإمارات شاركت في الحرب ضد العثمانيين لتساعد شقيقاتها في الشمال، فأخذت تعمل بكل الوسائل لعرقلة تقدم القوات العثمانية وتهاجم الوحدات العسكرية المنعزلة التابعة لاوزديمير باشا. يقول سبولدينغ استناداً إلى روايات غير مسندة جمعها بوركهاردت، إن عبد اللاويين حاولوا بسط نفوذهم على النوبة السفلى بأسرها [٩٢]. وفي هذا الإطار تشكّل في مدينتي دُنقل وقِرّي «حزبان»: أحدهما أيّد العثمانيين والآخر ناصبهم العداء. وفي النهاية انتصر أعداء التعاون الوثيق مع الباب العالي، فطلب الجناح الموالي للعثمانيين عند ذلك مساعدة السلطات العثمانية. وفي عام ١٥٧٦، تحركت القوات العثمانية على متن عدد كبير من الزوارق في النيل صعوداً. لكن العجيب عبدالله تمكن في معركة نشبت قرب خنّيق (قرب جزيرة عرقو) من تحاشي الهزيمة رغم أن العثمانيين استخدموا المدفعية التي لم يكن يملك مثلها البدو [٩٣]. وفي تلك الفترة (ربما في عام ١٥٨٠ أو قبل ذلك) يقول بول: شن العجيب عبدالله هجوماً على سواكن فسحق الوحدات العسكرية البجاهية ودخل المدينة [٩٤]. وفي الجنوب تورط سلاطين سنّار الفونجيون في الحرب الداخلية. وفي عهد ديكين قامت علاقات متوترة بين عبد اللاويين وإدارة الفونج الحسنة التنظيم ثم ازداد التوتر وتحول إلى صراع مسلح علني، فهُزم ديكين واضطر للتراجع أمام العجيب وللانسحاب من عدة مناطق والاعتراف بالحكم الذاتي لقبائل الجزيرة التي خرجت من دائرة حكم الفونج، وبدأت تدفع الضرائب لحاكم قرّي العبد اللاوي [٩٥]. وفي شمال دنقل توقفت العمليات العسكرية أيضاً ربما نتيجة لوساطة الدراويش المتعبدين. وفي

(٩١) R. O'Fahey. op. cit. p. 191.
(٩٢) R. O'Fahey. op. cit. p. 152.
(٩٣) Ibid. 35 - 37.
(٩٤) A. Paul. op. cit. p. 77.
(٩٥) R. O'Fahey. op. cit. pp. 37 et 39.

مكان المعركة قرب خنّيق تم بناء قُبّة (ضريح الولي) أصبحت فيما بعد اشارة إلى خط الحدود العبدلاوية ـ العثمانية الذي ظل محترماً حتى عام ١٨٢١ (٩٦).

ورغم مواقف أطراف النزاع الداخلية ومعارضة البدو، دخل السودان في دائرة النفوذ العثماني بشكل عام. واتسعت عمليات تعريب البلاد وأسلمتها. فأدى انضواء السودان تحت لواء سلطة الباب العالي إلى تقوية علاقاته مع مصر والساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية. وازدادت مكانة العرب وأهمية اللغة العربية. كتب آدامز أن الآثار الكثيرة للكتابات العربية العائدة للقرن السادس عشر التي عُثر عليها في ابريم تظهر المستوى الرفيع للثقافة العربية (٩٧). واتسعت الأعمال الزراعية ونشطت الحياة في المدن، وأعيد بناء عدد كبير من القلاع والمناطق السكنية؛ وانتشرت أعمال بناء الأضرحة والزوايا والمساجد. وأخيراً انتقال مرافيء البحر الأحمر إلى سلطة العثمانيين وتطبيق نظامهم في البلاد ولو بصورة شكلية إلى إحياء جُزئي لطرق التجارة الدولية القديمة التي كانت تمر عبر أراضي السودان ومصر (٩٨). وتحولت سواكن من جديد إلى أهم مراكز الترانزيت التجاري، فأخذت تؤمها القوافل المحملة بالذهب والعاج من أثيوبيا وفونجستان. والأهم من ذلك كله أن بدأت ترتادها السفن التجارية العربية بعد المجازفة في الالتفاف حول المخافر البرتغالية، ناقلة إلى سواكن كميات كبيرة من المستحضرات الطبية والأدوية والعطور والتوابل، حيث كانت تلك البضائع تباع بصورة غير شرعية في كامبيا وبيغو وملقا (٩٩). ثم إن العرب أخذوا يدفعون أثماناً باهظة ليحصلوا مقابل ذلك على أفضل أصناف البضائع قبل أن تصل إلى أيدي البرتغاليين.

ثمة من يرجّح أن البرتغال تكبدت هزيمة في حرب التوابل في أواسط القرن السادس عشر. فرغم هزائم الأسطول العثماني، فإن فتح العثمانيين لليمن ثم احتلالهم لسواحل البحر الأحمر الأفريقية أنزلا ضربة قاسية بمحاولات العرش البرتغالي لاحتكار التجارة الشرقية الهندية. وفي هذا الإطار شكلت حملة أوزديمير باشا انتصاراً للمسلمين في الحرب من أجل كنوز الشرق الأقصى المدهشة. وقد أبرز فرنان بروديل آلاف الوثائق التي تثبت على نحو قاطع ان طريق التوابل القديمة عادت إلى كامل نشاطها في فترة ١٥٥٠ ـ ١٥٧٠ (١٠٠). وبدأت أوروبا الغربية بأسرها، باستثناء اسبانيا والبرتغال ومقاطعات فرنسا الأطلسية، من جديد تتموّن بالبهارات من بلدان الشرق العربي. ومع انخفاض ضئيل في كميات التوابل المشتراة من حلب وطرابزون، بدأت كميات كافية

---

(٩٦) Ibid. p. 35.
(٩٧) W. Adams. op. cit. p. 573.
(٩٨) S. Shaw. op. cit. p. 107.
(٩٩) A. Paul. op. cit. p. 92.
(١٠٠) Fernand Braudel. «La Méditerranée et le monde méditerranéen au temps de Philippe II» Paris 1949, pp. 423 - 426.

ترد عبر مرافىء البحر الأحمر. ويرى بروديل أنه عبر البحر الأحمر كانت ترد كميات من البهارات والتوابل تزيد بكثير ما كانت عليه في أي وقت مضى [(١٠١)]. فأصبحت السلطات البرتغالية في قلق عميق، إذ كانت تخشى الا تتمكن من شراء ما يكفيها من البهارات، ويرى بروديل أيضاً ان الوضع كان أشبه بثورة اقتصادية [(١٠٢)].

في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٥٥٤ - ١٥٦٤ كانت تُشحن إلى أوروبا عبر سواكن وجدة وغيرهما من مرافىء البحر الأحمر كميات يتراوح وزنها ما بين ٢٠ إلى ٤٠ ألف سنتيار (السنتيار يساوي مائة كلغ) من التوابل كل عام. ففي عام ١٥٥٤، ابتاع أهل البندقية وحدهم في الاسكندرية قرابة ستة آلاف سنتيار. وخلال أعوام ١٥٦٠ - ١٥٦٤، أي بعد حملة أوزدمير باشا مباشرة، ارتفع الرقم المذكور إلى ١٢ ألف سنتيار كل عام فقارب المستوى الذي كان عليه قبل حملة فاسكو دي غاما [(١٠٣)]. لكن البرتغاليين في سبعينات القرن السادس عشر تمكنوا من تحسين وضعهم إلى حد ما للانتقام في حرب «الملايين الذهبية» كما كانت تسمى آنذاك بضائع الشرق الهندية. وإلى أن استولت هولندا على المحيط الهندي حوالى عام ١٦٢٥، ظل العثمانيون يحتفظون بدورهم الأول في التجارة بين أوروبا والشرق الأقصى مزودين الغرب بكميات كبيرة من التوابل والمخدرات والبلسم.

توفي مؤسس ولاية الحبشة ومقاطعات البحر الأحمر أوزدمير باشا، في ديباروع عام ١٥٥٩. وبعد عشر سنوات نقلت رُفاته إلى مصوّع حيث أقام له ابنه عثمان باشا بكلربك اليمن في ١٥٦٨ - ١٥٦٩ مسجداً عظيماً مع ضريح وُضعت فيه رفات الغازي العظيم الذي دافع عن الاسلام ضد أخطار الغزو البرتغالي.

وتابع خلفاء اوزدمير باشا سياسة المواجهة مع الأثيوبيين لكن المحاولات التي بذلها العثمانيون خلال عامي ١٥٦١ - ١٥٦٢ بمساعدة الزعيم الأثيوبي المتمرد باهر النجاشي اسحق للتمركز في تيجري وتدعيم مواقعهم فيها باءت بالفشل. وفي ٢٠ نيسان (أبريل) ١٥٦٢ تمكنت قوات النجاشي الأثيوبي ميناس (١٥٥٩ - ١٥٦٣) من إلحاق الهزيمة بالعثمانيين وحليفهم باهر نجاشي اسحق [(١٠٤)] كما أن الحرب العثمانية الأثيوبية الجديدة التي استمرت من ١٥٧٢ حتى ١٥٨٩، رغم طول أمدها وعنفها، لم تؤد أيضاً إلى أي تغيير يذكر في وضع الطرفين الإقليمي

(١٠١) F. Braudel. op. cit. p. 429.
(١٠٢) Ibid. p. 430.
(١٠٣) Ibid. p. 428.
(١٠٤) بارتينسكي «تاريخ أثيوبيا...»، ص ١٦٧.

والاستراتيجي [١٠٥]. فأدت معاهدة السلام الموقعة عام ١٥٨٩ إلى تثبيت الحدود التي قامت عام ١٥٥٩. وقامت علاقات سلام أيضاً بين أثيوبيا وفونجستان التي كانت في عهد ديكين (٢٥٦٩ - ١٥٨٦) قد أوقفت العمليات الحربية ضد النجاشي [١٠٦].

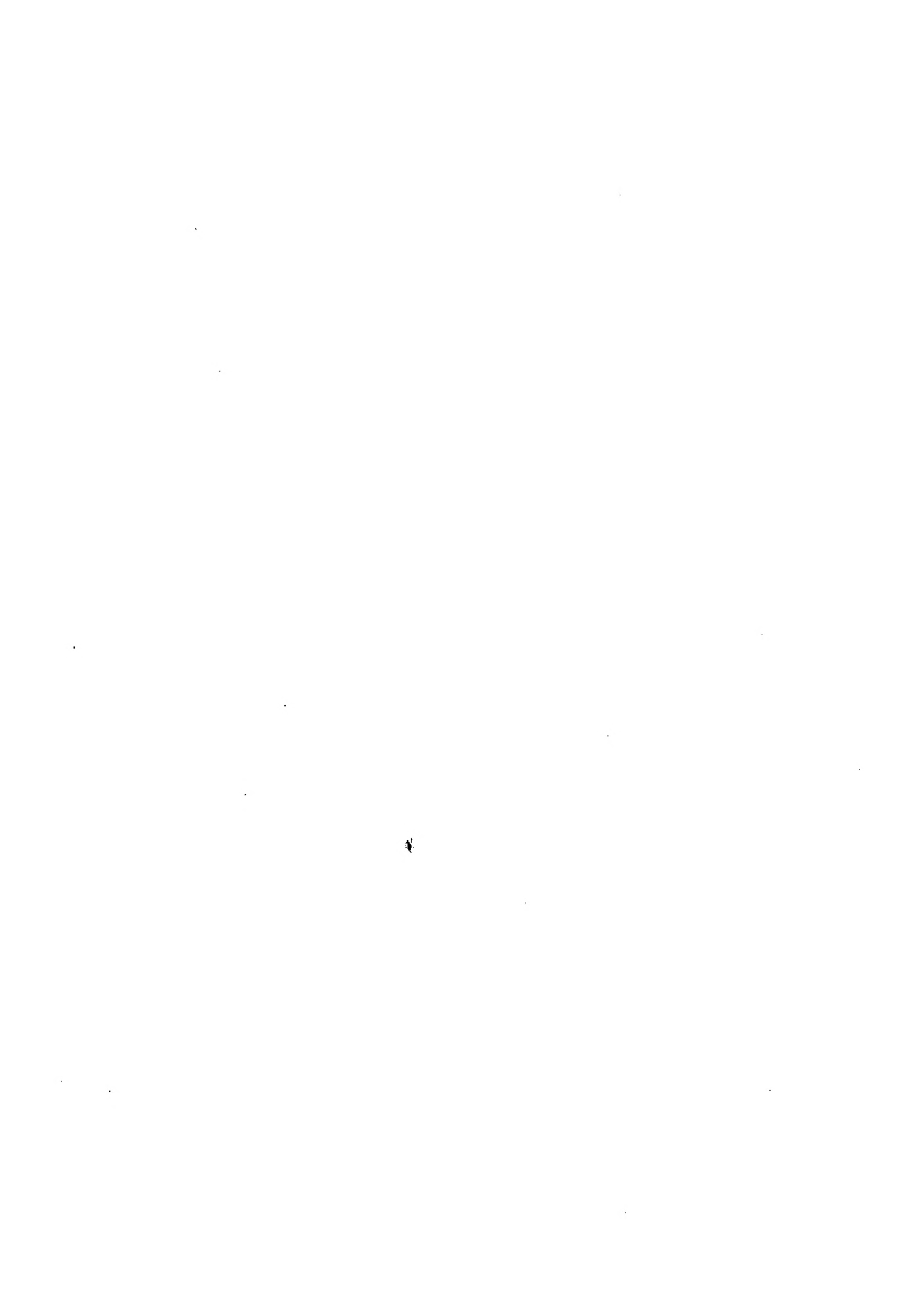
في الواقع، انتهت بالمدنة أيضاً المرحلة الأخيرة من الحرب العثمانية البرتغالية في البحر. إذ تمكن العثمانيون من صدّ بضع هجمات صغيرة نسبياً قام بها الأسطول البرتغالي على أركيكو بشكل خاص. ولم يتمكن العثمانيون بدورهم من إحراز النصر رغم هجماتهم في البحار الجنوبية عند انضمام البرتغاليين إلى مقاطعات العرش الاسباني في عام ١٥٨٠. كما لم يؤد إلى أي نتيجة تذكر هجومهم على مسقط (١٥٨١) والمحطات التجارية البرتغالية على الشاطىء الشرقي لأفريقيا. فجاءت نتائج الانتصارات التي حققها العثمانيون لبسط سيادة الباب العالي على مومباسا عام ١٥٨٥ تثبت هشاشتها [١٠٧]. ففي عام ١٥٨٩، هزم البرتغاليون الأسطول العثماني وأعادوا بسط سيطرتهم على مومباسا وأرغموا الباب العالي على الاعتراف بالوضع الناشىء. هكذا خرج العثمانيون من حرب المحيط الهندي عام ١٥٨٩ واكتفوا بفتح السودان وشواطىء البحر الأحمر الأفريقية.

---

(١٠٥) المرجع ذاته، ص ص ١٧٣ - ١٧٥. Et S. Longrigg. op. cit. pp. 52-62.

(١٠٦) A. Arkel. op. cit. p. 210.

(١٠٧) H. Inalcik «The Ottoman...», p. 44.



أسبانيا والفتح العثماني لتونس

اتخذ الصراع تحت راية الصليب والهلال في البحر الأبيض المتوسط طابعاً لا يقل حدة عما كان عليه في الشرق. فمنذ القرن السادس عشر تركز الصراع بشكل أساسي في مثلث تونس ـ مالطا ـ طرابلس الغرب، واكتسبت السيطرة على ذلك المثلث أهمية حاسمة بالنسبة إلى نتائج المواجهة بين القوى المتصارعة. فأمبراطورية آل هابسبورغ ذات التقاليد الفروسية كانت تطمح إلى تثبيت أقدامها في تلك المنطقة لضمان أمن شواطئها ومواصلاتها البحرية، في حين كان العثمانيون يعملون على تحقيق انتصاراتهم بهدف حماية مواقعهم في أفريقيا الشمالية وتهديد أكثر بلدان العالم الكاثوليكي تطوراً وديناميكية وهي: إيطاليا وإسبانيا اللتين شكلتا قاعدة لـجبروت الغرب المتنامي في عصر النهضة.

في أواخر القرن الخامس عشر ومطالع السادس عشر كانت تونس وطرابلس الغرب جزءاً من دولة الحفصيين القوية في تلك الحقبة. فالحفصيون، بصفتهم خلفاء للموحدين احتفظوا بتقاليد المدافعين الأشداء عن الإسلام، والتزموا بقواعد بسيطة للاحتفالات الرسمية، وخلعوا على أنفسهم أعظم ألقاب الخلفاء وأمراء المؤمنين، واهتموا بشيوخ الموحدين وغيرهم من دعاة التوحيد المتحمسين. لكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بقدرة أسلافهم الجبارة ونشاطهم الديناميكي. ومع ذلك فقوة الاستمرارية الذاتية عندهم إلى جانب التقاليد الموروثة صقلا قدراتهم. ويلاحظ أنه قبيل أفول القرن الخامس عشر عمَّ الفساد الدولة الحفصية بأسرها. وبعد وفاة السلطان عثمان

(١٤٣٥ - ١٤٨٨)، آخر سلاطين تونس الكبار، انهارت دولة الحفصيين فباتت كمارد على ساقين من طين.

يبدو لأول وهلة أن خيطاً رفيعاً يفصل بين عظمة الحفصيين وانهيارهم! لكن مصير الدولة الحفصية تحدد من خلال مجمل مسار الأحداث والتطورات. فالنظام الاجتماعي والسياسي الموروث عن الموحدين وضع النهاية لنفسه وبنفسه. فالجمود الفكري، وهجر القرى، واستبداد البدو وتمردهم، تقدّم صورة كاملة عن التفسّخ العام. وفي نهاية القرن الخامس عشر بلغت افريقيا مرحلة متقدمة في التقهقر بعد عهد قبائل بني هلال [١]. فمنذ منتصف القرن الحادي عشر، انخفض عدد سكان افريقيا إلى الثلثين وفقاً لتقديرات المؤرخ التونسي المعاصر الطالبي، واندثرت أطلال المدن والقرى التي ذكرها الرحالة في مطلع القرن الرابع عشر. وفي تلك المرحلة أيضاً، تفوق البدو الرحّل على الحضر من حيث العدد [٢] وزالت معالم الحياة الزراعية إلاّ في جوار المدن الساحلية والقرى الجبلية الكبيرة، وتحولت السهول إلى بقاع مهجورة غطتها غابات الأشجار البرية الكثيفة والأعشاب الضارة، وتحولت افريقيا القديمة إلى قفر هائل لا يسكنه إلاّ البدو والوحوش الضارية.. ففي عام ١٥٧٣، قام دون خوان النمساوي باصطياد الثيران البرية في ضواحي قرطاجة وظهرت الأسود في جوار المنازل السكنية.

ويروي حسن الوزان الزياتي (١٤٨٩ - ١٥٥٤) حوادث طريفة عن النسوة التونسيات اللواتي كن يهرعن للاحتماء من هجمات الوحوش الكاسرة.

تحولت المدن التي شهدت ذات يوم حضارات قديمة إلى الانحطاط. ففي مدينة سوسة مثلاً كانت أربعة أخماس المنازل متصدعة أو شبه مهدّمة عام ١٥٢٦. وكان المواطنون يحمون أنفسهم بأنفسهم فيقيمون منشآت دفاعية غاية في البساطة، كجدران القرميد وسدود الطين أو يبنون حواجز عالية من الحجارة. واتقاء لهجمات البدو، كان سكان المدن يفتدون أنفسهم بدفع مبالغ مالية طائلة إلى مشايخ القبائل لقاء موافقتهم على حمايتهم (بدل الخفارة). كان الحضر يكرهون البدو ولا يحجمون عن إيقاع أي عقاب بهم، كما كان الحضر يعتبرون البدو خارج الإسلام ويسمون مقاتلتهم جهاداً. وفي القرن الخامس عشر أصدر الفقهاء التونسيون عدداً من الفتاوى أدانوا فيها هؤلاء المحرضين على الاضطراب والفساد، والخطرين على المجتمع الإسلامي؛ ومنعوا بيع السلاح ومختلف الأعتدة العسكرية لهم؛ وأوصوا بعدم ابتياع مسروقاتهم [٣].

(١) Xavier de Planhol. «Les fondements géographiques de l'Histoire de l'Islam». Paris 1968, p. 162.

(٢) T. Bachrouch. op. cit. pp. 27 - 28.

(٣) Robert Brunschwig. «La Berbérie orientale sous les Hafsides. Des origines à la fin du XV ème siècle», Paris 1947. T. 2. p. 160.

اعتبر البدو أنفسهم أصحاب تونس الحقيقيين، وكانت في أيديهم السيطرة والأملاك، كما كانوا يتقاضون الإعانات الحكومية وما يفرضونه على المواطنين. وكل محاولة لحرمانهم من تلك المداخيل كانت تثير الاضطرابات التي تتخذ أحياناً شكل أعمال النهب والانتفاضات. أما خضوع القبائل فيتوقف كلياً على مهارة السلطات وقدرتها على المناورة والاحتفاظ بعلاقات الود والصداقة مع زعماء أقوى العشائر البدوية[٤]. وكان البدو الرحل يتدخلون باستمرار في شؤون الدولة الداخلية ويُقبلون فوراً على مؤازرة كل من يطالب بالعرش إذا دفع لهم الإعانات الماليّة وثبّت لهم حقوقهم وامتيازاتهم السابقة.

بعد وفاة السلطان عثمان تعاقب على عرش الحفصيين خلال ست سنوات أربعة سلاطين: أبو زكريا يحيي الثالث (١٤٨٨ - ١٤٩٠)، عبد المؤمن (١٤٩٠)، أبو يحيي زكريا الثاني (١٤٩٠ - ١٤٩٤) وأخيراً ابن شقيق الأخير أبو عبدالله محمد الخامس (١٤٩٤ - ١٥٢٦). فانتهت محاولات هذا السلطان الضعيف، عاشق الملذات[٥] للتخلص من وصاية البدو إلى كارثة حقيقية. ففي معركة قرب القيروان ألحق البدو والرحل هزيمة ساحقة بأبي عبدالله محمد الخامس، وبالكاد تمكن السلطان من النجاة بحياته والعودة إلى العاصمة مجللاً بالعار لا يرافقه إلاّ ثمانية من الفرسان[٦].

انتهت معركة ضاحية القيروان بتشتيت القوى المركزية. فتحللت الدولة في الواقع إلى مناطق إقطاعية متفرقة وأصبح المشايخ ولد مسكين، وولد أبي الليل، وولد يحيي، وولد عون، وولد سعيد أسياداً في قومهم لا يخضعون لأحد، أو في أفضل الحالات أتباعاً للسلطان ومتمردين عليه في الوقت نفسه. ولم يعد أتباع الدولة الحفصية في قسنطينة وبجاية وعنابة، ومعظم أبناء الأسر الحاكمة يقرّون بإلزامية خضوعهم للسلطات المركزية. وفي بعض المدن، لا سيما في الجريد والساحل ذرّت الخيانة قرنها، وأصبحت سلطة القادة التابعين للسلطان لا تتعدّى عملياً نفوذ الأعيان المحليين المرتبطين بأعيان المدن القوية وشيوخ قبائل البدو الرحل. وبسرعة مذهلة تنامى الدور الأساسي للمرابطين، وأصبحت مدن قصور الصيف والقيروان عواصم مميزة للسلالات الصوفية التي أسسها سيدي علي المحجوب وسيدي أحمد بن مخلوف الشابّي[٧]. وكان هذان المرابطان يتمتعان بنفوذ هائل، لا سيما في أوساط قبائل البدو الرحل. فأسّسا بمساعدتها دولة حقيقية ضمن الدولة. فقد كان حلف اليمين يتم أمامهما ويتقلدان زمام القضاء ويجمعان الزكاة وما إلى ذلك..

---

(٤) ن. ايفانوف. «القبائل الحرة المترحلة في شمالي أفريقيا في القرن الرابع عشر». صفحات ١٥٢ - ١٩٢.

(٥) R. Brunschwig. op. cit. T. I. p. 280.

(٦) ابن أبو ضياف. «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان». المجلد الأول، تونس ١٩٦٣، ص ١٩٠.

(٧) R. Brunschwig. op. cit. T. 2. pp. 394 et 441.

بعد وفاة السلطان عثمان رفض سكان جزيرة جربة عموماً الاعتراف بسيادة الحفصيين [٨] وشكلوا جمهورية مستقلة. وحذت مدينة طرابلس الغرب حذوهم، فتخلص سكانها من الحفصيين والتحقوا بسلطة المرابط المحلي. ثم نشبت انتفاضة علنية بقيادة حاكم تاجورا محمد بن طلّيس، الذي أسس دولة مستقلة في الصحراء. ووصلت إلى القاهرة أنباء عن معركة سفكت فيها دماء كثيرة نشبت في شهر كانون الثاني (يناير)، بين القوات الحفصية وقوات الانتفاضة. وذكر ابن أياس أن أربعين ألفاً قتلوا في تلك المعركة [٩].

لم يكن أبو عبدالله محمد الخامس يملك قوات أو إمكانات كافية لإقرار النظام والأمن في دولته. وكانت الوحدات الأساسية في قواته هي الفصائل المسلحة ذاتها التابعة للإقطاعيين. أما جند الموحدين القديم فتفسّخ وفقد أهميته العسكرية، وحلّ محله جيش محترف صغير العدد تشكّل من الجنود المرتزقة الايطاليين والأندلسيين والعبيد السود أو العبيد الأفريقيين المعتقين، والمرتزقة الشرقيين [١٠]. وعند ظهور أي خطر خارجي كانت تلتحق بهذا الجيش الفصائل المسلحة التابعة للقبائل البدوية وسكان المدن. وكانت تحمي السلطان نفسه فرقة حرس اسباني بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ رجل.

لم يكن تجهيز القوات المسلحة وإعدادها على مستوى متطلبات العصر. كما لم يكن يحمل أسلحة نارية إلاّ المرتزقة الأجانب وأعيان البدو وحدهم. أما القوات الأساسية فلم تكن مسلحة إلاّ بالحراب والأقواس. كما أن المنشآت في القلاع البحرية كانت تفتقر إلى الكثير من ضروريات الدفاع. فأسوار مدينة تونس مثلاً لم تكن مدعمة بأي خنادق أو حواجز، في حين كان أسطول الحفصيين ومدفعيتهم في حالة يرثى لها، فعدد المدافع قليل وهي من النوع القديم الذي يُجهَّز ويعبَّأ باليد. ثم إن قلعة العاصمة تملك ثمانية مدافع صغيرة فقط لم تكن مجهزة بعربات أو عجلات لجرها أو نقلها [١١].

أصبح الجيش الحفصي الذي كان يعتبر أحد أفضل جيوش أفريقيا الشمالية، غير ذي فائدة لمقاتلة أي عدو قوي. ولم يتمكن الأسطول التونسي من مجابهة سفن اسبانيا والدول الايطالية إذ كان عاجزاً حتى عن القتال ضد القراصنة الأوروبيين الذين لم يتوقفوا عن تدمير شواطىء المغرب الشرقية. وفي عام ١٥١٠، استولى الكونت دون بيدرو دي نافارو دون صعوبة على مدن الجزائر

(٨) «La historia dell impresa di Tripoli di Barbaria fatta per ordine del sereniss, re catolico», Venetia, 1566. p. 1.

(٩) ابن أياس «بدائع الزهور...»، المجلد الخامس، ص ٣٣١.

(١٠) H. Djaït et autres, op. cit. p. 372.

(١١) T. Bachrouch. op. cit. p. 127.

وبجايه وطرابلس الغرب وهاجم جزيرة جربه، ولم يُقدم أبو عبدالله محمد الخامس على أي عمل لاستعادة المدن المفقودة، بل جاءت المقاومة الوحيدة من جانب سكان المدن وفلاحي القرى المجاورة. وفي هذا الإطار أيضاً لم تفعل السلطات الحفصية شيئاً لتنظيمهم وتسليحهم. وعند محاصرة بجاية، أمر الحاكم الحفصي بإخلاء المدينة من سكانها بحجة تلافي الفوضى والهياج والخسائر التي لا جدوى منها [١٢]. أما الحامية التي أبقاها في المدينة فلم تبدِ إلاّ مقاومة صورية [١٣]. وهرعت فصائل مسلحة كثيرة العدد من الفلاحين لنجدة الحامية، فلم يتمكنوا من مجابهة هجوم الأوروبيين إلاّ لفترة وجيزة. وقد ذكر أحد المؤرخين الجزائريين ان الوسائل غير المنظمة ودون المستوى المطلوب لم تتمكن من عرقلة الإقتحام الأخير واحتلال المدينة في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٥١٠ [١٤]. وهرب الأمير الحفصي الذي كان يحكم المدينة إلى قسنطينة بعد أن كلّف زعماء القبائل المحليين بمهمة الدفاع.

كانت محاربة الأوروبيين في بجايه ثم في طرابلس الغرب بداية لحركة شعبية واسعة ضد المحتلين الأجانب والإقطاعيين المحليين. لكن الأسرة المالكة والطبقة الحاكمة لم تشاركا في محاربة الأوروبيين، فكانت الحركة الشعبية في تلك الظروف القوة الوحيدة القادرة على إنقاذ تونس. كتب محمود بو علي إن الإنتفاضات الشعبية الجيدة التنظيم ضد المحتلين هي التي استطاعت المحافظة على أصالة البلاد المسلمة الأفريقية وإنقاذها وحمايتها [١٥].

كان لنضال جربه البطولي عام ١٥١٠ أهمية حاسمة بالنسبة إلى مصير الحركة الشعبية. فهنا بالذات استطاع الشعب المنتفض إحراز أول نصر له وإيجاد حلفاء خارجيين. وكانت جربة بنظر الإسبان، إحدى أهم قواعد القراصنة العثمانيين والموريسكيين. لذلك توجه الكونت دون بيدرو دي نافارو إلى الجزيرة بعد استيلائه على طرابلس الغرب مباشرة. وفي ٣٠ تموز (يوليو) ١٥١٠، اقتربت سفنه الثمانية من جربه [١٦] لكن حكام الجزيرة برئاسة الشيخ أبو زكريا يحيى السمومني، رفضوا الاستسلام أو الاعتراف بسيادة العرش الإسباني رفضاً قاطعاً. وقتل مبعوثو الكونت واضطر دون بيدرو دي نافارو للعودة إلى طرابلس حيث باشر بإعداد حملة جديدة أقوى وأكبر. وفي ٢٣ آب (اغسطس) ١٥١٠، ظهرت سفنه من جديد قرب الجزيرة، وفي ٣٠ آب (اغسطس)

---

(١٢) M. Gaïd. op. cit. p. 27.

(١٣) جوليان «تاريخ أفريقيا الشمالية...»، ص ٣٠٠.

(١٤) Ibid. p. 27.

(١٥) Mahmoud Bouali. «La sédition permanente en Tunisie». T. 1 : «Des origines à 1735». Tunis 1972, p. 136.

(١٦) محمد أبو راس الجربي، «مؤنس الأحبة في أخبار جربه»، تونس ١٩٦٠، ص ١٠٥.
Voir aussi : M. Bouali. op. cit. p. 137.

أنزل جنوده على شواطئها حيث بلغ عددهم ١٥ ألفاً (١٢ ألفاً من طرابلس الغرب، و ٣ آلاف من بجاية)، وكان بينهم عدد كبير من أشهر الفرسان بمن فيهم دون غارسيا دي توليدو دوق ألبا الذي اشتهر بدرعه الفولاذي وحصانه الأصيل. وفور نزول الجنود إلى اليابسة بدأوا يتحركون نحو مواقع التونسيين دون أن يستعدوا لذلك. لكن بضعة كيلو مترات من السير على الرمال مدججين بدروع وخوذ ثقيلة تحت شمس أفريقية حارقة أنهكت قواهم، فلم يعد كثير من الجنود يقوون على السير، بل سقطوا ضحية ضربة الشمس. أما الباقون فتكفل بهم حماة الجزيرة. وما ان اقترب الإسبان من آبار المياه وتفرقت صفوفهم حتى خرج اليهم التونسيون المختبئون في غابات النخيل والزيتون وانقضوا عليهم في هجوم ضار، فطوّقت طليعة الإسبانيين وأبيدت تماماً، وقتل ما بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ من الإسبانيين وفقاً لأرقام أوردتها مصادر متعددة. وكان بين القتلى دون غارسيا دي توليدو نفسه. ومما زاد الطين بلّة، أن عاصفة عاتية هبّت على البحر فقذفت بثمانية عشرة سفينة إسبانية إلى الشاطىء أصبحت غنيمة للتونسيين بما تحمل من طواقم وثروات طائلة «لم ير لها أحد مثيلاً» على حد تعبير مؤرخ محلي من جربه [١٧].

شارك العثمانيون بفعالية في الدفاع عن جربه، وكان بينهم الأخوة بربروس [١٨] الذين وصلوا إلى الجزيرة قبل ذلك بفترة وجيزة. ومن المعتقد أنهم أظهروا هناك موهبتهم التنظيمية التي جعلتهم في مصاف قادة الحركة المعادية للإسبان في شمال أفريقيا. ومهما يكن من أمر، فإن الأخوة بربروسا منذ ذلك التاريخ ربطوا مصيرهم بالمغرب. ويؤكد المؤرخ التونسي المعاصر الطاهر جيجا [١٩]، ان كل منصف لا بدّ أن يعتبرهم من قادة البلاد الوطنيين الكبار.

تم عقد تحالف مع العثمانيين عن طريق توسيع نشر مشاعر الحب لهم في تونس. فقد رأت الجماهير الشعبية التوّاقة إلى خليفة عادل في «التركي العظيم» حامل رسالة إلهية خاصة. ودخل في قناعة الناس أن الباشاوات العثمانيين المؤمنين، كما اعتبرهم أنصار العثمنة في مختلف البلدان، والقضاة العثمانيين النزهاء كانوا يرفعون لواء الحق والعدالة. واعتقدت الجماهير الشعبية ان العثمانيين طبّقوا الحكم، النزيه العادل وعاقبوا المرتدين وسحقوا «أعداء الله». وآمن الفلاحون والفقراء وكل من كان يمقت النظام الإقطاعي في أعماقهم أن الحياة سوف تتغير مع مجيء العثمانيين نحو الأفضل، وسوف تصبح سعيدة لا هموم فيها. كتب مؤرخ «الغزوات» أن أهالي تونس كانوا في أعماق نفوسهم يريدون مجيئه (أي مجيء بربروس)، وكانوا ممتلئين عزماً وتصميماً على تشجيع

(١٧) الجربي، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(١٨) شميدت، المرجع السابق، ص ١٠٦. حاشية رقم ٣.

(١٩) T. Guiga. op. cit. p. 16.

مخطوطاته [٢٠]. وكان ابن أبي دينار وحسين خوجا وغيرهما من مؤرخي المدونات التونسية في القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر مفعمين تماماً بمثل تلك المشاعر. ويرى محمد هادي الشريف أن موقفهم كان بالغ الوضوح: فالعثمانيون والسكان الأصليون أخوة في الدين وقد اتحدوا بانسجام لخير الجميع [٢١]. إن إعجاب الكتّاب التونسيين بالعثمانيين اعجاب لا حدود له، وما زال حتى الآن يثير دهشة المؤرخين. فتوفيق باشروش مثلاً لا يخفي دهشته وهو يكتب عن الحماس الذي يبديه المؤلف (يقصد ابن أبي دينار) للسيادة العثمانية، لدرجة أنه يرفض أن يرى فيها أي نوع من الطغيان معتبراً ذلك من طبيعة الأشياء، ويضعه في خانة المبدأ السياسي القائل إن الرضوخ للظالم أفضل من الاضطرابات والفتن [٢٢]. وسواء صح ذلك أو لم يصح، فإن التونسيين في أكثريتهم كانوا يتمنون مجيء العثمانيين. ويرى الطاهر جيجا أن ظهور العثمانيين قد أملته ورحّبت به عناصر واعية من السكان المحليين [٢٣]. أما الحذر منهم بل العداء لهم كما يشير محمد هادي الشريف بالإستناد إلى إحدى وثائق نهاية القرن السادس عشر، فليسا تعبيراً عن رأي أغلبية السكان المحليين [٢٤].

لقد تحقق انتصار للعثمانيين في جربَه تبعه صدّ للأوروبيين على الساحل وإلحاق الهزيمة بهم في جزيرة قِرقنَه عام ١٥١٠ فحقق العثمانيون مأثرة بطولية في البحر وتمركزوا في مدينة الجزائر عام ١٥١٦، ودحروا الهجمات الإسبانية على المهديَّة عام ١٥١٩ وعلى جربه في ١٥٢٠، كل ذلك عزز من هيبة العثمانيين وزاد من شعبيتهم بشكل لم يسبق له مثيل. فتحول العثمانيون إلى جزء لا يتجزأ من الحركة المعادية للإسبان. ويمكن التأكيد أنه في تلك السنوات بالذات، قام اتحاد وثيق بين العثمانيين والانتفاضات التونسية. ففي شتاء ١٥١٠ - ١٥١١، استُقبل خير الدين بربروس في مدينة تونس كبطل شعبي حقيقي، فاحتفل بانتصاره ووزع الخبز على الفقراء وتحدث طويلاً إلى علماء المدينة وأشرافها. واضطر السلطان نفسه إلى استقباله وتقديم مظاهر التكريم له [٢٥]. يدل ذلك على ظهور «حزب» قوي مناصر للسلطنة في تونس رأى أنصاره في العثمانيين القوة الوحيدة القادرة على مجابهة الإسبان والبدو. وبات نفوذ العناصر المؤيدة للعثمانيين قوياً لدرجة استحوذوا معها على أذهان الجماهير وشاركوها أحلامها وآمالها، وارتكزوا بشكل أساسي على الفلاحين والفقراء في

---

(٢٠) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 315.

(٢١) Mohamed Hédi Cherif. «Témoignage du «Mufti» Qasim Azzum sur les rapports entre Turcs et autochtones dans la Tunisie de la fin du XVI ème siècle. - «Les Cahiers de Tunisie». Tunis 1972. No. 77-78, p. 40.

(٢٢) T. Bachrouch. op. cit. p. 10.

(٢٣) T. Guiga. op. cit. p. 17.

(٢٤) M. Chérif. op. cit. pp. 39 - 50.

(٢٥) «Histoire d'Aroudj...». T. I. pp. 24 - 26.

المدن. وقد تزعمهم العلماء وغيرهم من رجال الدين المسلمين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالحضر، فأقاموا علاقات متينة مع خير الدين بربروس. أما الفئات التي اتخذت موقفاً متحفظاً فهي الطبقات الغنية وأصحاب الأملاك في المدينة، والشريف التونسي الذي يدّعي حماية الثقافة الممتازة منذ مستهل العصور الوسطى. فقد اعتاد التجار والمتعهدون ومدبرو أملاك الخزينة والأوقاف وحُجّاب المحاكم والدواوين في الدولة الحفصية على العيش تحت ظل سلطة قوية وحازمة. فكان هاجسهم الوحيد انبعاث مجد الحفصيين الغابر. فالحفصيون هم الذين يستطيعون حمايتهم من البدو الإقطاعيين والغزاة القادمين من وراء البحار. ومن الجلي ان هؤلاء الناس لم يشعروا بالثقة حيال العثمانيين بل اعتبروهم برابرة وأصحاب ثقافة منحطة وغير جديرين أن تُحترم قيمهم المعنوية والمادية. وفي أفضل الأحوال كانت مشاعرهم حيال العثمانيين المشاعر نفسها إزاء بابا عثمان الذي يمثل في التراث التونسي ذلك «التركي الفظ، الجلف، سيء الطالع، حامل السيف القاتل، الأبله، البليد، الساذج، محط كل سخريات المواطنين التونسيين الأذكياء»[٢٦]. ومع ذلك اعتبروا العثمانيين بلا شك أقل سوءاً من الأفّاقين الإسبان.

لم يتخذ أمراء البدو والقبائل الخاضعة لهم أي موقف واضح، ففي حين كانوا يعملون على إضعاف السلطة المركزية من جهة ويشاطرون المرابطين شعاراتهم المعادية للأجانب من جهة أخرى. على أن البدو في جميع الأحوال والظروف لم يتخلوا عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية. كان الإقطاع والقبلية أغلى ما يملكون واحتفاظهم بهما يحدد موقفهم السياسي الحقيقي في نهاية المطاف. وكانوا ينحازون إلى هذا الجانب أو ذاك وفقاً لما تقتضيه الظروف. على أن البدو عموماً كانوا أعداء العثمانيين ويقدمون مبررات لاعتبارهم الخطر الأساسي الذي هدد «استقلالهم وحريتهم». ومن أجل ذلك لم يعارضوا التعاون مع الإسبان.

وقف أعيان المدن من الاقطاعيين والأسر الحاكمة ضد العثمانيين وبين شرّي: السيادة الإسبانية أو سلطة العثمانيين. فضّلوا الخيار الأول. وقد ساعدهم في حسم موقفهم بهذا الاتجاه تنكرهم لشعبهم والكراهية التي يكنها لهم أهالي تونس. وبكلمة واحدة، فإن محبة الجماهير الشعبية للعثمانيين أوجدت لدى الفئات المسيطرة هاجس الخوف منهم، ففقدوا كل ثقة بمواطنيهم المسلمين وأحاطوا أنفسهم بالمرتزقة والحراس الإسبان. فكان الإسبان أملهم الأخير، لذلك توجهوا إليهم طالبين دعمهم دون تردد، بل إن بعضهم اعتنق المسيحية كالأمير عبدالله ابن عامل مدينة بجاية الحفصي، أو «الملك» كما سمّته الوثائق الاسبانية الذي التحق بالكاثوليكية وأصبح «الابن المدلل» ارناندو، وعمل على تشجيع السياسة الاسبانية بين القبائل[٢٧].

(٢٦) M. Chérif. op. cit. p. 46.

(٢٧) Ernest Mercier. «Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie)». T. III. Paris 1891, pp. 42. Voir aussi H. de Grammont. op. cit. p. 67.

حصلت القطيعة العلنية بين الحفصيين والعثمانيين عام ١٥١٥، فبعد الحصار الثاني لمدينة بجاية مباشرة، وعندما استدرجَ الأخوة بربروسا إلى أسوارهـا آلاف الفلاحين المتمـرديـن، بـدّل أبـو عبدالله محمد الاتجاه فأعلن الأخوة بربروسا «متمردين» وبدأ ضدهم حرباً لا هوادة فيها. وبعث بالرسائل إلى حكام شمال أفريقيا المسلمين محاولاً استمالتهم إلى جانبه. فوصل مبعوثو الحفصيين إلى تلمسان واتصلوا بالسلطان» كوكو أحمد ابن القاضي وبالأعيان الجزائريين وحتى بأقرب أعوان بربروسا. ثم اتخذت الدسائس طابعاً خطراً بخاصةً بعد مقتل عروج، فبات خيرالدين بربروس في قلق بالغ. وفي خريف ١٥١٨، وجه رسالة خاصة إلى أبي عبدالله محمد الخامس[٢٨]، وبدلاً من الرد على الرسالة وجه السلطان الحفصي قواته المسلحة ضد خير الدين بربروس، فنشبت معركة قرب أم الليل وفي المدن القبلية حيث تكبدت قوات السلطان الحفصي هزيمة قاسية، لكن أحمد ابن القاضي انحاز إلى الحفصيين فتفادت قوات السلطان الهزيمة النهائية، عندها بدأ خير الدين بربروس حرباً في البحر، فقام أسطوله في ربيع ١٥٢٠ بهجوم على شواطىء افريقيا واستولى على عدد من السفن التونسية وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى[٢٩].

لم يكن أهالي تونس يرغبـون بمحـاربـة خير الديـن بـربـروس، كما حـافـظ «الحزب الموالي للعثمانيين». على علاقاته الودية به. حتى انه في شتـاء ١٥١٦ - ١٥١٧، كان في العاصمة الحفصية حيث استمع إلى محاضرات العلماء وأحاديثهم فقويت فضائله الدينية[٣٠]. وفي عام ١٥١٩، اختبأ في جزيرة جربة وفي عام ١٥٢٠، استقبل وفداً عن مدن الساحل جاء اليه دون علم السلطان. وبعد التماس من المواطنين أطلق خير الدين بربروس سراح الأسرى التونسيين الذين قبض عليهم أثناء حملته البحرية عام ١٥٢٠. انضمت تسع سفن تـونسيـة إلى أسطـول خير الديـن بـربـروس فضاعفت من قوته القتالية. والتحق عدد كبير من المجندين التونسيين بجيشه فساعده ذلك على تحقيق انتصاراته ما بين اعوام ١٥٢١ - و ١٥٢٥. وفي ٨ شباط (فبراير) ١٥٢٦، توفي السلطان الحفصي أبو عبدالله الحفصي أبو عبدالله محمد الخامس واعتلى العرش ابنه مولاي حسن (١٥٢٦ - ١٥٤٣)، وهو السلطان السابع والعشرون في هذه الأسرة. وقد تميّز حكمه أنـه عـاصر ميـديتشي ومكيافيلي بشخصية معقدة ومتناقضة. وتقدم المصادر الإسبانية والعثمانية عنه صورة كئيبة للغاية. فخلافاً لوثائق المحفوظات التونسية، تؤكد المصادر الإسبانية والعثمانية مغالاة هذا السلطان في استهتاره وفجوره واستئثاره بالسلطة. وترى ان العـرش عنـده ليس إلاّ لتلبيـة شهـوات الفسـق. جاء في أحد البيانات الإسبانية لعام ١٥٣٣، ان ملك تونس مولاي حسن، رجل ناهز الخامسة

---

(٢٨) «Histoire d'Aroudj...». op. cit. T. I. p. 159.

(٢٩) «Histoire d'Aroudj...». T. I. pp. 190 - 191.

(٣٠) Ibid. p. 64.

والثلاثين من عمره، تغلّب فيه بياضُه على سواده، مخنّث، لا تهمة إلاّ ملذّاته، منغمس في الفساد لدرجة تفوق كل وصف تندر إقامته في المدينة، ويقضي معظم أوقاته في قصوره الريفية المتعددة حيث يمارس صيد الصقور أو يغنّي أو يطنطن على أوتار القيثارة في أحضان محظياته [٣١]. كان لأمّه «الجازية» تأثير كبير عليه. وأمه أميرة بدوية من ولد يحيى- في سبيل السلطة، لم تكن تلك المرأة تتورع عن عمل أي شيء وقيل إنها دسَّت السمَّ لزوجها السلطان ابو عبدالله محمد الخامس فقتلته. وعن طريق الدسائس أجلست على العرش ابنها مولاي حسن الذي كان الأصغر بين أشقائه، وبالتالي لم يكن العرش من حقه [٣٢]. بعد أن اعتلى العرش، ظل يعمل بنصائح أمه وظل «يطيعها باستمرار كالطفل». وتؤكد الوثائق الاسبانية انه بتأثير منها دبَّر عملية تنكيل دموية ضد أخويه الكبيرين ثم ضد أخواته اللواتي أثرن شكوك السلطانة - الأم. وتتحدث المصادر العثمانية عن مقتل خمسة وأربعين أخاً [٣٣]، واحدٌ منهم فقط وهو مولاي رشيد تمكن من الإفلات من هذا المصير، فقضى فترة من الزمن بين البدو ثم فر إلى الجزائر حيث لقي الحماية عند خير الدين بربروس، ولم تكن تلك الحماية خالية من الغرض. عندما ارتقى مولاي حسن عرش السلطة حاول بعث أمجاد الحفصيين. كانت ظلال الماضي تقض مضاجعه. وكان قبل كل شيء يريد إعلاء شأن الحكومة المركزية ونفوذها وإحياء المبادىء الخيِّرة لحركة الموحدين بقصد تدعيم الحكومة الحفصية وتقويتها. ويصف أحمد بن أبو ضياف كيف حاول مولاي حسن القضاء على كل انتهاك للقوانين وألغى كل المكوس المخالفة للقانون، وحكم الناس وفقاً لتقاليد جَده عثمان [٣٤]. كانت البداية مشجعة للغاية، فانبثق في المدن والقرى شعاع من الأمل واستعاد مولاي حسن ثقة أتباعه وكل من كان يضمر العداء للعثمانيين والبدو. وأشار حسن حسني عبدالوهاب انه في بداية عهده تميّز حكمه بالعدالة والطيبة فسلب قلوب أتباعه [٣٥] حتى في مدينتي قليبية وقسنطينة اللتين كانتا تخضعان لحكم خير الدين بربروس، وانتعش أنصار الحكم الحفصي فأثاروا عدة انتفاضات وطردوا الحكام العثمانيين والموريسكيين، وفي مدينة قسطنينة قَتل المواطنون الحاكم المحلي.

بيد أن مشاعر الأهالي لم تعبّر في الواقع سوى عن نصف المسألة فقد اصطدمت سياسة الإنبعاث الحفصي بمقاومة عنيفة من جانب أعداء النظام. وفي عامي ١٥٢٦ - ١٥٢٧ قام خير الدين بربروس بإخماد تمرد أنصار الحفصيين دون رحمة، كما سحق بقسوة انتفاضته في مدينة قَسنْطينة، فخسر الحفصيون بذلك جميع المقاطعات الغربية والصحراوية نهائياً. كذلك انتفض البدو في

(٣١) «Histoire d'Aroudj...». p. 50.

(٣٢) M. Bouali. op. cit. pp. 134 et 146.

(٣٣) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 246.

(٣٤) ابن ابي دينار، المرجع السابق، ص ١٩١.

(٣٥) H. Husni Abdul Wahab. op. cit. p. 124.

المناطق الشرقية. وأمام خطر قيام تمرد عام بين القبائل اضطر مولاي حسن للتخلي عن مشاريعه وإعادة العمل بالنظم السابقة، وبهدف التصالح مع البدو منحهم حق تقاضي مكوس إضافيه بلغ حجمها ٦٠ ألف دينار مما شكل ٤٠ بالمائة من دخله الخاص. إضافة إلى ذلك، فإن حدود المناطق التي أصبح للبدو فيها حق تقاضي المكوس المشار اليها لم تكن معينة بدقة، مما أتاح لشيوخ البدو ممارسة أبشع أنواع السلب والنهب [٣٦].

تعتبر مرحلة مولاي حسن في تونس مخيبة للآمال التي عقدت عليها في البداية، كما أن أعمال الخوة والنهب والسطو التي قام بها البدو الرحَّل حولت البلاد إلى مرجل للتمرد والاضطراب. أما الذين أخلصوا لمولاي حسن في البداية، كما يقول المؤرخ التونسي طاهر جيجا، فقد أعرضوا عنه وأخذوا يصبّون لعناتهم عليه بسبب ظلمه وعلاقته بقبائل البدو [٣٧].

حاول مولاي حسن مواجهة الموقف باتخاذ تدابير متسرعة فعمد إلى إقامة علاقات ودية مع الأسبان إذ رأى فيهم أعداء ألدّاء لخير الدين بربروس والعثمانيين، فأراد بمساعدتهم استعادة المناطق التي خسرها لا سيما منطقة طرابلس الغرب. ولهذه الغاية عقد تحالفاً مع فرسان القديس يوحنا الأورشليمي الذين نقلوا عام ١٥٣٠ مركز قيادتهم إلى مالطا. وبالإتفاق مع هؤلاء الفرسان أرسل عام ١٥٣٢ قواته العسكرية إلى طرابلس الغرب حيث خاضت غمار حرب عنيفة ضد تمرد الليبيين [٣٨].

أدى الإتحاد الميكيافيلي مع فرسان القديس يوحنا الأورشليمي إلى عزلة مولاي حسن بين المسلمين، وساءت علاقاته مع الباب العالي إلى حد كبير بخاصة بعد أن رفض مولاي حسن بشدة اقتراحاً من العثمانيين للتعاون معه. ووصل به الأمر إلى أنه في ١١ حزيران (يونيو) ١٥٣٤، منع سفينتين عثمانيتين من دخول مرفأ تونس رغم انهما كانتا تقلاّن بعثة الباب العالي التي جاءت برسالة خاصة من سليمان العظيم. وأجبر المبعوث على القاء لفافات الرسائل على الشاطىء والعودة من حيث أتوا مع وابل من اللعنات والشتائم [٣٩]. وبعدائه للعثمانيين حفر مولاي حسن قبره بيده. فخير الدين بربروس كان يحلم منذ أمد بعيد بتثبيت مواقعه في تونس التي استهوته بأهمية موقعها ووفرة مصادر ثرواتها وميّزات مرافئها [٤٠]. وعمد أنصار العثمانيين إلى النميمة والوشاية ضد «مغتصب السلطة» مع تحضير الأجواء لمجيء «المحرر المنتظر منذ أمد بعيد». لكن سلطات

(٣٦) ابن ابو ضياف، المرجع السابق، ص ١٩١. Voir aussi M. Bouali. op. cit. p. 134.
(٣٧) T. Guiga. op. cit. p. 50.
(٣٨) E. Rossi. op. cit. p. 130.
(٣٩) T. Guiga. op. cit. pp. 15 et 18.
(٤٠) M. Bouali. op. cit. p. 145.

مولاي حسن كانت تلاحقهم وتنزل بهم أشد ضروب العقاب. ومع تزايد أعمال التنكيل، لا سيما تلك التي كان يشارك فيها المرتزقة الإسبان أو المالطيون، كما حدث في طرابلس الغرب، كانت تزيد من كراهية السكان لمولاي حسن. حتى ان أصحاب النفوذ أخذوا يعبّرون عن استيائهم علناً واتجهوا بانظارهم إلى مولاي رشيد، وهو آخر من تبقّى من المطالبين بالعرش. وكان خير الدين بربروس قد اصطحبه إلى اسطمبول في العام ١٥٣٣ بانتظار دور له في المستقبل.

بين كبار رجال الدولة، أعوان الباب العالي، كان خير الدين بربروس أشد أنصار التوسع النشيط في أوروبا ولا سيما في منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط. وكان يعتبر احتلال تونس انتصاراً سياسياً. فتمكن من إقناع سليمان العظيم رغم أن السلطان كان يحلم باحتلال إسبانيا منذ أمد بعيد. كان خير الدين بربروس يرى أنه لا بد من الاستيلاء على تونس وتثبيت أقدام العثمانيين على ساحل افريقيا الشمالية بأكمله قبل المباشرة بأي عمليات كبيرة الحجم. لذلك كتب ساندوفال: «بعد ذلك فقط، رأى خير الدين بربروس، يمكن احتلال إسبانيا بالسهولة التي استولى بها المغاربة على مراكش في زمن ما»[٤١].

وافق سليمان العظيم على خطط بربروس رغم أنه كان منشغلاً بالحرب في الشرق. وخصص لتنفيذ العملية في الغرب قوات صغيرة نسبياً. فقد وضعت بتصرف خير الدين بربروس ٨٤ سفينة حربية وسفن للنقل، كما رصدت الأموال اللازمة، وزُوِّد بعدد كبير من قطع المدفعية. وبلغ عدد أفراد فيلق الحملة ثمانية آلاف وثلاثمائة رجل، بمن فيهم ألف وثمانمائة انكشاري. أما الباقون فقد تم استدعاؤهم من الوحدات العسكرية الألبانية واليونانية ومن مجنّدي مرعش. وفي تونس انضمت اليهم فصائل المتمردين المحليين[٤٢].

في الأول من آب (اغسطس) ١٥٣٤ عبر الأسطول العثماني مضيق مَسّينا. وبعد أن قام بهجوم على المدن والقلاع الساحلية في مملكة نابولي، وأثار الفوضى والاضطراب في روما. اتجه نحو الجنوب إلى شواطيء أفريقيا. واستفادت سفن خير الدين بربروس من الرياح العاصفة لتعبر بصورة سريعة وخاطفة البحر التيراني، وفي ١٣ آب (اغسطس) ظهرت السفن في مياه بنذرت فرحب بها أهالي المدينة وقواتها المسلحة، وطردوا القائد الحفصي وأعلنوا فيها حكم السلطان العثماني. وكان لفساد العناصر المعادية للعثمانيين وضعفها دور لا يستهان به في تسهيل الانتصار. فقد استغل خير الدين بربروس الجو الشعبي العام لتنظيم خدعة دعائية بسيطة، فمع وصول العثمانيين إلى بنذرت، انتشرت شائعات تزعم أنهم قدموا إلى تونس ليضعوا حداً «للعهد المخزي» لمولاي حسن، وكبديل عنه

(٤١) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 220.

(٤٢) T. Guiga. op. cit. p. 36. Voir aussi J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 247 et H. de Grammont. op. cit. p. 37.

وعدوا بتسليم العرش إلى شقيقه مولاي رشيد الذي قيل إنه موجود على ظهر إحدى سفن الأسطول العثماني [٤٣]. في الواقع، كان مولاي رشيد في اسطمبول معتقلاً في قصر الأبراج السبعة بحيث لا يخرج أبداً. أعلن العثمانيون لسكان بنزرت أن الأمير بقي على السفينة «خشية الحر الشديد وبسبب وعكة صحية بسيطة ألمّت به» [٤٤]. وإمعاناً في التمويه طلبوا إلى زوجة الأمير وأقربائه الاهتمام بتحضير الطعام له وإعداد مسكن فاخر يليق بإقامة سلطان تونس العتيد.

لعبت تلك الخدعة الدعائية دوراً كبيراً في نجاح الحملة العثمانية فقد أمكن عبرها في المرحلة الأولى تحييد أنصار الحكم الحفصي. لذلك لم يرفع أحد حتى ولا أعداء الباب العالي المتحمسون، أي سلاح دفاعاً عن مولاي حسن. وقام العثمانيون بهدوء وطمأنينة بإنزال الجنود والمدفعية وغيرها من الأمتعة والمهمات عن ظهر السفن. ولم يطلق التونسيون طلقة واحدة، بل لم يحاولوا تنظيم أي مقاومة ولو بصورة شكلية.

انتشرت الشائعات عن وصول «ابن الزنجية» كما كان يُسمّى مولاي رشيد في تونس بسرعة البرق في جميع أنحاء البلاد. فقامت في العاصمة انتفاضة شاملة. وخرجت جماهير المواطنين إلى الشوارع فملأتها والسلاح في أيديها، ثم تحركت باتجاه قصر القصبة حيث مقر إقامة السلطان، فهرب مولاي حسن ووالدته وأصبحت المدينة بكاملها في أيدي المنتفضين الذين بادروا على الفور بارسال وفد عنهم إلى خير الدين بربروس طالباً حضوره إلى العاصمة دون تأخير، سيما وان عدداً غير قليل من أنصار الحفصيين السريين كان لا يزال في المدينة، محذّرين من ذلك [٤٥].

لم ينتظر خير الدين بربروس طويلاً. وفي ١٥ آب (اغسطس) ١٥٣٤ اقتربت سفنه من حلق الواد، وهي القلعة البحرية التي تحرس مدخل خليج العاصمة تونس. وعلى الفور انحازت حامية القلعة إلى جانب العثمانيين. وفي ١٦ آب (اغسطس) نزل خير الدين بربروس إلى الشاطىء ثم توجه برفقة عشرة آلاف من الأهالي بين مرحب ومهلل إلى قصر القصبة حيث «جلس على عرش السلاطين» [٤٦]. وهناك أعلن خلع أسرة الحفصيين وانضمام تونس إلى حكم الباب العالي.

وما إن ظهرت حقيقة نيات العثمانيين حتى ساد التوتر بين أتباع الحفصيين. فقد أدركوا أنهم كانوا هدفاً لخديعة قاسية. فنشبت في شوارع المدينة صدامات واشتباكات مسلحة ما لبثت أن تصاعدت وتحولت بعد فترة قصيرة إلى «حرب سرية» حقيقة. وأخذ الأهالي في الأحياء الميسورة

(٤٣) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 247 et E. Mercier. op. cit. p. 34.
(٤٤) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 227.
(٤٥) «Histoire d'Aroudj...». T. 1. pp. 315 - 316.
(٤٦) Ibid. p. 316.

ينصبون الكمائن ضد الانكشارية العثمانيين ويهاجمون الجماعات الصغيرة من جنود خير الدين حتى ان المنتفضين بعثوا بالرسل إلى مولاي حسن وطلبوا اليه العودة إلى العاصمة على جناح السرعة. لكن « القسم الأعظم من السكان ». اذا استخدمنا تعبير مؤلف كتاب « الغزوات » المجهول لازموا بيوتهم وشكلوا قاعدة لكل من كان يرغب مخلصاً بحكم العثمانيين وانتصار قوات خير الدين بربروس (٤٧).

في ليل ١٧ - ١٨ آب (اغسطس) عاد مولاي حسن إلى مدينة تونس متنكراً في زي مواطن عادي. فبدأ أنصار الحفصيين يتجمعون علناً في بعض أحياء المدينة، ثم شكلوا فصائل مسلحة للهجوم على قصر القصبة. واقتربت فصائل البدو من المدينة، فقلق خير الدين بربروس قلقاً شديداً، وقام شخصياً بجولة تفقدية في المدينة وتأكد من استحالة « إخماد الحريق » بالوسائل السلمية، فأمر أتباعه بمغادرة شوارع المدينة فوراً والاحتشاد في قصر القصبة على أقرب نقطة من مشارف العاصمة.

ظل الطرفان الليل بطوله يستعدان للمعركة الفاصلة. وفي صباح ١٨ آب (اغسطس) استعرت المعركة. لكن البدو الذين بلغ تعدادهم أربعة آلاف رجل وقعوا تحت نيران المدفعية العثمانية فلم يرغبوا بالإقتراب (٤٨)، وأقفلوا عائدين من حيث أتوا. أما في المدينة فتحرك أنصار الحفصيين لاقتحام قصر القصبة. فبادر خير الدين بربروس إلى الهجوم المضاد واستطاع تطويق الحفصيين المهاجمين من ناحيتين. لكن التونسيين الذين أضحوا بين « فكّي كماشة »، تمكنوا من صد هجوم الإنكشارية الأول، قبل ان يستبد بهم الخوف بعد ذلك، فولّوا الأدبار متشتتين في مختلف الإتجاهات، فلاحقهم العثمانيون في شوارع المدينة وأزقتها. وروى شاهد عيان أن المدينة امتلأت بالجثث، وقتل ما يزيد على ثلاثة آلاف تونسي وقرابة ٤٠٠ إنكشاري. أما مولاي حسن فلم ينتظر انتهاء المجزرة، بل هرب من مدينة تونس باتجاه بجاية ثم غادرها إلى بلاد الجريد (٤٩).

قبيل المساء أعلن خير الدين بربروس الأمان، وأمر بإيقاف إهراق الدماء. وفي اليوم التالي نعمت المدينة بالهدوء. حتى أشد أنصار الحفصيين تعصباً أدركوا عقم القتال. ويشير مؤلف « الغزوات »: انه تأكّد للشعب التونسي، وهو شعب مؤدب وعملي، أن علاقاته بالسلطنة العثمانية الشاسعة من شأنها أن تؤدي إلى توسيع التجارة لدرجة كبيرة، وأن الوضع الجديد سيصبح لدى التونسيين مَصدَر ثروات لا تنضب (٥٠).

(٤٧) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 318.
(٤٨) E. Mercier. op. cit. p. 35.
(٤٩) «Histoire d'Aroudj...». T. 2. p. 229 et E. Mercier. op. cit. p. 35.
(٥٠) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 318.

بعد أن ثبّت خير الدين بربروس أقدامه في مدينة تونس، سارع إلى بسط سلطته على سائر مناطق البلاد. وتحت ضغط العناصر المؤيدة للعثمانيين سارعت مدن صفاقس والمهدية وموناستير وعنّابة وغيرها من المدن التونسية إلى الالتحاق بحكم العثمانيين حتى مرابطو الشابيّة من القيروان قرروا عدم تعريض مصيرهم للخطر، فاعترفوا بسيادة الباب العالي وقبلوا بمرابطة حامية عثمانية في مدينتهم. وحدها مدينة بيجه على مجرى نهر مجردة الأوسط أقفلت أبوابها وقاومت قوة عثمانية صغيرة لم يزد عدد أفرادها على ستمائة رجل.

بقي البدو الأمل الوحيد للسلطان المخلوع. فلم يكن لهم ما يبرر قبولهم بتبدُّل السلطة، لذلك كانوا على استعداد دائم لتقديم ثلاثين ألفاً أو أربعين ألفاً من الفرسان. إلى ذلك، كان لمولاي حسن بينهم عدد كبير من الأصدقاء والأنسباء الأقربين. كان خير الدين بربروس يحاول بكل الوسائل تجنّب تدهور العلاقات مع القبائل. فبعد استيلائه على مدينة تونس مباشرة اقترح على زعماء القبائل الانضمام إليه وأرفق اقتراحاته بالهدايا النفيسة. أما البدو الذين ذاقوا ويلات نيران المدفعية العثمانية فعبّروا بدورهم عن استعدادهم للمصالحة. سارت المفاوضات بنجاح. وفي خريف ١٥٣٤، عقدت معاهدة اعترف البدو على أساسها بسلطة الباب العالي، وأعلنوا ولاءهم لسليمان العظيم ووعدوا بعدم تقديم أي مساندة لمولاي حسن. والأهم من ذلك أن البدو تخلّوا عن حقوقهم بموجب نظام الإقطاع وقانون العشائر وتعهدوا بعدم تقاضي أي أموال من المزارعين. لقاء ذلك وعد خير الدين بربروس أن يدفع لهم من الخزينة إعانة مالية سنوية بقيمة «العوائد» السابقة التي كانوا يتقاضونها. وأقسم البدو كذلك الا يتسببوا بأي أضرار للرعية وعدم إقامة أي مضارب لهم قرب المدن أو القرى الزراعية. وأن يقيم البدو الرحّل منهم ابتداء من يوم توقيع المعاهدة على أطراف الصحراء وفي الوديان البعيدة عن المدن (٥١).

وبهدف الوصول في الاتفاق إلى تحديد رقم دقيق للمبلغ المتوجب دفعه، قدّم شيوخ القبائل إلى خير الدين بربروس وثائق مكتوبة تؤكد حقوقهم في «العوائد» وعندما اطلع خير الدين بربروس عليها، أعلن أن كل ما تنص عليه قد وصلهم بالتمام والكمال، وسلمهم بطاقات تبيّن مبالغ المدفوعات التي سوف تستحق لهم في المستقبل وطريقة دفعها. ويرى مؤلف الغزوات في ذلك تأثيراً جيداً على شيوخ البدو، فبدأوا ينزحون إلى الجنوب وبلاد الجريد حيث كانت مراعيهم الشتوية (٥٢).

بعد حل المسألة البدوية على هذا النحو انصرف خير الدين إلى تنظيم الإدارة. ولا شك أن

---

(٥١) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 319.

(٥٢) Ibid. T. I. p. 321.

النموذج الذي اقتدى به مستوحى من الأنظمة التي طبقها في الجزائر. ومن هناك بالذات وصلت عام ١٥٣٥ الفصائل الأولى للانكشارية والفرسان الذين أخذوا يرابطون في تونس بصفة حاميات مقيمة، على أن يتقاضى قادتها وأفرادها رواتبهم من الخزينة المحلية. احتفظ خير الدين بربروس بنظام الوشاية القديم. على أن مبالغ الضرائب التي فرضها لم تكن تزيد عن مبالغ الضرائب التي اعتاد الشعب دفعها. طبّق خير الدين بربروس أنظمته الجديدة بيد حازمة دون شفقة (٥٣). ولجأ إلى أعمال التنكيل والاضطهاد ليس بهدف إنزال العقاب بجماهير الناس، بل كذلك لتخويف أعداء النظام. وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٤، تمّ تعليق مجموعة من الانكشارية المتمردين على المشانق التي نصبت على جدران قصر القصبة ليكونوا عبرة لمن يعتبر (٥٤).

تركزت السلطة بكاملها بين يدي خير الدين بربروس. وكان يعتمد على العثمانيين الأوفياء وعلى الموريسكيين المهجرين من إسبانيا، وعلى رجال الدين المسلمين. ففي مراكز المسؤولية ظهر عدد كبير من الموريسكيين. ومن المرتدين إلى الإسلام من أصل أوروبي. أما أبناء البلاد الأصليون فقد تبوّأوا معظم المناصب الثانوية، كما شكلوا غالبية التشكيلات العسكرية المحليّة. لكن القوات العثمانية في تونس، أو على الأقل تلك التي شاركت في القتال ضد الإسبان عام ١٥٣٥، كانت بنسبة ٦٠ بالمائة من أفرادها من الأهالي التونسيين. وكانت جماهير السكان مفعمة بالأمل والتفاؤل. وكان التونسيون يلهبون بمشاعر العرفان للوسائل التي ضمن لهم خير الدين بربروس بواسطتها الأمن والهدوء. ولم يتوقفوا عن امتداح حكمته وانسانيته ونزاهته، وكانوا سعداء بالعيش في ظل قوانينه (٥٥).

بيد أن البدو تمسكوا بوجهة نظر أخرى. فقد مرت موجة التعصب الديني التي سادت البلاد من أمام خيمهم السوداء المعفّرة بالتراب والغبار. ومن الواضح أن الأنظمة العثمانية لم ترق لهم. ومن المشكوك فيه أن تكون البطاقة «التذكرة» التي حملت ختم الباشا كافية للتعويض لهم عن تلك الاستقلالية التي حُرموا منها عام ١٥٣٤. ثم إن خير الدين بربروس أخذ يتباطأ في دفع الإعانة المالية لهم، في حين كان يرسل أغلى الهدايا إلى اسطمبول وإلى البادي شاه «السلطان» شخصياً، وكان كثيراً ما ينسى ضرورة دفع رواتب الجنود. فأقدم جنود الانكشارية الغاضبون على إعلان العصيان المسلح مرتين ـ في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) وفي ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٣٤ ـ احتجاجاً على تأخير دفع رواتبهم (٥٦).

---

(٥٣) Ibid.
(٥٤) H. de Grammont. op. cit. p. 38.
(٥٥) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 321.
(٥٦) H. de Grammont. op. cit. p. 38.

وحاول مولاي حسن استغلال الوضع. فبدلاً من « التذكرة » أخذ يوزع الذهب. ووعد البدو أن يعيد لهم حقوقهم وامتيازاتهم السابقة، فاستمالهم إلى جانبه في النهاية. وعبّر مؤلف « الغـزوات » عن ذلك بعصبية وسوداوية حين قال إن لا شيء أكثر سخفاً وأقل صموداً من الشعب البدوي، فهو عدو لكل سلطة، وهو على استعداد دائم لأن يخضع لكل ما يتملقه ويعلله بالحرية. وهو لا يخسر شيئاً أثناء الثورة بل يأخذ كل شيء، وهو مستعد باستمرار للثورة لمصلحة من يعطيه أكثر (٥٧).

قبيل ربيع ١٥٣٥، بدأت فصائل البدو المسلحة تتجمع في سهول القيروان، وأخذ عددها يتزايد كل يوم. لكن خير الدين بربروس آثر عدم الانتظار حتى يستكمل البدو استعداداتهم، فبادر إلى الهجوم أولاً. وتحركت قواته إلى القيروان فاستخدمت أثناء تقدمها اختراعاً غير عـادي، ذكره كامبانيلا فيما بعد على صفحات كتابه « مدن الشمس » (٥٨). فبأمر من الباشا وضعت المدافع على عربات أعدّت خصيصاً لها ثبّتت عليها صوار وأشرعة. وتحت تـأثير الريـح، أخـذت هـذه العربات ذات الأشرعة تزحف في السهل « كالسفن تشق الموج » (٥٩).

كان لهذا الاختراع وقع صاعق في المعركة قرب القيروان. فدب الذعر في صفوف البدو ولاذوا بالفرار، فيما انكب الشيوخ على الصلاة طلباً للرحمة. وقرر خير الدين بربروس مرة أخرى إظهـار حرصه على السلام، فقدم الأمان « لأولئك الذين استعصت ملاحقتهم ». وبعد أن حصل منهم على قَسَم بالولاء عاد إلى تونس حيث « استراح بعد العناء وتنعّم بالسعادة التي وهبها لأتباعه الجدد » كما كتب صاحب « الغزوات » (٦٠).

بعد أن تكبد مولاي حسن الهزيمة الثانية لجأ إلى وسيلة أخيرة. فبتشجيع من قائد فرسان مالطة، اتصل بنائب ملك نابولي وبعد نصيحة منه وجّه رسالة إلى أمبراطـور رومـا المقـدسـة كـارل الخامس جاء فيها: « بربروس، هذا الزعيم العثماني الخسيس المولود على جبل مغريبو استولى على مملكتي. إن أحد الأسباب الرئيسية التي جعلته حانقاً علي هو تعلقي المخلص والمستمر بكم. ومن مصلحتكم أيها الملك العظيم أن تتكرموا بمساعدتي لكي أستعيد تراث آبائي وأجدادي. وعندما تعود الدولة التونسية إلى سلطتي أقسم لكـم أن اكـون تـابعـاً وفيـاً لكـم، وسيرضيني أن أكـون ممثلكـم في الحكم » (٦١).

---

(٥٧) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 322.

(٥٨) أ. سفينتوخوفسكي. « تاريخ الطوباوية » موسكو ١٩١٠، ص ٧٦.

(٥٩) Ibid. p. 323.

(٦٠) Ibid. p. 324.

(٦١) M. Gaïd. op. cit. p. 55.

بيد أن مصير مولاي حسن لم يكن يهم كارل الخامس كثيراً. أما انتقال تونس إلى سلطة العثمانيين فقد أثار لديه قلقاً جدياً، لأنه أظهر خطراً حقيقياً يهدد اوترانتو و كالابري، والأهم أنه يهدد صقلية التي كانت تعتبر «كندا» القرن السادس عشر التي تطعم بقمحها نصف أوروبا. واعتبر أيضاً تهديداً لا يقل خطراً على إسبانيا نفسها. فالمسلمون العاملون سراً فيها كانوا على استعداد دائم لتقديم العون إلى جيش البادي شاه إذا غامر في شن هجوم على قلعة الكثلكة.

لكل هذه الاعتبارات استجاب كارل الخامس بسرعة ملحوظة لنداءات المساعدة الصادرة عن مولاي حسن وفرسان مالطة. وفي الثاني من حزيران (يونيو) ١٥٣٥ أبحر أسطوله من ميناء برشلونة. وكانت تلك الأرمادا معقودة لواء قيادتها إلى أندريه دوري، وتضم قرابة ٤٠٠ سفينة من مختلف الأنواع والأحجام بما في ذلك ٩٠ سفينة مقاتلة على متنها ٢٦ ألفاً من جنود المشاة، من الإسبان والألمان والإيطاليين والبرتغاليين، وقرابة ألفي فارس [٦٢]. كما كان على رأس تلك القوات دوق البا ومركيز دي غواست وأمير ساليرنو ومركيز دي مونديهار وغيرهم من أبناء العائلات الإسبانية والإيطالية النبيلة. أما القيادة العامة فتولاها الأمبراطور نفسه.

فور وصول أنباء استعدادات الحملة إلى تونس شرع خير الدين بربروس بتحصين المدينة فوضعت في حالة الإستعداد القتالي كل تحصينات حلق الواد ومدافعها. أما البرزخ الذي تمر عبره الطريق إلى العاصمة، فقد أقفل بحاجز ومتراس ضخم من الصخور والأعمدة الخشبية المدغمة بأكياس الرمل، وحفرت الخنادق، ووضعت اثنتا عشرة من أفضل السفن الحربية على رصيف حلق الواد وتحولت إلى مرابض مدفعية عائمة. والسفن القديمة أغرقت أو سُحبت إلى شاطىء بعد أن انتزعت منها المدافع، وأرسلت لتعزيز دفاعات القلعة والتحصينات حيث حشدت عدة مئات من المدافع [٦٣]. وفي المساجد ألقيت المواعظ والخطب لرفع المعنويات القتالية بين الأهالي والمجاهدين الذين طُلب اليهم «الإستشهاد من أجل الإسلام والحرية» [٦٤]. وشكلت عدة فصائل مسلحة. وفي المدينة والضواحي اتخذت تدابير أمنية استثنائية. وأصدر خير الدين بربروس، أمراً بتصفية قرابة ١٢ ألفاً من العبيد المسيحيين الموجودين في العاصمة لشكه بإخلاصهم فأبقاهم على قيد الحياة مغللين بالأصفاد في زنزانات الدولة و في زنزانات خاصة.

في ١٤ حزيران (يونيو) ١٥٣٥، وصل أسطول كارل الخامس إلى حلق الواد، وتم إنزال الجنود على أطلال قرطاجة في المكان نفسه حيث نزل صليبيو القديس لودفيغ عام ١٢٧٠. منيت بالفشل

(٦٢) H. de Grammont. op. cit. p. 39 et E. Mercier. op. cit. p. 37.

(٦٣) E. Mercier. op. cit. pp. 37 - 38.

(٦٤) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 333.

محاولات العثمانيين لعرقلة الإنزال بنيران مدفعية السفن. وظلت قوات كارل الخامس شهراً كاملاً تحاصر حلق الواد والتحصينات المحيطة بها. وكان يشرف على دفاع القلعة سنان رئيس، أحد أشجع قادة بربروس [٦٥]. وتابع العثمانيون هجماتهم ليلاً ونهاراً، فاقتحموا خنادق العدو مرات عديدة لكنهم كانوا يتراجعون تحت ضغط نيران السفن الإسبانية. وفي أحد الأبراج المحصنة الصغيرة، الذي شكل مفتاح دفاع حلق الواد استعمل العثمانيون قذائف حشيت بقطع من المعدن وشظايا السلاسل الحديدية. فأدّت تلك القنابل إلى إبادة طوابير كاملة من المهاجمين [٦٦]. وقتل أو تشوه آلاف الجنود الإسبان. وفي اقتحام برج العيون، وهو أحد التحصينات المركزية لحلق الواد، استخدم كارل الخامس برجاً متحركاً ضخماً زاد ارتفاعه عن ارتفاع جدران القلعة نفسها. وتتابعت الهجمات والهجمات المضادة. ولم يهدأ هدير القصف المدفعي على مدى شهر كامل وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٥٣٥ وبعد هجوم عنيف تمكن الإسبان من الاستيلاء على حلق الواد، واستطاعت فلول الحامية العثمانية الهرب إلى مدينة تونس بعد أن تكبدت خسائر فادحة، واستولى كارل الخامس على ٨٧ سفينة عثمانية وقرابة ٣٠٠ مدفع، كما وجد ١٤٠ مدفعاً في أبراج حلق الواد وتحصيناتها المدمرة [٦٧].

وفي ٢٩ حزيران (يونيو) ١٥٣٥ ظهر مولاي حسن في معسكر كارل الخامس على رأس قوة مؤلفة من ١٦ ألفاً من البدو. فرحب به دوق ألبا أجمل ترحيب لكنه رفض مساعدته رفضاً قاطعاً. كتب هامر: «اعتمد كارل الخامس على قوة سلاحه ولم يكن يرغب أبداً أن يلطخ انتصاره باللجوء إلى خدمات المساعدين الجدد برماحهم وأقواسهم ونبالهم المسمومة» [٦٨].

أحدث سقوط حلق الواد ذعراً وارتباكاً في مدينة تونس. واستبدت بالمواطنين مشاعر الهزيمة والإحباط. وأخذ معظمهم، كما كتب صاحب «الغزوات» يميل إلى «حزب الاسبان». ودعا خير الدين بربروس إلى اجتماع لممثلي المدينة حاول فيه في بداية الأمر ثني المؤمنين عن «عقد أي صفقة مع أعداء الله». لكن الكثيرين منهم ردّوا بالتملص، وحيال ذلك لجأ الباشا إلى استخدام القوة.

عندما أدرك الأهالي أن اليطقان العثماني أي السيف (المحدودب ذو الحدين) ليس أخف وطأة من السيف، أذعنوا وعادوا للسير خلف خير الدين بربروس. هكذا، يقول مؤلف «الغزوات» تمكن خير الدين بربروس من «إيقاظ شرفهم النائم» [٦٩].

---

(٦٥) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 249.
(٦٦) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 331.
(٦٧) E. Mercier. op. cit. p. 38.
(٦٨) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 250.
(٦٩) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 333.

بعد أن أعاد خير الدين بربروس تنظيم فلول قواته، تحرك على رأس الفصائل التونسية المسلحة والقوات العثمانية والتعزيزات التي وصلته من الجزائر لمواجهة كارل الخامس. علـى أن جميع تلك القوات لم يزد عددها على ستة عشر الفاً ومائة رجل، تضم تسعة آلاف وسبعمائة تونسي وستة آلاف وأربعمائة تركي[٧٠]. وفي ١٩ تموز (يوليو) ١٥٣٥، احتل خير الدين مواقع في منطقة تعرف باسم خربة القلاع على مسافة ستة كيلومترات من تونس. ويرى بعض المؤرخين أن خير الدين بربروس فقد فرصة انتصار مُحَقق عندما سمح للإسبانيين بالمرور عبر مضائق وشعاب بالغة الصعوبة، حيث كانوا يتحركون بشكل فوضوي[٧١]، في حين وقف هو ينتظرهم في السهل بأعصاب باردة أثارت دهشة الجميع دون أن يحاول عرقلة تحركهم. هكذا توفقت قوات كارل الخامس لتحضر كامل استعداداتها وتنظيمها وفقاً لجميع قواعد الفن العسكري بحيث ضمنت لنفسها تفوقاً تكتيكياً لا جدال فيه. كان القتال بالغ العنف، وتأرجحت كفة النصر عدة مرات بين الطرفين. وخلال إحدى هجمات العثمانيين اندس آلاف البدو بين صفوفهم بشكل مفاجىء، في حين كانوا قبل ذلك الحين يقفون جانباً يراقبون سير القتال دون أن يتدخلوا فيه. وأثناء هجوم العثمانيين ظنّوا أن خير الدين بربروس على وشك إحراز النصر فقرروا «دعم جهوده»[٧٢] بمبادرتهم الخاصة. ربما كانوا يخشون أن تفوتهم فرصة نهب المعسكر الاسباني. لكن وصول البدو أثار البلبلة في صفوف المقاتلين التونسيين. وعندما أصبح البدو تحت نيران مدفعية الإسبان ارتدوا مندفعين إلى الخلف فجذبوا خلفهم آلاف العثمانيين والتونسيين. هكذا ضاعت فرصة النصر الذي كان حليف خير الدين بربروس طيلة ذلك النهار كما أكد خير الدين نفسه، وبعد ان كان جواسيسه قد حملوا اليه أنباء تقول أن حالة من الاكتئاب عمت معسكر الاسبان، وان عدداً كبيراً من قادتهم العسكريين أخذوا يميلون للعودة إلى الوطن. لكن ذلك لم يحدث رغم دهشة العثمانيين. كما أن كارل الخامس قرر في اليوم التالي استئناف الهجوم فنشبت معركة جديدة، ولاحظ التونسيون فجأة أن قوات الاسبان تمكنت من الالتفاف حولهم من ناحية المؤخرة أي من جهة المدينة. ولم يدركوا في البداية كيف تمكن كارل الخامس من القيام بهذه المناورة[٧٣]. ثم تبيّن فجأة أن انتفاضة وقعت في مدينة تونس. فقد حطّم اثنا عشر ألفاً من العبيد المسيحيين أغلالهم وسيطروا على المدينة. يذكر المؤرخ العثماني ابراهيم بجوي أن الانتفاضة كانت بقيادة الخائن جعفر آغا الذي كان في السابق يعرف باسم «فرانك» قبل أن يتظاهر باعتناق

(٧٠) Ibid. p. 334.
(٧١) E. Mercier. op. cit. p. 38.
(٧٢) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 334.
(٧٣) «Histoire d'Aroudj...». T. I. p. 336.

الاسلام(٧٤). وسيطر جعفر آغا على قصر القصبة ثم أقفل أبواب المدينة وقطع على خير الدين بربروس طرق الانسحاب ووجهت مدافع قلعة المدينة ضد التونسيين.

عندما علم كارل الخامس بالأحداث الحاصلة في المدينة قرر تسريع وتيرة هجوم قواته. ولاحظ اقتراب عدد كبير من فرسان البدو الذين غطوا السهل بأكمله. فقد تحرك هؤلاء لنجدة الإسبان هذه المرة، ظنهم كارل الخامس عدواً مهاجماً وأمر بقصفهم، فكانت مجزرة مريعة: يقول صاحب «الغزوات» «هكذا انتقم الله لخير الدين الذي خانه هؤلاء البدو أنفسهم»(٧٥).

اكتشف العثمانيون والتونسيون أنهم محاصرون، ومع ذلك استمروا في مقاومةٍ عنيدة. لكن وضعهم كان يائساً. وبعد أن صمد خير الدين بربروس حتى المساء شق طريقهُ مع أربعة آلاف رجل عبر المواقع الاسبانية وهرب إلى الجبل تاركاً مدينة تونس، ثم وصل إلى جبل الرصاص ومن هناك اتجه نحو الغرب، وبعد خمسة أيام وصل إلى عنّابة، ومنها أبحر إلى مدينة الجزائر

في ٢١ حزيران (يونيو) ١٥٣٥، دخل كارل الخامس مدينة تونس، وبعد أحداث عاصفة أخذت المدينة تستعيد وضعها الطبيعي تدريجياً. وفي الصباح الباكر توجّه وفد من أعيان المدينة ورجال الانتفاضة العبيد إلى معسكر الأمبراطور، فقدم له مفتاح المدينة رمزاً للاستسلام السلمي، وعاد معظم اللاجئين إلى منازلهم وفتح التجار أبواب متاجرهم وعاد الحرفيون إلى أعمالهم. فتحت كل شوارع المدينة وفجأة ظهرت فيها مجموعات الجنود المسلحين. وتبيّن أن كارل الخامس بناء على الحاح جنرالاته رفض عرض تسليم المدينة سلمياً، وقرر الوفاء بوعده لجنوده فأباح لهم مدينة تونس لمدة ثلاثة أيام.

هكذا وقعت أغنى مدن البحر الأبيض المتوسط تحت سطوة الجنود الاسبان ثلاثة أيام بلياليها، من ٢١ حتى ٢٣ تموز (يوليو) ١٥٣٥ عمل الصليبيون الجدد من جميع الأمم سلباً ونهباً بعاصمة الحفصيين، سيدة مدن المغرب، دون شفقة. كتب هامر أن الجنود الاسبانيين راحوا، بشراهة وحشية، يفتشون المنازل والصناديق والأقبية، وأعماق الآبار. فدمرت المساجد والمدارس وحطمت النقوش الفنية وأتلفت الكتب النادرة أو أحرقت(٧٦)، فاحترقت بكاملها مكتبة أسرة عبد الواد التي كان أبو عبدالله محمد الخامس قد أمر بجعلها أغنى مجموعة «من الكتب في شتى العلوم»(٧٧). واختفت المخطوطات القيمة بحيث لم يبق لها أثر(٧٨). وما زالت سقوف مكتبة

---

(٧٤) H. de Grammont. op. cit. p. 39.
(٧٥) E. Esin «quelques manuscrits». p. 50.
(٧٦) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 253.
(٧٧) ابن أبو ضياف، المرجع السابق، ص ١٩٠.
(٧٨) H. Abdul Wahab. op. cit. p. 126.

عبد الواد المطمورة في دارة جامع الزيتونة حتى أيامنا هذه شاهداً لا يُمحى على نزعة التخريب الوحشي.

اقترن النهب المجنون بالعربدة الوحشية وأعمال الاغتصاب والقتل الجامحة التي لم يسلم منها أحد. قتلوا الجميع دون استثناء الرجال والنساء، الشيوخ والفتيان اليافعين قتلوا الناس بعد التنكيل الوحشي بهم من منطلقات سادية ولعدم رغبتهم بأخذ الأسرى، ويصف مؤرخ تونسي تلك المجزرة أنها احدى أفظع المجازر التي عرفها التاريخ[٧٩]. إذ امتلأت بالجثث كل الشوارع والمنازل والمساجد التي حاول التعساء اللجوء اليها. وبين القتلى نسوة ألقي بهن عاريات بعد أن بُقرت بطونهن. ومن بين ١٨٠ ألفاً من سكان مدينة تونس، قتل ستون ألفاً وأخذ عدد مماثل منهم أسرى ثم نُفوا إلى خارج البلاد وبيعوا عبيداً. ولم يتمكن من النجاة والبقاء على قيد الحياة أكثر من ستين ألفاً[٨٠].

ولعب البدو دوراً في منتهى الحقارة والخسة، فقد عاثوا بضواحي العاصمة اغتصاباً ونهباً، ولاحقوا أو هاجموا الأهالي التونسيين الذين تمكنوا من النجاة من المذبحة، وتسلّلوا فرادىً أو عائلات إلى زغوان الواقعة على مسافة أربعين كيلومتراً جنوب تونس. في الطريق كان البدو يكمنون لهم ويصطادونهم مظهرين من جنون العنف أكثر مما أظهر الفرنجة أنفسهم. وكانوا يطالبونهم بدفع مبلغ ضخم من المال لافتداء أنفسهم قارب الألف دينار ولك من يستطيع دفع هذا المبلغ اللامعقول كان يسلم إلى الفرنجة فيحصل على مكافأة لقاء ذلك[٨١].

كتب ي. هامر: «كان فتح تونس ذروة المجد العسكري لكارل الخامس»[٨٢]. واحتل الإسبان الجزء الشمالي الشرقي من البلاد بأكمله فأخذوا بنزرت وعنّابة. وأثارت أنباء الانتصارات الاغتباط والإبتهاج في أوروبا الغربية. وتكريماً للأمبراطور حُفرت على بلاط من الرخام كتابات لاتينية تمجّد مآثر «فاتح أفريقيا الجديد». وفي عام ١٨٧٨ شاهد تلك اللوحات الرحالة الروسي تشيخاتشوف (١٨١٨ - ١٨٩٠) حين تفقد القصور الإسبانية القديمة على شواطىء افريقيا الشمالية[٨٣].

في غمرة مظاهر بهجة المنتصر عاد مولاي حسن إلى العاصمة المدمَّرة. وفي ٦ آب (اغسطس)

(٧٩) M. Bouali, op. cit. p. 151.

(٨٠) Husni Abdul Wahab, op. cit. p. 125.

(٨١) Bono Salvatoré, «Documents italiens sur la reconquête musulmane de Tunis, 1574». - «Actes du Premier congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb», T. 2, Tunis 1979, p. 151.

(٨٢) J. de Hammer, op. cit. T. 5, p. 256.

(٨٣) ب. تشيخاتشوف. «اسبانيا، الجزائر، تونس». موسكو ١٩٧٥، ص ١٦٦.

وقع معاهدة في معسكرٍ قرب حلق الواد اعترف فيها بالحماية الاسبانية لتونس والتي نصت على ما يلي :

ـ أعلن السلطان الحفصي نفسه تابعاً للعرش الاسباني، وتعهد أن يدفع جزية مقدارها ١٢ ألف دوكات في السنة أو ٦٠٠ ألف أقجة وفقاً لعملة ذلك الزمن (قرابة ١٢٠ ـ ١٤٠ ألف فرنك ذهب). ولإثبات تبعيته تعهّد أن يقدم سنوياً إلى بلاط كارل الخامس ستة رؤوس من الخيل المؤصّلة و ١٢ صقراً.

ـ تخلّى مولاي حسن لكارل الخامس عن حكم حلْق الواد قسم من ساحل قرطاجة وكذلك عن مدن عنابة وبنزرت ومهدية، وكان عليه أن يحرر المهدية من حكم خير الدين بربروس.

ـ منح السلطان الحفصي للإسبان حق الاقامة والتجازة دون أي عراقيل على أراضي تونس مع حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وأي خلافات أو نزاعات تنشأ بين المسيحيين يتولى القنصل الإسباني والقضاة الإسبان البت فيها.

ـ منح السلطان لكارل الخامس احتكار استخراج المرجان والإتجار به على شواطىء تونس. وتعهد مولاي حسن بإطلاق جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في البلاد وعدم استقبال الموريسكيين الآتين من اسبانيا أو مساعدتهم أو تقديم أي ملجأ للقراصنة المسلمين.

ـ اعترف مولاي حسن بكل المكاسب العسكرية التي حققها الاسبان في شمال افريقيا أو تلك التي يمكن أن يحققونها لاحقاً.

ـ تعهد كارل الخامس من ناحيته بتقديم الحماية إلى رعايا سلطان تونس وعدم ابقائهم في ممتلكاته بصفة عبيد. والأهم أن كارل الخامس وعد مولاي حسن بمساعدته على استعادة سلطته على كل أراضي تونس باستثناء المناطق التي أتبعت بإسبانيا.

ـ في حال انتهاك المعاهدة للمرة الثالثة، تعهد السلطان الحفصي أن يتخلّى عن العرش ويغادر البلاد (٨٤).

وفي ١٧ آب (اغسطس) ١٥٣٥ غادر كارل الخامس شواطىء تونس. وأبقيت حاميات اسبانية في حلق الواد وغيرها من المراكز الساحلية. وأبقي في تصرف مولاي حسن فصيل من مائتي اسباني، على أن ترابط تلك القوة في قصر القصبة لحراسة السلطان شخصياً.

---

(٨٤) H. Abdul Wahab op. cit. p. 127. Voir aussi E. Mercier. op. cit. pp. 39 - 40 et J. de Hammer. op. cit. T. 5. pp. 254 - 255.

وعيّن برناردينو دي ميندوسا مركيز دي مونديهار ودوق دي تنديليا قائداً عاماً في حلّق الواد ممثلاً لكارل الخامس في تونس. فكان همه الأول منصباً على بناء القلاع الاسبانية في حلق الواد وبنزرت وعنابة، وتدمير الأسوار التي كانت تحمي الأحياء المسلمة في تلك المدن التي أصبحت اسبانية (٨٥).

كانت البلاد تعيش حالة عداء شديد للإسبان. فرفض الأهالي الاعتراف بمعاهدة الحماية وانتفضوا ضد مولاي حسن، لذلك لم تتجاوز سلطته أكثر من مدى القذائف الاسبانية، ولم يستمر في دعمه إلاّ بعض القبائل التي أثار موقفها الشكوك أثناء مذبحة تموز (يوليو).

ظلت مدن الساحل والجريد وكل الجنوب التونسي على سابق ولائها للباب العالي. وكتب دي ميندوسا، بالاستناد إلى روايات أعوانه، ان مدن سوسة والمهدية وموناستير وصفاقس وكل السواحل الممتدة جنوب قليبية كانت «تؤيد العثمانيين» (٨٦)، وفي ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٣٥، أبلغ كارل الخامس أن تلك المدن «تقف إلى جانب بربروس وتدفع له الجزية باسم السيد العظيم» (٨٧). وفي المناطق الريفية كانت السلطة بيد «المرابطون» أنصار خير الدين بربروس الذين اعتمدوا على الفصائل المسلحة المتشكّلة من جنود الانتفاضة التونسيين ومن الغزاة العثمانيين. وكانت تلك القوات، بصورة مبدئية، بإمرة القادة التونسيين العبّاس وأحمد العشفي وغيرهم وجلهم من أعيان مدينة تونس الذين رفضوا خدمة السلطان الحفصي، فجمعوا تحت راياتهم الفلاحين واللاجئين الفارين من تونس إلى جانب بعض فرسان البدو (٨٨).

بقي الساحل القاعدة الرئيسية للنفوذ العثماني لأنه موطن المزارعين وصيادي الأسماك والحرفيين والتجار الصغار. وفي مرافىء الساحل اعتاد الجواسيس الإسبان بصورة مستمرة اكتشاف سفينة عثمانية واحدة أو مجموعة من السفن الحربية أو سفن الشحن، فيسجلون في تقاريرهم أن تحركاتهم تتسم بسرية مطلقة. ومن وقت لآخر كانت تنتشر الشائعات عن وصول قوات كبيرة من الأسطول العثماني (٨٩). وشاركت طواقم السفن الحربية العثمانية إلى جانب العثمانيين الذين انضمت اليهم فلول فيلق الحملة التابع لخير الدين بربروس في كل المعارك ضد الإسبان، وكانت مزودة بأسلحة نارية. ورغم أن عددها لم يكن يزيد عن ١٥ ـ ٢٠ بالمائة من مجموع قوات المتمردين، إلاّ أن البلاغات الاسبانية كانت تصفها بالتشكيلات العسكرية الخاصة (٩٠).

---

(٨٥) Ch. de La Veronne «Source de l'Histoire de la Tunisie dans les archives espagnoles. L'expédition de Mulay Hassan à Kairawan en 1536». «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis 1979. pp. 115 - 117.

(٨٦) T. Guiga. op. cit. p. 49.

(٨٧) M. Bouali. op. cit. p. 155.

(٨٨) La Verone. op. cit. pp. 119 - 120.

(٨٩) Ibid. p. 120.

(٩٠) Ibid. p. 119 - 120.

بين زعماء الحركات المعادية للإسبان في نهاية الثلاثينات يبرز أحد المقربين من خير الدين بربروس وهو طورغوت رئيس، الذي أطلق عليه ملك فرنسا لقب «سيد البحر العظيم». انه «القرصان الكبير المدهش» على حد تعبير الكاتب الايطالي غوراتسيو نوكولي في القرن السادس عشر، أو «الصقر» كما روت التقاليد الشعبية التونسية، وكان يعود بأصله إلى الأناضول الجنوبية الغربية. فقد ولد حوالى عام ١٤٨٥ من عائلة فلاحية فقيرة من قرية سارابالاس على ساحل منتشي [٩١]، وقد يكون اسم العائلة بالتركية طورغوت دليلاً أن أصله من إحدى قبائل اليوروك (الترك الرحّل) وهي قبيلة طورغوتولار (طورغوتولو) التي تركت أثارها في كثير من العائلات التركية واليونانية كما لاحظ ف.ا. غوردليفسكي [٩٢]. التحق طورغوت رئيس بالأسطول العثماني وكان فتى يافعاً في الثانية عشرة من عمره، ثم أصبح بحاراً ومدفعياً وقبطاناً على سفينة ذات صاريتين، ثم قائداً للأسطول العامل في بحر الأدرياتيك والجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. وفي عام ١٥٣٨، أبلى بلاءً حسناً في معركة قرب بريويزة حيث كان قائداً للجناح الأيمن في أسطول خير الدين بربروس.

كان طورغوت رئيس قد هجر الأناضول في وقت مبكر واستوطن تونس. ويعتقد أنه شارك في الدفاع عن جزيرة جربَة. مهما يكن من أمر، فقد أصبحت هذه الجزيرة وطنه الثاني بعد أن تزوج فيها وامتلك منزلاً صغيراً كان يعود اليه باستمرار بعد كل حملة بحرية [٩٣].

لم تمض سنوات قليلة على وصول طورغوت رئيس إلى جربَه حتى أقام علاقات مع العثمانيين ولا سيا خير الدين بربروس، وأصبح مندوباً عنه في جزيرة جربَه، وبعد حملة كارل الخامس تزعم الحركة المعادية للإسبان في الساحل. ويرى جيجا أن أحداث ١٥٣٥ ـ ١٥٤٠ تظهر دورة العنف المتصاعد في الدفاع عن الشواطىء التونسية [٩٤]. فقد كان العثمانيون على مسافة بعيدة ولم يشارك الباب العالي رسمياً في الحرب. إلى جانب ذلك لم يكن طورغوت رئيس مرتبطاً بتقاليد النظم العثمانية وشروطها. وكان تحركه على مسؤوليته إلى حد كبير وفي أفضل الحالات كان يتصرف كأنّه تابع وحليف لسليمان العظيم. وحسب تعبير جوليان، فإن طورغوت رئيس «كرر على الشواطىء البربرية الشرقية مغامرات خير الدين بربروس المقدام» [٩٥]. وعلى خطى خير الدين حتى عام ١٥٣٣ أسس في تونس سلطة انتفاضة مستقلة اعترفت اسمياً بسيادة الباب العالي. واختار

(٩١) T. Guiga. op. cit. p. 21. Voir aussi Rossi. op. cit. p. 136.

(٩٢) ف. غوردليفسكي «أشباح تركيا». مختارات، المجلد الثالث، موسكو ١٩٦٢، ص ص ٤٣ و ١١١.

(٩٣) T. Guiga. op. cit. pp. 23 - 25.

(٩٤) Ibid. p. 25.

(٩٥) ش. أ. جوليان «تاريخ أفريقيا الشمالية» ص ٣٢٢.

مدينة المهدية عاصمة له حيث «عاش كحاكم مستقل»[٩٦]. كان لطورغوت علمه الخاص، وهو كناية عن قطعة من القماش الأحمر والأبيض مع هلال ازرق في الوسط، كما كان له أسطوله وقواته المسلحة وسياسته الخارجية والداخلية الخاصة به. وعلى غرار بقية الشخصيات المؤيدة للعثمانيين وعد التونسيين بالحكم العادل[٩٧]. وإنصاف الفقراء، وحماية حقوق المظلومين. وفي مقاتلته للاسبان كان طورغوث رئيس يعمل بتحالف وثيق مع «مرابطي» الشابيّة. وهي منظمة قوية بسطت نفوذها، كما قال محمود بو علي «على منطقة واسعة تصل حدودها إلى مدينة تونس والساحل وتخوم الصحراء والأوراس وضواحي قسنطينة[٩٨]. تزعم «المرابطون» الابن الثاني لمؤسس المنظمة وهو سيْدي عرفه الشابّي الذي حل في عام ١٤٨٥ محل أخيه محمد (١٤٨٢ - ١٤٨٥)[٩٩]. وأكد حفيد سيدي عرفه أن ١١٤ ألف شخص أقسموا ان يكونوا «مُريدين» له[١٠٠]. واعتبروه ولياً. واذا صحت رواية دون فرنسيسكو دي توفاري، فإن خليفة مندوسًا في منصب القائد العام لحلّق الواد كان يتمتع عندهم «بنفوذ أكبر من نفوذ الملك وغير الملك»[١٠١].

ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار حركة سيدي عرفة عرضاً «للوعي القومي الإسلامي الأفريقي القديم والغامض»[١٠٢]. كتب محمود بو علي أن سيدي عرفة كان يطمح إلى بسط سلطته على مدينة تونس[١٠٣] ليثبت بذلك أنه لم يكن ضد تأسيس دولة قومية مستقلة فيها. لا شك أن التونسيين دافعوا عن أنفسهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك من منطلق «التعبير» عن مشاعرهم القومية رغم أن تلك المشاعر كانت قد بدأت تتبلور نحو لا شعوري. ولم يكن ذلك طابعاً مميزاً للقرن السادس عشر بل مقولة ظهرت مع التاريخ الحديث والفكر المعاصر، وهي شبيهة بتأييد قومي لنظرية مونشيكور الطوباوية، فكان ذلك المؤرخ الفرنسي حاكماً للمستعمرات، أول من وضع تاريخ الشابيّة (١٤٥٠ - ١٥٩٢) ورأى في تلك المنظمة قوة ثالثة مناهضة للتوسع الإسباني والعثماني.

من هم مرابطو الشابيّة؟ انها حركة دينية تعبّر في إطار ديني عن فكر الشعب في الوجود القومي والعدالة الاجتماعية. من هذه الزاوية لم يكن أي من طورغوت رئيس وسيدي عرفة يتميز عن الآخر بشيء. غير أن سيدي عرفة كان يعبّر عن مشاعر وآراء المناطق المدمَّرة والأكثر تخلفاً

(٩٦) E. Mercier. op. cit. p. 56.
(٩٧) J. La Gravière «Les Corsaires barbaresques...» p. 161.
(٩٨) M. Bouall. op. cit. p. 153.
(٩٩) IBid. p. 350.
(١٠٠) Ibid. p. 149.
(١٠١) Ibid. p. 154.
(١٠٢) Ibid. p. 153.
(١٠٣) Ibid. p. 154.

والتي عادت إلى حياة الانسان البدائي نتيجة اجتياح القبائل الهلالية لها في القرن الحادي عشر. وفي بعض المقاطعات، ندرت الأراضي المزروعة، واختفت المدن، وأصبحت قبائل الرحَّل أو شبه الرحل شكل جماهير السكان الأساسية. وفي القيروان، المدينة الوحيدة في الشابية، وقف السكان في معظمهم إلى جانب خير الدين بربروس أو على الأقل وزّعوا مشاعرهم «بالتساوي بين الجانبين»، أي بين العثمانيين وخصومهم [١٠٤].

اعتمد سيدي عرفه بشكل أساسي على القبائل الرحَّل المعادية لعرب ولد سعيد وحلفائهم الحفصيين. ولم يتسنَّ للبدو التحول إلى مركز استقطاب للجماهير الشعبية، لا سيما في المدن والمناطق الزراعية. ثم إن مبادىء الشابيّين الدينية كانت بدائية للغاية فقد كان أتباع سيْدي عَرَفه يعتنقون المذهب المالكي المبسَّط، ولم يكن ذلك كافياً لتلبية التطلعات الدينية للسكان الأكثر ثقافة وتطوراً. وتشير الدلائل إلى أن سيدي عرفة اعتنق أفكار «المرابطون» المتوارثة والتي بقيت دون تبديل فلم يتمكن المرابطون من إحراز أي تقدم، رغم المستوى السامي، لمقام تلك الأفكار، إلاّ في عهد بني غنية (١١٨٤ - ١٢٠٩)، حين تمتعوا بتأييد واسع نسبياً في المناطق الفقيرة في وسط تونس وجنوبها.

إثر معاهدة ١٥٣٥، رفض سيدي عرفة الاعتراف بسيادة الحفصيين وأعلن الاستقلال. وبهدف تثبيت نفسه نهائياً حاكماً مستقلاً تمام الاستقلال، أعلن عن «إحياء» سلطة «المرابطون» وعيّن «يحي» في منصب الخلافة، وهو شخصية ثانوية يعود نسبه إلى قبيلة لمتون [١٠٥] البربرية التي سكنت جنوب مراكش واعتنقت الاسلام، وتنتسب تلك القبيلة إلى قبائل الصهناجة البربرية الصحراوية التي أنجبت في القرن الحادي عشر أسرة الخلفاء «المرابطون»

بعد عام ١٥٣٥، فقد مولاي حسن الاعتراف به إلاّ في المناطق التي يحتلها الاسبان. فكتب دون برناردينو دي ميندوسا في ٢٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٣٥ أن مناطق ضواحي بنزرت وبجاية وبعض الأماكن الأخرى الواقعة على مسافة مسيرة يوم واحد من مدينة تونس تعترف بسلطة مولاي حسن. أما خارج إطار تلك المناطق فلا يخضع له أحد [١٠٦].

هكذا تحوَّل سكان تونس عن السلطان وازدروا به بسبب الدور الذي لعبه أثناء مذبحة تموز (يوليو) وكانت الركيزة الوحيدة التي استند اليها تتمثل بقبائل الرياحية: ولد سعيد وولد بو الليل وولد مسكين، وكانت تلك القبائل تزوده بفصائل الخيّالة وتشاركه في حملاته لقمع الحركات الشعبية.

---

(١٠٤) E. Mercier. op. cit. p. 44.

(١٠٥) E. Mercier. op. cit. p. 29.

(١٠٦) T. Guiga. op. cit. pp. 48 - 49.

علق مولاي حسن آماله الكبرى على بقاء الإسبان، فأخذ يلح عليهم لإرسال الأسلحة والجنود. فتولّى الإسبان مهمة حراسة السلطان وشاركوا في حملاته القمعية واحتفظوا بحاميات لهم في مدن تونس الشمالية الشرقية. ولم يتمكن مولاي حسن إلاّ بصعوبة بالغة من إعادة بعض اللاجئين إلى العاصمة وإرغام المزارعين على مزاولة أعمالهم في لامارس ورديس وغيرهما من المناطق المحيطة بمدينة تونس (١٠٧). ولم يخف الفلاحون وسكان المدن مشاعرهم المعادية للسلطان. وقد ورد في تقرير ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٣٥ للدون برناردينو دي ميندوسا، أن مشاعر الاستياء ضد مولاي حسن تسود جميع الضواحي. فألقى السلطان القبض على عدد من العثمانيين المقيمين في المدينة بصورة سرية ودبّروا مؤامرة لاغتيال التجار المسيحيين. وفي العاصمة تونس نشطت وشايات عملاء الاسبان، وكثر الحديث عن مصادرة الأملاك وجشع السلطات، كما سرت شائعات عن مقتل السلطان (١٠٨). وعندما أحسّ مولاي حسن بهذه الكراهية العارمة زاد في إلحاحه للحصول على مساندة من الإسبان. ويذكر الطاهر جيجاأن اضبارة بقيت في محفوظات بارما تضمنت رسائل من ديوان مولاي حسن ومنه شخصياً، كلها تتوسل إلى الأمبراطور كـي لا يتركـه إلى مصير مجهـول. وفي بعض الأحيان كان السلطان يستسلم لليأس حقيقي. وفي عام ١٥٣٦، وجه مولاي حسن رسالة إلى قائد ليون يطلب فيها مساعدته على الخروج من البلاد إذا لم يتخذ كارل الخامس أي تدبير لمصلحته. كتب مولاي حسن في رسالته: «لا أستطيع البقاء ساعة واحدة في تونس إذا رفض عظمته مساعدتي (١٠٩)».

وبطريقة ما، استطاع مندوسّا حث السلطان على العمل وعن طريق التهديد والوعيد دفعه إلى تنشيط تحركه. ففي رسائله إلى كارل الخامس، في الفترة الأولى على الأقل، لم يُخفِ القائد العام أمله بإخضاع البلاد بمساعدة البدو (١١٠). كان في بادىء الأمر يرنو إلى إخضاع الساحل والاستيلاء على المهدية. لكن مولاي حسن لم يجرؤ على ذلك. وبانتظار وصول التعزيزات، حشد قواته بكاملها في حربه ضد سيدي عرفه.

خلال أعوام ١٥٣٥ - ١٥٤٠ نظمت القوات الحفصية وقوامها المرتزقة الإسبان و «المغاربة» المشاة وجماعات البدو المسلحة أربع حملات على القيروان. غير أن تلك الحملات جميعها باءت بالفشل. في أيلول (سبتمبر) وأثناء الحملة الأولى في معركة قرب بطن القرنة على مسافة ١٢ كيلو متراً غرب القيروان، ألحقت قوات سيدي عرفة بمساعدة العثمانيين «ضربة ساحقة» بقوات مولاي

(١٠٧) E. Mercier. op. cit. p. 40.

(١٠٨) La Veronne. op. cit. p. 119.

(١٠٩) T. Guiga. op. cit. p. 47.

(١١٠) La Veronne. op. cit. p. 119.

حسن (١١١). وفي الحملة الثانية كان نصيبه فشل جديد. وفي معركة نشبت تحت أسوار القيروان في ليلة ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٥٣٦، تكبد مولاي حسن هزيمة ساحقة، فهرب من ساحة القتال واختبأ في مضرب خيام حليفه باضياف شيخ قبيلة ولد سعيد، حيث قام بتبديل خيله ثم انطلق بعد ١٤ ساعة إلى مدينة تونس دون توقف (١١٢). وفي ربيع ١٥٤٠ وأثناء الحملة الثالثة، تعرضت القوات الحفصية التي بلغ عددها قرابة ثمانية آلاف رجل بقيادة ابن السلطان للهجوم فأبيدت عن آخرها. أما الهزيمة الكبرى فلحقت بمولاي حسن في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، عندما تقدم إلى القيروان ومعه ألفان من الإسبان و ١٥ ألفاً من البدو جاءوا جميعهم مع نسائهم وأولادهم فبلغ مجموعهم قرابة الستين ألفاً. في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤٠، في معركة قرب جمّالة الواقعة على بعد ١٩ كيلو متراً جنوب مونا ستير حطمت القوات التونسية العثمانية البالغ عددها ٣٨ ألف رجل جيش مولاي حسن شر تحطيم. فبعد معركة عنيفة استمرت من الساعة التاسعة صباحاً حتى مغيب الشمس، تمكنت من تشتيت قوات مولاي حسن «كالأوراق التي ذرّتها الرياح» (١١٣).

كانت معنويات جيش السلطان منهارة تماماً. والبدو لا يقاتلون إلاّ في سبيل السّلب والنهب. وكان لا بد كذلك من إغداق الوعود على الاسبان بالذهب والعبيد وثروات القيروان. ذكر مندوسّا أنه لم يعد ثمة مكان للشجاعة والانضباطية في القوات المسلحة. وتحولت تلك القوات أثناء الحملة العسكرية إلى شبه قافلة تجرّ نفسها جرّاً، وفي القتال إلى ما يشبه عصابات اللصوص التي ترتد القهقرى لدى أول مجابهة جدية. وفي معركة الجمّالة، حسب شهادة مؤرخ اسباني من القرن السادس عشر هو مارمول ـ كارفاخاليا أقدم «جميع المغاربة» في جيش السلطان على «الانحياز إلى جانب العدو» بعد أن هددهم خطر الحصار (١١٤).

كان الوضع مختلفاً تماماً في معسكر المتمردين. فقد سيطرت هناك روح الحرب المقدسة، واعتبر مقاتلو طورغوت رئيس وسيدي عرفة أنفسهم شهداء في سبيل الدين. وقد تملكتهم الكراهية ضد مولاي حسن، فاعتبره المرابطون سلطاناً مرتداً خان قضية الإسلام وعقد تحالفاً مع الكفار وشهر السلاح ضد إخوانه في الدين (١١٥).

أدرك الحكام الاسبان صعوبة الموقف، فكفّوا عن الاعتماد على مولاي حسن وبادروا إلى طلب

(١١١) M. Bouali. op. cit. p. 154.
(١١٢) La Veronne. op. cit. p. 118.
(١١٣) M. Bouali. op. cit. p. 158.
(١١٤) T. Guiga. op. cit. p. 54. Voir aussi M. Bouali. op. cit. p. 157.
(١١٥) M. Bouali. op. cit. p. 156.

التعزيزات العسكرية. وشكا قادتهم أن القوات الاسبانية في تونس قليلة العدد وتشكلت أساساً من المجندين الجدد، وكانت تعاني من نقص في مختلف أنواع الذخائر. وينقل ميرسييه عن أحد المفتشين تأكيداً أن الجنود الذين وصلت بهم أحوالهم المادية إلى أدنى درجات الفقر، لا سيما أولئك الذين يعيلون زوجاتهم وأولادهم، كانوا على استعداد لأن يتحولوا إلى قراصنة مغاربة [١١٦]. فتوسلوا إلى قادتهم لإعادتهم إلى الوطن ووضع حد لعذابهم الذي لم يعد يطاق.

أخذ الثوار يقتربون من مدينة تونس. وفي شباط (فبراير) ١٥٣٦، احتلت الفصائل المسلحة القادمة من مدينة سوسة تساندها أربع سفن عثمانية حربية مدينة الحمامات وظهرت على المشارف الجنوبية للعاصمة [١١٧]. قلق كارل الخامس قلقاً شديداً. وفي عام ١٥٣٧، أصدر أمراً إلى فرناندو دي غونزاغ نائب ملك صقلية للقيام بعمليات قوية. وفي عام ١٥٣٨ حاولت عمارة من أسطول صقلية يساندها بدو مولاي حسن مهاجمة سوسة لكنها صُدّت وتكبدت «هزيمة موجعة» [١١٨]. وفي ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٥٣٨، هُزم أسطول كارل الخامس قرب بريويزه وفقد سيطرته على البحر

لم يستأنف فرناندو دي غونزاغ عملياته الهجومية إلا بعد سنتين. وفي ١٥ حزيران (يونيو) ١٥٤٠، وقع طورغو رئيس في أسر الإسبان، فألقي عليه القبض في جزيرة كورسيكا وقضى قرابة أربع سنوات على السفن [١١٩]، وبقي ساحل تونس دون زعيم، فقرر فرناندو دي غونزاغ الاستفادة من الوضع. وفي شهر أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، تحركت القوات المختارة من وحدات جزيرة صقلية ومملكة نابولي والمجر بمساندة أسطول أ. دوريا إلى شواطىء تونس، حيث كانت بانتظارها فصائل البدو بقيادة مولاي حسن. وفي هجمات مشتركة من البر والبحر استولت على موناستير وحمامات سوسة وصفاقس، وكانت تلك المدن قد سُلّمت إلى مولاي حسن وفقاً لمعاهدة ١٥٣٥، فأقام فيها الإدارة الحفصية. وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، وقبيل فصل الشتاء، عاد فرناندو دي غونزاغ تاركاً في إمرة السلطان قرابة ألفي جندي.

بعد أن تلقى مولاي حسن المساعدة التي طال انتظاره لها تحرك فوراً في حملته الرابعة على القيروان. وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤٠ تكبد هزيمة ساحقة ترنّحت سلطته في الساحل، وقبيل ربيع ١٥٤١ انهارت نهائياً. فبدأت سوسة وصفاقس والحمامات وغيرها من مدن الساحل

---

(١١٦) E. Mercier. op. cit. p. 47.
(١١٧) La Veronne. op. cit. p. 119.
(١١٨) E. Mercier. op. cit. p. 45.
(١١٩) T. Guiga. op. cit. p. 43.

الواحدة تلو الأخرى، بطرد القادة الحفصيين واستقبال العثمانيين من جديد [١٢٠]. وفي نيسان (ابريل) ١٥٤١، أخلى فرناندو دي غونزاغ مدينة موناستير. وفي طريق العودة هاجم الإسبان مدينة قليبية ونهبوها، وأخذوا قرابة ألف أسير بمن فيهم الأولاد، كما قُتل عدد مماثل من الناس أثناء الدفاع عن المدينة [١٢١].

بعد جلاء الإسبان أقامت مدن الساحل حكماً ذاتياً، فشكلت حاكميات خاصة بها، واعترفت بسيادة الباب العالي اعترافاً إسمياً، وأخذت من وقت إلى آخر تدفع الجزية للعثمانيين، أو بشكل أدق للغزاة العثمانيين الذين كانت لهم قواعد هناك. أما السلطة المباشرة فكانت بيد القادة العسكريين المحليين وبعض الزعماء من أمثال الغلائي في سوسة والمكني في صفاقس المتمتعين بتأييد العشائر القوية في المدن وعائلات كبيرة من أمثال عائلة بنو السمومني في جزيرة جربة. غير أن سلطاتهم كانت بالغة الهشاشة كما كانوا في نزاع مستمر فيما بينهم. ففي المدن استمر الصراع دون توقف بين مختلف القبائل وساند الغزاة العثمانيون إحداها فيما راهنت أخرى على القيروان وبحثت قبائل ثالثة عن تغطية لها عند البدو. ان الفوضى التي عمّت الساحل وهزائم مولاي حسن وأخيراً وفاة حاكم القيروان سيدي عرفة، كل ذلك بدّل الوضع برمّته. وتمثلت أهم التغيرات في إحياء «الحزب» الحفصي القديم المستند إلى كبار الاقطاعيين وأعيان المدينة. وفي مطلع الأربعينات ظهر ذلك الحزب مجدداً على الساحة السياسية بقيادة ابن مولاي حسن أبو العباس أحمد أو مولاي حميدة كما لقب في تونس. كتب سرفانتس انه كان «أقسى وأشجع المغاربة في العالم» [١٢٢]، وظل على مدى سنوات عديدة في منصب حاكم عنّابة، فأقام علاقات واسعة مع الأعيان وكان حامياً لمصالحهم. وكتب عنه ميرسيه أنه كان يطلب المشورة من المتدينين المسلمين» [١٢٣]، كما أعلن عن تعاطفه مراراً مع كل من عانى من الاجتياح الإسباني [١٢٤].

تميّز الوضع آنذاك أن مولاي حسن أثار استياء الإسبان أنفسهم لعجزه عن القيام بأي أمر مفيد. وساد الانطباع أن الإسبان أخذوا يتحينون الفرص لخلعه ووضع سلطان آخر على العرش يكون أكثر جدارة به. وقد أشار دي ميندوسا مراراً في رسائله إلى ان الملك (المقصود مولاي حسن) تسبب للمغاربة بويلات كثيرة ولم يعد يطيقه أحد، فكان لا بد بالتالي من وضع حد للوضع الذي لم يعد يحتمل [١٢٥].

---

(١٢٠) Ibid. p. 55.

(١٢١) M. Bouali. op. cit. p. 159.

(١٢٢) ميغيل سيرفانتس. «مختارات في خمسة مجلدات» موسكو ١٩٦١، المجلد الأول، ص ٤٤٤.

(١٢٣) E. Mercier. op. cit. p. 56.

(١٢٤) M. Bouali. op. cit. p. 160.

(١٢٥) T. Guiga. op. cit. p. 50.

بعد معركة جمالة، أصبح مولاي حسن في عزلة. وتوقف الإسبان عن إمداده بالجنود والذخائر. وفي مدينة تونس وجد نفسه في عزلة أكبر. عام ١٥٤٣ لم يعد مولاي حسن يجد في حاشيته شخصاً يمكن أن يأتمنه على كنوزه، فسلمها إلى حاكم حلّق الواد ليحفظها له. وبعد هزيمة كارل الخامس قرب أسوار مدينة الجزائر في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٤١، عاش مولاي حسن في قلق دائم، وكان مجرد التفكير بظهور أسطول خير الدين بربروس كافياً ليجعله في ذعر شديد. وبهستيرية ظاهرة أخذ يطالب بإرسال التعزيزات له. وكان يفسر صمت كارل الخامس بانعدام الإرادة الطيبة عند سلطات حلّق الواد. وفي صيف ١٥٤٣ قرر شخصياً التوجه إلى إيطاليا لمقابلة الأمبراطور.

وما كاد يغادر مدينة تونس حتى حصل انقلاب في قصره. فأعلن أعيان المدينة وكبار موظفي القصر خلع مولاي حسن ودعوة مولاي حميدة لتسلم السلطة. وتمكن هذا الأمير الحفصي بمساعدة المواطنين من سحق الفصائل البدوية المسلحة ودخول المدينة. أما الحرس الإسباني الذي أبقاه كارل الخامس لحماية مولاي حسن فانحاز إلى جانب المتآمرين وأيّد الانقلاب[١٢٦].

شكل ذلك ضربة مؤلمة للاسبان. ورغم مشاركتهم الحرس والأعيان مشاعرهم تجاه مولاي حسن، إلا أنهم لم يثقوا بمولاي حَميدة أبداً باعتباره زعيم « حزب المعارضين »[١٢٧]. وفي مواجهته أيدوا ترشيح مولاي عبد الملك شقيق مولاي حسن ونادوا به سلطاناً لكنه توفي فجأة بعد ٣٦ يوماً. عندئذ أجلس الاسبان على العرش ابن شقيقه وهو أحد أبناء مولاي حسن الكثر الأمير مولاي محمد[١٢٨].

أما مولاي حسن فعندما علم في إيطاليا بأمر الانقلاب غيّر مخططاته فوراً وقام بمحاولة يائسة لاستعادة السلطة. فعمل في نابولي بصورة مستعجلة على تجنيد ألفي متطوع من المرتزقة معظمهم من العناصر المجرمة، وتحرك بهم إلى تونس للسيطرة عليها. وفي معركة قرب خربة القلاع على شاطىء الخليج التونسي تكبد هزيمة جديدة، وتم سحق قوات المرتزقة، فحاول مولاي حسن الهرب، لكنه وقع في مستنقع نتن كريه الرائحة « لم يمكن سحبه منه إلاّ بصعوبة بالغة »[١٢٩]. فأمر مولاي حميدة بإطفاء عينيه وحرمانه من النظر ووضعه تحت رقابة السلطات. ومع ذلك تمكن من الهرب بعد فترة، واختبأ أولاً في تونس ثم توجه إلى نابولي وانتقل بعدها إلى روما فانظم إلى اوغسبورغ

(١٢٦) M. Abdul Wahab. op. cit. p. 127. Voir aussi E. Mercier. op. cit. p. 56 et T. Guiga. op. cit. p. 57.
(١٢٧) H. de Grammont. op. cit. p. 105.
(١٢٨) E. Mercier. op. cit. p. 57. Voir aussi M. Bouali. op. cit. p. 163.
(١٢٩) E. Mercier. op. cit. p. 56.

حيث قابل كارل الخامس. فأمر له الأمبراطور بتعويض مالي صغير ثم أرسله إلى إيطاليا حيث عاش في عزلة تامة فانقطعت أخباره. وتقول بعض المصادر إنه اعتنق المسيحية، وقبل وفاته بوقت قصير سيّم راهباً [١٣٠]. وتقول مصادر أخرى إنه مات في معسكر إسباني قرب المهدية في تموز (يوليو) ١٥٥٠ وظل حتى آخر حياته يعلّل نفسه بأحلام السلطة [١٣١].

تمكن مولاي حميدة أبو العباس الثاني أحمد (١٥٤٣ ـ ١٥٧٠) أو ببساطة أحمد سلطان، كما تسميه بعض المصادر التونسية، من تدعيم مواقعه بسرعة نسبية. أما أخوه مولاي محمد فلم يتمكن من الحصول على ثقة الأهالي وسكان المناطق الزراعية. وكان له ما يبرر اعتباره صنيعة للإسبان ومكملا لسياسة مولاي حسن. وفي مواجهة خصمه عمد مولاي حميدة إلى اعلان تعاطفه مع العثمانيين بكل الوسائل. أما البدو فقد عاملهم كـ «كفرة عاديين» [١٣٢]. وتمثلت الركيزة الأساسية التي استند إليها، بالأعيان وكبار الرجال الحفصيين القدامى. وتسيير شؤون الدولة، على رئيس الحرس الإسباني خوان الذي تخلق بأخلاق المسلمين واقتبس ملابسهم، وكان يتمتع بثقة لا محدودة من قبل السلطان وكان وفياً له شخصياً. قال أ. ميرسييه، ان خوان ان «طاغية دموياً» ويقمع انتفاضات البدو دون رحمة ولا سيما ولد سعيد، وأصبح «السيد الحقيقي في تونس» [١٣٣].

أما الجماهير الشعبية التي حافظت على وفائها للعثمانيين فعبّرت في بادىء الأمر عن ولائها للسلطان الجديد، وأيدت سياسته المعادية للإسبان. وللبدو. وقد حاول مولاي حميدة السيطرة على الجماهير الشعبية، فانتهز كل فرصة سانحة ليصف نفسه أنه «نصير للوجود العثماني في المغرب» [١٣٤]، وكان بحاجة إلى العثمانيين في حربه ضد سلطان حلق الواد مولاي محمد.

أصبح طورغوت الحليف الأساسي للسلطان الجديد. وفي نهاية عام ١٥٤٣، افتداه خيرالدين بربروس بثلاثة آلاف اكيو (عملة قديمة)، فأطلق سراحه من الأسر. وفي عام ١٥٤٤، عاد طورغوت إلى تونس، فبادر فوراً إلى إحياء علاقاته القديمة والتحق بالحرب البحرية بنشاط مضاعف، فوضع خير الدين بربروس بتصرفه ٢٦ سفينة حربية [١٣٥]. والأهم من ذلك، كما قال ج. مونلاو، أنه زوده بـ «إذن» مرفق بـ «سلطة على القراصنة العثمانيين والمغاربة في غربي البحر الأبيض المتوسط» [١٣٦]. وفي عام ١٥٤٦، وبعد وفاة خير الدين بربروس أصبح طورغوت زعيماً

---

(١٣٠) H. de Grammont. op. cit. p. 106.

(١٣١) T. Guiga. op. cit. p. 58. Voir aussi J. Hammer. op. cit. T. 6. p. 178.

(١٣٢) E. Mercier. op. cit. p. 57.

(١٣٣) Ibid.

(١٣٤) T. Guiga. op. cit. p. 58.

(١٣٥) La Gravière. op. cit. p. 152.

(١٣٦) J. Moulaii «Les Etats Barbaresques», Paris 1979, p. 25.

للقراصنة العثمانيين والمغاربة. في تونس كان طورغوت بحاجة إلى قواعد لأسطوله، فأقام علاقات صداقة مع مولاي حميده. وفي عام ١٥٤٨، زار مدينة تونس شخصياً وقدم للسلطان أغلى الهدايا التي كانت منها حسناء إيطالية أسرت في كاستيلاّمار، فوعده مولاي حميدة بتزويده بالمواد الغذائية وإمداده بالمدافع وحبال السفن (١٣٧). وبدأ أتباع السلطان ينخرطون في قوات الغزاة واستطاعوا إلى حد كبير مساعدته في التمركز على الساحل من جديد.

في مواجهة **طورغوت رئيس** ومولاي **حيدة**، تشكل تحالف من الاسبان وسلطان **حلق الواد** مولاي محمد وانضم اليهم عام ١٥٤٣ **مرابطو** الشابّية. لكن خليفة **سيدي عرفة** وهو ابن شقيقة **محمد ابن أبو الذئيب** أدخل على الوضع تغييراً جذرياً. فبعد أن كان حليفاً للعثمانيين، تحول إلى شن حرب لا هوادة فيها ضدهم. لم تكن له كفاءات ومواهب سلفه، ومع ذلك حاول متابعة سياسته التي استهدفت إحياء دولة «**المرابطون**» في تونس. كان يرغب قبل كل شيء بالاستيلاء على الساحل الذي يصفه **بينيون** انه «في آن معاً مخزن حبوب ومستودع مؤونة وبوابة بحرية لهذا الملك البرّي» (١٣٨).

على الساحل ما لبث **محمد بن ابو الطيب** ان اصطدم بالعثمانيين، ولم يجد أفضل من عقد تحالف مع الاسبان وصنيعتهم مولاي **محمد**. فاعترف بسلطان **حلق الواد** كخليفة شرعي لمولاي حسن وزوّجه من ابنته. بيد أن «هذا الاتحاد مع ملك غير متوّج» كما لقبه **ج. بينيون**، كان من الصعب اعتباره انتصاراً كبيراً **لمحمد بن أبو الطيب**، فلم يقدم له إلاّ فائدة مؤقتة وكانت بشكل رئيسي ذات طبيعة عسكرية. ووجد الإسبان أخيراً «المغاربة»، فعلّقوا عليهم الآمال لإخضاع تونس بمساعدتهم.

أخذت العلاقات بين المتحالفين تتدهور عاماً بعد عام. ثم تطورت تلك العلاقات تدريجاً إلى حرب منهكة «اتسمت بأعمال الظلم والإغتصاب على يد الاسبان وأعمال السلب والنهب والسطو والاختلاس على يد البدو» (١٣٩). لكن أكثر من عانى من تلك الحرب هم سكان المدن ومزارعو القرى. وتحولت تونس إلى جبهة حرب حقيقية. وكان الإسبان من وقت إلى آخر يغيرون على ضواحي العاصمة، ويخرّبون الحدائق ويتلفون بساتين الزيتون. كما أخذت قوارب المدفعية تدخل الخليج وتقصف المدينة، وانتقاماً لذلك كان موالي **حيدة** يشنون الهجمات على **حلق الواد** دون أن يتمكّنوا من احتلالها. وشارك سكان العاصمة جميعهم في القتال. فقيل في ذلك: «حتى

(١٣٧) T. Guiga. op. cit. p. 65.

(١٣٨) J. Pignon. «La Tunisie turque et husseinite. Initiation à la Tunisie». Paris 1950. p. 100.

(١٣٩) M. Bouali. op. cit. p. 163.

الأولاد ذاقوا الأمرّين من الحرب الدائمة، فقد علمهم آباؤهم كيف يقذفون الحجارة لكي يتمكنوا من مقاتلة العدو عند الضرورة »[١٤٠].

على أن مصير تونس لم يتقرر هناك، بل على ميزان القوى في البحر الأبيض المتوسط وكذلك على نمو القدرة القتالية بفرسان مالطا. كان كل من مولاي **حميدة** وطورغوت ومن أحاط بهما، يعرف ان زعيم الفرسان كان يحاول نقل نشاطه إلى أفريقيا. وفي عام ١٥٤٨، تلقى **طورغوت** معلومات تفيد أن فرسان مالطا يخططون للاستيلاء على قلعة ساحل سرت كما أنهم عازمون على تحويل مدينة طرابلس الغرب إلى عاصمة لهم. واعتبر ذلك « مؤامرة دولية لا تقتصر أهدافها على مدينة طرابلس أبداً »، بل « مقدمة لاحتلال البلاد بأسرها »[١٤١]. ولمواجهة ذلك الخطر كان من الضروري القيام باستباق هجوم الفرسان والتمركز على شاطئ **سرت**.

اعتبر **طورغوت** أن مهمته الأساسية خلال سنوات ١٥٤٤ - ١٥٤٩ تتمثل بتحطيم مالطا. وبصفته قائداً غير مرتبط بأحد باستثناء ارتباطه المعنوي بالسلطان العثماني قرر تجاهل اتفاق الهدنة المعقود عام ١٥٤٥ بين كارل الخامس والسلطنة العثمانية. وخلافاً **لبكلربك** الجزائر وغيره من الممثلين الرسميين للباب العالي لم يوقف اعماله الحربية، بل شن خلال سنوات ١٥٤٦ - ١٥٤٨ حرباً بحرية فعلية على إيطاليا، فاجتاح شواطئ **صقلية وسردينية** وشبه جزيرة **إبينين**[١٤٢]. وفي عام ١٥٤٦، دمرت سفنه جزيرة **غوتسو**. وفي عام ١٥٤٧، أنزل قواته في جزيرة **مالطا**. وفي عام ١٥٤٨ استولى على خزنة فرسان مالطا وكانت تحـوي ٢٠ ألف دوكات بعد أن صدم السفينة التي تنقل مداخيل الفرسان المالية من عقاراتهم وممتلكاتهم الايطالية. وفي عام ١٥٤٩، قمع **طورغوت** حركة معادية للعثمانيين في **المهدية** قتل خلالها ابن شقيق خير الدين بربروس **حسن شلبي**، فاحتل طورغوت المدينة، واستقر في تلك « القلعة التي هي أفضل القلاع البحرية، والتي تصلح رأس جسر لمهاجمة مالطا وشواطئ صقلية وحماية جربه وشواطئ ليبيا » حسب تعبير **الطاهر** جيجا[١٤٣].

لكن انتصارات **طورغوت** بهتت بفعل فتور علاقاته بالباب العالي الذي لم يكن راضياً عن استقلاليته. وفي ١٢ نيسان (ابريل) ١٥٥٠، قدّم كارل الخامس احتجاجاً إلى السلطنة العثمانية واصفاً أعمال **طورغوت** رئيس بأنها انتهاك متعمد لاتفاق الهدنة فاستدعاه الوزير الأكبر **رستم باشا** إلى اسطمبول لاستيضاح الأمر منه. غير أن **طورغوت** رئيس فضّل التملّص من تلبية الدعوة[١٤٤].

---

(١٤٠) M. Bouali. op. cit. p. 164.
(١٤١) T. Guiga. op. cit. p. 96.
(١٤٢) La Gravière. op. cit. p. 154.
(١٤٣) T. Guiga. op. cit. p. 65.
(١٤٤) J. de Hammer. op. cit. T. 6. pp. 180 - 181.

وفي البحر التقت سفن **قابودان باشا** قائد الأسطول العثماني بسفن **طورغوت** فتبادلت التحية ثم افترقت فوراً في اتجاهين مختلفين [١٤٥].

اعتقد الاسبان ان **طورغوت رئيس** لا يعترف بتبعية لأحد، وأنه أصبح بالتالي وحيداً لا ينتظر مساعدة. وفي ربيع عام ١٥٥٠، أعدّوا حملة عسكرية كبيرة على تونس، شاركت فيها سفن مملكة **نابولي وصقلية وفلورنسة** ومقاطعة **البابا** وكان القائد العام لتلك الحملة الأميرال **أندريه دوريا** البالغ من العمر ٨٣ عاماً. ضم أسطول الحملة ٨٠ سفينة حربية منها ٥٢ سفينة قديمة أقلت على ظهرها ٤٠ مدفع حصار، وكميات كبيرة من الذخائر والمهمات العسكرية وأربعة آلاف جندي إنزال [١٤٦]. كان الجيش بقيادة نائب ملك صقلية **دون خوان دي فيغا**. وانضمت اليه في تونس قوات القبطان العام **لحلق الواد** وفرسان مالطا وبينهم ٥٠٠ فارس وكذلك الفصائل المسلحة التابعة لحاكم القيروان الشابّي **محمد بن أبو الطيب**، فبلغ مجمل عدد القوات خمسة عشر ألفاً [١٤٧].

في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٥٥٠ اقترب الأسطول الإيطالي - الاسباني من **المهدية**. فتولّى قيادة الدفاع عن المدينة **خيسار رئيس** وهو ابن شقيق **طورغوت** الذي تؤازره اضافة إلى الأهالي والمقاتلين العرب قوة من خمسمائة جندي من العثمانيين. وبعد مبارزة قصيرة بالمدفعية تحرك قسم من السفن الأوروبية. إلى الشمال، وتمكن بمساعدة برية من احتلال **سوسة وموناستير** حيث أخذ ١٢٠٠ أسير مع كميات كبيرة من الأسلحة والمواد الغذائية.

وفي ٢٨ حزيران (يونيو) ١٥٥٠، قام **دي فيغا** بإنزال قواته قرب أسوار **المهدية** وبدأ حصاراً للمدينة. أمّا **طورغوت رئيس** الذي كان في عرض البحر فعاد مسرعاً لنجدة الحامية المحاصرة وبرفقته ثلاثة آلاف وسبعمائة رجل من «المغاربة» و ٨٠٠ عثماني و ٦٠ خيالاً [١٤٨]. وعلى مشارف المدينة بين بساتين الزيتون نشبت معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة **طورغوت**، فاضطر للتراجع إلى **جربه**. وجاء دور مدينة **المهدية**. فخلال شهرين من الحصار صبَّت المدفعية الاسبانية على المدينة ثلاثين ألف قذيفة، منها أربعة آلاف وثمانمائة قذيفة من العيار الثقيل التي بإمكانها اختراق سور القلعة المزدوج. وفي ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٥٥٠، وبعد اقتحام عنيف، تمكن الإسبان من الاستيلاء على **المهدية**، وقتل عدد كبير من المدافعين عنها بينهم **خيسار رئيس**، كما وقع قرابة سبعة آلاف شخص في الأسر تمَّ اقتسامهم كرقيق وسبايا بين المنتصرين [١٤٩].

---

(١٤٥) La Gravière. op. cit. p. 162.
(١٤٦) T. Guiga. op. cit. p. 75.
(١٤٧) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 176.
(١٤٨) La Gravière. op. cit. p. 181. Voir aussi T. Guiga. op. cit. p. 76.
(١٤٩) J. de Hammer. T. 6. p. 179. Voir aussi T. Guiga. op. cit. pp. 77-79.

أدّى سقوط مدينة **المهدية** إلى إضعاف شديد لمواقع العثمانيين. ففقدوا الساحل الذي كان مقسّماً بين الإسبان ومرابطي الشابية. كانت **المهدية** وفق نص معاهدة ١٥٣٥ قد التحقت بحكم الأمبراطور مباشرة. أما **موناستير وسوسة** وغيرهما من مدن الساحل فانضمت إلى **محمد بن أبو الطيب**. كما أن معظم قبائل البدو هرعت للانحياز إليه. وفي **جربه** اندلعت انتفاضة شعبية توجه أحد زعمائها إلى **القيروان** طلباً للمعونة والحماية ضد العثمانيين. أما **توزر وتونس** وغيرهما من المدن التي اعترفت بسلطة مولاي **حميدة**، فأصبحت في موقف حرج، ويرى الطاهر جيجا أنها « بدأت تتراجع أمام ضغط حاكم حلق **الواد** »(١٥٠).

التجأ **طورغوت** مع فلول قواته إلى **قابس** في أقصى جنوب تونس، ومن هناك قام بحملة فاشلة على حفصة فأرغمَ على الانسحاب مرة أخرى، ولم يبق برفقته الاّ ١٨ سفينة وقاعدة صغيرة على مصب **وادي قابس** كانت معرضة في كل وقت للتدمير على يد الإسبان. وفي هذا الوضع العصيب طلب العَون من الباب العالي(١٥١)، واستجاب **سليمان العظيم** لطلبه على الفور وغفر له كل ذنوبه السابقة، ومنحه منصباً لديه. عين سليمان العظيم **طورغوت** في منصب رئيس رتبة، أي « قبطاناً على ٥٠ سفنية حربية » ثم عينه **سنجقدار** على قيرلي ـ ايلي (ليبانتو)، أي قائداً لفرقة الأدرياتيك في الأسطول العثماني، ووعده بمساعدة مباشرة في الحرب ضد فرسان مالطا.

---

(١٥٠) T. Guiga. op. cit. p. 81.

(١٥١) Ibid. p. 96.



تحرير ليبيا من سيطرة فرسان مالطا

كانت ليبيا المستعمرة الوحيدة لفرسان مالطا على ساحل افريقيا الشمالية. فقبل عام ١٤٩٨، كانت جزءاً من دولة الحفصيين، ثم خرجت من حكمهم في بداية عهد أبي عبدالله محمد الخامس (١٤٩٤ ـ ١٥٢٦)، وأسست دولة مستقلة تحت حكم «المرابطون» (١). وكان القسم الشرقي من البلاد يسمى سيرنيكا أو بَرقة يخضع لحكم سلاطين مصر المماليك. على ان السلطة فيها كانت عملياً للبدو الذين ظلوا على مدى ثلاثة قرون القوة الحاسمة في طرابلس وبرقة وفزّان. وتحولت البلاد بأسرها إلى مراعٍ باستثناء بعض المناطق الجبلية الصغيرة وشريط ضيق شمال طرابلس. تمت عملية تصهيرها المأساوي بسرعة مذهلة. ففي نهاية القرن الحادي عشر ومطلع الثاني عشر أقدمت أعداد كبيرة من قطعان البدو على تدمير آخر الحدائق وبساتين الزيتون في مناطق البلاد الداخلية. وفي مطلع القرن الرابع عشر انقرض ما تبقّى من المدن على ساحل برقة. ويرى بلانول ان من بين كل البلدان العربية ضربت برقة الرقم القياسي المطلق في البداوة التي طالت الشواطىء نفسها (٢).

في أواخر القرن الخامس عشر أسس المهاجرون الأندلسيون **درنة** ثم **بنغازي** التي حلت فيها جاعات المهاجرين القادمين من طرابلس وبلدان الشرق الأدنى. وتحولت تلك المدينة الصغيرة إلى ملاذ للقراصنة والتجار المسلمين المسافرين عبر البحر من الأسكندرية إلى المغرب وبالعكس. كانت طرابلس المدينة الوحيدة الكبيرة المزدهرة بفضل تجارة الترانزيت، لا سيما مع البلدان

---

(١) R. Brunschwig. op. cit. T. I. p. 280 et T. 2. p. 351.
(٢) Xavier de Planhol. op. cit. p. 152.

الأفريقية، وفيها كانت تنتهي إحدى طرق الذهب الأفريقي الرئيسية الثلاث. داخل البلاد، كانت **ودّان وسبها وزويلة** وغيرها من المدن ـ الواحات محطات تتوقف فيها القوافل التجارية، كما كانت تؤمن الاتصال مع مناطق عمق القارة.

في ٢٥ تموز / يوليو ١٥١٠، احتل الإسبان بقيادة **دون بيدرو دي نافارو** (Don Pedro de Navaro) طرابلس. فعزموا عن استصلاح البلاد وإسكانها، إذ كانوا يحلمون بالاستيلاء على تجارة طرابلس بالذهب. وانتقلت طرابلس والمناطق الساحلية القريبة منها إدارياً إلى سلطة نائب ملك صقلية (٣)، الذي طلب في تشرين الأول / أكتوبر ١٥١١ من أتباعه في باليرمو وغيرها من المدن دعوته للانتقال إلى أفريقيا والإقامة فيها، مع وعد أن يحصل هؤلاء المستعمرون على أرض ومساكن جيدة وإعفاء كامل من الضرائب. وأعفي التجار الإسبان من دفع الرسوم الجمركية، في حين كان غيرهم مرغماً على دفع الرسم بنسبة ٥٠ بالمائة من قيمة البضاعة (٤).

بيد أن مخططات استعمار البلاد لم يكتب لها النجاح. أولاً، بسبب عدم العثور في إيطاليا على راغبين بالانتقال إلى أفريقيا والإقامة فيها حتى من بين أولئك الذين وُعدوا بالعفو العام عمّا اقترفوا من جرائم ضد القانون. وثانياً، لأن طرابلس فقدت أهميتها التجارية بعد انتقالها إلى حكم إسبانيا. والحقيقة أن الإسبان تسلّموا طرابلس مدينة خالية خاوية. فخلال الهجوم عليها قتل قرابة ستة آلاف من سكانها وأخذ عشرة آلاف من الأسرى بيعوا بالمزاد العلني في باليرمو (PALERMO)، وهرب معظم الباقين أو هُجّروا من المدينة. علم مواطنو المدينة بأمر الحملة على طرابلس قبل وصول الأسطول بخمسة وثلاثين يوماً، فتمكنوا من إخراج ثرواتهم منها في الوقت المناسب، وانتقلوا إلى **غريان ومصراطة وتاجورا** وهي قرية ريفية تقع على مسافة اثني عشر كيلومتراً إلى الشرق من طرابلس، وقد تحولت مع وصول اللاجئين إليها إلى مركز تجاري وسياسي ناشط، وأصبحت في الواقع بديلاً للعاصمة المحتلة. فبدأ التجار المسلمون يؤمّونها مع القوافل لموافاة زبائنهم، وشد بعضهم رحاله إلى **مصراطة** حيث كان ينتظرهم تجار البندقية الذين حولوا نشاطهم إليها احتجاجاً على التمييز التجاري الذي يمارسه الاسبان (٥).

أضحت المستعمرات الإسبانية في ليبيا بعزلة عن باقي أنحاء البلاد. وكان «المغاربة المتمردون» يقطعون باستمرار أي اتصال بين المناطق الحرة والمناطق المحتلة. حتى أولئك المواطنون الذين بقوا

---

(٣) E. Rossi. op. cit. pp. 120 - 121 et T. Guiga. op. cit. p. 93.
(٤) T. Guiga. op. cit. p. 93.
(٥) T. Guiga. op. cit. p. 94.

في **طرابلس وجنزور** وغيرهما من المناطق الساحلية أخذوا ينزحون تدريجياً إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة المتمردين (٦).

كانت **غريان وتاجورا** القاعدتين الرئيسيتين للمقاومة، ففيهما احتشدت القوات الأساسية للمجاهدين الليبيين الذين تابعوا الحرب بصلابة وعناد. وقامت تلك القوات مرتين ـ في نهاية تموز/ يوليو ١٥١٠ وشباط/ فبراير ١٥١١ ـ بمهاجمة طرابلس في محاولات لتحرير المدينة المحصنة تحصيناً جيداً. وأثارت هزيمة الإسبان في **جَربَه** في ٣٠ آب/ أغسطس ١٥١٠ فرحاً عظيماً بين تلك القوات. فقد أدت الهزيمة إلى تعزيز هيبة العثمانيين الذين استُقبلوا بالترحيب في تاجورا ومصراطة وبنغازي وغيرها من مدن ليبيا الساحلية. واستقبلت سفن الأخوة بربروس بترحيب حار ومميز. وفي أعوام ١٥١٢ ـ ١٥١٥ اقتربت السفن العثمانية من شواطىء طرابلس وقامت بقصف التحصينات الإسبانية.

دلت العمليات المشتركة التي نفذها العثمانيون والمجاهدون الليبيون على قيام تعاون وثيق بين هاتين القوتين المعاديتين للإسبان. وعلى غرار بقية بلدان المغرب العربي كانت طرابلس تربة خصبة لانتشار الإشاعات الداعية إلى محبة العثمانيين. ولم يُستقبل العثمانيون إلاّ بصفتهم «محررين من الاضطهاد المسيحي»، فأحيطوا بالهالة التي تسبغ على «حماة الدين» (٧). وبات الناس ينتظرون الخلاص والعون على يد «التركي العظيم» الذي يمثل الخليفة الشرقي القوي والعادل. وذكرت بعض الوثائق أن سكان طرابلس، قبل سقوط مدينتهم، وجّهوا نداء إلى اسطمبول يَطلبون فيه العون والمساعدة (٨).

تصاعد النفوذ العثماني وازدادت هيبة السلطنة إلى درجة كبيرة بعد سقوط الدولة المملوكية. وفي عام ١٥١٧، التحقت **برقة** وغيرها من المستعمرات التابعة للمماليك بسلطة الباب العالي وأصبحت تحت حمايته، لكن ليبيا لم تنضم رسمياً إلى السلطنة العثمانية. وفي عام ١٥٢٠، وصل وفد يمثل سكان تاجورا إلى اسطمبول والتمس من سليم الأول المساعدة العسكرية ويقول ابن غلبون وغيره من المؤرخين الطرابلسيين إن السلطان استجاب لطلب الوفد بعطف (٩)، فأرسل إلى طرابلس أسلحة وفصيلاً من المتطوعين العثمانيين، وعين ممثلاً عنه في **تاجورا** ما لبث أن «اعترفت به قيادة مقاومة السكان المحليين» (١٠).

---

(٦) E. Rossi. op. cit. pp. 121 et 124.

(٧) Ibid. p. 147.

(٨) T. Guiga. op. cit. p. 91.

(٩) E. Rossi. op. cit. p. 131.

(١٠) ن. إ. بروشين. «طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطه (١٥١٠ ـ ١٥٥١)»، ص ٢٠٧.

كل ذلك، حتى في أدق تفاصيله، يذكّر بالأحداث التي جرت في الجزائر في عام ١٥١٨. وفي ذلك تبرير للفكرة القائلة إنه رغم غموض قضية الوفد [١١] كما قال بروشين، فإن طرابلس اعترفت عام ١٥٢٠ بسيادة الباب العالي العلية، وتحولت إلى ولاية تابعة للسلطان العثماني. وعندما طالب السلطان الحفصي مولاي حسن الذي اعتلى العرش عام ١٥٢٦ بحقه في حكم ليبيا، رفض سكان تاجورا الاعتراف بسلطته واستنجدوا «بالتركي العظيم» [١٢].

في تلك الأثناء، كانت تاجورا قد تحولت إلى مركز لدولة طرابلس المتمردة التي تذكر «بالوصاية» الجزائرية لخير الدين بربروس. وقد تزعم دولة طرابلس **خير الدين قرمان** القائد العثماني الذي تمتع بثقة خير الدين بربروس فناب عنه في طرابلس، وأطلقت عليه المصادر الأوروبية اسم «ملك تاجورا» وتمكن من اكتساب عطف السكان المسلمين بمآثره في البحار. كتب رحالة أوروبي في عام ١٥٣١ في معرض وصفه لتاجورا أن «أحد العثمانيين أصبح سيد المدينة المشار إليها بموافقة السكان» [١٣]. ومن المعتقد أن خير الدين قرمان عيّن أول ممثل في تاجورا تماشياً مع تقاليد الباب العالي.

ومهما كان واقع الأمر، فإن خير الدين قرمان هو الذي تزعم النضال ضد الوجود الاسباني في طرابلس في عشرينات القرن السادس عشر، فحول تاجورا إلى قلعة جيدة التحصين معززة بالمدفعية والأبراج الحصينة، كما جهز مرفأ صغيراً قادراً على استقبال سفن القراصنة. وتلقى الأسلحة والذخائر من خير الدين بربروس، إضافة إلى ما كان يرده من الحكومة العثمانية في اسطمبول. وتشكل جيشه من العثمانيين و«المغاربة المتمردين» المستندين إلى دعم كبير من سكان المدينة، ومن المزارعين [١٤]. وبمساعدة حلفائه من **غريان وجبل نفوسة،** قام خير الدين قرمان بمحاصرة الحاميات الإسبانية على سواحل ليبيا، فبات يقض مضاجعها بهجماته المتلاحقة.

أصبح وضع الإسبان بالغ الصعوبة، وانعدم الحديث عن استصلاح أراضي البلاد وإسكانها.

وتركز اهتمام الإسبان على الاحتفاظ بمدينة طرابلس أو بصورة أدق عدم السماح بانتقالها إلى أيدي المسلمين. لكن الاحتفاظ بتلك المدينة التي باتت فقيرة وخاوية وعرضة لهجمات العدو المتلاحقة، كان مستحيلاً من الناحية العملية. حيال ذلك، يقول الطاهر جيجا، برزت فكرة تسليمها إلى فرسان يوحنا الذين كانوا يتعطشون لاستعادة هيبتهم أمام الفرنجة [١٥].

---

(١١) المرجع ذاته.
(١٢) E. Rossi. op. cit. p. 130.
(١٣) E. Rossi. op. cit. p. 129.
(١٤) Ibid. p. 130.
(١٥) T. Guiga. op. cit. p. 94.

في شهر كانون الأول / ديسمبر ١٥٢٢ ، سحقت قوات سليمان العظيم فرسان يوحنا في جزيرة رودس، ففقدوا آخر قاعدة لهم في الشرق وهرب من تبقى منهم إلى **مسينا** حيث وجدوا أنفسهم دون عمل، وأصبح مصير الجماعة نفسها موضع تساؤل. وفي تشرين الأول / أكتوبر ١٥٢٣ ، وبإلحاح من البابا في روما، وافق كارل الخامس على إعطاء مالطا وطرابلس إلى فرسان يوحنا. وفي ٢٤ آذار / مارس ١٥٣٠ ، وبعد ست سنوات من المفاوضات الشاقة، وقّع كارل الخامس صكّاً يمنح بموجبه فرسان يوحنا حقوق الملكية الإقطاعية على مالطا وأوجوستا وطرابلس مع كل القصور والقلاع والأراضي التابعة [١٦] . ولإثبات ولائهم للأمبراطور، تعهد الفرسان أن يرسلوا له كل عام صقراً فيؤكدوا بذلك حقه بالسيادة.

شكل فرسان القديس يوحنا الأوروشليمي كياناً عسكرياً وسياسياً مستقلاً بقيادة الرئيس الأعلى للجماعة الذي جعل مقر إقامته في «المدينة» في جزيرة مالطا. كان الرئيس الأعلى حاكماً للفرسان مدى الحياة ينتخب في اجتماع خاص يعقده «فرسان الحق» كما كانت تُسمَّى جماعة فرسان يوحنا. ومن الشروط التي كان لا بد أن تتوافر في رئيس الجماعة العظيم، أن لا يقل عمره عن ١٨ عاماً وأن يكون قد شارك في ثلاث حملات عسكرية على الأقل ضد المسلمين، وأن يكون قد أقام في مقر قيادة الجماعة مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر [١٧] .

أما أفراد «فرسان الحق» فكانوا يختارون من خيرة أبناء الأشراف الكاثوليك أي أحفاد ثمانية أجيال متعاقبة على الأقل من الأجداد النبلاء. وكان بينهم عدد كبير من أبناء جنوب فرنسا وإسبانيا. وشكل هؤلاء الأغلبية السائدة في جماعة الفرسان المقسّمة إلى ثماني «لغات» أو «أمم»: البروفانس، الأوڤيرن، فرنسا، أراغون، كاستيليا مع ليون والبرتغال، إيطاليا، إنكلترا، ألمانيا. وكان على رأسهم قادة قبضوا على زمام السلطة بأكملها في «الفصيل» وشكّلوا مجلساً سرياً يعقد اجتماعاته برئاسة الرئيس الأعلى. وفقاً للتقاليد، كانوا يحتلون مناصب رفيعة في سلم المقامات العليا في الجماعة. وكان كل «فصيل» يتمتع في البلد الذي جند فرسانه منه بمنزلة رفيعة الشأن ومن أصحاب الجاه والثروات الطائلة التي تغذّي الخزينة العامة للجماعة.

كان هؤلاء الفرسان يعلّقون صليباً مالطياً أبيض ذا ثمانية خطوط، وكانوا يمثلون قوة عسكرية مخيفة، «ووحدات ضباط» فريدة من نوعها في العالم الكاثوليكي.

عند التحاق الفرسان بالجماعة كانوا يقسمون «أن لا ينكسوا راية ولا يطلبوا رحمة ولا

---

(١٦) E. Rossi. op. cit. pp. 125 - 126.

(١٧) T. Guiga. op. cit. p. 63.

يتراجعوا ولا يستسلموا »[١٨]. كان حملة السلاح منهم، أي الجنود، يختارون من أبناء الفلاحين وعائلات المدن الأوروبية، كما تشكلت وحدات مساعدة لهم من المرتزقة ولا سيما في إيطاليا. فتحولت تلك الوحدات إلى حاميات لقصور فرسان القديس يوحنا وحصونها.

شكل فرسان مالطا قوة الفرنجة الرئيسية الضاربة. ومنذ عام ١٥٣٠، لم تحصل أي حملة عسكرية كبيرة في غرب البحر الأبيض المتوسط دون مشاركة فرسان مالطا. وخلال سنوات ١٥٣٥ - ١٥٤٠، أنزل الفرسان جنودهم مراراً على شواطىء تونس. وفي عام ١٥٤١ بلغوا أسوار مدينة الجزائر، كما أن سفنهم كانت تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط بصورة مستمرة. وهاجموا شواطىء أفريقيا الشمالية ووصلوا إلى المشرق. كان فرسان مالطا في نظر المسلمين بمثابة القراصنة المرعبين القساة، تماماً كما كان **طورغوت رئيس** و « صقوره »[١٩] في نظر الفرنجة.

في ليبيا قرن فرسان مالطا سياسة الإرهاب بالدبلوماسية. إذ علق الفرسان آمالهم الكبرى على السلطان الحفصي **مولاي حسن**، فأقاموا معه علاقات ودية لا بل علاقات تحالف[٢٠]. غير أن مولاي حسن هُزم في الصراع على السلطة في ليبيا. وذلك في بداية عام ١٥٣١ عندما قمع **خير الدين بربروس** انتفاضة أنصار مولاي حسن في **تاجورا**. ثم استولى خير الدين **قرمان** في مطلع عام ١٥٣٣ على تلك المدينة بعد أن استسلمت في كانون الأول/ ديسمبر ١٥٣٢ للقوات الحفصية بعد حصار طويل[٢١]. واكتملت الهزيمة باستيلاء خير الدين بربروس على تونس عام ١٥٣٤ حيث وضع حداً نهائياً للدسائس الحفصية على ليبيا.

انتهج المالطيون في مستعمراتهم سياسة القمع والتنكيل. فوصل أول حاكم من فرسان مالطا إلى طرابلس في شهر تموز/ يوليو ١٥٣٠، وخضعت لحكمه المدينة ومختلف أرجاء الشاطىء الممتد إلى الغرب من طرابلس بما في ذلك **جنزور وزواغة** (طرابلس القديمة) **والزاوية** وغيرها من المناطق السكنية. وحاول الفرسان إقامة حكم صارم هناك، فطبقوا نظام الرهائن والغرامات[٢٢]. ولقمع المناوئين لهم استخدموا قبائل « المغاربة المسالمين » أي البدو الذين وضعوا أنفسهم في خدمتهم.

أثار حكم فرسان مالطا كراهية السكان المسلمين. وفي عام ١٥٣١، انتفض سكان الساحل ضد المستعبدين الأجانب، وتمكنوا بمساعدة خير الدين بربروس من القضاء على اتباع الحفصيين في

---

(١٨) T. Guiga. op. cit. p. 62.
(١٩) La Gravière. op. cit. p. 195.
(٢٠) T. Guiga. op. cit. pp. 94 - 95. وبروشين، مرجع سابق، ص ٢٠٣.
(٢١) E. Rossi. op. cit. p. 130.
(٢٢) ن. أ. بروشين، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

تاجورا، ورفعوا لواء «الجهاد» الذي تزعمه خير الدين **قرمان**، مستنداً بشكل أساسي إلى فلاحي المناطق الشمالية من ليبيا وبعض قبائل البدو الرحل وأهالي **جبل نفوسة** الذين احتفظوا بمعتقداتهم الدينية. وفي البحر جاءهم العون من المحاربين الموريسكيين والعثمانيين المتمركزين في **مصراطة وبنغازي ودرنة**، فشكلوا النواة الأساسية لجيش الجهاد الذي التفت حوله فصائل الفلاحين المسلحة والتي تكونت من متطوعي قرى ليبيا الشمالية بما فيها المناطق المحتلة.

كتب بروشين ان **خير الدين قرمان** تلقى من خير الدين بربروس تفويضاً خطياً حوّله إلى حاكم مطلق على ليبيا (٢٣). فتعهد المسلمون جميعهم بالخضوع له وإطاعته وتقديم كل مساعدة ممكنة له ودفع الزكاة والعشور والإلتحاق بفصائل المجاهدين.

خلال فترة ١٥٣٢ - ١٥٣٤، صدّ خير الدين قرمان هجمات القوات الحفصية وبدأ بتضييق طوق الحصار حول طرابلس. كانت المهمة الأساسية التي وضعها خير الدين بربروس أمامه تقضي بالاستيلاء على تلك القلعة الصليبية. فأخذ المسلمون ينصبون الكمائن ويخوضون المعارك ويقرّبون تحصيناتهم من المدينة نفسها بصورة تدريجية. وفي عام ١٥٣٥، شيّدوا برج القاعدة على بُعد ميل واحد من طرابلس، وركزوا فيه بطارية مدفعية ثقيلة أخذت تقصف المدينة على نحو متواصل (٢٤).

لكن قوات الانتفاضة لم تتمكن من الاستيلاء على طرابلس. فقام حاكم المدينة القوي **بوتيجيلاّ** بتنظيم دفاع متين عن المدينة بمهارة، وتمكن الفرسان دون عناء من صدّ الهجوم العنيف الذي شنته قوات الفلاحين التابعة **لقرمان**. وفي عام ١٥٣٥، احتل الإسبان مدينة **تونس** وبذلك حرموا رجال الانتفاضة في ليبيا من أي مساندة مباشرة من جانب **خير الدين بربروس**. فاستغلّ ذلك **بوتيجيلاّ** وشرع في هجوم مضاد. للأسف لا تقدم المصادر صورة كاملة وواضحة للأحداث. نعرف فقط أن الفرسان طوّقوا برج القاعدة، واحتلوه وفكوا طوق الحصار بعد أن حطموا قوات الانتفاضة. في تلك المعركة قتل خير الدين **قرمان** ربما عند انقضاض الفرسان على برج القاعدة كما يقول المؤرخ التونسي الطاهر جيجا (٢٥).

بعد مقتل خير الدين قرمان في بداية عام ١٥٣٨، تسلم **مراد آغا** زمام قيادة الحرب ضد فرسان مالطا، وكان أحد القادة البارزين لحركة الفلاحين في ليبيا. وليست لدينا معطيات كاملة وموثوقة عن نسبه كباقي زعماء الفلاحين. ويعتقد بعض المؤرخين الطليان أن **مراد آغا** من المرتدين، أي أنه أوروبي اعتنق الإسلام (٢٦). وكان بسطاء الناس يعتقدون أنه شقيق طوزغوت رئيس (٢٧). وربط

(٢٣) المرجع ذاته، ص ٢٠٥.

(٢٤) T. Guiga. op. cit. p. 94. et E. Rossi. op. cit. p. 131.

(٢٥) T. Guiga. op. cit. p. 95.

(٢٦) E. Rossi. op. cit. p. 134.

(٢٧) E. Rossi. op. cit. p. 146.

ابن غلبون وبعض من أعقبه من المؤرخين اسم مراد آغا بالبعثة الطرابلسية لعام ١٥٢٠ . وقيل إنه كان « **عبداً** » لسليم الأول عرف اللغة العربية فعمل ترجماناً لدى الباب العالي ، ثم أرسله سليم الأول في بعثة جوابية إلى تاجورا لكي يمثله هناك [٢٨] .

يرجع أن **مراد آغا** كان قائداً عثمانياً [٢٩] ومن المحتمل أنه شارك فعلاً في بعثة ١٥٢٠ ، ومنذ ذلك التاريخ ربط مصيره بنضال الفلاحين الليبيين. مهما يكن من أمر فمراد آغا ، كان واحداً من أنصار خير الدين بربروس ، وبعد مقتل خير الدين قرمان أصبح معتمده في طرابلس وكان يحظى بكامل ثقته [٣٠] أما الفرنجة فأطلقوا على **مراد آغا** لقب « ملك تاجورا » كما لقبوا سلفه ، وتمتع بنفوذ قوي لا سيا في المناطق الزراعية في شمال ليبيا [٣١] . وخلافاً لعدد كبير من الزعماء العثمانيين الآخرين الذين كانوا عندما يتقلدون المناصب العليا لا يتورعون عن إبراز مظاهر الأبّهة والترف ، اختار مراد آغا نمطاً بسيطاً لحياته . وقد وصفه المؤرخ الليبي **كريم الدين البّراموني** أنه « كان أعظم الحكام العثمانيين في طرابلس وعاش من كدّ يديه وعمله كخيّاط ملابس [٣٢] » ، تميّز بالإنصاف وعدم المحاباة ، وذاعت شهرته بين الناس البسطاء بصفته « قديساً » ، وتخلد ذكره كفاتح عظيم حرر البلاد من طغيان « الفرنجة » [٣٣] .

في الثلاثينات والأربعينات ، ورغم انتصار **بوتيجيلا** ، بقي وضع فرسان مالطا بالغ الصعوبة . بعد الاستيلاء على مدينتي **بريفيزا** (١٥٣٨) **والجزائر** (١٥٤١) ، وأصبح الأسطول العثماني سيد الموقف في البحر لا ينازعه أحد . وفي ليبيا استطاع **مراد آغا** توحيد مختلف قوى المنتفضين حوله . وبعد لجوئه إلى استراتيجية الخنق البطيء لفرسان مالطا عمد إلى تدعيم تحصيناته والإكثار منها وإقامة الحواجز على الطرق وتثبيت نقاط الحراسة عليها . هكذا قطع كل طرق المواصلات التي تربط طرابلس بمناطق البلاد الداخلية [٣٤] ، وكان يتلقى المساعدات باستمرار من بربروس وذكرت بعض المعلومات ، أن عمارة من الأسطول العثماني وصلت إلى تاجورا عام ١٥٤٢ وأنزلت قوات على شواطئها ، وتوجهت على الفور للانضمام إلى الوحدات الفلاحية المسلحة [٣٥] .

قلقت قيادة فرسان مالطا قلقاً شديداً ، ولم تشارك في التفاؤل الذي لوحظ بين الأشراف

(٢٨) Ibid. pp. 131 - 132.
- انظر أيضاً : ن . أ . بروشين « مرجع سابق » ص.ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢٩) E. Rossi. op. cit. p. 131 et E. Mercier. op. cit. p. 73.

(٣٠) E. Rossi. op. cit. p. 132.

(٣١) Ibid. p. 136.

(٣٢) Ibid. p. 147.

(٣٣) Ibid. p. 147.

(٣٤) T. Guiga. op. cit. p. 95.

(٣٥) ن . أ . بروشين ، « مرجع سابق » ، ص ٢٠٩ .

الاسبان المتحلقين حول نائب ملك نابولي وباليرمو، والذين ما كادوا يحرزون نصراً ضئيلاً حتى بدأوا التخطيط للمشاريع الكبيرة. فقدم نائب ملك صقلية إلى كارل الخامس في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤٠، أي بعد عودته من حملته على تونس ببضعة أيام، مشروع حملة جديدة على جربه وتاجورا مقترحاً القضاء على مراد آغا وقواته المتعددة الألوان والجنسيات [٣٦].

أما فرسان مالطا فأخذوا يتصرفون بصورة أكثر واقعية. إذ أدركوا ان حظهم ليس كبيراً. وكانوا يعرفون أن كارل الخامس فقد حماسه بالنسبة إلى المغرب بعد هزيمته على مشارف مدينة الجزائر في تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٤١. وترسخت القناعة عموماً في دوائر السلطة العليا بعدم جدوى الجهود العسكرية المبذولة في شمال أفريقيا والتي ليست لها أي آفاق لجهة تثبيت الأقدام، وتعزيز المواقع في تلك البلاد. كانت قيادة فرسان مالطّ تعي المصاعب الماثلة أمامها، فأجرت حساباتها على أساس ان تحصينات طرابلس القديمة، وحاميتها القليلة العدد، لم تكن في وضع يسمح لها بمواجهة هجوم مشترك يشنه الأسطول العثماني وقوات انتفاضة مراد آغا. فكتب الرئيس الأعلى للفرسان خوان دوميديس عام ١٥٣٩ إلى كارل الخامس ما يلي: «إما أن تساعد عظمتك على إحاطة المدينة من جميع الجهات بأسوار جديدة ومتينة مع أبراج قوية على جوانبها تحميها خنادق دفاعية عميقة، أو تصدر أمراً... بنسف القلعة وردم المرفأ واغراق السفن المحملة بالحجارة والرمول على مدخلها» [٣٧].

كان وضع الفرسان لا يدعو إلى الاطمئنان فعلاً. في مطلع ١٥٤٠، أحرز مراد آغا انتصارات جديدة. وفي عام ١٥٤٢، وبعد وصول التعزيزات العثمانية، عمَّت مستعمرات فرسان مالطا انتفاضة شاملة. ففي المناطق المحتلة شق الفلاحون عصا الطاعة وامتنعوا عن دفع الضرائب [٣٨]. وفي عام ١٥٤٥، تم الاعتراف بمراد آغا قائداً لشعب غريان فوحَّد بذلك تحت سلطته كل المناطق الإسلامية في ليبيا. وفي ٧ كانون الثاني (يناير) ١٥٤٧، توجه الرئيس الأعلى لفرسان مالطة بنداء إلى البابا يطلب فيه العون، لأن جميع «مغاربة» البلاد الذين خاضوا معارك متواصلة ضد الفرسان قد توحَّدوا حول «ملك» تاجورا ومجموعة من العثمانيين، وبنتيجة ذلك تكبد الفرسان خسائر فادحة، وان قوات مراد آغا تتزايد باستمرار، وان خيرالدين بربروس، وحتى وفاته عام ١٥٤٦، طورغوت ظلاً يقدمان له عوناً كبيراً. وطلب الرئيس الأعلى للفرسان من البابا أن يرسل له أربعة أو خمسة آلاف جندي، مؤكداً أنه لا يستطيع قهر مراد آغا من دون مساعدتهم [٣٩].

(٣٦) T. Guiga. op. cit. p. 54.
(٣٧) T. Guiga. op. cit. pp. 95 - 96.
(٣٨) E. Rossi. op. cit. p. 133.
(٣٩) Ibid. pp. 134 - 135.
- انظر أيضاً ن. أ. بروشين. مرجع سابق، ص ٢١٠.

بانتظار التعزيزات اقتصرت عمليات الفرسان على حملات تأديبية صغيرة نسبياً. ففي عام ١٥٤٥، شنوا حملة على منطقتي **العزيزية وجنزور** فقتل عدد كبير من المتمردين، ووقع في الأسر قرابة ٤٠٠ شخص. وفي فترة ١٥٤٦ - ١٥٤٩، شن الفرسان بضع حملات أخرى حاولوا خلالها تدمير تحصينات المسلمين التي لا تبعد عن طرابلس أكثر من ثلاثة أميال فقط، لم يتمكنوا من فك الكماشة التي كانت تأخذ بخناق المدينة.

عام ١٥٤٨، انتشرت شائعات عن عزم الفرسان نقل عاصمتهم إلى طرابلس، فكثف **مراد آغا** اتصالاته **بطورغوت**، وقرر الزعيمان الإسراع ما أمكن في تثبيت مواقعهما على شواطىء **خليج سيرت** وتأمين حماية مشتركة لشواطىء تونس وليبيا. وفي عام ١٥٤٩، وضع **مراد آغا** بتصرف **طورغوت** فصيلاً من الرماة بلغ تعداده ألف رجل من الذين شاركوا في احتلال **المهدية**. غير أن العملية المضادة التي نفذها **دون خوان دي فيغا** عام ١٥٥٠ والتي استطاع بنتيجتها الاستيلاء على المهدية أثارت فوضى في معسكر المنتفضين. فظن **مراد آغا وطورغوت** أن في المسألة «مؤامرة دولية» كبيرة، ولم يضيعا الوقت، بل توجها إلى الباب العالي بنداء يطلبان منه المساعدة العسكرية [٤٠]. واستجابت الحكومة العثمانية، للنداء بطيبة خاطر. واعتبر سليمان العظيم الاستيلاء على المهدية انتهاكاً لمعاهدة الهدنة وقرر استئناف العمليات العسكرية. وتمت استعداداته بسرية تامة وانتهت قبيل صيف ١٥٥١ عندما خرج أسطول عثماني قوامه ١٤٠ سفينة من مختلف الأحجام والأنواع إلى عرض البحر بقيادة قابودان - باشا **يوسف سنان**، وهو أميرال بلاط الباب العالي والأخ الشقيق للوزير الأكبر **رستم باشا**. ثم انضمت إليه عمارات فرقتي بحر إيجه وبحر الأدرياتيك وكانتا بقيادة «الذئبين البحريين» المحنكين **صلاح رئيس** سنجقدار **رودس وطورغوت رئيس** سنجقدار ليبانتو. من أجل تضليل العدو قاما بمناورة لتحويل انتباهه عن حقيقة نياتها. ففي ١٨ تموز شنا هجوماً على مالطا، وبعد تبادل القصف لفترة قصيرة أنزلا جنودهما في جزيرة أوجوستا وأخذا خمسة آلاف أسير ثم استدارت سفنهما نحو الجنوب واتجهت بأقصى سرعتها إلى خليج سيرت.

في ٥ آب (أغسطس) ١٥٥١، ظهر الأسطول العثماني قبالة مدينة طرابلس وهي الهدف الرئيسي للحملة. ودون اضاعة للوقت قام العثمانيون بإنزال قواتهم وقوامها عشرة آلاف جندي بما فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة إنكشاري مع عدد كبير من قطع المدفعية ومعدات الحصار [٤١]. وفي **تاجورا** وزواره انضم العثمانيون إلى قوات مراد آغا المعززة بإعداد كبيرة من الفصائل المسلحة المشكّلة من الفلاحين المحليين وأهالي طرابلس. وعند اقترابهم من المدينة باشر العثمانيون والمجاهدون الليبيون فوراً باتخاذ الاستعدادات للانقضاض عليها. فشرعوا في حفر الخنادق ونشر

(٤٠) T. Guiga. op. cit. p. 96.

(٤١) La Gravière. op. cit. p. 196.

بطاريات المدفعية... إلخ. كانت حامية طرابلس بقيادة قائد فصيل أوڤيرن واسمه **غاسبار دي فالييه** وفي أمرته ثلاثمائة فارس مالطي وقرابة ٦٠٠ مرتزق ايطالي وحوالى مائة عسكري عربي كانوا في الخدمة العسكرية لدى الفرسان.

رفض **دي فالييه** إنذار **يوسف سنان**، فباشر العثمانيون في ٨ آب (أغسطس) ١٥٥١ بقصف طرابلس. في البدء أخذت مدفعية القلعة ترد بقصف مماثل. لكنها ما لبثت ان تعطلت بعد فترة قصيرة، ودمرت الأسوار. ومما زاد الطين بلة أن مستودعات البارود تفجّرت. والأهم من كل ذلك ان المرتزقة الطليان رفضوا القتال وطالبوا بأخذهم رهائن. وفي نهاية المطاف أشعلوا تمرداً حقيقياً، واضطر **دي ڤالييه** إلى ايقاف المقاومة. وفي ١٤ آب (أغسطس) ١٥٥١، وبوساطة السفير الفرنسي **دورامون** استسلمت المدينة [٤٢]. ثم أجلي عنها من تبقّى من الفرسان على قيد الحياة وقد ناهز عددهم المائتين بواسطة السفن الفرنسية إلى مقر قيادة فرسان مالطا حيث أحيلوا بعد فترة وجيزة إلى المحكمة العسكرية. أما الإيطاليون فأرسلوا إلى اسطمبول مع بعض أهالي المدينة. غير أن العسكريين المغاربة تم تقطيعهم إرباً إرباً باعتبارهم خونة.

بعد بضعة أيام اقترب أسطول الفرنجة من طرابلس وكان بقيادة **اندريه دوريا** بعد أن هدر وقتاً طويلاً عندما توجه مسرعاً إلى مالطا بعد أن ضلّلته مناورة العثمانيين الخادعة. عندما ظهر أخيراً قبالة طرابلس كان كل شيء قد انتهى: القلعة سقطت وانسحب الأسطول العثماني بإلحاح من طورغوت رئيس وبتغطية من مدفعية جربه [٤٣].

هكذا «فتح» العثمانيون ليبيا خلال أسبوع واحد. وعُيِّن **مراد آغا** زعيم المنتفضين الليبيين، أول بكلربك على ولاية **طرابلس الغرب** الجديدة. وأثناء الاحتفالات الرسمية أقسم مراد آغا على القرآن أن يتولى إدارة شؤون البلاد باسم البادي شاه، وان يحترم القوانين العثمانية ويطبقها [٤٤]. ما يؤسف له، اننا لا نملك معطيات كافية تتيح الحكم على التدابير الأولى التي اتخذتها السلطنة العثمانية في ليبيا، لكننا نستطيع التأكيد أنه خلال حكم البكلربكوات الأوائل ـ **مراد آغا** (١٥٥١ ـ ١٥٥٦)، **وطورغوت رئيس** (١٥٥٦ ـ ١٥٦٥) **وعلج علي** (١٥٦٥ ـ ١٥٦٨)، وضعت أسس النظام العثماني الجديد، فتشكل ديوان الولاية وتأسس مركز «للانكشارية» وهو تقريباً على غرار ما كان معمولاً به في الجزائر.

في السنوات الأولى لم تخضع لحكم البكلربكوات إلا مناطق ليبيا الشمالية، من **مصراطة** في

(٤٢) E. Rossi. op. cit. pp. 139 - 140. et T. Guiga. op. cit. p. 97.
(٤٣) E. Mercier. op. cit. p. 73.
(٤٤) H. Inalcik. op. cit. p. 215.

الشرق حتى الحدود التونسية في الغرب. وفي الجنوب امتد حكمهم حتى **غريان** وسفوح **جبل نفوسة**، أي إنه ضم أساساً منطقة دولة انتفاضة مراد آغا السابقة، وفي عهد **طورغوت وعلج علي** انتقلت أيضاً إلى حكمها أراضي تونس الجنوبية والوسطى. ومن الناحية الإدارية شملتها الولاية الجديدة وأتبعت ببكلر بك طرابلس.

منذ السنوات الأولى للحكم العثماني بدأت إعادة بناء الاقتصاد. وفي عهد **مراد آغا** انتعشت الزراعة والتجارة وازدهرت حياة المدن. وعاد اللاجئون إلى بلادهم بعد سنوات عديدة في المنفى، فساهموا إلى حد كبير في إنعاش طرابلس كمركز تجاري كبير، ثم ما لبثوا أن أعادوا لها ازدهارها بعد فترة قصيرة.

كان الهم الأساسي للبكلر بكوات الأولين تأمين الدفاع عن البلاد ضد أي هجوم خارجي. وفي عام ١٥٥٢، أي بعد تحرير طرابلس بسنة واحدة، تمكن مراد آغا على رأس أربعة آلاف جندي من تحطيم قوات فرسان مالطا التي حاولت غزو مدينة زواره. وقد شارك في تلك المحاولة ٣٠٨ من فرسان مالطا وقرابة ألف من المرتزقة الإيطاليين. وحصلت عمليات أصغر ومحاولات أخرى من قبل فرسان مالطا للتدخل في الشؤون الداخلية لليبيا. ولم تتوقف إلاّ في نهاية القرن السادس عشر مما أرغم البكلر بكوات على تدعيم أمن البلاد بشكل متواصل، كان **طورغوت** العدو اللدود لفرسان مالطا وكان أكثر من عَمِل لتهديم نفوذهم. فتحولت طرابلس في عهده إلى إحدى أقوى قواعد «الجهاد المقدس» في البحر، كما تحولت في آن معاً إلى رأس جسر للتغلغل العثماني في تونس. وقد شيد طورغوت رئيس تحصينات جديدة في المدينة حولتها إلى قلعة منيعة للاسلام في أفريقيا.

أما أخطر محاولة قام بها فرسان مالطا لاستعادة طرابلس فتمثلت بالحملة المشتركة التي شنوها عام ١٥٦٠. كانت الحملة، من حيث طبيعتها وحجمها، شبيهة بحملات **كارل الخامس** على تونس عام ١٥٣٥، والجزائر عام ١٥٤١. فشاركت فيها قوات اسبانيا وصقلية ومملكة نابولي وألمانيا وفرسان مالطا ومقاطعة البابوية وفلورنسا وحتى إمارة **موناكو**. وبلغ مجموع تلك القوات أربعة عشر ألف رجل، أي أكثر بمرة ونصف المرة من عدد أفراد قوات **يوسف سنان** عام ١٥٥١. وعين نائب ملك صقلية **دولا سيردا** دوق مدينا ـ سيلي قائداً للحملة المشتركة. لكن ذلك الوجيه الكبير أظهر عجزاً تاماً في كفاءته كما كان اهتمامه بالقضية متسماً بإهمال لا مثيل له. فتفككت قواته وفقدت كل مظاهر الانضباط العسكري. حتى في أوساط القيادة لوحظ غياب الشعور بالواجب والمسؤولية الشخصية عن مصير الحملة (٤٥).

(٤٥) «La historia dell'impressa di Tripoli di Barbaria fatta per ordine del sereniss. re catolico», Venetia 1566. p. 4. Voir aussi E. Mercier. op. cit. p. 98 et E. Rossi. op. cit. p. 149.

تأجل الشروع بالحملة مرات عديدة. وكان المسلمون يعلمون جيداً ان أسطول الفرنجة غادر مالطة في ١٠ شباط (فبراير) ١٥٦٠ بعد استعدادات طويلة. واقترب من **جربه** ثم أخذ يتحرك ببطء بمحاذاة شاطيء أفريقيا. أثناء ذلك كان العثمانيون قد تمكنوا من ابلاغ اسطمبول واتخاذ الاستعدادات لمواجهة حصار طويل الأمد. و «بتباطؤ غامض» [٤٦] اقترب دوق **مدينا ـ سيلي** من **زوارة** وأنزل قواته على شواطئها ثم اتجهت القوات بمساعدة البدو نحو طرابلس [٤٧]. وبعد معاينة تحصينات المدينة، تأكد **مدينا ـ سيلي** من صعوبة احتلالها. وأمام دهشة الجميع أصدر أمراً بالعودة. وفي ٢ آذار (مارس) ١٥٦٠، ظهر ثانية قرب جزيرة **جربه**، وبعد بضعة أشهر تكبد هناك هزيمة ساحقة [٤٨].

علقت فرسان مالطا آخر آمالها على الفوضى في البلاد. كان الفرنجة يعرفون أن في ليبيا معارضة قوية. فكتب مؤرخ ايطالي في القرن السادس عشر أن خلافات عميقة نشبت بين «مغاربة» ليبيا وسكان جنوب تونس [٤٩]. وتحدثت عن ذلك أيضاً مصادر ايطالية أخرى لا سيا تلك التي استند إليها **أتّوري روسي**، فذكر أن قبائل **ولد سليان** في شرق ليبيا وقبائل **ولد نوير** وغيرهم من أفخاذ **المحاميد** في غرب البلاد، لم يعترفوا بسلطة العثمانيين وظلوا في حالة عصيان مكشوف [٥٠]. وفي عام ١٥٦٠، وعند اقتراب أسطول **مدينا ـ سيلي**، قاموا بانتفاضة وانضموا إلى قوات الدوق [٥١]. كما أن أعيان طرابلس وتاجورا أظهروا استياء واضحاً كذلك فرق المتصوفة العبّادية القاطنة جبل **نفوسة**. وكانت تلك الجماعات تكن مشاعر الكراهية **لطورغوت رئيس**، وجاء في إحدى مخطوطات الفاتيكان المؤرخة عام ١٥٦٢، أنهم ثاروا عليه [٥٢]. وفي عام ١٥٦٧، وخلال عهد **علج**، حدث تمرد جديد في **تاجورا** [٥٣].

قمع البكلر بكوات العثمانيون المعارضة دون رحمة. وتميّز جعفر باشا بقسوة بالغة وحزم شديد. ويعتقد أنه مرتد من أصل روسي، وقد شغل منصب بكلر بك طرابلس الغرب خلال سنوات ١٥٦٨ ـ ١٥٧٢. وتوسعت الولاية في عهده إلى حد كبير و «تعثمنت» نهائياً. فألغى العثمانيون بنوع خاص إمارتي **سيرت وبرقة** البدويتين شبه المستقلتين. وقبيل عام ١٥٧٠ ألحقتا بالولاية. وفي عام ١٥٧٠ شملت سلطة الباب العالي كذلك **فزّان** وغيرها من المناطق الصحراوية حتى **جرمه** [٥٤].

---

(٤٦) E. Mercier. op. cit. p. 98.
(٤٧) T. Guiga. op. cit. p. 117 et «La historia dell'impressa..», p. 10 - 11.
(٤٨) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 191 et E. Rossi. op. cit. p. 149.
(٤٩) «La historia dell'impressa...». p. 9.
(٥٠) E. Rossi. op. cit. p. 152.
(٥١) «La historia dell'impressa...». p. 10 - 11. et E. Rossi. op. cit. p. 149.
(٥٢) E. Rossi. op. cit. p. 152.
(٥٣) Ibid. p. 167.
(٥٤) Ibid. p. 158.

وفي عام ١٥٧٧ ـ ١٥٧٨ كانت تُجبى فيها الضرائب والأتاوات لحساب العثمانيين.

كتب **أتّوري روسي** أن بشلك طرابس الغرب بات منتشراً في ربوع ليبيا الحديثة بأسرها (٥٥)، وفي قسم كبير من أراضي تونس الساحل حتى عام ١٥٨٨، وجربه والجنوب حتى عام ١٦٠٥. على أن بعضَ المناطق، في الحقيقة، ولا سيما في الجزء الصحراوي والجبلي من البلاد مثل **بني وليد** حيث كان يقيم البرابرة ـ العباديّون، احتفظت بقسط وافر من الحكم الذاتي الداخلي، وكانت أقرب إلى وضع التبعية من كونها تحت حكم الباب العالي مباشرة.

قامت إدارة عثمانية فاعلة في معظم مناطق ليبيا إبان حكم جعفر باشا وخلفائه الأقربين. أما الانتفاضات التي نشبت هناك كانتفاضة **الحجّاج** في **غريان** عام ١٥٧٤ ـ ١٥٧٥، **وولد نوير** عام ١٥٧٧ وغيرها فقد قمعتها السلطات بشدة. وأدّى الاستياء الذي عبَّرت عنه القبائل إلى تطبيق نظام الضرائب. وتشير كل الدلائل إلى تطبيق القوانين العثمانية بشكل عام في ليبيا لفرض الضرائب واستثمار الأرض. كما بدأت عمليات مسح الأراضي بصورة منتظمة. وتثبت المحفوظات العثمانية أن إحدى تلك العمليات نفذت بعد احتلال تونس بفترة وجيزة عام ١٥٧٤ (٥٦). وعلى غرار الجزائر ومصر أنيطت مهمة الحفاظ على الأمن والنظام في الداخل بالتشكيلات العسكرية المحلية وقبائل المخزن. أما نظام الاقطاعات الصغيرة فلم يطبَّق. فكل الأراضي والمقاطعات كانت تعتبر «**خواص همايون**» أي «أراضي سلطانية خاصة» تذهب مداخيلها إلى خزينة السلطنة العثمانية مباشرة (٥٧).

(٥٥) E. Rossi. op. cit. p. 173.
(٥٦) A. Hess. op. cit. p. 161.
(٥٧) Ibid. p. 156.

احتلال تونس ١٥٧٤

مع هزيمة فرسان مالطا وانتقال طرابلس إلى حكم الباب العالي تقرر، في الواقع، مصير تونس مسبقاً. وتبين أن هزيمة **طورغوت رئيس** قرب **المهدية** عام ١٥٥٠ لم تكن إلاّ اخفاقاً مؤقتاً. أمّا انتصار الاسبان فلم يؤدِّ إلى أي نتائج عملية مهمة، إذ لم يمكّنهم إلاّ من احتلال جزء من البلاد طردوا العثمانيين منه لفترة معينة فقط، دون ان يتمكنوا من إخضاع تونس أو حتى ضمان سلامة حامياتهم فيها.

في ظروف سيطرة الفرنجة، تعززت سلطة البدو والإقطاعيين الحفصيين القدامى، أي حكم سلطان **حلق الواد مولاي محمد ومرابطي الشابيّة** مما سبب استنهاضاً لم يسبق له مثيل في مشاعر التعاطف مع العثمانيين. ويمكن التأكيد بثقة ان ذلك التعاطف بلغ ذروته في تونس في أواسط القرن السادس عشر. واكتسب قوة أسطورية كبيرة تركت أثراً لا يُمحى في الذاكرة التاريخية للشعب التونسي. ونجد إثباتاً على ذلك في جميع المدونات التونسية دون استثناء في القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر. ويرى **باشروش** ان من يقرأ **«كتاب المؤنس»** لابن أبي دينار، يتكوّن لديه انطباع عن التعلق المطلق بالحكم العثماني، على الأقل من جانب شريحة كبيرة من سكان المدن [١]. في حين كانت غالبية الفلاحين تقف إلى جانب العثمانيين. لم يكن في تونس أي مكان آهل بالسكان لم تنتشر فيه فئات كبيرة من الناس ايماناً جدياً برسالة العثمانيين الإلهية. وهي الفئات التي رحّبت بالعثمانيين

---

(١) T. Bachrouch, op. cit. p. 10.

بصفتهم « **محرِّرين** » واستقبلتهم بالحفاوة والتكريم وحاكت لهم الرايات وقدمت لهم « الذخائر » الدينية. وقد عبّر عن تلك المشاهد بجلاء المنمنمات والرسوم العثمانيـة الملـونـة التي تـزيـن بعـض المخطوطات العثمانية في القرنين السادس والسابع عشر [٢].

كانت تونس في منتصف القرن السادس عشر تعج بأعوان العثمانيين. كما انتشرت فيها كتب **الجفر** التي تتنبّأ بالمستقبل، والتي تضمنت نصوصاً عن إنقاذ تونس عمّا قريب من « أعداء الله »، كما ذكرت أسماء « المنقذين » المركبة من مجموعات من الحروف السحرية الخاصة. وشرح المتنبئون والعرافون أن السلطان العثماني سوف يأتي في موعد قريب لنجدة الموريسكيين وغيرهم من المغاربة المسلمين وتخليصهم من الأسر الإسباني. جاء في أحد الكتب أن اسم « المنقذ » مُركَّب من حروف جُمعَت فكانت « **علي الجزائري** » وسُلِّم الكتاب إلى **علج علي**، قابودان باشا الأسطول العثماني وبكلر بك الجزائر [٣].

أما أكثر ما أثار حنق الإسبان فتمثل في أن قواتهم المسلحة في شمال أفريقيا لم تعد ذات فائدة تذكر. إذ وقع جنودهم تحت تأثير الأفكار الموالية للعثمانيين التي اجتاحت إيطاليا في القرن السادس عشر. وتتحدث الوثائق السرية المأخوذة من محفوظات **البندقية** والتي نشرها المؤرخ الروسي **لامانسكي** عن انتشار واسع لمثل تلك الأفكار والمشاعر التي تصاعدت بشكل حاد بعد احتلال طرابلس الغرب عام ١٥٥١. وظهرت شائعات تتحدث عن سقوط مالطا مما فجر « **فرحاً عارماً** » [٤] في إيطاليا. أما التربة الخصبة لمشاعر التعاطف مع العثمانيين فلوحظت بشكل خاص بين فئات العامة في المدن والأرياف لا سيا بين العناصر غير المنتجة والتي أطلقت عليها الوثائق الرسمية مختلف النعوت الوضعية، فسمتها صراحة بفئات « المتشردين والمتسكعين، والمدمنين على السكر، والجواسيس [٥].

طرد الإسبان تلك العناصر من المدن وقلاع الحاميات، ومع ذلك كان الجنود كلهم تقريباً مصابين « بعدوى » محبة العثمانيين. فاحتار الضباط الإسبان ممّن يخافون: هل يخشون جنودهم أم أعداءهم؟ إذ لم يكن ثمة أمل بالحاميات إلى درجة انها بدت وكأنها على استعداد دائم لتسليم القلاع للعثمانيين [٦].

من المرجح أن طرابلس الغرب سقطت عام ١٥٥١، وذلك ناتج عن عدم رغبة الجنود في

---

(٢) E. Esin, op. cit. pp. 47 - 70.

(٣) Ibid. p. 52.

(٤) V. Lamansky «Secrets d'Etat de Venise - Documents, extraits, notices et études». Saint Petersbourg 1884. p. 793.

(٥) F. Braudel «La Mediterranée...». p. 647.

(٦) J. Grunebaum - «Joseph Naci Duc de Naxos». Paris 1868, p. 133.

مقاتلة قوات الباب العالي. اما « السوط المؤلم الذي ألهب ظهر القيادة الإسبانية في **شمال أفريقيا** »، وفقاً لتعبير **بروديل** فتمثل في «آفة الفرار من الجندية »[٧]. والتي حصدت الحاميات الاسبانية وأهلكتها بكل ما في الكلمة من معني. وتحول مئات الجنود الفارين من الخدمة، إلى آلاف بعد بضع عشرات من السنين وما لبثوا أن أصبحوا « عثمانيين ».

عام ١٥٦٠، وخلال معركة جربه، رفض عدد كبير من الجنود القتال « في سبيل الملك والكنيسة »، وانتقلوا إلى جانب العدو « متنكرين لعقيدتهم ورفاقهم ». وفي شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٦٣ اكتشفت في **حلق الواد**، وهي معقل الحكم الإسباني في تونس، مؤامرة تستهدف تسليم القلعة إلى المسلمين[٨]. وفي عام ١٥٥٤، أخلى الاسبان، دون أي ضغط علني من جانب العثمانيين، مدينة **المهدية** التي كان احتلالها قد كلفهم ثمناً باهظاً.

هكذا أمّنت مشاعر التعاطف مع العثمانيين وضعاً ملائماً للسلطان الحفصي **مولاي حميدة** الذي كـان يحكم شمال تونس. فتمكن دون مساعدة **طورغوت**، من محاربة صديق الاسبان **مولاي محمد** ومرابطي **الشابية** والإنتصار عليهم. وفي عام ١٥٥٢، تمكن من إلحاق الهزيمة بحاكم **القيروان** الشابي **محمد بن أبو الطيب** الذي استند إلى مساعدة الإسبان وبصهره **مولاي محمد**.

كان **طورغوت** آنذاك منشغلاً بالحرب في البحر. وفي عام ١٥٥٢، شن هجوماً على **نابولي**، وفي السنتين التاليتين قام بأعمال السلب والنهب والسطو على السفن المعادية في المياه الإيطالية، وفي عام ١٥٥٣، عُيِّن قابودان باشا للأسطول العثماني، غير أن **طورغوت** خلافاً **لخير الدين بربروس** لم يتمكن من الاعتياد على حياة القصور الملكية في اسطمبول. ولم يكتشف في نفسه مزايا حياة القصور الملكية بل كانت تضايقه تفاصيلها الدقيقة وحبك مكائد النساء فيها. وكبحار عريق كاد يتشاجر ويتخاصم مع كل الأعيان. وفي نهاية المطاف توسل إلى السلطان أن يسمح له بغزو أفريقيا واستجاب سليمان العظيم لتوسلات « خادمه ». وفي عام ١٥٥٦ عيّنه بكلر بك على طرابلس الغرب.

بعد عودة **طورغوت** إلى المغرب تفرغ تماماً « للجهاد ». وفي خريف عام ١٥٥٦ رفع راية « الحرب المقدسة من أجل تونس ». كانت حملته الأولى على منطقة **الجريد**. وفي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٥٦، استولت قواته على حفصة واستقبل جنوده فيها كـ « محررين »[٩]. ثم فرض طورغوت رئيس سيطرته على جربه، واستُدعيَ أحد المشايخ المحليين المشتبه بتعاونه مع **محمد بن أبـو الطيب** إلى طرابلس وألقي به في غياهب السجن ثم أُعدم. وفي عام ١٥٥٧، قامت عمارة عثمانية

(٧) F. Braudel. op. cit. p. 598.
(٨) Ibid. p. 598.
(٩) T. Guiga. op. cit. p. 114.

مؤلفة من ستين سفينة بقيادة بيالي **باشا** الذي خلف طورغوت في منصب القائد العام للأسطول العثماني، بمهاجمة شواطىء تونس والاستيلاء على **بنزرت**[١٠]. وفي القسم الأوسط من البلاد استولى طورغوت رئيس على **صفاقس وموناستير وسوسه** وغيرها من مدن الساحل الخاضعة منذ عام ١٥٥٠ لحكم مرابطي الشابية. أما عشائر المدن القوية التي حافظت على نوع من الاستقلالية فتعرضت للقمع والتنكيل. وطُرد عدد كبير من العائلات القوية النفوذ كعائلة المقنسي في صفاقس التي رحلت إلى طرابلس. وانتقلت السلطة بأكملها إلى أيدي القادة العثمانيين وبكوات السناجق الذين باشروا حكم البلاد بتشجيع من القادة الدينيين المحليين.

في خريف عام ١٥٥٧، أنزل طورغوت رئيس ضربة ساحقة بدولة المرابطين الشابيّة، وشاركت في الحملة إلى جانب القوات التونسية والليبية قوات بكلربك الجزائر التي شنت هجومها من الغرب. تحرك طورغوت رئيس نفسه من الشرق انطلاقاً من **سوسة** حيث تم تحت قيادته حشد قرابة ألف وخمسمائة عثماني وثلاثة آلاف من الرماة من جزيرة جربه، والمشاة الليبيين، وعدد كبير من الفصائل المسلحة من الساحل ومن شمال تونس، بخاصة من قوات خيّالة البدو غير المنظمين العاملين في خدمة السلطان الحفصي[١١]. في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٥٧، حطّم طورغوت رئيس قوات محمد بن أبو الطيب على مشارف القيروان. ولم يتمكن **المريدون** التابعون له من الصمود أمام نيران الرماة العثمانيين، فانكفأوا إلى المدينة. في ذلك الوقت حصلت انتفاضة في القيروان واستولى أنصار طورغوت رئيس على السلطة. وعندما وصلت قوات محمد بن أبو الطيب المتقهقرة إلى المدينة كانت بواباتها قد أقفلت. ويصف الطاهر جيجا: كيف أخذ أهالي مدينة القيروان الذين صعدوا إلى أسوار المدينة، يصرخون ويشتمون **محمد بن أبو الطيب** ويلوحون له بالعلم الأحمر[١٢]. ولم يبق أمام محمد بن أبو الطيب إلاّ أن يبحث عن ملجأ له في الشمال. وفي ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٥٧، دخل **طورغوت** القيروان حيث استُقبل كمحرر، على حد تعبير الطاهر جيجا[١٣]، فوضع فيها حامية عثمانية وعيّن «الشيخ التقي» محمد الغرباني حاكماً عليها.

في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٥٥٨، عاد **طورغوت** إلى طرابلس. وفي أقل من سنتين تمكن من فتح تونس الوسطى والجنوبية. وانتقل محمد بن أبو الطيب وفلول قواته إلى الحمامات على حدود المقاطعات الإسبانية حيث جاء دوره في إقلاق ملك إسبانيا بطلبات المساعدة[١٤].

(١٠) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 188.
(١١) T. Guiga. op. cit. p. 114.
(١٢) T. Guiga. op. cit. p. 114.
(١٣) Ibid. p. 115.
(١٤) J. Pignon. op. cit. p. 100.

خلال الحملات التونسية تحرك عدد كبير من قادة الحركة الشعبية الجدد. وتألق بشكل خاص نجم أحد هؤلاء الأعوان المقربين من **طورغوت** وهو **علج علي أو علي باشا** (١٥٠٨ - ١٥٨٧)، وكان ايطالياً اعتنق الإسلام. ويدل لقبه أن أصله من جنوب إيطاليا من قرية كاستيلاً بالقرب من كابود يلي كولونه في كالابري [١٥]. كان **علج** في شبابه يرعى الماشية، وعرف المرارة والفقر في حياة الفلاحين. وعندما كان ما بين السادسة عشرة والعشرين من عمره اختطفه القراصنة وبعدها بفترة قصيرة اعتنق الإسلام. أطلق عليه حُسّاده وأعداؤه اسم « **الفرطش** » التي تعني « ذو البشرةالمقشفة » التي يغطيها النمش. وشاعت بين الأشراف الاسبان أسطورة تقول إن قائد الغزاة المغاربة الجبّار ظل لزمن طويل يرفض اعتناق الإسلام. لكنه، بدافع الكرامة الشخصية فقط تبرّأ من العقيدة الكاثوليكية. ويرى كاتب إسباني من القرن السادس عشر، **سيرفانتس**، أن « الفرطش » كان عبداً للسلطان وعمل خلال أربعة عشر عاماً مجذفاً. ولما بلغ الرابعة والثلاثين من عمره أضمر الشر لعثماني كان ضربه على وجهه في السفينة ذات مرة. فتخلّى عن دينه لكي يتمكن من الإنتقام ممن أساء إليه. ويؤكد سيرفانتس انه كان طيب القلب، وأظهر تجاه عبيده « معاملة إنسانية » [١٦]. وبفضل ذكائه الفطري وطاقته ترقّى علوج بسرعة حتى أصبح قبطان سفينة حربية. وما لبث ان حظي بثقة طورغوت الذي عينه عام ١٥٥٦ قائداً على جربه. وفي عام ١٥٦٥، بعد وفاة طورغوت أصبح « الفرطش » بكلر بك على طرابلس الغرب. تميز علج عن قادة البرابرة بإخلاصه الشديد لسياسة خير **الدين بربروس وطورغوت** ومشاطرتها نظرية الحرب الشعبية والتوسع المتواصل في أوروبا الجنوبية دون رادع.

بعد انضمام القيروان إلى حكم الباب العالي قام الإسبان بمحاولة يائسة لاسترجاعها. وفي عام ١٥٦٠، وبعد استعدادات وافية، جهّزوا حملة كبيرة بقيادة نائب ملك صقلية **دوق مدينا - سيلي** لسحق **طورغوت** واحتلال طرابلس، لكنه تخلّى عن مخططاته الأولى، وقرر احتلال جربه، وهي القاعدة الرئيسية لطورغوت رئيس في البحر الأبيض المتوسط.

في ٢ آذار (مارس) ١٥٦٠، اقترب أسطول الفرنجة وقوامه تسعون سفينة حربية من جزيرة جربه [١٧]. وفي ٧ آذار (مارس) أنزل فيها أربعة عشر ألف جندي، وتغلب على المدافعين عنها واحتل قلعتها الرئيسية البرج الكبير. لكن فلول الحامية تمكنت من مغادرة الجزيرة.

وفي ١٤ آذار (مارس) اعترف شيوخ جربه بزعامة **مسعود السمومني** بسيادة العرش الاسباني،

---

(١٥) E. Rossi. op. cit. p. 155. et E. Mercier. op. cit. p. 106.

(١٦) سيرفانتس « مختارات ». المجلد الأول، ص ٤٤٩.

(١٧) Huart. «Un document turc sur l'expédition de Djerba en 1516». Journal Asiatique. 11 ème série. T. IX. Janvier - Février 1917, p. 293.

ثم أقسموا على القرآن أن يكونوا تابعين أوفياء لملك إسبانيا فيليب الثاني وأن يدفعوا له جزية مقدارها ستة آلاف ايكو ذهبية (Ecus) فرنسية وان يقدموا له كل عام جملاً واحداً وأربعة طيور نعام وعدداً مماثلاً من الغزلان والصقور البيضاء الوجه [١٨].

بعد أن ثبّت القائد الاسباني أقدامه في جربه تحولت إلى مركز استقطاب لكل القوى المعادية للعثمانيين في تونس. فوصل إليها مع فصائله المسلحة سلطان **حلق الواد مولاي محمد** أو « **طفل تونس المدلل** » كما سماه الاسبان وحموه **محمد بن أبو الطيب** « ملك القيروان » الذي اعتبر الحملة الاسبانية بمثابة الفرصة الأخيرة لاسترجاع سلطته وعاصمته [١٩]. وبلغ مجموع القوات التي احتشدت في معسكر **القنطرة** حيث رابطت القوات العربية التابعة لاسبانيا قرابة عشرة آلاف جندي بينهم ألفان من الفرسان [٢٠].

اتخذت أحداث جربه منحىً خطيراً. وكان من شأنها أن تترك أثراً حاسماً على مصير تونس الوسطى والجنوبية. وأدرك **طورغوت** ذلك تماماً فعمل بسرعة لدرء الخطر. وتمكن خلاله فترة وجيزة من استنفار القوى المسلحة في **القيروان وسوسة وصفاقس** وغيرها من المدن التونسية الخاضعة لسلطته، كما تمكن من تعبئة أسطول ليبيا مع قواها المسلحة، وأبلغ الباب العالي بالوضع الخطير الناشيء.

خلال تلك الفترة أظهر الاسبان، إهمالاً يفوق الوصف لأن السهولة التي تمكنوا بها من السيطرة على جربه (لم يزد عدد القتلى عن ٣٥ - ٤٠) بعثت فيهم غروراً لا مبرر له. انخفضت روح الانضباطية لدرجة كبيرة في الجيش. وأخذ الجنود والضباط يتصرفون كما لو كانوا في نزهة للتسلية معتبرين أن الحرب وضعت أوزارها نهائياً ولم يعد يشغلهم إلاَّ هاجس العودة إلى الوطن. فراحوا يبتاعون الصوف وزيت الزيتون والأقمشة. وبأسعار بخسة حصلوا على الجمال وغيرها من الحيوانات الغريبة بقصد إعادة بيعها في أوروبا لكسب الأرباح. ولم يتخذ قائد الحملة أي تدبير ضد تلك التصرفات، وقد يكون مشاركاً فيها. لم يكن أحد يعير أي اهتمام جدي لمغاربة طورغوت رئيس. أما الأسطول العثماني فكان الرأي مجمعاً أنه بعيد ولا يمكنه الوصول قبل بداية الصيف. لذلك لم تكن السفن ولا التحصينات الأرضية مستعدة للقتال. أما السفن الحربية فقد امتلأت ببالات البضائع وفقدت سهولة الحركة والتوجيه. كتب ضابط إسباني لقائده بتاريخ ٥ نيسان (أبريل) ١٥٦٠ يقول: « إن سفن عظمتكم الحربية ليست في وضع يمكنها من القتال أو الانتظار أو الفرار » [٢١].

(١٨) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 191 et T. Guiga. op. cit. p. 118.

(١٩) «La Historia dell'impressa..», p. 22.

(٢٠) T. Guiga. op. cit. p. 21.

(٢١) T. Guiga. op. cit. p. 119.

بالمقابل، كان الأسطول العثماني في حالة إستنفـار شديد. كما أن المناورات العقيمة التي قام بها **مدينا ـ سيلي** خلال شهر شباط (فبراير) بمحاذاة الشواطىء الافريقية قدمت للعثمانيين خدمة جليلة فأمنت لهم الوقت الكافي للاستعداد. إلى ذلك، تمكن **بيالي باشا** قائد الأسطول العثماني من قطع البحر الأبيض المتوسط خلال فترة قياسية. وعندما شاهد الإسبان أشرعة السفن العثمانية فجر ١١ أيار (مايو) ١٥٦٠ وقعوا في بلبلة عظيمة، وتمكن **مدينا ـ سيلي** فقط من إبقاء فيلق الحملة في جربه، وسحب سفن الأسطول إلى إيطاليا على عجل دون المشاركة في القتال. ورافق صعود الجند إلى السفن فوضى كاملة بحيث كان كل منهم يفكر فقط بانقاذ نفسه وثرواته[٢٢] عندما رفع الأسطول أشرعته واتجه نحو الشمال.

تحرك الأسطول العثماني المؤلف من ٨٥ سفينة فقط مقتفياً أثر أسطول الفرنجة وفي ١٤ أيار (مايو) ١٥٦٠. تمكن **بيالي باشا** من اللحاق به في مضيق قرقنة وتدميره خلال بضع ساعات. فمن أصل ٩٠ سفينة أغرق العثمانيون أو أحرقوا ٢٠ سفينة حربية ذات صاريتين و ٢٧ سفينة نقل، كما استولوا على ٢١ سفينة حربية كبيرة و ١٢ سفينة أصغر حجماً وأخذوها غنائم حرب. وعادت إلى جربه سبع سفن حربية كبيرة ولم تتمكن إلا ثلاث سفن للفرنجة من إكمال طريقها إلى الشمال والوصول إلى شواطىء إيطاليا. مكافأة له على ذلك الانتصار الباهر مُنح **بيالي** لقب باشا من درجة ثلاث سعف واكتسب شهرة كأحد أميرالات الباب العالي الذي لا يُقهر[٢٣].

نتيجة لمعركة قرقنة تغير الوضع جذرياً، وابتعد الخطر عن طرابلس الغرب. وما كاد طورغوت رئيس يعلم بأمر النصر حتى شرع في الهجوم. وفي ١٦ أيار (مايو)، وصل إلى **جربه** على رأس خمسة آلاف جندي ليبي. ثم قام بيالي باشا بإنزال قوات في الجزيرة قُدّر عددها بألفي انكشاري وثلاثة آلاف فارس وألفي بحّار. وفي نهاية أيار (مايو) انضمت إلى تلك القوات تعزيزات جديدة من طرابلس قارب عددها الألفي رجل مزودة بالمدفعية ومعدات الحصار، مع فصائل مسلحة من القيروان وصفاقس، بمفرزة من الحجاج المغاربة الذين كانوا في طريقهم إلى مكة ثم قرروا المشاركة في الجهاد المقدس[٢٤].

في ٢٨ أيار (مايو) ١٥٦٠، بدأ العثمانيون بقصف البرج الكبير. فأطلقوا على القلعة في الأيام الثلاثين الأولى من القتال ١٢ ألف قذيفة وقرابة أربعين الفاً من السهام[٢٥]. وفي ٣١ تموز (يوليو)، بعد شهرين من الحصار تمكن العثمانيون من الاستيلاء على البرج الكبير. وبأمر من

---

(٢٢) Ibid. p. 120.

(٢٣) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 192. et Huart. op. cit. pp. 293 - 295. et H. de Grammont. op. cit. p. 92.

(٢٤) Huart. op. cit. p. 293. et T. Guiga. op. cit. pp. 121 - 122.

(٢٥) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 193.

طورغوت تم إعدام جميع الأسرى. وبلغ حجم الرؤوس المقطوعة حجماً كبيراً، حتى سمي برج الجماجم الشهير (برج الرؤوس) الذي ظل ذكره قائماً في جزيرة جربه حتى عام ١٨٤٦ كنموذج فريد من نوعه. وعندما علم محمد بن أبو الطيب وغيره من حلفاء إسبانيا بوصول العثمانيين سارعوا إلى الإنسحاب. واحتل مرابطو الشابية مواقع لهم بين **القنطرة وماريت** فسحقتهم هناك قوات **طورغوت رئيس**، وقتل **محمد بن أبو الطيب** مع **مريديه**، فرأى المؤرخ الفرنسي المعاصر **بينيون** بذلك انهيار مملكة القيروان (٢٦).

أدّى إخفاق حملة مدينا ـ سيلي ووفاة محمد بن أبو الطيب إلى تدعيم سلطة الباب العالي في مناطق تونس الجنوبية والوسطى، مما زاد في شمال البلاد من مشاعر التعاطف مع العثمانيين. وامتلأت شوارع اسطمبول بالقادمين من تونس وغيرها من بلدان البحر الأبيض المتوسط. وفي شهر حزيران (يونيو) ١٥٦١، طلب وفد عن أهالي مدينة تونس من السلطان إرسال قوات لطرد الاسبان من **حلق الواد** (٢٧). وفي أيار (مايو) ١٥٦٢، ورد نبأ إلى مدريد يقول إن سفير السلطان الحفصي مولاي **حميدة** مزّق ثيابه أمام السيد العظيم (٢٨) متوسلاً العون.

إلى جانب التونسيين قدم إلى الباب العالي موفدون من بلدان أوروبا الغربية. فزار اسطمبول في كانون الثاني (يناير) ١٥٦٣ **سامبييرو كورسو** قائد الحركة المناهضة للإقطاعية في كورسيكا. كما أقام هناك أيضاً على نحو دائم تقريباً مندوبو الموريسكيين وممثلو الهوغنون والمعمدانيون الهولنديون والكالفينيون البروتستانت. وأقام الباب العالي مع كل تلك الحركات علاقات مودة وصداقة، ووعدهم بالمساعدة في نضالهم ضد «البابوية» وكل من يخضع له على حد تعبير الصدر الأعظم محمد سوقولو (٢٩).

بدورها كانت التجمعات المنشقة تعمل على مساعدة الباب العالي، فقدمت المعلومات للعثمانيين وتعاونت مع أعوانهم معظم الأحيان وفي ١٢ حزيران (يونيو) ١٥٦٤، أشعل كورسو انتفاضة في كورسيكا بمساعدة نشطة من الجزائر. وعلى مدى خمس سنوات (١٥٦٤ ـ ١٥٦٩)، ظلت تلك الجزيرة قاعدة أساسية للهجمات العثمانية خارج إطار أفريقيا الشمالية، سيما وان طوغورت وجد هناك ملاذاً لأسطوله لابتياع السلع وإصلاح السفن خلال حملاته على بحر **تيرانا** وخليج جنوة (٣٠).

---

(٢٦) J. Pignon. op. cit. p. 100.
(٢٧) J. de Hammer. T. 6. p. 167.
(٢٨) F. Braudel «La Mediterranée...». p. 816.
(٢٩) A. Hess. op. cit. p. 19.
(٣٠) T. Guiga. «Dorgouth Raïs». pp. 129 - 130.

بيد أن مالطا كانت تسد الطريق إلى المغرب، وشكّلت سداً يحمي وجه غرب البحر الأبيض المتوسط. ولم تكن فقط بمثابة الخطر على المواصلات مع الجزائر، بل شكلت أيضاً تهديداً مستمراً للمراكـز العثمانية في شمال أفريقيا. فرأى الطاهر جيجا أن مالطا القوية والمحصنة كانت خطراً مميتاً يهدد **طرابلس والمهدية وتونس وبجاية والجزائر**... فتجعل من المحتمل ان يبدأ كل شيء من جديد [٣١].

لذلك قرر سليمان العظيم التخلص من قلعة الفرسان الفرنجة هذه. وفي نيسان (أبريل) ١٥٦٥، شرع أسطول عثماني بقيادة **بيالي باشا** قوامه ١٨١ سفينة حربية تقل ثلاثين ألفاً ومائتي جندي في حملة باتجاه الغرب. وفي الطريق انضمت إليه عمارات حربية من مصر وطرابلس والجزائر. وفي ١٨ أيار (مايو) نزل العثمانيون على شواطىء جزيرة مالطا، حيث ظلوا أربعة أشهر يحاصرون قلاعها ويقصفونها بعنف ويزرعون الألغام ويشنون الهجمات من البحر والبر. وقاموا عشر مرات بهجوم عام على تحصينات الجزيرة. وكانت تلك القوات المسلحة بقيادة سر عسكر الباب العالي **مصطفى باشا** شخصياً. وشاركت في العمليات وحدات مختارة من الولايات المغربية بلغ تعدادها ثلاثة عشر ألفاً وأربعمائة رجل بقيادة بكلر بك الجزائر وبكلر بك طرابلس. وفي ٢٣ حزيران (يونيو) قتل **طورغوت** في معركة **سانت ـ إلم**، ونقل جثمانه بإجلال عظيم إلى طرابلس حيث دفن في مسجد سمّي باسمه.

غير أن شجاعة المقاتلين العثمانيين اصطدمت بصمود أسطوري من جانب الفرسان المالطيين. فقد صدَّ حُماة الجزيرة بقيادة الرئيس الأعلى للفرسان **دو لافاليت** جميع هجمات الإنشكارية. وعندما اقتربت القوات الأساسية للأسطول الإسباني بقيادة قبطان البحر العام **دو توليدو** من شواطىء مالطا في ٧ أيلول (سبتمبر) **أمَرَ مصطفى باشا** برفع الحصار، وأخلى الجزيرة في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٥٦٥ رغم اعتراض القادة العسكريين المغاربة [٣٢].

يرى المؤرخ الفرنسي المعاصر مونلاي ان الجيش العثماني في مالطا واجه «ستالينغراد حقيقيـة»، مما أضعف النزعة الهجومية عند العثمانيين [٣٣]، لكن الخطـر على غـرب أوروبـا لم ينتـه إذ تبيّـن المحفوظات الاسبانية والإيطالية إلى أي مدى كان حكام الدول الكاثوليكية يخشون استئناف الهجوم العثماني. لكن وفاة **سليمان العظيم** في ٦ أيلول (سبتمبر) ١٥٦٦ والكوارث الطبيعية أدت إلى شل الجهود العثمانية العسكرية بصورة مؤقتة. فخلال فترة ١٥٦٥ ـ ١٥٦٧، ونتيجة القحط الذي

(٣١) Ibid. p. 128.

(٣٢) J. de Hammer. op. cit. T. 6. pp. 198 - 204. et F. Braudel. op. cit. pp. 843 - 850. Et T. Guiga. op. cit. pp. 130 - 135.

(٣٣) J. Monlaii. op. cit. p. 60.

ضرب بالجوع مقاطعات البحر الأبيض المتوسط التابعة للباب العالي، وشوهد الناس في مصر وسوريا يموتون في الشوارع وعلى الطرقات. في اليونان وألبانيا أخذت الحبوب تباع بأسعار المضاربة الفاحشة [٣٤]، أما في الجزائر وتونس فاختفت الحبوب تماماً؛ ولم تعد الحقول تزرع، ومات كثير من الناس جوعاً أو بسبب مرض الطاعون [٣٥]. انهمك الانكشارية في سلب كل ما تقع عليه أيديهم وشاركوا في الحملات البحرية التي كانت في الغالب تنظَّم بهدف الحصول على الخبز.

استفاد الإسبان من الهدنة القسرية لتحديث قواتهم المسلحة، في وسط البحر الأبيض المتوسط حيث أعد فيليب الثاني برنامجاً كاملاً لبناء التحصينات. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٦٥، وبأمر منه، بوشر ببناء قلعة جديدة في حلق الواد أطلق عليها اسم **نوفا حلق الواد** التي بنيت وفقاً لتصميم أعدّه المهندس الإيطالي الشهير **جاكومو باليانشو**. وبعد بضع سنوات أصبحت إحدى أجمل قلاع الفرنجة وأقواها [٣٦]. كما بنيت للقلعة ستة أبراج وحُفر حولها خندق ملىء بالمياه.

حاول الإسبان توسيع قاعدتهم السياسية داخل تونس فأقاموا علاقات خاصة مع **مولاي حميدة**. وحاولوا اقناع السلطان أن موقفه الموالي للعثمانيين لا يفيده في شيء، بل قد يؤدي إلى عواقب مهلكة بالنسبة له شخصياً ولبلاده بشكل عام. بيد أن مولاي **حميدة**، حافظ بعناد على علاقاته مع حلفائه لأسباب تتعلق على ما يبدو بميوله الشخصية من جهة، ولخوفه من تمرد أتباعه إذا عقد أي اتفاق مع الفرنجة من جهة أخرى [٣٧].

في النهاية، تقرر مصير تونس في السياق العام لسياسة الباب العالي الغربية. فعادت إلى الذاكرة خطة خير الدين بربروس الذي اعتبر أن السيطرة على تونس شرط لا بد منه لأي حرب مظفَّرة في الغرب. لكن المسألة الأساسية بقيت كالتالي: أين تكون الحرب، في الشرق أم في الغرب؟، فلم يكن ثمة اتفاق أو رأي موحَّد في بلاط الباب العالي حيث ظهرت مجموعتان: الأولى بزعامة الوزير الأكبر **محمد سوقولّو** الذي وقف إلى جانب سياسة الصقور الجديرة **بسليمان العظيم** من كل الجوانب [٣٨]. وقد تمثلت برفض المغامرات الجانبية في الشرق رغم أن الفلاحين الشيعة، لم يكونوا ميالين لتأييد العثمانيين، وأصرَّ على تركيز كل الجهود في الغرب. في هذا الإطار أصرَّ محمد سوقولّو على التحالف مع جميع الحركات المناهضة للكاثوليكية في أوروبا واحترام حياد البلدان التي تنتهج سياسة حذرة، لا سيا البندقية [٣٩].

(٣٤) F. Braudel. op. cit. p. 878.
(٣٥) H. de Grammont. op. cit. p. 100.
(٣٦) Paul Sebag «une relation inédite...». p. 203.
(٣٧) J. Pignon. op. cit. p. 100.
(٣٨) F. Braudel. op. cit. p. 908.
(٣٩) F. Braudel. «La Méditerranée...», p. 911, et J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 385.

أما خصومه فاعتبروا أن امبراطورية فيليب الثاني هي عدو قوي جداً وقادرة على تعريض « الدولة التي يحرسها الله » لخطر حرب كبيرة في الغرب. وانطلقوا في حساباتهم من مواقف وظروف ذات طبيعة عسكرية محضة، ولم يعيروا أي اهتمام جدي لموقف الجماهير الشعبية. كانوا يعتبرون ان البداية تكون بالتخلص من العدو الأضعف في الشرق ثم التفكير بعد ذلك. بفتح اسبانيا [٤٠]. وتزعم السلطان سليماً الثاني شخصياً تلك « السياسة الساذجة والقصيرة النظـر » [٤١] على حـد تعبير **بروديل**. وكان من بين أنشط انصاره **سر عسكر مصطفى باشا**، المربـي السابق للسلطان، وقابودان **باشا بيالي** صهر سليم الثاني، وأخيراً رئيس المخابرات العثمانية في بلدان أوروبا الغربية المدعو **ميكاس** واسمه الأصلي **يوسف ناسي** وكان صديقاً شخصياً ونديماً للسلطان في الولائم وحفلات السكر ذاك « **اليهودي العظيم** » على حسب تعبير **بروديل** [٤٢]، كان من الشخصيات الأكثر نفـوذاً وتأثيراً على الباب العالي. لكنه لم يميّز بين مصالح الدولة العليا ومصالحه الخاصة التي كانت تغلب عليها **المركانتيليّة** التجارية [٤٣].

بعد وفاة **سليمان العظيم**، كانت كلتا المجموعتان تتمتعان تقريباً بقوة متعادلة ومتساوية عملياً. لذلك فقدت سياسة الباب العالي الخارجية عنصر الدقّة والتطلع إلى تحقيق الأهداف الداخلية. لم يتخل العثمانيون عن حلفائهم الغربيين. وظلوا يقدمون المساعدة السرية لانتفاضة **كورسو** ويشجعون **الهوغون** ويزودون بالأسلحة « جيش الانتفاضة » الذي كان يجري إعداده في غرناطة. كذلك رحبوا بحماس كبير بحركة الايقونيين في هولندا [٤٤]. وكان سليم الثاني، في « فرماناته العليـة » (نامة هامايون) إلى أعيان الشعـب الأنـدلسي وإلى « بكـوات فلانـدرة وغيرهـا مـن الولايـات الاسبانية »، يدعوهم بإلحاح لتدعيم « التحالف الإسلامي اللوثري » وتنسيق خططهم والتعـاون في تنظيم هجوم عام على « البابوية » [٤٥]. عملياً، حافظ السلطان على حلفائه. وفي محادثاته مع مبعوثي **ويلهلم أورانسكي**، **والهوغون**، وبخاصة مع التونسيين والموريسكيين كـان السلطان ينصحهم بالاكتفاء بالعمليات الدفاعية على حد تعبير **كانتيمير** [٤٦].

أما أنصار « سياسة الصقور » فاعتبروا، خلافاً لذلك، أنه لا بد من الشروع في القتال، بأسرع ما يمكن، ضد « الطغاة الإسبان » وفقاً لتعبير **علج علي** العدو اللدود للبابوية ولطبقة النبلاء

---

(٤٠) D. Cantimir. op. cit. T. 3. pp. 8 et 15, et A. Hess. op. cit. pp. 15 - 16. et J. Dignon. op. cit. T. 1. p. 120.
(٤١) F. Braudel. op. cit. p. 908.
(٤٢) Ibid. p. 909.
(٤٣) J. Reznik «Le duc Joseph de Naxos - Contribution à l'historie Juive du XVIème siècle». Paris 1936, p. 80.
(٤٤) B. Grunebaum - op. cit. p. 140.
(٤٥) A. Hess. op. cit. pp. 19 - 20.
(٤٦) D. Cantimir. op. cit. T. 3. p. 8.

الكاثوليك. وفي شهر آذار (مارس) ١٥٦٨، عيّنه **محمد سوقولّو** بكلربك على الجزائر وأمره بالاستعداد للهجوم على شبه الجزيرة الايبيرية. فبدأ **علج** بتكديس احتياطي المواد الغذائية والأسلحة والذخائر الحربية في منطقة **مستغانم ـ وهران**. فتم هناك حشد قرابة ١٤ ألفاً من الرماة الفرسان و ٦٠ ألفاً من المجاهدين المحليين، وعدداً كبيراً من المدفعية، وكميات ضخمة من البارود. ذكر رحالة أوروبي أنه كان يلزم ألف وأربعمائة جمل (٤٧) لنقل كل تلك القوات والمعدات والمؤن.

ليلة عيد الميلاد عام ١٥٦٨، قام الموريسكيون بانتفاضة في غرناطة كانت بداية «لحرب البهار» الشرسة (١٥٦٨ ـ ١٥٧٠)، إذ أيّد **علج** الإنتفاضة فوراً، فأرسل إلى مرفأ **ألميريا** (Almaria) أربعين مركباً محملاً بالسلاح والمتطوعين. لكنها لم تتمكن من الوصول إلى الشاطىء بسبب العواصف الشتوية. وفي كانون الثاني (يناير) ١٥٦٩، كرر المحاولة ففشلت للمرة الثانية. وأدت العاصفة إلى فقدان ٣٢ مركباً ولم تتمكن إلا ستة من مراكب علج علي من الاقتراب وتفريغ ما على ظهرها على الشاطىء من مدفعية وبارود مع مجموعات صغيرة من المقاتلين. وبلغ مجموع من استطاع إرسالهم إلى إسبانيا إبّان حرب البهار، قرابة أربعة آلاف مقاتل بمن فيهم بضع مئات من العثمانيين معظمهم من انكشاريته القدامى الذين عملوا عند الموريسكيين بصفتهم مدرّبين عسكريين او «قباطنة» (٤٨).

في مدريد سادت أجواء الذعر الشديد من إمكانية وصول القوات النظامية لجيش العثمانيين وأسطولهم. ففي ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٦٩، واثناء حوار مع الرسول البابوي، أعلن المسؤولون الإسبان انه إذا حصل تدخل من جانب العثمانيين، فإن إسبانيا قد تسقط في أيدي المسلمين (٤٩). ويرى **بروديل أن ذلك الإعلان** عكس «قلقاً حقيقياً» في بلاط **فيليب الثاني**. أرسلت أفضل وحدات الجيش الاسباني بقيادة **دون خوان النمساوي** (١٥٤٧ ـ ١٥٧٨) لقمع الانتفاضة. كان القائد أخيراً اسبانياً شاباً وقائداً عسكرياً اتسم بالشجاعة والذكاء، وكان أيضاً من أبناء عم الملك. وطُلب إليه أن يخمد الانتفاضة بأسرع ما يمكن. وترد عبارة على لسان أحد النبلاء الإسبان «ان مشيئة الله ارتأت أن يعاقَب المتمردون قبل أن يتمكن هذا الكلب (ويقصد السلطان سليم الثاني) من جمع قواته (٥٠).

قبيل شهر أيار (مايو) ١٥٧٠، تمكن **دون خوان النمساوي** من القضاء على قوات المتمردين

---

(٤٧) H. de Grammont. op. cit. p. 104.
(٤٨) H. de Grammont. op. cit. p. 105. et F. Braudel. op. cit. p. 903.
(٤٩) F. Braudel. op. cit. p. 898.
(٥٠) Ibid. p. 897.

الرئيسية. وفي ٢٠ أيار (مايو) استسلم «الرئيس الأعلى» للمسلمين الإسبان، وقبل ١٥ حزيران (يونيو) كان ثلاثون ألفاً منهم قد ألقوا سلاحهم. وسُمح للعثمانيين و «المغاربة» القادمين من أفريقيا بالعودة إلى الجزائر، وقُدمت لهم السفن الإسبانية لتلك الغاية(٥١). دلالة ذلك أن **فيليب الثاني** قرر تلافي تدهور العلاقات مع الباب العالي فبادله بالمثل أمام دهشة أوروبا بأسرها. وكان سليم الثاني في ١٧ شباط (فبراير) ١٥٦٨ مدد الهدنة مع النمسا. وأخذت الجيوش العثمانية تنسحب إلى الشرق واحداً تلو الآخر. وأرسل أحدها عام ١٥٦٩ إلى اليمن. كما أرسل جيش آخر لتنفيذ حملة **الدّون** الشهيرة بهدف الاستيلاء على **استراخان وقازان**. هكذا تورط العثمانيون في حرب الشرق إبان أدق ظروف الإنتفاضة المعادية للإسبان في الغرب، وركزوا جهودهم لمقاتلة «الخطر الشيعي».

لم تهتد أوروبا إلى الايمان بدعوة من العناية الإلهية. وفيما كانت تمارس «لعبة التنبؤات»(٥٢) على حد تعبير **بروديل** عمد الباب العالي إلى نشر خرائطه. ففي ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٥٦٩، قام عملاء اليهودي **ميكاس**، رئيس الاستخبارات العثمانية بإحراق ترسانة عسكرية في البندقية. ولعل السبب في ذلك ان حكامها كانوا قد ألقوا الحجز على ثروة تقدر بالملايين تخص ابنة أحد المصرفيين اليهود في فلاندرة، وهي التي أصبحت فيما بعد زوجة لرئيس المخابرات العثمانية الكلي القدرة، ميكاس.

وفي ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٥٧٠، انتشرت في مختلف مدن السلطنة حملة اعتقالات ضد تجار البندقية، وأعلن العثمانيون «حقوقهم التاريخية» في قبرص حيث كان **أ. ميكاس** يطمع بتأسيس مستعمرة يهودية كبيرة(٥٣). وفي ٢٧ آذار (مارس)، صوّت مجلس أعيان البندقية بأكثرية ١٩٩ صوتاً مقابل ٢١ صوتاً برفض إنذار العثمانيين. فاندلعت الحرب بسبب قبرص، وسارع الفلاحون الأرثوذكس فيها إلى الثورة على الإقطاعيين الكاثوليك.

لذلك أصيب **محمد سوقولّو** وقيادة الغزاة العليا في شمال أفريقيا بخيبة أمل كبيرة. فقد كانوا ضد الحرب مع البندقية، وتبعاً لقول هامر يريدون توجيه السلاح في اتجاه آخر(٥٤). وأصر الأندلسيون والجزائريون وغيرهم من الشخصيات المحيطة **بعلج** على بدء العمليات العسكرية بأسرع ما يمكن ضد إسبانيا. غير أن حريق البندقية وانتصارات **دون خوان النمساوي** دفعا البكلر بك إلى تغيير خططه(٥٥). وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٦٩، شرع البكلر بك علج، على مسؤوليته،

(٥١) Ibid. p. 904.
(٥٢) Ibid. p. 911.
(٥٣) Ibid. pp. 909 et 913.
(٥٤) J. de Hammer. op. cit. p. 390.
(٥٥) H. de Grammont. op. cit. p. 105.

بالهجوم على تونس. وكان هدفه إرضاء المشاعر المعادية للإسبان والرغبة بإثارة صدام بين السلطان وفيليب الثاني.

كان التونسيون بانتظار تلك الساعة منذ زمن طويل. وكانت الجزائر تعج بالمهاجرين التونسيين الفارين من ملاحقات مولاي **حميدة**.

وكان علج يعلم أن الدولة الحفصية تمزقها التناقضات الداخلية، وكانت مسرحاً للدسائس والمؤامرات الكثيرة. وفي ستينات القرن السادس عشر انتعش مرابطو الشابيّة من جديد. وتحت زعامة **عبدالصمد**، خليفة **محمد بن أبو الطيّب**، أعادوا بناء مواقعهم في مناطق شرق قسنطينة، وأخذوا يشنون الغارات على سهل القيروان [٥٦]. فأدّى عجز مولاي حميدة في معالجة الوضع وإنهاء حالة الفوضى إلى المزيد من خسارته لمشاعر التأييد بين أتباعه. ورغم مواقفه الموالية للعثمانيين، أصبح مولاي حميدة شخصية مكروهة جداً. كما أن اتصالاته مع الإسبان أثارت حوله الشكوك وزادت من الكراهية للدولة الحفصية. وعندما كان **علج** بكلر بك على طرابلس الغرب (١٥٦٥ - ١٥٦٨)، رفض حميدة إقامة أي نوع من العلاقات معه. وتشير بعض المعطيات أن كلاً منهما كان يضمر مشاعر الكراهية للآخر [٥٧]. زاد الكره عندما أيد مولاي حميدة الحركات المعادية للعثمانيين في قسنطينة عام ١٥٦٧ [٥٨]، فسقط نهائياً كحليف للقيادة الجزائرية العثمانية.

أصبحت القوى المعادية للعثمانيين في تونس مفككة مشتتة أما وجود الإسبان في حلق الواد فحافظ فقط على تلك القوى التي لم يكن لها قائد ولا هدف واضح إذا استثنينا أحلام وطموحات **عبد الصمد** الذي كان يتزعم الشابيّين.

مقابل ذلك كان المعسكر الموالي للعثمانيين متراصاً بشكل لم يسبق له مثيل. من الناحية العملية كان يضم كل من يتخذ موقفاً معادياً للاسبان وللقوى البدوية والإقطاعية.

وفي خريف عام ١٥٦٩ فرّ أحد وزراء مولاي **حميدة** إلى الجزائر ولجأ إلى مختلف الوسائل لإقناع **علج** بعدم تأجيل فتح تونس مؤكداً له أن كل الأنظار هناك متجهة إلى العثمانيين، وأن الناس ينتظرونهم لتصفية الإضطهاد المقيت [٥٩].

في تشرين الأول (اكتوبر) ١٥٦٩، بدأت قوات بكلر بك الجزائر هجومها على تونس. وكانت مؤلفة من خمسة آلاف انكشاري وستة آلاف من المقاتلين الجزائريين وعدد كبير من القوى الشعبية

(٥٦) E. Mercier. op. cit. p. 107.

(٥٧) Ibid. p. 107.

(٥٨) H. de Grammont. op. cit. p. 103.

(٥٩) H. de Grammont. op. cit. p. 106. et H. Abdul Wahhab. op. cit. p. 128.

المسلحة التي التحقت بالجيش أثناء مروره في مدن **القالة** و**قسنطينة** و**عنّابة** [٦٠]. كانت القوات تُستَقبَلُ في كل مكان بالحفاوة والترحيب. أما قوات **مولاي حميدة** المؤلفة من ثلاثين ألف رجل، فلم تكن تتمتع بتأييد الجماهير الشعبية. أما جنوده فكانوا لا يتمتعون بأي ثقة ويميلون إلى الخيانة. وفي المعركة التي نشبت قرب **بجايه**، أخذوا ينحازون إلى جانب العدو [٦١]. كما تم بالفعل قرب سيدي علي الخطّاب وسيدي الوهّاب عندما حاول مولاي **حميدة** التصدي لهجوم العثمانيين. لكن الأمطار الغزيرة وفيضان نهر **مجردة** أدّيا إلى تأخير تقدم العثمانيين لبعض الوقت [٦٢].

في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٥٧٠، دخل **علج** مدينة تونس فهرب **مولاي حميدة** إلى **حلق الواد**. وحل العثمانيون في تونس فاستقبلهم أهالي المدينة أحسن استقبال [٦٣]، حسب تعبير **بروديل** وكأنهم في ديارهم. أعلن **علج علي** عن إحياء السلطة العثمانية. وخلال شهرين تمكن من إخضاع مدن الساحل الشمالي الشرقي ومعظم **المناطق** الداخلية حيث أقام نظاماً لم تعرفه تلك البلاد منذ أقدم العصور [٦٤]. وفي ١٠ آذار (مارس) ١٥٧٠، بدأ تحركه في طريق العودة تاركاً في مدينة تونس حامية بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف رجل بإمرة القائد **رمضان بك**، وكان ايطالياً ولد في جزيرة سردينيا.

تحولت تونس الشمالية إلى ولاية عثمانية، وعين **حيدر باشا** أول بكلر بك عليها، فأصبح «ملك تونس» وفقاً للمصطلح الأوروبي. فقام بإخماد بؤر المتمردين وبخاصة في جنوب تونس، ثم انصرف إلى إعادة تنظيم الإدارة.

لم يبق في أيدي الإسبان غير **حلق الواد** التي كانت حصينة تماماً بحيث لا تستطيع الوحدات العسكرية العثمانية المحلية اقتحامها، لذلك أرسل **علج** إلى الباب العالي يطلب المساعدة [٦٥]. غير أن السلطان لم يستجب للطلب ووصفَ تحركات **علج علي**، ـ تبعاً للمصادر الاسبانية ـ بأنها «مغامرة»، ولامه لانعدام روح المسؤولية لديه [٦٦]. ولم يكتف بعدم إرسال التعزيزات العسكرية إليه بل أمره سليم الثاني بالتوجه مع أسطوله إلى شرق البحر الأبيض المتوسط حيث كانت تجري استعدادات لبدء الحملة على قبرص.

تحولت تونس من جديد إلى سلعة للمساومة بأيدي الفرنجة والقوى العثمانية المحيطة بالسلطان.

---

(٦٠) H. de Grammont. op. cit. p. 106 et F. Braudel. op. cit. p. 901 et E. Mercier p. 107.
(٦١) H. de Grammont. op. cit. p. 197.
(٦٢) Ibid. p. 107.
(٦٣) F. Braudel. op. cit. p. 901.
(٦٤) H. de Grammont. op. cit. p. 107.
(٦٥) Ibid. p. 107.
(٦٦) F. Braudel. op. cit. p. 909.

واضطر **محمد سوقولو** إلى التراجع أمام ضغط إ. **ميكاس** الذي صوّر الحملة على قبرص كعملية كبيرة في « الحرب المقدسة » وذات صلة وثيقة بشرف السلطان الشخصي والعائلة المالكة كلها.

في المجال الدولي، أدت حرب السيطرة على قبرص إلى ارتماء البندقية في أحضان فيليب الثاني. وفي ٢٥ أيار (مايو) ١٥٧١، وبمبادرة من **البابا بيوس الخامس** (١٥٦٦ - ١٥٧٢) الذي « تميّز عن سواه بإدراكه لجوهر الصراع الذي يشنه المؤمنون المسيحيون ضد الكفَرة والهراطقة [٦٧]، على حد تعبير **بروديل**، تأسس الحلف المقدس، أي اتحاد إسبانيا الكاثوليكية والبندقية وعرش روما بمشاركة الدويلات الألمانية. وعين القائد الأعلى للحلف **دون خوان النمساوي**.

تمكنت البندقية داخل الحلف من إقناع حلفائها بشن عمليات حربية في شرق البحر الأبيض المتوسط، ثم خوض الحرب في شمال أفريقيا بعد ذلك.

وفي ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧١، جرت في خليج **ليبانتو** إحدى أكبر المعارك في تاريخ البشرية، إذ تمكن الأسطول الموحّد للدول الكاثوليكية والمكون من ٢٠٨ سفن بقيادة دون خوان النمساوي، من تطويق وتحطيم الأسطول العثماني المكون من ٢٣٠ سفينة حربية بقيادة **قابودان باشا بيالي**. تميز القتال بطابع العنـف الشديد. وروى شهود عيان أنه إذا تطلع المقاتلون إلى البحر في مكان المعركة لرأوه أحمر من دم البشر [٦٨]. فقتل وجُرح فيها ثلاثون ألف مسلم ووقع ثلاثة أو أربعة آلاف آخرون في الأسر. وكان بين القتلى **بيالي باشا** نفسه سيد البحر الأبيض المتوسط. وقُتل من الفرنجة ثمانية آلاف وجُرح ٢١ ألفاً، وكان بين الجرحى **سيرفانتس** الذي فَقَد في معركة **ليبانتو** ذراعه اليسرى.

تجلت في تلك المعركة عبقرية القيادة لدى **دون خوان النمساوي**، إذ استطاع استغلال أخطاء العدو وتردده حتى الصغيرة منها، وجهله بالامكانات التكتيكية والتقنية الحقيقية للسفن الأوروبية الجديدة. خسر **دون خوان النمساوي** عشر سفن حربية فقط بينما فقد المسلمون مائتي سفينة قتالية [٦٩]. ولم تتمكن إلا العمارة الجزائرية التي يقودها **علج** « بسهولة ودراية فريدة في المناورة » [٧٠] من الإلتفاف حول سفن جنوة والإفلات من الطوق. ولقاء شجاعته وفنه الذي أظهره في يوم ليبانتو منح **علج** لقب الشرف « **قيليتش** » (السيف). وعندما عاد إلى اسطمبول عين برتبة قابودان باشا وجمع إلى ذلك منصب بكلر بك الجزائر على غرار **خير الدين بربروس** [٧١].

---

(٦٧) Ibid. p. 860.
(٦٨) Ibid. p. 939.
(٦٩) Ibid. p. 939.
(٧٠) Ibid. p. 939.
(٧١) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 432. et E. Mercier. op. cit. p. 113. et H. Grammont. op. cit. p. 108.

ومع ذلك يرى معظم المؤرخين ان انتصار **ليبانتو** لم يقدم فوائد استراتيجية مباشرة لاسبانيا.

فقبيل ربيع عام ١٥٧٢، تمكن **محمد سوقولو**، بتشجيع من **علج**، [أو قيليتش علي كما يصر على تسميته المؤرخون الأتراك]، من إعادة بناء الأسطول العثماني بأكمله تقريباً. ومع ذلك يبقى لانتصار دون خوان النمساوي أهميته العظيمة. فقد أصبح حداً فصلاً، في تاريخ الحروب في العالم. وعلى أساسه قام، منذ ذلك الوقت، توازن عسكري بين الشرق والغرب استمر حتى عام ١٦٨٣. وكانت **ليبانتو** كما أكد **ف. بروديل** «خاتمة للمصائب، وخاتمة لمركّب النقص الحقيقي عند المسيحيين، وخاتمة للتفوق العثماني الفعلي[٧٢]. ويرى سيرفانتس الاسباني في معركة **ليبانتو**، تبدّيداً للضلال المنتشر في العالم كله، فباتت جميع الشعوب تظن ان العثمانيين لا يُقهرون في البحر[٧٣].

لكن المصاعب الداخلية في اسبانيا والخلافات بين أعضاء الحلف لم تسمح لأعضائه من تثمير الإنتصار. ففي ٢ نيسان (أبريل) ١٥٧٣، عقدت البندقية معاهدة صلح مع الباب العالي بشروط مرهقة كما لو أن العثمانيين هم الذين ربحوا معركة ليبانتو[٧٤] على حد تعبير **هامر**. ولم يعد بالإمكان الحديث عن حملة عسكريّة إسبانية مشتركة مع البندقية ضد الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. ولم يبق لإسبانيا إلا أن تشن هجوماً محدوداً على تونس. كانت الخطة قد وُضعت في ربيع عام ١٥٧١ كرد على احتلال البلاد من قبل قوات **علج**[٧٥].

آنذاك، كانت اسبانيا قد تخلّت عن مطامع كارل الخامس الأفريقية، إذ أدرك فيليب الثاني عدم جدوى احتلال شمال أفريقيا[٧٦]. ويؤكد ميرسيه أن فيليب الثاني تخلى عن المكتسبات الأفريقية قبل معركة ليبانتو.. ويرى بروديل أنه رغم ما كُتب وما نشر، فإن فيليب الثاني تخلّى عن كل خططه السياسية الكبيرة في البحر الأبيض المتوسط[٧٧].

كانت فكرته الأساسية تتلخص في حرمان العثمانيين من قواعدهم ومرتكزاتهم في شمال أفريقيا وتدمير قلاعهم وجعلهم غير قادرين على حماية أنفسهم أمام الهجمات المحلية من المناطق الداخلية[٧٨]. بمعنى أن **فيليب الثاني** أراد تحييد أفريقيا الشمالية وجعلها لا عثمانية ولا إسبانية.

أما دون خوان النمساوي، الابن غير الشرعي لكارل الخامس، فكانت لديه خطط أعم

(٧٢) F. Braudel. op. cit. p. 940.

(٧٣) سرفانتس. المجلد الأول. ص ٤٤٢.

(٧٤) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 436.

(٧٥) F. Braudel. op. cit. p. 925.

(٧٦) E. Mercier. op. cit. p 130.

(٧٧) F. Braudel. op. cit. p. 973.

(٧٨) E. Mercier. op. cit. p. 115.

وأشمل. كان هذا القائد الرمز لدى الفرنجة يحلم بمملكته الخاصة، ولم يمانع في تأسيسها على أرض تونس. تقول مرويات شهود العيان، أن مدينة تونس في ذلك الزمان لم تكن تقل روعة عن أي مدينة في بلاد الفرنجة (٧٩)، كانت في حجمها كبيرة كمدرسة نابولي الرائعة، وبلغ عدد سكانها ٢٤٥ ألف نسمة عام ١٥٤٧. وكان ممثلو مدينة روما يؤيدون خطط دون خوان الطموحة تأييداً مطلقاً. وقدم **بيوس** الخامس ومن بعده **غريغوريوس** الثامن كل مساعدة له، ووعداه بعرش تونس وشجعاه بكل الوسائل للقيام بعمليات عسكرية نشطة في شمال أفريقيا. وفي ربيع عام ١٥٧٢، وقّع فيليب الثاني أمراً بشأن الحملة على تونس، لكنه عاد وألغاه (٨٠). وفي حزيران (يونيو) ١٥٧٣، عاد وصادق على الحملة بشرط واحد ان يتم تحطيم القواعد العثمانية ثم الجلاء عن تونس فوراً (٨١).

قرر دون خوان النمساوي استغلال المناسبة لتحقيق مآربه. وفي ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٣، في الذكرى السنوية الثانية لمعركة **ليبانتو**، انطلق أسطوله المؤلف من ١٣٨ سفينة حربية إضافة إلى عدد كبير من الفرقاطات والزوارق تقل على ظهرها سبعة وعشرين الفاً وخمسمائة رجل باتجاه شواطىء أفريقيا. وكان بين الجنود الاسبان الذين توجهوا لفتح تونس تحت راية دون خوان (٨٢)، محارب متواضع من جنود فيلق لوبه دي فيغيرو ويدعى سيرفانتس سافيدرا، وهو مؤلف «**دون كيشوت**». كان سيرفانتس قد استرعى انتباه القادة عندما قاتل ببطولة في ليبانتو بعد أن كان مجهولاً، ورغم جراحه دُعي للمشاركة في الحملة الأفريقية التي بدت وكأنها لا تَعِدُ بأي مكروه. وقبيلَ مساء الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) ظهرت السفن الاسبانية ترفع إشارة الصليب على أشرعتها قرب أرصفة حلق الواد. وفي اليوم التالي أنزل دون خوان جنوده إلى الشاطىء وعددهم ١٣ ألف ايطالي وتسعة آلاف اسباني وخمسة آلاف ألماني، وتحركت تلك القوات بخطى سريعة باتجاه مدينة تونس.

عند اقتراب الاسبان أخلى **حيدر باشا** المدينة، وانسحبت الحامية العثمانية الصغيرة واتخذت مواقع لها على الطرق المؤدية إلى عمق البلاد. وتبع العثمانيين عشرات الألوف من السكان الذين تركوا منازلهم ومناطق سكنهم خشية تكرار أحداث «الأربعاء الأسود» لعام ١٥٣٥. وقد أبرزت المحفوظات التونسية فظاعة المصير الجماعي والويلات التي حلّت بأهالي جبل الرصاص وغيره من المناطق التي وجدوا لهم فيها ملجأً مؤقتاً. فعاشوا في كهوف وأكواخ بدائية وأحياناً في جوار البدو.

في ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٣، دخل الإسبان مدينة تونس فوجدوها خاوية. كانت

---

(٧٩) P. Sebag. op. cit. p. 144.

(٨٠) F. Braudel op. cit. p. 952.

(٨١) E. Mercier. op. cit. p. 115. et H. de Grammont. op. çit. p. 115.

(٨٢) سرفانتس. المجلد الرابع، ص ١٩٤.

تؤرقهم أساطير الكنوز التي خبّأها المغاربة هناك. فانطلق الجنود يطوفون شوارع المدينة جماعات جماعات بأيديهم المجارف والمعازق وظلّوا لأيام عدة ينبشون في المنازل ويدقّون الجدران ويحفرون في الساحات والسطوح ويقشرون جوانب الأسوار وعضادات الأبواب والنوافذ حتى لم يبق بيت واحد سليماً في المدينة الضخمة كلها. ويروي شاهد عيان كيف ان « هؤلاء الأبطال البواسل »، ما ان استنفدوا الكثير من قواهم ولم يعثروا على شيء حتى أفرغوا حقدهم على خوابي الزيت فحطموها [٨٣]. وبلغ عدد الخوابي المحطمة ٤٠ أو ٥٠ أو ١٠٠ خابية في كل مزرعة. أما قطع الأثاث ومعالم الزينة أو الزخرفة الداخلية فتلوّثت بالزيت أو حُطمت. وعند بوابة **باب البهار** تجمّع حشدٌ مفاجىء حيث وقف الجنود على صفين وبطول ربع ميل يعرضون المسروقات للبيع. وأخذ البحارة والمتسوقون يبتاعون بأرخص الاثمان بضائع الترف النادرة وسجاجيد القيروان والأقمشة الناعمة والأواني الفاخرة وأكياس البهارات والعطور وغيرها. وحمل الضباط معهم أعمدة بكاملها من الرخام والحجر الأرجواني التي كانت تزدان بها عادة زوايا المنازل التونسية. حتى ان **دون خوان النمساوي** لم يتمالك نفسه أمام مشهد أحد أعمدة المسجد الكبير فأمر بانتزاعه وإرساله إلى إيطاليا [٨٤].

ورغم أوامر الملك، قرر دون خوان إبقاء قواته في تونس. في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٣، وأثناء اجتماع للمجلس العسكري في قصر القصبة، أيد الجنرالات الإسبان والايطاليون بأكثرية الأصوات الاحتلال الدائم للبلاد. وعلّل دون خوان النمساوي ذلك فيما بعد أن أمر فيليب الثاني بشأن الانسحاب الفوري من تونس وصل متأخراً جداً.

لكن دون خوان النمساوي غادر تونس في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٧٣ مبقياً فيها حامية قوية، ومدّعياً أنه تلقى أمر فيليب الثاني عندما كان في طريق العودة [٨٥]. ومع ذلك استولى على **سبارتيفانتو وبنزرت** في ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)، وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، عاد إلى نابولي تجلله أقواس النصر. فلم يعد أمام فيليب الثاني إلا الموافقة، بما قام به نسيبه.

كتب بروديل أن دون خوان، باحتفاظه بتونس، وضع ابن عمه أمام الأمر الواقع. فقد اعتبر فيليب الثاني أن من الأفضل عدم إلغاء القرار المتخذ فوافق عليه. وأعطيت تلك الموافقة في الواقع لمدة سنة واحدة بشرط أن تؤمّن البلاد المحتلة المأكل لجيش الاحتلال. ورفض فيليب الثاني رفضاً قاطعاً تتويج دون خوان ملكاً على تونس بل عينه نائباً عنه في **ميلانو** مما كوّن لدى الأمير شعوراً بالنقمة حسب تعبير بروديل.

---

(٨٣) P. Sebag. op. cit. p. 147.

(٨٤) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 437.

(٨٥) F. Braudel «La Méditerranée...», p. 972.

ثم عيّن الجنرال الميلاني **سيربيلّوني** ابن عم **جاكومو ميديتشي** حاكماً على تونس، وأصبح رسمياً قائداً للقوات الاسبانية. بقي في أمرته ثمانية آلاف جندي: أربعة آلاف اسباني وعدد مماثل من الايطاليين. وكان على الجنود أن يقيموا في القلعة الجديدة - « **البستيون** » - كما سماها العرب والتي بنيت على مسافة تقل عن مدى طلقة بندقية عن أسوار مدينة تونس[٨٦]. هذا « البستيون »، أو القوس الجديد كما سمته المصادر الاسبانية، شكل مدينة عسكرية قائمة بذاتها ولها مستودعاتها ومطاحنها وكنيستها وحتى صيدليتها، وكانت في الواقع كما كتب بول صباغ أول مستوطنة أوروبية في مدينة تونس[٨٧]. احتفظت قلعة **حلق الواد** بوضع الادارة الذاتية برئاسة قائدها كاريرا. ومن الناحية العسكرية، كانت القلعة مرتبطة بنظام دفاع مدينة تونس رغم أن هناك جزيرة صغيرة وسط خليج تونس تحمل اسم جزيرة شيكلي، بني عليها عام ١٥٤٠ حصن **سانت ياغو** الذي تم استخدامه لإقامة الإتصال بين القلعتين.

كان وضع الكونت **سيربيلوني** في البداية بالغ الصعوبة. فقد كان عليه أن يؤمن تموين جيش الاحتلال ويضمن ولاء السكان المحليين. في الواقع ظل التونسيون موالين للعثمانيين ولم يعبّروا عن رغبتهم للقبول بحكم الإسبان. لم يكن احتلال تونس شعباً، لكن الاحتفاظ بها كانت مهمة صعبة واجهها الكونت سيربيلوني. وقد رأى الرسول البابوي « انه لا بد من الحصول على رضى السكان المحليين وتنظيم أمور إدارتهم بدقة متناهية بحيث يحترمون ويقدرون سلطة ملك إسبانيا »[٨٨]. لكن كيف السبيل إلى ذلك إذ « ليس ثمة ما كان يدل أن البلاد عموماً، ببدوها وحَضَرها، ستقبل بالغزو المسيحي »[٨٩]. حسب تعبير فرنان بروديل.

لم تكن للكونت سيربيلوني أي قاعدة شعبية يستند إليها في تونس. ورفض دون خوان النمساوي في المجلس العسكري المنعقد في ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) خدمات مولاي حميدة الذي طلب المساعدة من إسبانيا بعد فقده العرش ووعدها بالتعاون معها. كان مولاي حميدة الوحيد من أبناء الأسرة المالكة الذي كان يستطيع الاعتماد على تأييد ولو جزئي من جانب الحرس الاسباني والأعيان التونسيين. لكنه كان يرغب في الاحتفاظ لنفسه بقسم كبير من السلطة الفعلية والمال. اعتبر المجلس العسكري أن مولاي حميدة تمادى كثيراً في طلباته فلم يوافق عليها. واعتبر أيضاً أن مطالبة السلطان السابق بالعرش التونسي، ولو تحت سيادة اسبانيا، كانت تتعارض مع

(٨٦) Paul Sebag. «Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574». «Sopra la desolatione della Goletta e forte di Tunisi de Bartholomeo Riffino». Introduction, texte et traduction annotée. Tunis, 1971. p. 135.

(٨٧) Ibid. p. 18.

(٨٨) F. Braudel, «La Méditerranée et le monde méditerranéen au temps de Philippe II», Paris 1949. p. 974.

(٨٩) Ibid. p. 975.

المخططات الشخصية لدون خوان نفسه الذي طالب أن يتوج ملكاً على تونس. ففي ٢٦ حزيران (يونيو) ١٥٧٣، وقبل بدء الحملة بأكثر من ثلاثة أشهر كتب دون خوان إلى فيليب الثاني يقول: «ثمة رأي يقول إنه لا بد من الاستيلاء على مدينة تونس شرط عدم تسليمها إلى الملك مولاي حميدة»(٩٠) بكلمة أوضح لم تكن ثمة حاجة لمولاي حميدة فأمر دون خوان بنفيه إلى باليرمو. فتسلم عرش الحفصيين مولاي محمد، وهو صديق قديم للإسبان والسلطان السابق لحلق الواد. وخلافاً لشقيقه لم تكن له مطامع من شأنها إثارة قلق دون خوان النمساوي. فقد عاش مولاي محمد سنوات عديدة في حلق الواد، ثم هرب إلى إيطاليا خشية مكائد أخيه ولم يعد منها إلاّ مع الأسطول الإسباني. في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٣ عُيّن «المدلل، حاكماً على المغاربة»(٩١) أي على الطائفة الإسلامية الرئيسية وعلى الإدارة «المحلية»، لأن تونس كانت في تلك الحقبة محمية إسبانية فريدة من نوعها. وتصرف «المدلل»، كما يصفه المسلمون، من الناحية الشكلية على الأقل بصفته سلطاناً. فكان يجمع الضرائب ويقبل أداء اليمين، وحاول تشكيل قوات مسلحة خاصة به. أقام أولاً في قصر القصبة ثم انتقل إلى «الباستيون» اي القلعة، حيث شعر في وسط الفرنجة بثقة أكثر مما في قصر الخلفاء.

كانت مسألة حكم المغاربة الهم الأساسي لمولاي محمد. ووفقاً لسياسة غابريو سيربيلوني كان عليه قبل كل شيء اكتساب ثقة المسلمين وإبعادهم عن العثمانيين وإظهار «ميّزات» الحكم الإسباني. بعد رحيل دون خوان النمساوي مباشرة سمح للأهالي بالعودة إلى مدينة تونس. فكتب مؤرخ إيطالي من القرن السادس عشر، روفّينو يقول: «لقد أحسنوا معاملة الناس ورجع كل من رغب بالعودة إلى المدينة حيث أُسكن الناس في المنازل المجاورة للمسجد الكبير، لأن ثلث المدينة خصص لهم كحي سكني يقيمون فيه(٩٢). بعد بناء الباستيون بوشر بإعادة باقي المنازل، وتوقفت أعمال السلب والنهب. وأكد روفّينو أيضاً أن غابريو سيربيلوني كان يرغب في أن يعيش المسيحيون والمغاربة في وئام وصداقة وثيقة(٩٣). ولتجنب المشاحنات والصدامات مُنع الجنود من دخول الأحياء المسيحية فرادىً أو من دون حاجة، ومُنعوا كذلك من ابتزاز اللاجئين والتجار. وأمر ممثلو السلطة بمعاملة المسلمين «بكل تهذيب»(٩٤).

غير أن مشاعر التعاطف مع العثمانيين المنتشرة في البلاد خيّبت آمال غابريو سيربيلوني، فاستمرت بين الطائفتين هوة لا يمكن ردمها. ولم يظهر الإسبان والإيطاليون وداً للتونسيين بل

(٩٠) Ibid. p. 969.
(٩١) P. Sebag. op. cit. pp. 136 et 156 - 157.
(٩٢) Ibid. p. 153.
(٩٣) Ibid. p. 160.
(٩٤) Ibid. p. 161.

ينظروا إليهم بروح التعالي والاستخفاف وعاملوهم كجواسيس وخونة. واتهموا جنود مولاي محمد بأنهم كانوا أثناء مقاتلة العدو يطلقون النار في الهواء (٩٥). ولمجرد الشك البسيط كانوا يلاحقون التونسيين ويعتقلونهم وبعضهم من الشخصيات البارزة المحيطة بـ « المدلل ».

كان للعثمانيين أنصار في كل مكان. ويمكن القول إن حضورهم السياسي في المناطق المحتلة كان دائماً، في حين اعتبر من كان إلى جانب الإسبان ومولاي محمد « خائناً » (٩٦). فكان يُقتل وتصادَر أمواله. ولم تكن مخافر **حيدر باشا** الأمامية تبعد عن مدينة تونس أكثر من أربعين ميلاً (٩٧). فكان الغزاة يشنون الغارات على المناطق الخاضعة لسيطرة الاسبان. قال بارتولوميو روفّينو: « من هنا كانت تتم الغزوات المتواصلة والملحاحة من جانب العثمانيين الذين كانوا يقتربون من مدينة تونس كل يوم ليزرعوا الفتنة بين المسيحيين والمغاربة (٩٨).

بقي مولاي محمد عاجزاً عن فعل أي شيء حيال ذلك. وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٥٧٤، شن هجوماً بهدف تحطيم القاعدة العثمانية في نابيل (Nabeul) وشارك في الهجوم ثمانية آلاف مغربي من الخيالة والمشاة إلى جانب قرابة ثلاثمائة جندي إسباني بينهم ١٥٠ خيّالاً. وفي ٥ شباط (فبراير) ١٥٧٤، نشبت معركة قرب **حمّامات** الواقعة على بعد ٦٥ كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة تونس تكبّد فيها مولاي محمد هزيمة ساحقة. وتمكنت القوات العثمانية التي كان يتراوح عددها بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف وخمسائة جندي (١٥٠٠ عثماني و ٢٠٠٠ تونسي) من إرغام جيش « المدلل » على الفرار. هرب البدو والفرسان الإسبان « دون ان يلتفتوا إلى الوراء ولو لمرة واحدة » (٩٩).

في مدينة تونس نفسها كان الوضع متوتراً للغاية. وأدّت الاعتقالات بعد الهزيمة في معركة **حمّامات** إلى تزايد حدة التوتر إلى أقصى حد. وفي ١٨ شباط (فبراير) ١٥٧٤، انفجر الوضع عندما تحولت حادثة وقعت في أحد شوارع المدينة إلى إنتفاضة أسطورية للشعب التونسي، أطلق عليها اسم « تمرد الكيس » وسجلت في تاريخ تونس بتسمية غامضة « شَرا - شَرا ». كانت البداية عندما أوقفت دورية إسبانية أحد التونسيين في ساحة البزة. ووفقاً للتعليمات طلب الضابط الإسباني « بكل تهذيب » فتح الكيس الذي يحمله التونسي ليرى ما فيه بعد ان ارتاب من وجود ذخيرة حربية فيه يُمنع على المغاربة ابتياعها منعاً باتاً. أجاب التونسي بالرفض. عندئذ أمسك الاسباني

---

(٩٥) P. Sebag. op. cit. p. 160.
(٩٦) Ibid. p. 19.
(٩٧) Bono Selvatoré «Documents italiens sur la reconquête musulmanne de Tunis» Tunis 1979. T. 2. p. 31.
(٩٨) P. Sebag. op. cit. p. 157.
(٩٩) Ibid. p. 159.

بالكيس بيديه ونشب عراك سرعان ما تدخل فيه الفرنجة والمسلمون الموجودون قرب المكـان. وفي لحظة تحول عراك ساحة البَزّة إلى مجزرة فظيعة كانت مسرحاً لها كل منطقة باب السويقة أي عملياً كل القسم الشمالي في المدينة. وفي تقدير روفّينو اشترك في الانتفاضة قرابة ثلاثين ألفاً من المسلمين، فانقضوا بالحجارة واليطقان وبعضهم بالأسلحة النارية على السكان المسيحيين فحطموهم، ثم حاولوا مهاجمة **البستيون**. أنزل **غابريو سيربيلّوني** القوات النظامية التي تمكنت قبيل المساء من إخماد «تمرد الكيس». وتقول مصادر الفرنجة ان عدد القتلى تراوح بين ٨٠٠ أو ١٠٠٠ شخص[١٠٠]. هاجم الجنود المنطقة كالوحوش فحطموها دون رحمة «قتلوا النساء والأطفال وكل من وقعت عليـه أيديهم»[١٠١].

قبيل ربيع عام ١٥٧٤، ازداد وضع الإسبان سوءاً. وفي شتاء ١٥٧٣ ـ ١٥٧٤ تمكن الصدر الأعظم وقابودان باشا أخيراً من إقناع السلطان بضرورة شن حملة كبيرة في الغرب رداً على حملة دون خوان النمساوي[١٠٢]. كان من المفترض في البداية احتلال تونس وبعد ذلك، في حال الانتصار، تُنقل العمليات الحربية إلى أراضي إسبانيا نفسها[١٠٣]. وفي شباط (فبراير) ١٥٧٤، أرسلت التعليمات المناسبة إلى الجزائر[١٠٤]. كذلك ارسلت إلى طرابلس الغرب والقيروان وهي المقر المؤقت للبكلبر بك التونسي.

في ربيع عام ١٥٧٤، انتشرت الاستعدادات العسكرية في جميع أنحاء المغرب. وتحت راية الجهاد أخذت تتشكل الوحدات العسكرية للمشاركة في الحملـة، كما أخـذت تتشكـل فصـائـل المتطوعين. كانت القوات بقيادة بكلربك تونس **حيدر باشا** وبكلربك طرابلس **مصطفى باشا** شخصياً وكذلك بكلربك الجزائر العربي **أحمد باشا**. في حزيران (يونيو) ١٥٧٤، تلقى سيربيلوني معلومات مفادها أن قوات هؤلاء البكلربكوات بـدأت تحتشـد على مشـارف مـدينـة تـونس، ووصلت طلائعها من ليبيا (قرابة أربعة آلاف رجل)، ومن **جربه والقيروان** (ستة آلاف)، ثم الفصائل المسلحة الآتية من قسنطينة **وبسكرة** وعنّابة (ألفان). وفي تموز (يوليو) وصلت القوات الجزائرية (ثلاثة آلاف وفقاً لبعض المعلومات) عن طريق البحر، ثم فصائل مسلحة من **تلمسان** وحتى من فاس عاصمة مراكش الشمالية التي لم تكن رسمياً تابعة للسلطنة العثمانية. كان على رأس المجاهدين المراكشيين الأمير **عبد الملك** شقيق السلطان السعدي مولاي محمد وخليفته أو ولي عهـده.

---

(١٠٠) Ibid. op. cit. p. 32 et P. Sebag. op. cit. p. 162.

(١٠١) P. Sebag. op. cit. p. 162.

(١٠٢) J. de Hammer «Histoire de l'Empire ottoman...», T. 6. p. 437.

(١٠٣) M. Digeon «Nouveaux contes turcs et arabes», 2 tomes. Paris 1781, T. 1. p. 120.

(١٠٤) Andrew Hess. op. cit. Vol. LXXIV. 1968, No. 1. p. 17.

يقول سيربيلوني إن عدداً كبيراً من المغاربة والعرب انضموا إليهم من مدينة تونس وبنزرت والمناطق المتاخمة لها [١٠٥]. والأهم من ذلك أن السلطان سليم الثاني أرسل إلى تونس فيلقاً للمشاركة في الحملة قوامه اربعون ألف رجل بقيادة **السر عسكر سنان باشا** الذي اشتهر كفاتح لليمن. كان من ضمن قواته سبعة آلاف إنشكاري وسبعة آلاف فارس وعشرة آلاف باش بزق سوري وعدد كبير من المتطوعين من المقاطعات الأخرى التابعة للباب العالي. كتب بارتولوميو روفّينو يقول « تجمعت في تونس نخبة أمم الشرق وبلدان الجنوب والغرب » [١٠٦].

كان علج علي قائد الحملة التي بلغ عدد سفنها ٣٢٠ سفينة حربية منها ٢٣٠ سفينة قتالية كبيرة. تلك السفن المزدانة بالرايات الحمراء أوحت للشاعر العثماني **رموزي** بقصيدة « حديقة الورد » [١٠٧] التي يصف فيها عظمة أسطول الباب العالي المتجدد. في ١٥ أيار (مايو) ١٥٧٤ صعد الجند إلى ظهر السفن فرفع الأسطول أشرعته وخرج إلى البوسفور ».

آنذاك كان **حيْدر باشا** يتابع هجومه في تونس وكان الإسبان في آذار (مارس) ١٥٧٤ قد أخلوا بنزرت واستولى العثمانيون على بورتو - فارينو وقرطاجة وتقدموا نحو مدينة تونس. وفي ٩ تموز (يوليو) ١٥٧٤ أصبحوا على مسافة ١٢ ميلاً من المدينة. وفي ١١ تموز (يوليو) أُبلغ مولاي محمد أن قوات حيدر باشا وقوامها عشرة آلاف رجل لا تبعد عن أسوار المدينة أكثر من أربعة أميال فقط. يقول روفّينو: « في الصباح كان من الممكن مشاهدة مضارب خيم الأتراك بوضوح » [١٠٨].

حاول مولاي محمد طرد العدو. وبأمر من الاسبان جمع البدو وفصائل سكان المدن المسلحة فبلغ تعدادها ثلاثين ألف رجل وتحرك بها لمواجهة العثمانيين. استمرت المعركة طيلة النهار، وظلت طلقات المدفعية تهدر وتغطّي كل شيء بدخان البارود، وتعاقبت الهجمات واحدة تلو أخرى. يقول روفّينو: « مع ذلك لم يكن يشاهَدُ أي قتيل أو جريح من الجانبين » [١٠٩]. وقبيل المساء ملَّ البدو تمثيل لعبة المعركة فخرجوا من المعسكر « بسرعة مدهشة ». وتفرقت الفصائل المسلحة خلفهم. يقول روفّينو: « في الطريق لم ينتبه البدو أنهم يسيرون مع العثمانيين جنباً إلى جنب كما لو كانوا أصدقاء في وقت مضى » [١١٠].

---

(١٠٥) P. Sebag. op. cit. p. 180.
(١٠٦) T. Bachrouch. p. 181.
(١٠٧) E. Esin. op. cit. Tunis, 1979. T. 2. p. 52.
(١٠٨) P. Sebag. op. cit. p. 171.
(١٠٩) Ibid. p. 172.
(١١٠) Ibid. p. 173.

كان وضع الاسبان أشد سوءاً. ففي ١٢ تموز (يوليو) دخل العثمانيون مدينة تونس فاندلعت فيها حرب الشوارع. كانت النار تطلق على الاسبان من جميع النوافذ وسطوح المنازل. هذه المرة لم يخطىء التونسيون الهدف؛ فتكبد الإسبان خسائر فادحة، وفي ١٦ تموز (يوليو)، أجبروا على إخلاء الأحياء الإسلامية تماماً [١١١].

في ١٢ تموز (يوليو) ١٥٧٤، وبينما كانت حرب الشوارع في مدينة تونس تبلغ ذروتها، أنزل سنان باشا قواته في منطقة قرطاجة. انتشر نبأ الإنزال بسرعة البرق في طول البلاد وعرضها فأثار هستيريا جديدة من مشاعر التعاطف مع العثمانيين والترحيب بهم. وقيل ان العثمانيين وصلوا بدعوة من **سيدي محرز** نفسه وهو ولي المدينة المقدس الذي ظهر لسليم الثاني في منامه [١١٢]. ورويت القصص الكثيرة حول مختلف العجائب والرموز. وأكثر ما أثر على معنويات الإسبان تلك القصة التي تقول إن العثمانيين اكتشفوا نهراً قوياً من المياه النظيفة العذبة على عمق ضحل يكاد يكون ملامساً لسطح الأرض في المنطقة نفسها التي حفر فيها الإسبان آباراً عميقة جداً للحصول على مياه قليلة الملوحة. كتب النائب العسكري العام الايطالي روفّينو والذي درس الحقوق في جامعات بادوا وتورين يقول: « كان ذلك الحظ السعيد نذيراً بهلاكنا المحقق؛ فقد دلَّ ان الله ضدنا » [١١٣]. أما المسلمون فخلافاً لذلك اعتبروا ذلك مؤشراً لعطف السماء. كانوا يؤمنون أن الله يهديهم إلى النصر. وخرج العلماء لاستقبال العثمانيين بمظاهر التكريم الرسمي وباركوا سلاحهم. وقدمت جماهير الفلاحين للعثمانيين المياه وكل أنواع المؤن والذخيرة. حتى البدو أتوا للعثمانيين بالفاكهة ومختلف أنواع الأطعمة ووضعوا في تصرفهم جمالهم وخيولهم « لتنقل الأخشاب والمواد اللازمة لبناء الخنادق » [١١٤].

في ١٣ تموز (يوليو) بدأ حصار حلق الواد ثم بدأ حصار « البستيون » في مدينة تونس. وضع العثمانيون الألغام، وشقّوا الممرات عبر الخنادق ودمّروا الأسوار بالمدفعية الثقيلة وصدّوا محاولات التسلل التي قام بها المحاصَرون ورموهم بالقنابل النارية والمحرقة. وأكثر ما سبّب الضيق للإسبان كانت حجارة المنجنيق التي كان العثمانيون يرمونها عليهم بواسطة آلات قاذفة للمنجيق. لم يكن المهندسون الإسبان والإيطاليون يعرفون عن تلك الآلات شيئاً، بل إن أحدهم قتل وهو يحاول استخدام آلة منها تم الاستيلاء عليها من العدو.

اللافت للنظر أن إسبانيا فوجئت بظهور الأسطول العثماني. فإما أنها لم تكن تثق بتقارير

---

(١١١) P. Sebag. op. cit. p. 180.
(١١٢) T. Bachrouch. op. cit. p. 10.
(١١٣) P. Sebag. op. cit. pp. 64 et 176.
(١١٤) Ibid. p. 175.

جواسيسها أوأن هؤلاء كانوا ضحية التضليل بعد المناورة التي نفذها علج علي حين أبعد أسطوله في بادىء الأمر إلى البحر الأسود ثم أعاده ليلاً عبر المضائق وأضواؤه مطفأة. ومهما يكن من أمر فقد كانت المعارك في تونس على أشدها عندما علمت نابولي ومدريد بما يجري فيها. ولم يستيقظ دون خوان النمساوي من الصدمة إلا في ٢٠ تموز (يوليو)، فوصل نابولي في ١٧ آب (أغسطس) ولم تأذن مدريد له إلاّ في ٢٣ أيلول (سبتمبر) لتجييش الأسطول الإسباني [(١١٥)].

آنذاك، كانت الحاميتان الاسبانيتان في مدينة تونس (ثمانية آلاف) وفي حلق الواد (سبعة آلاف) ما زالتا منعزلتين لا تتلقيان أي مساعدة. إضافة إلى أنهما كانتا منفصلتين عن بعضهما ولا تستطيع الواحدة منهما تقديم أي عون للأخرى. وساد القلق الشديد في أوساط القيادة الاسبانية. وتبادل القادة الاسبان الإتهامات واللوم. وقيل عن **بويترو كاريرا** أنه «لم يكن يدافع عن حلق الواد بل كان يعمل على تسليمها [(١١٦)].

يؤكد سيرفانتس، في هذا المجال، أن سقوط حلق الواد لن يكون مسؤولية المدافعين عنها لأنهم بذلوا كل ما أمكنهم من جهد وكل ما كان يقتضي الواجب فعله. فكتب يقول «أي قلعة يمكن أن تصمد دون أن تتلقى أي عون من أحد، عندما يحاصرها عدو قوي كثير العدد ويُقاتل على أرضه؟» [(١١٧)].

عمل العثمانيون على احتلال حلّق الواد في أقصر وقت ممكن. فلم يوقف سنان باشا المعركة للحظة واحدة، وقتل آلاف الانشكارية والمغاربة أو تشوّهوا. وفي ٢٦ تموز (يوليو) قتل قرب أسوار القلعة بكلربك طرابلس الغرب مصطفى باشا. وأخيراً تمكن العثمانيون في ٢٣ آب (أغسطس) ١٥٧٤، وبعد هجوم عنيف دام يومين، من الاستيلاء على حلّق الواد، فأبادوا المدافعين عن القلعة حتى آخر رجل فيهم. وبأمر من السرعسكر «وانتقاماً لأرواح المسلمين الذين قتلوا في السنة الماضية» [(١١٨)] أعدم جميع الأسرى بمن فيهم المرضى في المستشفيات. واستولى العثمانيون، على مائتي مدفع ثقيل وأكثر من ثلاثين راية [(١١٩)]. وأمر سنان باشا بنسف القلعة مرة أخرى حتى لا يبقى للعدو أمل بالبقاء في تلك البلاد. ونُزعت حجارة القلعة واحداً بعد الآخر حتى أزيلت من أساسها ولم يبق من الإبداع الرائع لجاكومو بالياتشو غير الذكريات. وقد ورد في مخفوظات حسين خوجا: «لم تبق قطعة طعام واحدة ولا أثر واحد ولا دليل واحد. لم يبق إلاّ

---

(١١٥) F. Braudel. «La Méditerranée...». p. 977.

(١١٦) Ibid. p. 977.

(١١٧) سيرفانتس. «مختارات في خمسة مجلدات» موسكو ١٩٦١، المجلد الأول، ص ٤٤٥.

(١١٨) D. Cantimir. op. cit. Paris 1743. T. 3 p. 16.

(١١٩) J. de Hammer. op. cit. T. 6. p. 438.

صفير الرياح الجنوبية والشمالية، ونعيق البوم الكئيب يعكر سكون هذا المكان الذي كان يعج بالحركة [١٢٠].

بعد سقوط حلق الواد جاء دور «البستيون». في ٢٧ آب (أغسطس) اقترب **علج علي وسنان باشا** من أسوار القلعة وأشرفا شخصياً على الاستعداد للهجوم. تمكن حماة القلعة من صد عدد كبير من الهجمات بما في ذلك ثلاث هجمات رئيسية. وكانت الأيام التي تلت ذلك أقسى ما عانى الإسبان. يقول روفّينو الذي ظل طيلة ذلك الوقت بين المحاصَرين: «أظلمت السماء لغزارة الحجارة المنهالة علينا واحترقت من كثرة الأجسام الملتهبة» [١٢١]. لقد أمطر العثمانيون خنادق العدو بوابل من ألواح الخشب المشتعلة والنيران التي تطلق من مسافات قريبة من البنادق والأقواس. آلاف الجنود الإسبان والإيطاليين قتلوا أو أُحرقوا أحياءً. وتحولت الأرض إلى ما يشبه ظهر القنفذ لكثرة السهام المنغرزة فيها. أخيراً في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٥٧٤، وبعد انفجار الألغام التي تم زرعها، انهارت أبراج البستيون. ووسط النار والدخان شرع العثمانيون بالهجوم الرابع والحاسم. وبعد منتصف النهار بقليل كانوا يسيطرون على القلعة سيطرة تامة، وقتل كل المدافعين عنها تقريباً، أما الجرحى فاحترقوا في المستشفيات. ولم يبقِ العثمانيون إلاّ على ألف شخص بمن فيهم ثلاثمائة عامل بناء.

أما الجنود الإسبان المائتان الذين نجوا ورفضوا إلقاء السلاح هربوا سباحة إلى قلعة سانت ـ ياغو لكن من وصل منهم بعد سقوط القلعة كان مصيره الإعدام.

استناداً إلى المصادر العثمانية والتونسية سقط في معارك مدينتي تونس وحلق الواد من المسلمين قرابة عشرة آلاف قتيل [١٢٢]. ومع ذلك أثار احتلال تونس موجة عارمة من الابتهاج في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فقال الصدر الأعظم **محمد باشا** سوقولو لسفير البندقية بفرح: «حلقتم ذقننا في **ليبانتو** فقطعنا يدكم في تونس؛ الذقن ينبت غيرها أما اليد فلا ينبت غيرها أبداً» [١٢٣]. وفي اسطمبول وغيرها من مدن السلطنة سمع البولوني ستريكوفسكي كيف كان الفقراء في الشوارع والأسواق، في خانات القوافل وساحات الفنادق، يمجدون باللغة التركية والصربية قوات السلطان المظفرة. وعلى أنغام الآلات الموسيقية ينشدون بأصوات عالية عن «مآثر الانكشارية في الاستيلاء على **تونس وحلق الواد**» [١٢٤].

---

(١٢٠) P. Sebag op. cit. p. 207

(١٢١) P. Sebag. op. cit. p. 228.

(١٢٢) M. Digeon «Nouveaux contes...». T. I. p. 120. et P. Sebag. op. cit. p. 226.
للعثمانيين ١٠ آلاف، ويرفع سيرفانتس الرقم إلى ٢٥ ألفاً، ودو توريس إلى ٣٣ ألفاً.

(١٢٣) H. de Grammont. op. cit. p. 117.

(١٢٤) اغاتانغيل كريمسكي. «تاريخ تركيا وآدابها، من التأسيس حتى بداية السقوط». موسكو ١٩١٠، المجلد الأول. ص ١٢٧.

كان سقوط تونس يعني خسارة الاسبان لشمال أفريقيا نهائياً. وعشية الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٤، لم يكن **دون خوان النمساوي** قد جمع أكثر من نصف الأسطول الإسباني. ومع ذلك، وحتى منتصف تشرين الأول (أكتوبر)، لم يكن مستعداً للاعتراف بالهزيمة. ويرى فرنان بروديل أن سرعة سقوط القلاع الاسبانية لم تكن أبداً تشجعه على تنفيذ خططه [١٢٥]. فكان من غير المجدي تكرار حملة ١٥٧٣، وقد فهم ذلك دون خوان النمساوي جيداً. وفي ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٧٤، وبدلاً من التوجه إلى أفريقيا توجه إلى مدريد لكي يقابل فيليب الثاني ويشرح له الأمر شخصياً [١٢٦].

احتلال تونس في الواقع وضع حداً لانفصال غرب البحر الأبيض المتوسط. لقد استُنزفت قوات الطرفين، وكلاهما في الحقيقة رفض مواصلة القتال. ويرى المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان «أن فيليب الثاني، بعد أن مُني بهزيمة جديدة، وبعد أن شلّت حركته انتفاضات هولندا والفوضى في إيطاليا، وبعد أن أقلقته مكائد الانكليز والفرنسيين، رفض القيام بأي عملية انتقامية في أفريقيا. وأُرغم على عقد هدنة مع السلطان عام ١٥٨١ [١٢٧]. كما أن الباب العالي تورط في سلسلة حروب مضنية خاضها في إيران وأوروبا الوسطى وفي البلقان (١٥٧٨ ـ ١٦٠٦). يضاف إلى ذلك ان «الدولة التي يحرسها الله» دخلت مرحلة الأزمات الاجتماعية والمالية التي لم تعرفها سابقاً والتي وضعت السلطنة على شفير الكارثة. فشُلّت القدرة الهجومية للعثمانيين بالكامل. لذلك يكتب المؤرخ التركي خليل أناجيك، أن مذبحة بارتولوميو في فرنسا عام ١٥٧٢ وهزائم الموريسكيين، وفشل الانتفاضات الهولندية وأخيراً اتحاد البرتغال مع إسبانيا في عام ١٥٨٠، قادت إلى اضعاف كبير لمواقع العثمانيين في أوروبا [١٢٨]. إذ اضطروا إلى الاقلاع نهائياً عن حلم «تحرير» إسبانيا وإسقاط عرش روما. في تلك الظروف جرت محاولات منفردة لاستئناف العمليات العسكرية في غرب البحر الأبيض المتوسط وبشكل رئيسي من جانب فرسان مالطا والبكوات المغاربة، لكنها لم تخرج عن إطار الصدامات المحلية باستثناء المعارك البحرية. في الواقع دخلت الحرب بين العثمانيين والفرنجة طريقها المسدودة، وأظهر ميزان القوى بين الشرق والغرب بعد معركة ليبانتو انعدام ميزة حاسمة لأي من الطرفين على الآخر، ولم يكن يسمح لأحدهما بتغيير الوضع العسكري الاستراتيجي لمصلحته بشكل نهائي وحاسم.

---

(١٢٥) F. Braudel. «La Méditerranée...». p. 977.

(١٢٦) Ibid. p. 977.

(١٢٧) س. أ. جوليان. «تاريخ أفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، مراكش: من الفتح العربي حتى عام ١٨٣٠». ترجمة عن الفرنسية. أ. ي. انيتشكوفا.. التحرير والمقدمة لنقولاي إيفانوف. موسكو ١٩٦١. ص ٣٢٤.

(١٢٨) H. Inalcik. op. cit. p. 43.

على الصعيد الداخلي، أدّى احتلال تونس إلى استكمال عملية عثمنة البلاد. فخلال عدد كبير من الحروب والانتفاضات ما بين سنوات ١٥٢٦ و ١٥٧٤ انهارت نهائياً كل المؤسسات الاجتماعية والسياسية للعصر الحفصي، وانتقلت السلطة في تونس إلى أيدي البكلربكوات العثمانيين الذين اعتمدوا على رجال الدين المسلمين والقادة العثمانيين في شمال أفريقيا. وكانت السيطرة من نصيب ممثلي النخبة الكوسموبوليتية العثمانية، لا سيما الموريسكيين والمسلمين المتحدرين من أصل أوروبي. فلوحظت كثرة عددية من الموريسكيين الذين وصفهم المؤرخ التونسي توفيق باشروش أنهم أسسوا في تونس «إسبانيا الصغيرة في المنفى»(١٢٩). وإلى جانب المسلمين الايطاليين القادمين من **كورسيكا ونابولي وجنوة** كان الموريسكيون يحتلون أرفع المناصب في الإدارة المركزية والجيش والأسطول. وكان منهم بكوات السناجق والقادة. ويرى المؤرخ التونسي **محمود بو علي** «أن عنصر السكان الأصليين قد أزيل تماماً من مختلف المناصب المهمة»(١٣٠).

بعد الاستيلاء على مدينة تونس عمَّ البلاد نظام صارم استند إلى مبادىء الشريعة الاسلامية لكنه اعتمد القسوة البالغة دون شفقة ولا هوادة. وعلى غرار النمط الجزائري أنشىء ديوان صغير وديوان كبير. كما أُنشىء مركز للفرق الانكشارية التي كانت تحصل على تعزيزاتها من المتطوعين المستقدَمين من اسطمبول إلى جانب قوات محلية مساعدة. ولم يطبَّق نظام الملكية الاقطاعية الصغيرة وألغيت كل الاقطاعيات والأوقاف المقتطعة بصورة غير شرعية. واستولت الدولة على الأراضي الزراعية ومعظم العقارات غير المنقولة. وتم تنظيم الضرائب وغيرها من الالتزامات المفروضة على الأهالي بدقة وصرامة. واستناداً إلى احدى الفقرات الواردة في «كتاب المؤنس» لابن **أبي دينار** يفترض بعض الباحثين التونسيين أنه قبل رحيل **سنان باشا** من تونس أصدر قوانين ـ نامه جديدة(١٣١). من المحتمل ان تلك القوانين ـ نامه انطلقت مما يسمّى قانون رمضان بك المحلّي الصادر حوالي ١٥٧٠، في الواقع، ليست لدينا معطيات كافية عنه باستثناء أنه ذكر مرة واحدة في محفوظات الوزير السراج(١٣٢). ويتبيّن من الوثائق العثمانية التي تمكن المؤرخ الأميركي **هيس** من الاطلاع عليها أن ممارسة الإدارة في تونس لم تختلف في شيء عن ممارسة السلطات في أي مقاطعة عربية أخرى.

لقد كان على بكلربك تونس وقائدها الأعلى أن يراقب تحقيق العدالة ويهتم بحماية الطرق والجسور، ويحافظ على الخانات في وضع جيد، ويحمي القوافل ويشجع بناء المساجد والمدارس،

(١٢٩) T. Bachrouch: «Formation sociale...» p. 208.

(١٣٠) M. Bouali. op. cit. p. 168.

(١٣١) T. Bachrouch. op. cit. p. 55. et A. Abdelselem «Les Historiens tunisiens des XVII ème, XVIII ème et XIX ème siècle». Paris 1973. p. 33.

(١٣٢) T. Bachrouch. op. cit. p. 35.

ويسهر على محاربة كل أنواع التعسف واستخدام السلطة والاهتمام بشؤون الرعية[١٣٣]. وحصل الفلاحون على حقوق الاستثمار الوراثي للأرض التي تملكها الدولة[١٣٤]. وكما في الولايات العربية الأخرى أجريت في تونس عملية مسح الأراضي ونظمت دفاتر الملكية. وتورد إحدى الوثائق المؤرخة في ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) أمراً إلى بكلربك تونس بظروف إنهاء التحرير (أي عملية مسح الأراضي) في الولاية وعدم وضع القضية على الرف[١٣٥].

تعاون الأهلون عموماً بإخلاص مع السلطة الجديدة، على الأقل في السنوات الأولى للإدارة العثمانية. وقد واجه العثمانيون بعض الصعوبات لا سيما في السهول وأواسط البلاد وجنوبها حيث قوبلوا بالتحفظ وأحياناً بالعداء من جانب قبائل البدو الذين كونوا القاعدة الاجتماعية الرئيسية التي ناصبت العثمانيين العداء خلال سنوات ١٥٧٥ ـ ١٥٩٢.

تزعمت معارضة العثمانيين في تونس فلول مرابطي الشابيّة وأوساط المهجّرين المرتبطين بأسرة الحفصيين. آخر أبناء هذه الأسرة **مولاي محمد** نُفي إلى اسطمبول حيث عاش على «معاش تقاعد شرف» خصصته له الحكومة العثمانية. ولجأ معظم أمراء وأميرات الأسرة الحفصية الآخرين إلى **صقلية**. واعتنق كثيرون منهم الكاثوليكية وظلّوا بصورة دائمة في إيطاليا ومنهم على سبيل المثال **دونا ماريا وكارل (حميدة)** النمساوي ابن وابنة السلطان الحفصي ما قبل الأخير مولاي حميدة اللذين أقاما في نابولي[١٣٦]. أما مولاي حميدة نفسه فاستقر في بلاد تيرميني قرب باليرمو، إلى أن توفي في آب (أغسطس) ١٥٧٥ أثناء وباء الطاعون. ونقلت جثته إلى تونس حيث سُجّيت قبل دفنها في جبّانة جلاّز لمدة ثلاثة أيام حتى يراها المواطنون ويقتنع كل منهم بموت السلطان[١٣٧]. تخلّى معظم الأمراء الحفصيين عن أي نشاط سياسي، لكن بعضهم كان يحلم بالانتقام بمساعدة الأصدقاء الإسبان والبدو على أمل استعادة تاج المُلك.

كان المهاجرون الحفصيون يتتبعون أنباء الوضع في تونس حيث وضع عدد من الأمراء عيوناً وعملاء لهم ومخبرين يتقاضون الرواتب. وكانوا يعتبرون بوادر أي استياء شعبي كانتفاضة الأهالي في مدينة تونس عام ١٥٧٧ حين قُتل خمسة وعشرون عثمانياً[١٣٨] تحولاً بارزاً يحثهم على تنشيط عملهم. وفي شهر نيسان (أبريل) ١٥٨١، تمكن مولاي أحمد، أحد المطالبين بالعرش الحفصي، من الحصول

---

(١٣٣) A. Hess. op. cit. p. 156.
(١٣٤) Ibid. p. 160.
(١٣٥) Ibid. p. 245. Note 12.
(١٣٦) T. Bachrouch. op. cit. pp. 130 - 132.
(١٣٧) P. Sebag. op. cit. p. 152 et T. Bachrouch. op. cit. p. 130.
(١٣٨) M. Bouali. op. cit. p. 180.

على إذن من السلطات الإسبانية للسفر إلى أفريقيا. فنزل على شاطىء قسنطينة ونظّم انتفاضة أطلق عليها نعت محاولة «ترميم حفصي لفترة ١٥٨١ - ١٥٩٢». تمكّن مولاي أحمد آنذاك من القضاء على بضعة فصائل عثمانية مسلّحة واحتلال القيروان مؤقتاً، وسيطر بمساعدة مرابطي الشابيّة على السهول الواسعة بين **التل العالي والجريد**. لكنه لم يتمكن من اكتساب تأييد الأهالي وجماهير الفلاحين. ويرى توفيق باشروش أنه بسبب انعدام الوحدة الداخلية وغياب العون من الخارج أخمدت محاولة الترميم الحفصي (١٣٩). وفي عام ١٥٨٢، تراجع مولاي أحمد إلى الجنوب حيث ظل برفقته ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف بدوي لعدة سنوات يقضّ مضاجع الحاميات العثمانية. وفي عام ١٥٩٢، تمكن العثمانيون من أسره فكان ذلك بمثابة الحدث الذي احتفلت به تونس ثلاثة أيام بلياليها (١٤٠)

لم تكن الفوضى التي عمت السهول تقلق كثيراً الحكام العثمانيين في تونس إذ كانوا يشعرون وكأنهم في ديارهم، وكانوا قادرين على إخماد كل تمرد من قبل العدو دون طلب أي مساعدة من الباب العالي. وكان بكلر بكوات تونس يعتبرون أن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف انكشاري، إضافة إلى التشكيلات العسكرية المحلية، قوة كافية تماماً للاحتفاظ بالسيطرة العثمانية على تونس.

---

(١٣٩) T. Bachrouch. op. cit. p. 132. M. Bouali. op. cit. pp. 180 - 181.

(١٤٠) M. Bouali. op. cit. pp. 180 - 181. et T. Bachrouch. op. cit. pp. 130 - 132.



خاتمة

كيف نقوّم ظاهرة الفتح العثماني للأقطار العربية وكيف أصبحت الأقطار العربية التي كانت ذات يوم من المناطق الأكثر تطوراً في حوض البحر الأبيض المتوسط، يوم كانت حاضنة الاسلام والثقافة المزدهرة وجسّدت تقدم الحضارة الإنسانية على مدى قرون، كيف تحولت هذه الأقطار على هامش التاريخ العالمي، ولم تعدلها أهمية تذكر ككيانات سياسة مستقلة؟ لا شك ان عوامل عديدة كالانهيار الاقتصادي، والتقهقر الديموغرافي في توزيع السكان، والعلاقات الاجتماعية بين الناس وغيرها ساعدت على تقليص الدور النوعي للبلدان العربية في التاريخ العالمي.. ولا شك أيضاً أن التناقضات الداخلية والجمود الفكري، والانحطاط الاجتماعي، ساهمت في إضعاف صورة العرب أمام العالم الخارجي. مع ذلك، كانت البلدان العربية في مطلع القرن السادس عشر لا تزال تمثل منطقة غنية ومتطورة إلى درجة كافية. وكانت ما تزال تلعب دوراً ملحوظاً في السياسة الدولية وفي التبادل التجاري والثقافي العالمي. كان العرب آنذاك يمتلكون طاقات بشرية وموارد مادية كبيرة، وانتاجاً خرفياً وزراعياً كافياً لا سيما في مجال زراعة الحبوب التي كانت في تلك الأزمنة تعتبر المؤشر الأهم لازدهار البلاد الاقتصادي والسياسي. ويؤكد بروديل «أن القمح كان صولجان الحكم ووسيلة الضغط السياسي[1]؛ ومن دونه لم يكن بالإمكان الحديث عن حرية حقيقية للعمل». وأضاف «ارتبطت بانتاج الحبوب أسرار وأعمال جاسوسية أكثر من دواوين التفتيش»[2].

(١) F. Braudel. «La Mediterranée...». p. 457.

(٢) Ibid. p. 456.

في القرن السادس عشر كانت البلدان العربية تملك كمية كافية من هذا الانتاج المهم الذي تجمعه الحكومات المركزية وكانت تتفوق في ذلك على أي بلد من بلدان أوروبا الغربية. كانت مصر بمفردها والصعيد تحديداً، خلال سنوات ١٥٠٠ ـ ١٥٥٠ تضع بتصرف الدولة ٦٠٠ ألف إردباً أو ما يعادل ٧٢٠ ألف سنتياراً في العام الواحد (٣)، في حين بلغ انتاج صقلية، وهي أغنى بلدان أوروبا بالحبوب، في أفضل الحالات، ٥٢٠ ألف سنتياراً في عام ١٥٣٢ (٤) كان القمح العربي زهيد الثمن ويمكن الحصول عليه بسهولة في بلدان أوروبا الغربية. وكان ثمن الحبوب في الجزائر في حدود عام ١٥٧٤ أقل بأربع أو خمس مرات عما كان عليه في إسبانيا. باستثناء سنوات القحط، كان محصول الحبوب في الجزائر يكفي لتموين الجيش والمدن الكبيرة كالقاهرة (وقدر عدد سكانها بحوالى ٤٣٠ ألف نسمة عام ١٥٥٠)، وتونس (١٨٠ ألفاً عام ١٥٣٥)، واسطمبول (٤٠٠ ألف نسمة إبان فترة ١٥٢٠ ـ ١٥٣٠) والتي كانت تموّن بالدرجة الأولى بصفتها عاصمة للسلطنة.

كيف أصبحت إذاً تلك البلدان الغنية والمتطورة بسكانها البالغ عددهم تسعة عشر مليوناً ونصف المليون نسمة باستثناء المغرب الذي بلغ عدد سكانه خمسة ملايين نسمة في القرن السادس عشر تحت حكم الباب العالي؟ وكيف تمكن السلاطين العثمانيون القابضون على زمام الحكم في دولة متعددة القبائل والأعراق، وتسكنها شعوب مختلفة الأديان بسكانها الاثني عشر مليوناً ونصف المليون من البشر خلال سنوات ١٥٢٠ ـ ١٥٣٥ (باستثناء المقاطعات العربية ومقاطعات الدانوب)(٥). كيف تمكن هؤلاء السلاطين خلال خمس سنوات من تثبيت حكمهم في منطقة شاسعة وتتفوق بمساحتها وعدد سكانها ومستوى حضارتها إلى حد كبير على بلاد العثمانيين أنفسهم؟ كان مصير العالم العربي قد تقرر في الواقع خلال أعوام ١٥١٦ ـ ١٥٢٠ عندما سحق العثمانيون دولة المماليك وأقاموا في البلدان العربية الأخرى مواقع ثابتة ووطيدة لهم بحيث أن عملية العثمنة التي بدأوها أصبحت فيما بعد مسألة وقت ثم أن العثمنة لم تكن مرهونة بمواقف العرب أنفسهم بقدر ما كانت ارتبطت بمقاومة إسبانيا والبرتغال وإيران الصفوية التي اضطر العثمانيون إلى خوض حروب طويلة وعنيفة ضدها.

---

(٣) ابن اياس «بدائع الزهور في وقائع الدهور» القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١، المجلد الخامس. ص ٤٠٩.
Voir aussi F. Braudel. op. cit. p. 461.

(٤) F. Braudel. op. cit. p. 453.

(٥) Omar Loutfi Barkan «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'Empire Ottoman aux XV ème et XVI ème siècles». in «Journal of the Economic and Social History of the Orient». Leiden 1957. Vol. 1. p. 231.

يقدر إيفانوف عدد سكان البلدان العربية خلال تلك المرحلة كالتالي: الجزائر وتونس ٣,٥ ملايين نسمة، ليبيا نصف مليون، مصر ٤,٥ ملايين، اليمن وحضرموت مليون، شمال شبه الجزيرة العربية ٢,٢ مليون، سوريا ٢,٨ مليون، العراق ٥ ملايين نسمة.

قيل الكثير عن قوة العثمانيين العسكرية. فحتى مطالع القرن الثامن عشر كانت لا تزال حية في أوروبا ذكريات عن قوة السلاح العثماني الذي لا يُقهر. ففي عام ١٧٤٣ كتب **جونكيير** يقول: «من المؤكد أنه منذ عهد الرومان لم تعرف البشرية دولة تضاهي السلطنة العثمانية»[٦]. فهل صحيح أن العثمانيين كانوا على هذا القدر من القوة؟ وهل كان بمقدورهم أن يسحقوا أي عدو لهم؟ لا شك أن العثمانيين في أواخر القرن الخامس عشر ومطالع السادس عشر احتلوا موقع الطليعة بين جيوش العالم. كانوا يملكون أسطولاً قوياً، ومدفعية فاعلة، وتنظيماً رائعاً، وفرق إسناد، وقوى استطلاع. لكن ذلك لا يعني أبداً أنهم تفوقوا على جيوش الدول الأخرى تفوقاً مطلقاً في جميع المجالات. كانت الانكشارية في القرن السادس عشر قد تمكنت من منافسة المشاة البرتغاليين والإسبان، وهما القوتان اللتان لم تمتلك أوروبا قوة أفضل منها، كما أن العثمانيين قد عملوا على تحسين مستوى خيالتهم باستمرار لكن سليماً الأول وسليمان العظيم لم يتمكنا من رفع فرسانهم إلى المستوى الذي وصلت إليه سابقاً خيالة المماليك وبقي فرسانهم أدنى مستوى من فرسان الخيالة الأوروبيين. الأمر الوحيد الذي أحرز فيه العثمانيين تفوقاً لا نزاع فيه كان في مجال المدفعية. إذ كان العثمانيون وباعتراف الجميع، يملكون أفضل مدفعية في العالم: فكانت الأكثر اتقاناً من الناحية التكنيكية إنْ لجهة عياراتها أو لدقة التصويب فيها وشملت مدفعية الحصار الثقيلة، ومدفعية الميدان والمدفعية النقالة الخفيفة التي يمكن نصبها على عربات تجرها الخيل أو توجهها الريح بواسطة الاشرعة.

التقنية العسكرية المتقدمة المقترنة بالانضباط الصارم والتنظيم الدقيق هي التي أمنت انتصارات كثيرة للعثمانيين. وفي أوروبا كما في الشرق سرت أسطورة تقول إن لدى العثمانيين جيشاً لا يقهر. في الواقع، كان العثمانيون يثيرون الرعب لدى أعدائهم، حتى بات كثير من الأعداء على استعداد لتوقيع صك هزيمتهم قبل أن يبدأ القتال. في عام ١٥٧٠، يرد في الإعلان الذي وجَّههُ سيد البندقية الأقدس «إلى الجنود المسيحيين» انه «عند الحديث عن مآثر الأزمنة الغابرة، ما إن يصل إلى سمع الجنود أن العثمانيين قد غزوا كل تلك المقاطعات والممالك حتى يرتعدوا خوفاً»[٧]. مهما كان الرعب الذي أثاره الجيش العثماني، ومهما بدا ذلك الجيش قوياً، فإن تناوب الانتصارات والهزائم دل بشكل قاطع، ان العثمانيين في القرن السادس عشر لم يستأثروا بتفوق عسكري مطلق. فلا المماليك، ولا الإسبان، ولا الفرسان البرتغاليون كانوا أمام العثمانيين بمثابة الهنود الحمر في أميركا بمواجهة الغزاة كيرتس أو بيسارو. المسألة ليست كذلك على الاطلاق. فإبان الفتح العثماني للبلدان العربية برزت حقيقة واحدة: انعدام الإرادة على الصمود في القتال لدى جيوش الحكام العرب وعدم رغبتهم في مقاتلة العثمانيين. كان الاستعداد لملاقاة العثمانيين والترحيب بهم شعوراً سائداً في

---

(٦) D. Cantimir. op. cit. T. 1. P. 6.

(٧) P. Sebag. op. cit. p. 179.

كل بلد عربي، لا بل في كل مدينة وقرية. في أوساط القوات المسلحة وبين الأهالي كانت ثمة جماعات كبيرة تنحاز والسلاح في أيديها إلى جانب العثمانيين وتُطلعهم على مخططات قياداتها وتفتح لهم أبواب المدن والقلاع. من الواضح تماماً أن شعوب البلدان العربية لم تكن تريد مجابهة العثمانيين، بل كانت ترغب أن يستولي العثمانيون على بلادهم.

كيف تفسر تلك المواقف؟ يبدو ان الفتح كان يتم تحت راية «تحرير» المضطهدين والمحرومين. ويرى المؤرخ التونسي محمود بو علي أن فتح البلدان العربية تم «عن طريق» المزج بين الشعارات القائمة على حشو الأدمغة بالسياسة والدين»[٨]. وقد تمكنت تلك الشعارات، وبقدرة سحرية، من استقطاب مشاعر الفلاحين وجماهير سكان المدن لا سيما في أوساط المنتجين في المدن والقرى وأصبحت تلك الشعارات هي أساس التعاطف مع العثمانيين وبنيت على قاعدتها النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للباب العالي بخاصة قراءة فلاحية فريدة من نوعها للمبادىء الأساسية للإسلام وأفكاره عن المساواة، والأخوّة بين الجميع، والعدالة الاجتماعية، والوفاق، والعمل كمصدر وحيد لتلبية الحاجات المادية للإنسان، وإدانة مظاهر الترف والإثراء، وضرورة التواضع في العيش، والابتعاد عن الإسراف، وتحاشي استغلال الإنسان للإنسان. من حيث المبدأ كانت تلك النظم تهدف إلى تحقيق نهوض اجتماعي وإعادة تجديد المجتمع الاسلامي؛ كانت في حقيقتها طوباوية، على حد تعبير باتكين إذ فهمت «كإدراك وتوجُّه لهدم النظام القائم ثم إعادة بناء الحياة التي تلائم غالبية فئات المجتمع»[٩].

في الواقع، لم تكن النظم العثمانية الاجتماعية الطوباوية مجرد سفسطة كلامية، بل كانت أساساً للعمل.

وهي تعود بأصولها إلى الماضي السحيق، إلى تلك الأزمنة الغابرة عندما كان الفلاحون وفقراء المدن في الأناضول يقاومون الاضطهاد الإقطاعي تحت شعارات الآخيات نسبة إلى أخي. ففي نهاية القرن الثاني عشر ومطالع الثالث عشر، وهي المرحلة التي أثبتت عجز الاسلام في التحول إلى دين يسود العالم كله، كانت النظم الإجتماعية النظرية لحرية الغزو، وجمعيات «الإخاء» تختلف عن السمات الدينية لدى الشيعة. فتحت تأثير الدراويش اتخذت تلك النظم شكلاً يتناسب تماماً مع تعاليم المذاهب السنّة الأساسية. لكن التأثير الحاسم في التكوين النهائي للنظم الاجتماعية الطوباوية العثمانية الموروثة عن جمعيات «الإخائيين» و «الغزواتيين»، ترجع إلى تعاليم المتصوف الأندلسي العظيم **محي الدين ابن العربي** (١١٦٤ ـ ١٢٤٠) وأتباعه في الأناضول، ومنهم من شغل مركزاً

(٨) M. Bouali. op. cit. p. 168.

(٩) باتكين. «النهضة والطوباوية ـ من تاريخ ثقافة القرون الوسطى والإنبعاث». موسكو. ١٩٧٦. ص ٢٢٣.

مرموقاً ومميّزاً بخاصة **جلال الدين الرومي** (١٢٠٧ - ١٢٧٣) الذي كان بمثابة المرشد الروحي للشاب عثمان الأول الذي حكم خلال سنوات (١٢٨١-١٣٢٦)، وتوحدت تحت قيادته حركات الغزواتيين وحركات الإخائيين لأول مرة في التاريخ التركي.

بعد انتصار العثمانيين، ومع تطور عثمنة مؤسسات الدولة أخذت مُثُل الآخيات وجمعيات الغزواتيين القديمة تكتسب طبيعة الايديولوجية الرسمية للسلطنة، وقدمت نفسها كثورة اجتماعية فريدة من نوعها باعتبارها أحد مظاهر الفكر الإجتماعي. وفي عصر الانبعاث قدمت النظرية الاجتماعية الطوباوية للعثمنة نفسها كنقيض «للاتينية» وكتجسيد للتعاليم الحقيقية للنبي محمد والتي تناقض الجاهلية الجديدة أي مجتمع الكفر بالله، المتجسد لدى ورثة الحضارة اليونانية والرومانية القديمة والهلينية التي ولد الاسلام ونما في ظروف النضال ضدها. وبعد الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ بفترة قصيرة، أمر محمد الثاني بالتدقيق في الأسس الدينية والعقائدية للمذهب الرسمي أو دين الدولة والبدء بوضع صيغة عثمانية متجدِّدة للشريعة الإسلامية. تجسد ذلك في عمل الفقيه العثماني الكبير محمد **بن فيرا مورزي أو الملاّ خسرو** في كتاب «درر الحكّام». ١٤٧٠، وعلى وجه الخصوص في العمل الأساسي الذي كتبه **ابراهيم الحلبي** «ملتقى الأبحر» عام ١٥١٧ فتم تثبيت التفسير الجديد للشريعة الإسلامية في «قوانين» **بايزيد الثاني** (١٤٨١ - ١٥١٢) وسليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وكذلك في مؤلفات **شيخ الاسلام الشهير أبو الصُّعدة** أفندي الذي ظل يشغل ذلك المنصب باستمرار طيلة سنوات ١٥٤٤ - ١٥٧٤[١٠].

تعود الأفكار المثالية الاجتماعية والثيوقراطية العثمانية في خطواتها الأساسية إلى نظرية **ابن العربي** وإلى معتقده بألوهية الكون (الله أحد، وسع كرسيه السموات والأرض) وإلى التسامح في الدين إلى جانب إغراق الانسان المضطهد والمحروم في المثالية. وكان أتباع ابن العربي، من العرب والعثمانيين على السواء لا سيما أعضاء فرق الدراويش كالمولوية والبكطاشية يتمتعون بنفوذ لا ينازع في الأوساط العثمانية الحاكمة. بل قيل إن السلاطين لا سيما محمد الثاني وسليم الأول وسليمان العظيم، كانوا شخصياً أعضاء في تلك الفرق الصوفية[١١]. وكانوا في سياستهم يتوجهون إلى كل من يشاركهم آراءهم الاجتماعية بغض النظر عن انتمائهم الديني والعرقي. وفي القرنين الخامس عشر

(١٠) يعتبر المؤرخ التركي خليل إينالجيك أن «القانون» التركي كما يسميه، كان بمثابة مجموعة مبادىء وأحكام تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في السلطنة العثمانية. وضعت تلك المبادىء حوالى عام ١٥٠٠، أو على نحو أدق ما بين ١٤٩٢ و ١٥٠١، لكن جذورها تعود إلى الماضي السحيق. يقول إينالجيك: «قد لا أكون مبالغاً عندما أقول إنه كان هناك كتاب عثماني واحد للقوانين ثم تطور مع تطور التاريخ العثماني.

H. Inalcik. «The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy». Collected studies». London 1978. p. 125.

(١١) ف. أ. غوردليفسكي. أشباح تركيا». مختارات. المجلد الثالث. موسكو ١٩٦٢. صفحات ٣١ و ٣٤.

والسادس عشر تميّز العثمانيون بتسامح ديني مدهش. فكانوا يعتبرون أن الحق يعلو العقيدة وأن لا أهمية للدين في مجال إدراك الطبيعة الحقيقية للألوهية ولإقامة العدل بين الناس.

قال جلال الدين الرومي، الشاعر الصوفي ومؤسس الطريقة المولوية: «أنا لست مسيحياً ولا يهودياً ولا مسلماً». وكان في خطبة يتوجه إلى الجميع، إلى «الكافر كما إلى عابد الأصنام»[١٢]، إلى بسطاء الناس وإلى أبناء الأسر ذات النفوذ. على مستوى الجماهير الشعبية، ولا سيما عند الفرقة البكطاشية كانت أفكار المتصوفة قد «فقدت تجريدها الفلسفي واتخذت شكلاً قريباً من وعي الفلاحين»[١٣] على حدتعبير المؤرخ الروسي غوردليفسكي. وفي هذا الإطار تحولت الطوباوية العثمانية إلى قوة فاعلة في الكفاح من أجل إعادة بناء المجتمع، ومن أجل تثبيت المبادىء المعروفة «مبادىء الشرع والصراط المستقيم والمعرفة والحق».

فالدعوة لإعادة بناء المجتمع على أساس النظم الاجتماعية الطوباوية العثمانية هي بالتحديد التي استمالت الناس وغزت البلدان العربية وسيطرت عليها، وهي التي فتحت الطريق أمام الجيش العثماني وأوهمت جماهير العرب بإمكانية قيام مملكة الله على الأرض. وعندما التحق العرب بالسلطنة العثمانية لم يشعروا أنهم في وضع الشعوب المحرومة من الحقوق أو المضطهدة. وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظلّوا يعارضون اعتبار الفتح العثماني استعباداً أجنبياً. وقد أشار أحد أكبر ايديولوجيي القومية العربية الحديثة، المؤرخ السوري المرموق **ساطع الحصري**، في مؤلفاته إلى أن العرب اعتبروا حكم السلاطين العثمانيين استمراراً مباشراً للخلافة الإسلامية وانهم لم يشعروا بأنهم شعب مُستعمر تابع لسلطة أجنبية[١٤]. ويرى المؤرخ **زين نور الدين زين** أن العثمانيين لم يستولوا على أرض عربية من العرب بل حاربوا المماليك والإسبان والفرس ولم يحاربوا العرب. وحتى عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) لم يكن العرب يعانون من كثرة الوجود التركي في الإدارة العثمانية بقدر ما كانوا يعانون من قِلّتهم ويعتبر أن العثمانيين في البلدان العربية كانوا أولئك «الأجانب» الذين يأتون ويذهبون حتى عام ١٩٠٨ عندما استلم الحكم رجال «تركيا الفتاة» دون ان يفعلوا شيئاً في مجال دمج العرب بالأتراك أو تتريكهم[١٥].

عندما أصبح العرب تحت حكم الباب العالي لم يشعروا فعلاً بأي اضطهاد قومي. ولم يكن ثمة ما يبرر القول بحدوث عملية «عثمنة البلدان العربية» وكبت اللغة والثقافة العربيتين أو أن أحداً

(١٢) المرجع ذاته، صفحات ٢٨، ٣٢، ٣٨.

(١٣) المرجع ذاته، ص ٣٣.

(١٤) ساطع الحصري. «البلاد العربية والدولة العثمانية». بيروت ١٩٦٠. صفحات ٣٦ و٨٢-٨٣.

(١٥) Zeine Zeine. «The Emergence of Arab Nationalism. With a background Study of Arab - Turkish Relations in the Near East». Beirut 1966. pp. 9-10 and 17.

فرض على العرب عادات وتقاليد غريبة عنهم.

أولاً لم تكن في السلطنة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر أي قومية طاغية. ففي «العصر ما بعد البيزنطي» كما وصفه المؤرخ الروماني **نيقولاي يورغا**، اتسم المجتمع العثماني والدولة العثمانية بصفة كوسموبوليتية. ولم تكن أي قومية تتمتع بامتيازات على القوميات الأخرى. أما الأتراك آنذاك، فكانوا بمثابة أقلية عرقية لا تتميّز بشيء عن باقي قوميات السلطنة إلاّ بتخلّف مستواها الحضاري. ولم تكن اللغة التركية قد تركزت بعد كوسيلة تفاعل قومي(١٦)، بل كانت مهملة. لذا كان مؤسس الدولة التركية القومية الحديثة **مصطفى كمال أتاتورك** يؤكد باستمرار أن اللغة التركية كانت موضع ازدراء من قبل الدوائر الحاكمة. وظهرت في أوساط البلاط السلطاني «لغة عثمانية» خاصة (عثمليّة)، وهي التي يصفها المؤرخ السوفياتي يريمييف بقوله: «اللغة العثمانية تقوم على أساس الكتابة بالحرف العربي، لكن كلامها عربي بشكل أساسي إلى جانب الفارسي. أما قواعدها فرغم أنها كانت تركية على الأغلب، إلاّ أنها تضمنت الكثير من عناصر قواعد اللغتين الفارسية والعربية(١٧). لم تكن اللغة العثمانية مفهومة في أوساط العامة من الشعب التركي لكنها شغلت الحيّز الأول في بلاط البادي شاه. واعتُبر الالمام بها شرطاً ضرورياً للانتماء إلى الفئات المميّزة: والمتعلمة بشكل عام. وأشار كاتب إيطالي في القرن السادس عشر، باولو جوفيو إلى أن اللغة العربية، لغة القرآن، أي الكتاب المقدس لدى المسلمين، ولغة العلم والقضاء، شغلت المكانة الثانية بعد اللغة العثمانية. واحتلت المكانة الثالثة اللغة السلافية كلغة للتخاطب في البلاط السلطاني ولغة قوات الانكشارية، وحلّت في المكان الرابع اللغة اليونانية التي كانت تتكلمها غالبية سكان اسطمبول وغيرها من المدن البيزنطية القديمة(١٨).

كانت النخبة العثمانية الحاكمة والجيش والإدارة تتمتع بطبيعة كوسموبوليتية. فكان أحد قضاة اسطمبول الأوائل فرنسياً؛ ومعظم الوزراء وكثير من كبار رجال حاشية الباب العالي من أصل يوناني أو سلافي أو ألباني. ففي عهد **سليمان العظيم** كان من بين كبار وزرائه التسعة، ثمانية من أصل غير تركي، وتحديداً من أصل سلافي بعد أن اعتنقوا الإسلام(١٩).

أما البنية الأساسية في الجيش العثماني فتشكّلت من المسلمين الناطقين باللغات السلافية؛ وهم بالذات الذين شكّلوا العنصر الأهم في البلاط والحكومة العثمانية. واعتبر كريمسكي أن بالإمكان

---

(١٦) د. يريمييف: «أصل الأتراك ومنشأهم والمراحل الأساسية لتاريخهم السلالي». موسكو ١٩٧١. ص ١٥١.

(١٧) المرجع ذاته ص ١٥٣.

(١٨) كريمسكي. المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(١٩) يريمييف. «أصل الأتراك...» ص ١٤٧ - ١٤٨.

الحديث عن السلطنة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر باعتبارها « دولة سلافية إسلامية في الدين فقط »[٢٠]. مهما يكن من أمر، ففي الجيش كما في الإدارة، ضاع الأتراك الأصليون وسط العدد الكبير من المسلمين ذوي الأصل غير التركي بمن فيهم الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام. ففي الجزائر مثلاً عام ١٥٨٨ كان ثلثا قباطنة الأسطول الحربي يحملون لقب « مولود رومي » أي أنهم كانوا مرتدين عن دينهم ومن بلدان أوروبا الغربية. وإلى جانب المرتدين الإيطاليين كان بين البحارة الذين اعتنقوا الاسلام ايرلنديون وهولنديون ودانماركيون ومجريون وسلافيون وأحباش وحتى هنود من أميركا[٢١].

ثانياً، بحكم الطبيعة الكوسموبوليتية للمجتمع العثماني وللدولة العثمانية كانت الميزة الأساسية انعدام الشعور القومي. وقد أشار المؤرخ الروسي غوردليفسكي إلى أن « لا مبالاة المجتمع العثماني حيال القضايا القومية كانت مريعة. فبالنسبة لأعيان المدن الذين احتفظوا في قرارة نفوسهم بالموروثات البيزنطية الفاسدة، الهرمة، المهزومة ». كانت كلمة « تركي » تعني الإنسان الفظ الجاهل. وكثيراً ما سمع المؤرخ **موراج دوسون** التساؤل التالي في القرن الثامن عشر: « لماذا ينعتنا الأوروبيون بالأتراك »[٢٢]؟ لقد استندت وحدة المجتمع العثماني إلى نظام متكامل يقوم على تعاليم الاسلام ويتناقض بشكل أساسي مع النموذج الاجتماعي الاقتصادي لأوروبا في عصر النهضة.

ثالثاً، لم يكن العرب ليقبلوا أي اضطهاد قومي، سيما وأن لغتهم وتقاليدهم وتراثهم التاريخي كانت موضع تقديس واحترام. وكان تقديس اللغة العربية ـ لغة القرآن والوحي الالهي ـ يتسع في جميع مقاطعات السلطنة. وراح الناس ينصتون إلى كلماتها برهبة وإجلال. باللغة العربية كُتبت أسماء السفن، والأقوال المأثورة على الأسلحة الشخصية والتذكارية. ولم تعد الرموز والشعارات وغيرها من الكتابات تُنقش على رايات التشكيلات العسكرية العثمانية إلاّ باللغة العربية وحدها ولم تعد تُسمع الصلوات وتلاوة الآيات القرآنية إلاّ بالعربية. وكان مستحيلاً تصنيع السفن الاسلامية دون معرفة اللغة العربية. فباتت العربية تدرَّس في جميع مدارس السلطنة العثمانية. حتى أن المؤرخ **زين زين** يرى أن العرب كانوا يتباهون كيف أن اللغة العربية، وهي أعز وأحب تراث لديهم بعد الإسلام، استمرت لغة القيم الروحية[٢٣]. كان يكتب ويتكلم باللغة العربية سكان الولايات العربية وولايات أخرى. ففي أدرنه واسطمبول كانوا يعرفون دقائق اللغة العربية الفصحى، وفي كثير من الأحيان بشكل أفضل مما كان في المقاطعات العربية نفسها. وعلى مدى ثلاثة قرون، السادس عشر

(٢٠) كريمسكي. المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢١) J. Moulali. op. cit. pp. 74 - 75.

(٢٢) غوردليفسكي « أشباح تركيا ». مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢٣) Z. N. Zeine. op. cit. p. 110.

والسابع عشر والثامن عشر، على حد تعبير المؤرخ البريطاني هاملتون جيب « كتب الأتراك عدداً كبيراً من المؤلفات العربية نثراً وسَجَعاً وشعراً »[٢٤].

عملت السلطنة العثمانية على احترام اللغة العربية والعادات الشعبية في الولايات العربية. فنص قانون ـ نامه مصر مثلاً ان أعمال الكتابة ومسك الملفات في مصر لا بد أن تتم باللغتين العربية والعثمانية. وكان على ناظر أملاك الدولة أن يحتفظ بمكتبين: واحد عربي وآخر عثماني (رومي) مهمتها إعداد الأوامر والتعليمات وغيرها من الوثائق باللغات المطلوبة[٢٥]. وفي جميع أنحاء السلطنة العثمانية تمتعت مدارس القاهرة ومكة بنفوذ واسع. وإلى جانب المعاهد الدينية والفقهية في دمشق وحلب وطرابلس، كانت مدارس القاهرة ومكة تخرج عدداً كبيراً من العلماء والقضاة والمفتين، فلعبوا دوراً بارزاً بعد تقلدهم مناصبهم في مختلف مقاطعات السلطنة[٢٦].

وشغلت البلدان العربية، بشكل عام، مكاناً مرموقاً في حياة « الدولة التي تحرسها العناية الإلهية ». وفي نهاية القرن السادس عشر بلغ عدد الولايات العربية أربع عشرة ولاية بين ولايات السلطنة الأربع والثلاثين[٢٧]، كان يقطنها قرابة ٦٠ بالمائة من مجموع سكان السلطنة الذين اعتبروا أنفسهم جميعاً يعيشون في ظل الشريعة الإسلامية والتراث الإسلامي. فاعتبر ضم البلدان العربية إلى السلطنة العثمانية بالتالي بمثابة تقوية لطابعها الإسلامي وأضفى على حياتها الاجتماعية والحكومية معالم الخلافة الاسلامية الحقيقية. لم يكن العرب يعرفون اللغة الصربية ولا اليونانية. كما أن انضمام البلدان العربية إلى الحياة الاجتماعية والسياسية للسلطنة، ولو على نحو غير مألوف، أدّى إلى تقوية الطابع العثماني فيها وازدياد أهمية اللغة العثمانية كوسيلة للتفاعل في جميع أنحاء السلطنة.

إن الدور المهم للعرب يبرهن أن فتح العثمانيين للبلدان العربية كانت له طبيعة اجتماعية لا قومية. ويمكن اعتبار ذلك بمثابة انقلاب اجتماعي أو حركة انتفاضة فريدة في نوعها، لم تؤد فقط إلى تغيير السلطة بل إلى تحولات جذرية في جميع جوانب نمط الحياة السابقة. صحيح أن تلك الانتفاضة قد تحققت بمساعدة من الخارج، لكنها كانت ذات قاعدة اجتماعية واسعة داخل البلدان العربية واستندت إلى فئات كبيرة من السكان العرب.

ويتجلّى الانقلاب الاجتماعي الذي رافق الفتح العثماني قبل كل شيء في إعادة البنى الجذرية للعلاقات الزراعية. فقام العثمانيون أولاً بتصفية الاقطاع وغيره من أشكال ملكية الاراضي

(٢٤) جيب « الأدب العربي ـ العصر الكلاسيكي » ترجمة خاليدوف ـ موسكو ١٩٦٠. ص ١١١.

(٢٥) M. Digeon. op. cit. p. 256.

(٢٦) Z. N. Zelne. op. cit. p. 11.

(٢٧) تفيريتينوفا « البنية الزراعية للسلطنة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر » موسكو ١٩٦٣. ص ٩٢.

الاقطاعية التي كانت منتشرة في البلدان العربية منذ أيام الموحدين والأيوبيين. وعلى غرار ما كان سائداً في أنحاء بيزنطية قبل سقوطها انتقلت كل الأراضي الزراعية إلى أيدي الدولة وأعطيت للفلاحين لاستخدامها وتوريثها من الآباء إلى الأبناء. ان أشكال توزيع الاراضي بعثت من جديد العملية نفسها التي وضع أسسها السلطان محمد الثاني عام ١٤٧٥، والتي تلخصت في التحقيق من صلاحية الوثائق وعدم الاعتراف بملكية الاقطاع والأوقاف وأملاك الدولة الخ. وألغى العثمانيون، ثانيا، كل الالتزامات الإقطاعية الإجبارية المفروضة على الفلاحين لمصلحة المسؤولين أو أصحاب النفوذ ويصف خليل اينالجيك كيف تم إلغاء كل ما كان يحد من إشراف الدولة على الأرض والفلاحين (٢٨). وكما في المقاطعات البيزنطية السابقة تمَّ ذلك على شكل تحويل الالتزامات الإجبارية التي فرضها الإقطاع إلى رسوم مالية صغيرة بدأت تُجبى إلى جانب الأعشار (٢٩). وبموجب قوانين ـ نامه المتعددة أخذ العثمانيون يحصون كل شيء حتى أدق التفاصيل بما يتيح لهم تحصيل الرسوم من الفلاحين، ومنعوا أي جبايات أخرى منعاً باتاً. وفي هذا الإطار ألغيت كل الالتزامات والمدفوعات «المخالفة للقوانين» التي كانت تثير استياء الفلاحين: كرسم الحماية، و «هدايا» الضيافة، وبدل الطريق، والمبيت، ومختلف أنواع إبقاء الدّين بالعمل، والحسومات المالية والعينية.

طبقت تدابير مماثلة في المدن. فأظهر نموذج مصر ان العثمانيين عمموا المباني السكنية والانتاجية التي كان يستأثر بها بعض الأفراد بصورة «غير قانونية».. وفي الوقت نفسه طبقوا إجراءات حازمة لفرض إشراف الدولة ونظمها المستندة إلى النظم الاجتماعية والإقتصادية والأدبية والخلقية الواردة في الشريعة الاسلامية (٣٠).

وبنتيجة الفتح العثماني تمت تصفية الطبقة الإقطاعية المهيمنة على المجتمع العربي في القرون الوسطى. وأبعد أبناء تلك الطبقة ومنهم المماليك، والزيديين اليمانيين، وشيوخ الموحدين، وأمراء البدو وغيرهم من الحكام المحليين إضافة إلى أبناء العائلات الذين أُبعدوا عن السلطة وتعرضوا للاضطهاد والطرد. وعمل العثمانيون على ملاحقتهم في كل مكان ومعاقبتهم بصفتهم مغتصبين للسلطة، ومسلمين مزيّفين، ومارقين متنكرين للإيمان الحقيقي، ومتزلفين «لأعداء الله» وخونة متحالفين مع الفرنجة والبابا و «الفرعون» الإسباني. وخلال مسيرة الفتح العثماني نزعت ملكية العائلات الإقطاعية تماماً وصودرت قصورها وحدائقها ومنازلها إضافة إلى كنوزها التي نُهبت عن بكرة أبيها؛ وألغيت حقوقها الاقطاعية وحقها في الإشراف على الأوقاف.

---

(٢٨) Cook, (editor) «A History of the Ottoman Empire to 1730» Cambridge 1976. p. 34.

(٢٩) Ibid. p. 35.

(٣٠) لمزيد من التفاصيل يراجع ن. إيفانوف «حول الوجوه الاجتماعية والاقتصادية للإسلام التقليدي...» ص ٤٤ ـ ٥٥.

لم تكن معاناة الاقطاعيين أقل من معاناة أعيان المدن الموسرين الذين فقدوا وضعهم المميَّز وحُرموا من نفوذهم السابق وفقدوا قسماً كبيراً من أملاكهم، وتعرض معظمهم للإذلال أو أُرغم على التكيُّف مع السلطة الجديدة ومسايرتها.

وشاركتهم الاستياء طبقة التجار التي اعتبرت العثمانيين عنصراً اجتماعياً دخيلاً، بخاصة ان السلطات العثمانية استخفت بمصالح التجار وعاملتهم كمضاربين. وقد أدى تطبيق النظم العثمانية والاشراف الجدّي على تنفيذها إلى الحد من إمكانات تراكم الرأسمال التجاري وتنميته. فأفلس معظم التجار وزادت شكايتهم من كساد أعمالهم. وقد أشار المتصوف المصري عبد الوهاب الشعراني (١٤٩٤ - ١٥٦٥) إلى أن التجار يظلون أحياناً ثلاثة أيام دون أن يبيعوا سلعة واحدة. فلا يستطيعون تأمين القوت لأنفسهم ولعيالهم إلا بشق النفس؛ في حين ترهقهم مختلف الالتزامات لدفع إيجار المتجر وتسديد الأموال للمسؤولين. فكانوا يعتاشون في معظم الأحوال من رأسمالهم الأساسي (٣١).

وتكبدت قبائل البدو خسارة كبيرة على الأقل في السنوات العشر الأولى من الحكم العثماني. فقد حرمها العثمانيون امتيازاتها الإقطاعية وصادروا أملاكها الإقطاعية وحصتها من الانتاج وحقوقها في الحماية. واضطر البدو للخضوع إلى القوانين الجديدة ومراعاة النظام والانضباط الحكومي. وكانت أعمال العصيان، لا سيما قطع الطرق والسلب تقمع بشدة. الوثائق المحفوظة مليئة بنماذج من أفظع أنواع التنكيل كسلخ الجُلود، وفسخ الجسد إلى قطعتين، والخازوق أو زرع الجسد على الوتد، وغير ذلك مما كان يتعرض له زعماء القبائل العاصية. فاضطرت غالبية البدو الرحل إلى الخضوع للسلطة الجديدة. ووضعت قبائل عديدة نفسها في خدمة الباب العالي مكتفية بالدعم المالي الذي تقدمه لها الدولة وبعض الامتيازات التي أبقتها لها الحكومة العثمانية. وفي القرن السادس عشر انخفض إلى حد كبير نفوذ قبائل البدو الرحل المنفلتة من كل القيود. وتميزت تلك الفترة بنزعة الاستقرار على الأرض، وقد استطاع المؤرخ التركي عمر لطفي برقان بالاستناد إلى الوثائق الأصلية، التحقق من ذلك الاستقرار على أرض الأناضول (٣٢).

استُقبل العثمانيون بالترحاب في كل بقعة من البلاد العربية من قبل أبناء المسلمين، السنَّة والفئات الشعبية المعدمة، فراقت لهؤلاء سياسة السلطة العثمانية واهتمامها بحاجات الإنسان الفقير. ولم ينس العثمانيون دورهم «كمدافعين» عن عامة الشعب، فأخذوا ينتقمون للمضطهدين، وأكدوا حمايتهم للأرامل واليتامى والمشوهين والمعدمين. فأسكنوا الفقراء في المنازل المصادرة ووزعوا عليهم الخبز والملح، وفي بعض الأحيان كانوا يقدمون لهم اللحم وغيره من المواد الغذائية. وظلوا

(٣١) شميدت. «عبد الوهاب الشعراني وكتاب الدر المنثور» الصادر عام ١٩١٤. لا ذكر لمكان الطبع. ص ٨.

(٣٢) O. L. Barkan. «Essai sur les données statistiques...» Vol. I. pp. 29 - 30.

باستمرار يعتبرون الإنسان العامل حاملاً لأسمى مزايا الأخلاق وانه مقرب إلى الله وإلى السلطات العثمانية. كتب المؤرخ الروسي شميدت في معرض وصفه لآراء المتصوف المصري عبد الوهاب الشعراني الذي أحنى البكلر بكوات المصريون رؤوسهم إجلالاً له: «كان عبد الوهاب شديد العطف على الطبقة العاملة والحرفيين والمزارعين. وظل دون كلل يُطري فضائلهم في كل مؤلفاته ويثني على وداعتهم ودماثة أخلاقهم وحبهم للعمل وميلهم للطاعة وصبرهم في الأوقات الحرجة على حياتهم الكئيبة»(٣٣).

لقد تجسدت بعض آمال فئات الشعب المحرومة وأمانيها الاجتماعية في التدابير التي طبقتها السلطات العثمانية. فعبّر العثمانيون بواسطة سياسة دولتهم العملية عن احتجاج الفئات المضطهدة في مجتمع عصر النهضة والاصلاحات المضادة، ومما يثير الاهتمام كتابات عدد كبير من الطوباويين الإيطاليين في القرن السادس عشر لا سيما أولئك الذين تعتبرهم الباحثة السوفياتية تشيكوليني ممثلين لأفكار ومثّل «الملاكين الصغار والمنتجين المباشرين في المدن والقرى»(٣٤). فقد طالب هؤلاء الايطاليون بتطبيق التدابير التي نفذها العثمانيون بصورة عملية في مصر وغيرها من البلدان العربية. على سبيل المثال، طالب كل من فابيو البرغاتي، ولودوفيكو سوكولو بملكية الدولة للأرض ومنع بيعها أو شرائها أو اهدائها. «لقد كانا يدافعان عن تحطيم الامتيازات الطبقية»(٣٥). أما شريكهما في الرأي لودوفيكو أغوستيني فكان، في معرض مطالبته بإضفاء طبيعة العمل على الملكية، ان يكزر النص الحرفي للشريعة الاسلامية. فلا يمكن في رأيه أن تكون عادلة إلاّ ملكية «تلك الأشياء التي حصل عليها الإنسان بنتيجة عمله»(٣٦). وطالب أغوستيني والبرغاتي بمنع الربا وأدانا البخل وتكديس الثروات. كان أغوستيني ينادي بتطبيق ملكية الدولة على المنازل السكنية وإقامة رقابة على التجارة وإخضاعها «لقواعد صارمة» ووضعها تحت إشراف «مراقبين عامين»(٣٧) أي محتسبين. وطالب سوكولو بتحديد استهلاك الخمر ومنع القمار ولعب الشطرنج والنرد. ففي تصوره للدولة المثالية كان يرى أنه لا ينبغي على الشباب الانغماس «في اللهو الفاحش

---

(٣٣) شميدت «عبد الوهاب الشعراني...» مرجع سابق. ص ٢٠٩.

(٣٤) ل. تشيكوليني. «آراء حول تعميم الملكية والمساواة الاجتماعية في ايطاليا في القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر» كييف ١٩٧٧. ص ٣٩.

(٣٥) تشيكوليني. «الأفكار الاجتماعية والسياسية للطوباوي الإيطالي لودوفيكو تسوقولو في القرن السابع عشر». كييف ١٩٧٣. ص ١٥.

(٣٦) تشيكوليني «آراء حول تعميم الملكية...» مرجع سابق. ص ٣٥. وللمقارنة يراجع أ. نوفل «نهج الشرع الإسلامي حول الملكية الخاصة» الصادر عام ١٨٨٦ دون ذكر مكان الطبع. ص ٩.

(٣٧) المرجع السابق. ص ٣٦.

والملذات ومشاهدة التمثيليات الفاضحة ». أما النساء المسلمات الحقيقيات فعليهن ان « يظهرن متدثرات بالعباءة ومحجبات الوجه »[٣٨].

ولا عجب أن اعتبر الطوباويون الطليان في القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر أنصاراً للعثمانيين. ومن الناحية الاجتماعية اعتبر إلى جانبهم أنصار مذهب تجديد العمّاد وأعضاء حركات الاصلاح الديني والهرطقة في عصر النهضة الأوروبية بخاصة من الذين رفضوا الإيمان بالثالوث الأقدس. فقد أنكر هؤلاء مبدأ الثالوث الأقدس واعتقدوا بوحدانية الله. واعتبر زعيمهم الفكري وملهمهم ميغيل سيرڤيت (١٥٠٥ ـ ١553) « صديقاً للمحمديين واليهود ». ويرى المؤرخ الروسي ي. بورودين « أن الناس المؤمنين إيماناً راسخاً بطريق الهدى الإلهي رأوا في تعاليم سيرڤيت مقدمة لانتشار السيطرة العثمانية في الغرب »[٣٩].

في الواقع كان رافضو الايمان بالثالوث الأقدس والطوباويون والحركات المناهضة للإقطاع بصورة عامة في القرن السادس عشر يطالبون بمجيء، العثمانيين ويسترشدون علناً بأفكارهم ولم يكن الأمر ليقتصر على عقد حلف سياسي محض كنتيجة حتمية لمواجهة عدو مشترك، فقد تميّز القرن السادس عشر بظاهرة نزوع الجماهير الأوروبية إلى الإسلام. فأكد المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل على الحقيقة التالية: « اصيب المسيحيون المجاورون للبلدان الاسلامية بدوار الردّة »[٤٠]. وأضاف المؤرخ نفسه أن هؤلاء المسيحيين بدأوا ينتقلون من المسيحية إلى الإسلام « أفواجاً أفواجاً »[٤١] طوال القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر.

حتى في عام ١٥٩٦، وبعد أن « بهت البريق المحمدي » في أوروبا، على حد تعبير إحدى الوثائق الرسمية، ظلت تنطلق من صقلية « الزوارق المحملة بالأشخاص المستعدين للارتداد عن دينهم » ويقدر بروديل عددهم « بمئات الألوف ». ويضيف: « من كورسيكا وسردينية وصقلية وكالابري وجنوة والبندقية، ومن جميع أصقاع البحر الأبيض المتوسط تدفق المرتدون إلى الإسلام، ولم يحدث أي انتقال في الطريق المعاكس. لقد كانت حالات اعتناق المسيحية نادرة ولم تتجاوز نطاق الأفراد حتى بين الأسرى »[٤٢]. وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى أن إيطاليا لم تشهد في القرن السادس عشر أي انتفاضة فلاحية مهمة. فقد هدرت طاقتها بالهجرة عبر البحر المتوسط وظلت أسيرة الصراع الاسباني ـ العثماني.

---

(٣٨) تشيكوليني « الأفكار الاجتماعية... » مرجع سبق ذكره. صفحات ٢٧ و ٣٥ و ٦٠ ـ ٦١.

(٣٩) ي. بودرين. « رافضو الثالوث الأقدس في القرن السادس عشر ـ ميخائيل سميرفيت وعصره ». قازان ١٨٧٨. ص ١٦٧.

(٤٠) F. Braudel. «La Méditerranée...». p. 598.

(٤١) Ibid. p. 597.

(٤٢) Ibid. p. 598.

لقي العثمانيون التعاطف الأكبر بين سكان القرى. فما بين القرنين الخامس عشر ومطلع السابع عشر ظلت الحكومة العثمانية وأنصارها يعتبرون المعبّرين الفعليين «للطوباوية» الفلاحية. وبالفعل كان معظم المقرّبين من الباب العالي من أصل فلاّحي يخدمون مصالح الفلاحين ويستندون إلى دعمهم. فشكلت تلك الظاهرة أكثر ثوابت السياسة العثمانية دقة واستمرارية. آنذاك لم تكن لمسألة الانتماء الديني والسلالي للفلاحين أي أهمية تذكر. يشهد على ذلك ما ورد في خطاب الصدر الأعظم بمناسبة وفاة **محمد الثاني** عام ١٤٨١. ففي معرض إشارته إلى ظروف تعاظم شأن الدولة العثمانية بسرعة، قال الصدر الأعظم: «بحكمة ومهارة جمع السلاطين بين جميع القبائل، إلى جانب الناس المحكوم عليهم بالحياة القروية البائسة، وإلى جانب الذين لا يعبدون الإله الواحد الذي بشّر به النبي محمد، فجعلوهم مكرّمين سعداء، وأنعموا عليهم بأرفع الرتب والوظائف السامية. وأنا واحد من هؤلاء الناس كذلك منهم عدد كبير ممن يستمعون الآن إلى خطابي»[٤٣].

أما قادة المعسكر المناوىء فكانوا يعيّرون المقربين من الباب العالي بوصفهم من الفلاحين والقرويين العاديين. واعتبرتهم طبقة الأشراف العرب «برابرة» و«فلاحين» أجلافاً لم يعرفوا الأدب أو الثقافة قط. وفي الغرب كانوا ينظرون إليهم كفلاحين متشردين مغترّين بأنفسهم وبمقامهم الكبير. حتى الأغنياء الإسبان والإيطاليون كما يقول **إميل اسين**[٤٤]، وصفوا العثمانيين بأولئك القرويين الرعاع الذين تحدّوا نظام الإقطاع في المجتمع الأوروبي.

كتب سفير البندقية أ. بارباريغو (١٥٥٥ ـ ١٥٦٠): «في هذه السلطنة العظمى لا وجود لمتفوق أو نبيل بالدم». وقال آخر من البندقية أيضاً هو لـ. برناردو (١٥٨٤ ـ ١٩٨٧): «لا وجود بينهم (المقصود بين القادة العسكريين والمقربين من الباب العالي) لدوق أو مركيز أو كونت. كلهم في الأصل رعاة ومنحطون وسفلة»[٤٥].

عندما وصل هؤلاء القرويون إلى السلطة أعادوا ترتيب حياة المجتمع وفقاً لأذواقهم وتصوراتهم وتجاهلوا مصالح التجارة والتجار تماماً.

وخلافاً لمعظم دول أوروبا الغربية التي حافظت في عصر الرأسمالية المبكرة (١٥٠٠ ـ ١٧٥٠) على السياسة المركانتيلية التي لعبت دوراً في تثبيت الطابع الرأسمالي للإنتاج، طبق الباب العالي سياسة مناقضة تماماً. فإذا كانت المركانتيلية قد اهتمت بالإنتاج وتصدير البضائع والتوسع

---

(٤٣) بريبيف: «أصل الأتراك...». ص ١٤٨.

(٤٤) E. Esin. op. cit. p. 48.

(٤٥) A. Lybyer. «The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent». Cambridge 1913. pp. 39 et 42.

التجاري وغزو الأسواق، وإذا كانت المركانتيلية قد طالبت بالحد من الاستيراد وتشجيع التصدير بكل الوسائل، فإن السلطة العثمانية تصرفت على نحو مغاير، إذ فتحت الأسواق لأكبر عدد ممكن من المصنوعات والمنتوجات المستوردة وآمن رجال الدولة العثمانيون أن بحبوحة البلاد وراحة الشعب تتوقفان على وفرة البضائع الاستهلاكية بأثمان بخسة في السوق الداخلية. ووفقاً لهذا الاعتقاد أخذ الباب العالي يشجع على الاستيراد ويحد من التصدير بكل الوسائل. وعند ظهور أي نقص في هذا الصنف أو ذاك من البضائع في السوق الداخلية كان يُمنع تصديره بتاتاً. وعلى العكس، لم تضع السلطات أي عراقيل في وجه استيراد أي بضاعة أجنبية إلى البلاد فكانت تقدم للتجار الأجانب مختلف أنواع التسهيلات والامتيازات بما في ذلك حق التمتع بالحماية، وفي هذا المجال لم تكن الحسابات الخاصة للتجار تخضع للرقابة. وخلافاً لأتباع المركانتيلية لم تكن السلطات العثمانية تربط حسابات هؤلاء التجار برقابة الدولة. واكتفى أحد منظري العثمنة وهو كوتشوبك غيوميورد ـ جينسكي في عام ١٦٢٩ بالقول: «لا يمكن فعل أي شيء مع التجار ـ الثعالب»[٤٦].

تركز اهتمام الحكومة العثمانية وعنايتها على الفلاح والقرية عموماً، وليس على التاجر ورب العمل. فالفلاح وعمله، في رأي السلطات العثمانية، هما اللذان كانا يشكلان أساس حياة المجتمع كلها. واعتُبر الإقتصاد الزراعي المزدهر المصدر الرئيسي لموارد الدولة. كتب كوتشوبك أيضاً في العام ١٦٤٠: «أن الرعية هي خزينة البادي شاه، فعندما تكون الرعية بخير وغير معرضة للاضطهاد، تكون خزينة البادي شاه ملأى بالمال»[٤٧]. هكذا شكلت السلطنة العثمانية نموذجاً طريفاً للمجتمع الزراعي (وفي النهاية للمجتمع الإقطاعي) حيث لم تكن للمدينة أهمية كعنصُر مكوّن للاقتصاد. وقد مثلت السلطنة عالماً لا حدود له للطوائف الفلاحية ذات الاكتفاء الذاتي والتي تعيش في ظل الحاكم الأعلى. وكان التزامها الوحيد المحافظة على الآلة العسكرية والحكومية التي كان مبرر وجودها إقامة هذه السلطنة وحمايتها.

يضاف إلى ذلك أن السلطنة العثمانية لم تعرف نظام الرق الإقطاعي أو أي شكل من أشكال التبعية الشخصية أو التفاوت الطبقي بين الفلاحين. ولم يكن ثمة وجود لحقوق الملكية الخاصة على الأرض البوار أو على المراعي والغابات، ولم يكن أحد يستطيع منع الفلاحين من صيد الأسماك وممارسة الصيد البري ورعاية الماشية أو جمع الحطب بحجة انتهاك حقوقه أو امتيازاته. أما التزامات الفلاحين

---

(٤٦) ف. سميرنوف. «كوتشوبك غيوميورجنسكي وكتّاب عثمانيون آخرون في القرن السابع عشر ـ عن أسباب سقوط السلطنة العثمانية» طبعة ١٨٧٣. ص ١٣٧.

(٤٧) أ. تفيريتينوفا. «الرسالة الثانية لكوتشوبك...» المخطوطات العلمية لمعهد الاستشراق. المجلد السادس ـ موسكو ـ لينينغراد ١٩٥٣. ص ٢٤٥.

فلم تكن كبيرة، وقد تلخصت بشكل رئيسي في دفع الضرائب. وفي رأي معظم المؤرخين كانت تلك الفرائض معتدلة للغاية ولم تكن مرهقة كما حصل في زمن لاحق. فالضريبة الرسمية التي كانت تؤخذ زيادة على الأعشار لم تكن تشكل في القرن السادس عشر أكثر من ٤٠ ـ ٥٠ أقجة عثمانية وتساوي دوكات واحدة في السنة. وكان ذلك بمثابة الحد الأدنى لأجرة عامل البناء أو النجّار عن أربعة أيام عمل. وبلغ متوسط مبالغ الضرائب المدفوعة من ٢ بالمائة (وفق احصاء أ. نوشي عن شرقي الجزائر) إلى ٢٠ بالمائة (في سوريا والعراق) من مداخيل الفلاحين. وكان على سلطات الولايات أن تنظر باهتمام في شكاوى الفلاحين. وكانت معظم الفرمانات الصادرة باسم السلطات المحلية، كما يقول خليل اينالجيك، تنتهي بالعبارة التالية: «إذا اشتكت لكم الرعية على البكوات أو غيرهم من الشخصيات العسكرية أو الملتزمين فإنكم ملزمون بإرغامهم على إيقاف أعمال الظلم، وإذا كنتم غير قادرين على قطع دابر استهتارهم بالسلطة، فعليكم إبلاغ الباب العالي بذلك فوراً. وإن لم تفعلوا فلسوف تتعرضون للعقاب أنتم أيضاً» (٤٨).

أدّى تطبيق القوانين والنظم العثمانية إلى إنعاش القرية العربية لفترة معينة. فتوقفت في كل مكان عملية انقراض المناطق الزراعية وإفراغها من السكان. علاوة على ذلك لوحظت في السنوات العشر الأولى من الحكم العثماني نهضة في حياة الريف، وزيادة في المنتوجات الزراعية، وتكاثر في عدد السكان فارتفع عدد السكان في السلطنة بشكل عام في القرن السادس عشر وفقاً لتقديرات المؤرخ التركي عمر لطفي برقان بنسبة ٤٠ بالمائة. وظهرت قرى جديدة وتزايد عدد سكان القرى القديمة. ففي سنجق دمشق على سبيل المثال ارتفع عدد القرى من ٨٤٤ في عام ١٥٢١، إلى ١١٢٩ قرية في عام ١٥٦٩، وارتفع عدد بيوت الفلاحين من ٣٨٦٧٢ إلى ٥٧٨٩٧ بيتاً. وفي بلاد ما بين النهرين العليا ارتفع عدد بيوت الفلاحين من ٧٠٦٩١ في عام ١٥٢٨ إلى ١٠٧٦٠١ عام ١٥٤٨ اي بزيادة ٥٤ بالمائة (٤٩). وأدخلت مجموعة من المزروعات الجديدة بما في ذلك ما هو مستورد من العالم الجديد، ومنها الذرة التي كان لانتشارها الأهمية الكبرى في السلطنة العثمانية وفي أوروبا الغربية حيث عرفت باسم «الجريش التركي». ومن مصر واليمن انتقلت زراعة الذرة إلى بلدان أفريقيا الشرقية. وفي مجموعة لايدن للنباتات المجففة ما زالت محفوظة نماذج من حبوب الذرة التي جمعت من وادي الفرات عام ١٥٧٤ ومنها يعتقد أنها انتقلت إلى الهند (٥٠).

أدى انعاش القرية إلى ارتفاع مستوى حياة سكان الريف بعد أن كان منخفضاً، لكنه كان يتفق

---

(٤٨) H. Inalcik. op. cit. p. 134.

(٤٩) O. Barkan. op. cit. p. 25.

(٥٠) T. Glick. «Comment on Paper by Watson at the Thirty - third Annual Meeting of the Economic History Association». in «The Journal of Economic History» 1974. No. 1. p. 75.

ومستوى طموحات ذلك الزمن. لكن الأمر المهم أنه كان أعلى من مستوى الحياة في كثير من البلدان المجاورة. فبعد أن درس المؤرخ الروسي ف. لامانسكي وثائق تلك الحقبة بدقة وعناية، وبعد إجراء مقارنة بين وضع السلافيين والبلدان المحاذية لهم كتب يقول: «من حق العثمانيين السلافيين أن يعلنوا رضاهم عن نظامهم لأنهم لم يعرفوا نظام القنانة في القرن السادس عشر، أما في القرن السابع عشر فقد كانوا في الغالب يتمتعون بمستوى معيشي أفضل، وبقدر من الحرية أكبر مما كان لدى سلافيي البندقية ودالماتيا في يوغوسلافيا والنمساويين في المجر وكرواتيا»[٥١].

أما الشائعات التي راجت عن الحياة الحرة في ظل الحكم العثماني فقد نبهت الفلاحين وخلقت لديهم أساطير خيالية عن وجود «مملكة المحظيين». فانتشرت وتوغلت في عمق بلدان البحر الأبيض المتوسط وتسربت إلى ألمانيا وبولونيا وروسيا الموسكوفية، ولوحظ بين الروس آنذاك تَطَلّع إلى الجنوب، إلى الأراضي البعيدة التي لم تكن تطالها سلطة القيصر وكبار الملاكين الروس. وظلت أنظار فلاحي نهري الفولغا الروسي والدون مشدودة إلى مناطق الحدود العثمانية: إلى أراضي الكوبان والدون الأزرق ومن ورائها «إلى الأناضول... حتى حدود سوريا»[٥٢]... «إلى مرابع بلاد الهلال الخصيب؛ حيث اعتقدوا أن هناك كانت الحقيقة التي ساروا من أجلها في طريق العذاب، في طريق الموت»[٥٣]. وتذكر أسطورة قوزاقية غامضة أن ستيبان رازين ١٦٣٠ - ١٦٧١ قائد انتفاضة الفلاحين لعامي ١٦٧٠ - ١٦٧١ قد زار السلطنة العثمانية وكان يحلم أن يقيم حكماً مستقلاً[٥٤]. وكتب غورد ليفسكي أيضاً أنه بين قوزاقيي حوض نهر يايك «انتشر شوق عظيم إلى الخيرات الإلهية التي عمّت «ما وراء البحر الزجاجي» على ضفاف دجلة والفرات»[٥٥]. ومن الطريف ان القوزاق - أصحاب الطقوس الدينية القديمة ولا سيما النيكراسوفيين أحفاد قوزاق انتفاضة ١٧٠٧ والذين - بشهادة مينورسكي - كانوا في مطلع القرن العشرين يستخدمون الطقوس الكنسية في روسيا منذ عام ١٥٥٠[٥٦]، ظلوا يحتفظون بذكريات «التركي القديم» تلك الذكريات التي حسب تعبير كورولينكو - كانت تثير لديهم «حنيناً عارماً». ويتساءل الكاتب «ما تفسير ذلك؟ أمجرد ذكريات عن «زمن قديم طيب» ام أن التركي لم يكن لديه ما يبرّر عدم الاستقرار في دولته؟»[٥٧].

---

(٥١) ف. لامانسكي. «جبروت الأتراك العثمانيين في أوروبا (١٣٩٦ - ١٧٣٩)». خطاب ألقي في الاجتماع السنوي في جامعة بطرسبرج عام ١٨٨٠. ص ١٢.

(٥٢) ف كورولينكو. «فوق اللهان. (من مذكرات رحّالة). «جذور نيكراسوف» - «الثروة الروسية» - ١٨٩٧ رقم ١١.

(٥٣) غوردليفسكي «أشباح تركيا» مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٥٤) كورولينكو «فوق اللهان...»، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٥٥) غوردليفسكي «أشباح تركيا» مرجع سابق. ص ١٤٨.

(٥٦) ف. مينورسكي. «عند الروس اتباع السلطان» - «عرض اتنوغرافي». ١٩٠٢، رقم ٢. ص ٦٠.

(٥٧) كورولينكو «فوق اللهان...». مرجع سابق. ص ١٦١.

لعبت خرافة « الطوباوية الفلاحية » دوراً مهماً في تاريخ البلاد العربية. فهي لم تمهد الطريق أمام الجيش العثماني فحسب، بل استبدت بالبلاد العربية في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية. فتحتَ رايتها فرض العثمانيون على العرب مفهوماً جديداً للحياة وللإنسان، وأدخلوا مبادىء قانونية وفكرية وأخلاقية جديدة ونمطاً جديداً للحياة، وقواعد سلوك تتناسب معه. لكن خرافة « الطوباوية الفلاحية »، بعد أن لبَّت الغرائز الطبقية المباشرة حدَّت من الميل للنضال التحرري للكادحين أو على نحو أدق دفعته في طريق الاستكانة. فبعد فترة أصبحت المثالية الاجتماعية الثيوقراطية للباب العالي من مخلفات الماضي، وكانت لا إنسانية بطبيعتها. كانت تلك المثالية، على غرار كل الأفكار الطوباوية بشكل عام، تتناقض مع عالم النهضة والإصلاحية المضادة. وقد أشار المؤرخ السوفياتي ل. باتكين إلى « أن الفرق بينهما (أي بين الطوباوية والنهضة) ظهر خصوصاً بالحاجة إلى وجود روح التنظيم والشدة وإلى غياب الحرية وبالانطواء على النفس وكلها من آليات الفكر الطوباوي المتحالف مع المبادىء التنظيمية النهضوية. فالطوباوية تتطلع إلى الدولة السعيدة لا إلى الفرد السعيد ؟[٥٨].

لقد تحقق التوازن الاجتماعي في المجتمع العثماني على حساب التنكر لطموحات الإنسان الفردية من أجل تبعيته لثيوقراطية فكرة السعادة الشاملة. وأعطت الطوباوية العثمانية فكرة كاملة عن المجتمع وثبتتها بصياغة جديدة للشريعة الإسلامية. وقد استثنت بصورة مبدئية « فلسفة الشك » التي لا يمكن من دونها تصور أوروبا في العصر الحديث، وسادت في المجتمع العثماني نظرية الحتمية المطلقة. وحل الشعار السيء الذكر « اجتهاد قابي قاباندي » (أي أبواب الاجتهاد مغلقة) محل السعي لتطوير الفكر الحر، ولم يحسب أي حساب للجهود الفردية أو لأي مبادرة شخصية تستهدف إعادة النظر بالأسس الاجتماعية والسياسية والدينية للمجتمع.

لقد تميزت السلطنة العثمانية كأي ثيوقراطية أخرى بالاغراق في استخدام الإنسان. فكان المسؤولون خلال تأديتهم لوظائفهم في « الدولة التي يحرسها الله » يخشون أكثر ما يخشون اظهار مبادراتهم الشخصية. وتحت ستار « الرصانة العثمانية » المزعومة، كانوا يبرعون في إخفاء مشاعرهم الحقيقية المؤيدة أو المعادية. ولم تكن لرجال البلاط العثماني أي آراء أو نظريات شخصية. واتسمت السياسة، بالمعنى الايجابي للكلمة، والمؤسسات الحكومية والاجتماعية بالتعميم والشمولية ولم تعد رهناً بأي إرادة فردية. مما أدّى، إثر تصلب النظام وعوامل أخرى، إلى إعاقة « آلية التطور الذاتي » وتحجر العلاقات القائمة.

كان الفلاحون أنفسهم ضحية الآلية العسكرية البيروقراطية التي قامت أساساً لضمان

(٥٨) **باتكين** « النهضة والطوباوية... »، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

« بجبوحتهم ». ففي ثمانينات القرن السادس عشر ألقي على كاهل الفلاحين أعباء الأزمة البنيوية التي عصفت بالمجتمع العثماني على مشارف القرنين السادس عشر والسابع عشر. في كل مكان تقريباً تحقق الانتقال إلى نظام الالتزام الشخصي للأملاك السلطانية وتحت ستار هذا النظام ظهرت على الأراضي السلطانية العامة مؤسسات اقطاعية كبيرة (جفتلك) ذات طابع جشع إلى حد الهمجية. فساء وضع الفلاحين لدرجة كبيرة. وفي كثير من المناطق أخذ التعسف العسكري البيروقراطي (الضرائب وابتزاز الأموال وسطو السلطات على أموال الناس) يكتمل بعبودية إقطاعية قائمة على الربا والاقراض من جانب الملتزمين. فأخذ الفلاحون يشعرون بأنهم طبقة مضطهدة. هكذا انهارت عند نهاية القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر أسطورة الحياة المسالمة الرغيدة في ظل سلطة آل عثمان التي « أرسلها الله ».

وجسدت الانتفاضات التي عصفت بالدولة « التي يحرسها الله » في نهاية القرن السادس عشر خيبة الأمل المتزايدة لدى الجماهير الشعبية التي باتت مستاءة، لكنها لم تجد أمامها أي آفاق أخرى باستثناء الأوهام المتلاشية للطوباوية العثمانية القديمة. ولم تكن لدى الجماهير الفقيرة شعارات أو مثل عليا من شأنها أن تكون بديلاً مساوياً لأوهام العطف التي محضتها للعثمانيين.

نتيجة لذلك اتخذت احتجاجات الفلاحين في الغالب شكل قطاع الطرق التي تزعمها أفراد سموا أنفسهم « المنتقمين الشعبيين ». في أفضل الحالات، كانت تلك الأعمال تذوب في الحركات السياسية الأوسع نطاقاً والتي كانت تعمل تحت راية إحياء التقاليد المحلية. فأدّى ذلك، بشكل عام إلى تصاعد لم يسبق له مثيل في أعمال التنكيل ضد الجماهير الشعبية، وإلى انتشار أعمال اللصوصية والسلب والنهب والانتفاضات المحلية التي غطت عند مشارف القرن السابع عشر كل أنحاء السلطنة العثمانية. وبتعبير جميل لفرنان بروديل مثلت تلك الأعمال « ثورة ناقصة » كانت ترمز إلى نهاية العصر البطولي للفتوحات العظيمة والذي لم تبق منه سوى الأساطير الغامضة والحقيقة المرّة عن أعمال الثيوقراطية العثمانية التعسفية.

روزنامة الفتوحات العثمانية
١٤٥٣ ـ ١٥٧٤

١٤٥٣	ـ استولى الأتراك على القسطنطينية.
١٤٦٣	ـ بداية ظهور الخلافات بين العثمانيين والمماليك.
١٤٦٨	ـ بداية المواجهة الواسعة بين العثمانيين والمماليك.
١٤٨٦	ـ ظهور العثمانيين في شمال افريقيا.
١٤٨٦ ـ ١٤٩١	ـ الحرب الأولى بين العثمانيين والمماليك.
١٥١٠/٣٠ آب/اغسطس	ـ هزيمة الاسبان في جَربه. بدء التغلغل العثماني في تونس.
١٥١٢/آب/اغسطس	ـ هجوم الأخوة بربروس على بجاية. وبداية الانتفاضة ضد الإسبان في الجزائر.
١٥١٦	ـ اعتراف سكان الجزيرة (شمال العراق) بالتبعية للباب العالي.
١٥١٦ ـ ١٥١٧	ـ الحرب الثانية بين العثمانيين والمماليك.
١٥١٦/٢٤ آب/اغسطس	ـ هزيمة المماليك في مرج دابق واحتلال سوريا.
١٥١٦/٢٩ آب/اغسطس	ـ سليم الأول يتخذ لنفسه لقب سلطان وخادم الحرمين الشريفين مع لقب خليفة المسلمين.
١٥١٧/٢٢ كانون الثاني/يناير	ـ معركة الريدانية واحتلال مصر.
١٥١٧/تموز/يوليو	ـ اعتراف الحجاز بالتبعية للباب العالي. وانتقال جدة إلى الحكم العثماني.

١٥١٧ / تموز / يوليو	ـ اعتراف اليمن بالتبعية للباب العالي. واعتراف العبد اللاويين والفونجيين وغيرهما من دول السودان الشرقي بالتبعية للباب العالي.
١٠/١٥١٧ أيلول / سبتمبر	ـ تأسيس الدولة المملوكية التابعة للعثمانيين في مصر.
١٦/١٥١٨ شباط / فبراير	ـ تأسيس الدولة المملوكية التابعة للعثمانيين في سوريا.
١٥١٨	ـ اعتراف الجزائر بالتبعية للباب العالي.
١٥٢٠ أيار / مايو	ـ ظهور العثمانيين في حضرموت.
١٥٢٠	ـ اعتراف العثمانيين في ليبيا بالتبعية للباب العالي.
١٥٢١ شباط / فبراير	ـ انضمام سوريا رسمياً إلى السلطنة العثمانية والغاء الدولة المملوكية التابعة.
١٥٢٢ تشرين الأول / اكتوبر	ـ انضمام مصر رسمياً إلى السلطنة العثمانية والغاء الدولة المملوكية التابعة.
١٥٣٣	ـ انضمام الجزائر رسمياً إلى السلطنة العثمانية.
١٦/١٥٣٤ آب / اغسطس	ـ دخول خير الدين بربروس إلى تونس وإعلان الحكم العثماني في تونس.
٢/١٥٣٤ كانون الأول / ديسمبر	ـ دخول السلطان سليمان العظيم إلى بغداد وانضمام العراق الشمالي والأوسط رسمياً إلى السلطنة العثمانية.
٢١/١٥٣٥ تموز / يوليو	ـ كارل الخامس يحتل مدينة تونس وسقوط الحكم العثماني مؤقتاً.
	ـ تأسيس المحمية الاسبانية في تونس.
١٥٣٨ آب / اغسطس	ـ اعتراف حضرموت بالتبعية للباب العالي.
١٥٣٨	ـ اعتراف حكام البصرة وإمارات الخليج بالتبعية للباب العالي.
١٥٣٨ كانون الأول / ديسمبر	ـ انضمام اليمن رسمياً إلى السلطنة العثمانية والغاء دولة المماليك التابعة.
١٥/١٥٤٦ كانون الأول / ديسمبر	ـ انضمام جنوب العراق رسمياً إلى السلطنة العثمانية وإلغاء دولة البصرة التابعة.
قرابة ١٥٥٠	ـ إنشاء ولاية الحسا وانتقال شرق شبه الجزيرة العربية رسمياً إلى حكم الباب العالي.
١٠/١٥٥٠ ايلول / سبتمبر	ـ احتلال الاسبان للمهدية وسقوط الحكم العثماني في تونس الوسطى والجنوبية مؤقتاً.

١٤/١٥٥١ آب / اغسطس ـ احتلال العثمانيين لطرابلس الغرب وانضمام ليبيا رسمياً إلى السلطنة العثمانية.

١٥٥٧ ـ تنظيم ولاية الحبشة وانضمام ساحل البحر الأحمر وشمال السودان رسمياً إلى السلطنة العثمانية.

٢٧/١٥٥٧ كانون الأول / ديسمبر ـ دخول طورغوت رئيس القيروان وإعادة الحكم العثماني إلى تونس الوسطى والجنوبية.

١٩/١٥٧٠ كانون الثاني / يناير ـ دخول علج علي إلى مدينة تونس وإعادة الحكم العثماني إلى تونس الشمالية.

١١/١٥٧٣ تشرين الأول / اكتوبر ـ احتلال دون خوان النمساوي لمدينة تونس مجدداً.

١٣/١٥٧٤ أيلول / سبتمبر ـ استعادة العثمانيين لمدينة تونس وانتقال تونس نهائياً إلى حكم الباب العالي.



المراجع العربية والمعربة

١ . أ. أداموف «العراق العربي - ولاية البصرة: ماضيها وحاضرها» سان بطرسبرغ - ١٩١٢.

٢ . م. بارغ و. ي. تشيرنياك. «المنطقة وموقعها في التركيب الداخلي لأشكال التناقضات الطبقية. قضايا التكوين الإجتماعي الاقتصادي (بحث تاريخي)». موسكو ١٩٧٥.

٣ . أ. بارتينتسكي و. مانتيل - نيتشكو. «تاريخ أثيوبيا». تحرير وتقديم كوبيشانوف ورايت. موسكو ١٩٧٦. مترجم عن البولونية.

٤ . بارتولد «الخليفة والسلطان». - مقالات. المجلد السادس. موسكو ١٩٦٦.

٥ . ل. باتكين. «النهضة والطوباوية - من تاريخ ثقافة العصور الوسطى والإنبعاث». موسكو ١٩٧٦.

٦ . ي. بيرهاوز. «القضية القومية الإثنية في السودان ١٩٥٦ - ١٩٦٨». موسكو ١٩٧٥.

٧ . ي. بودرين. «منكرو الثالوث الأقدس في القرن السادس عشر - ميخائيل سيرڤيت وعصره» - قازان ١٨٧٨.

٨ . هـ. جيب. «الأدب العربي - العصر الكلاسيكي» ترجمة أ. ب. خالدوف. موسكو ١٩٦٠.

٩ . ف. غوردليفسكي. «أشباح تركيا» مقالات مختارة. المجلد الثالث. موسكو ١٩٦٢.

١٠ . أ. غرومو غلاسوف. «الإنشقاق الروسي والأرثوذكسية المسكونية» مجلة «البشارة الإلهية» عدد نيسان/ ابريل ١٨٩٨.

١١ . ف. غروخوف. « بيزنطية ونموذج الاقطاع الأوروبي » - « مدونات بيزنطية » المجلد الأربعون. موسكو ١٩٧٩.

١٢ . د. يغوروف. « فكرة « الإصلاحية التركية في القرن السادس عشر » - « الفكر الروسي » رقم ٧ لعام ١٩٠٧ القسم الحادي عشر.

١٣ . د. ي. يريمييف. « أصل الأتراك: منشأهم والمراحل الأساسية لتاريخهم السلالي ». موسكو ١٩٧١.

١٤ . شارل أندريه جوليان. « تاريخ أفريقيا الشمالية. تونس، الجزائر، مراكش. من الفتح العربي حتى عام ١٨٣٠ » ترجمته الفرنسية أ. ي. انيتشكوفا. تحرير وتقديم ن. ايفانوف. موسكو ١٩٦١.

١٥ . نيقولاي ايفانوف. « القبائل الحرة والمترحلة في شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر ». مقالة منشورة في كتاب « تاريخ البلدان العربية ». موسكو ١٩٦٣.

١٦ . ن. ايفانوف. « حول الخصائص البنيوية للاقطاع العربي العثماني ». مجلة « شعوب آسيا وأفريقيا ». العدد الثالث لعام ١٩٧٨.

١٧ . ن. ايفانوف. « بعض الوجوه الاجتماعية الاقتصادية للإسلام التقليدي. نموذج المجتمع العربي - العثماني ». مقالة منشورة في كتاب « الإسلام في بلدان الشرقين الأدنى والأوسط ». مجموعة مقالات موسكو ١٩٨٢.

١٨ . تريفون كورو بينّيكوف. « رحلة إلى القدس ومصر وجبل سيناء عام ١٥٨٣ ». سان بطرسبرغ ١٨٠٣.

١٩ . ف. كورولينكو. « فوق الليمان (من مذكرات رحّالة). « الأصل النيكراسوفي ». - « الثروة الروسية » المجلد الحادي عشر لعام ١٨٩٧.

٢٠ . ل. كوتلوف « دليل الجمهورية العربية اليمنية ». موسكو ١٩٧١.

٢١ . أ. كريمسكي. « تاريخ تركيا وآدابها - منذ التأسيس حتى بداية السقوط ». موسكو ١٩١٠.

٢٢ . أ. كريمسكي. « حول ظاهرة « التعاطف مع الأتراك » في أوروبا وروسيا الموسكوفية في القرن السادس عشر ». ملحق كتاب « تاريخ تركيا وآدابها.. ». موسكو ١٩١٠.

٢٣ . ف. أ. لامانسكي. « جبروت الأتراك العثمانيين في أوروبا ١٣٩٦ - ١٧٣٩ ». خطاب ألقي في الاحتفال السنوي في جامعة سان بطرسبرغ ١٨٨٠.

٢٤ . ك. لوكنيتسكي « الحبشة منذ أقدم العصور حتى عصر الإمبريالية » مجموعة مقالات. تحرير د. أ. اولدروغه. موسكو - لينينغراد ١٩٣٦.

٢٥ . آدم ميتز. « النهضة الاسلامية ». ترجمه عن الألمانية. بيرتيلس. موسكو ١٩٦٦.

٢٦ . ف. مينورسكي. « عند الروس أتباع السلطات » - « بحث سلالي » المجلد الثاني ١٩٠٢.

٢٧ . ف. نعومكين. «الجبهة الوطنية في النضال من أجل استقلال اليمن الجنوبي والديمقراطية الوطنية ١٩٦٣ - ١٩٦٩». موسكو ١٩٨٠.

٢٨ . أ. نوفيتشيف. «تاريخ تركيا: عصر الإقطاع من القرن الحادي عشر حتى الثامن عشر». لينغراد ١٩٦٣.

٢٩ . إ. نوفل. «نهج الحق الإسلامي: معرفة الذات». دون ذكر مكان الطبع ١٨٨٦.

٣٠ . إ. بيريسفيتوف. «مقالات». إعداد أ. زيمين. موسكو - لينينغراد ١٩٥٦.

٣١ . ن. بيغوليفسكايا و أ. ياكوبوفسكي. و أ. بيتروشيفسكي وآخرون. «تاريخ إيران منذ أقدم العصور حتى نهاية القرن الثامن عشر». لينينغراد ١٩٥٨.

٣٢ . ن. بروشين. «ليبيا تحت حكم الإسبان والأخوية المالطية ١٥١٠ - ١٥٥١». في «القضايا الحيوية لبلدان الشرق العربي وأفريقيا الشمالية». موسكو ١٩٧٧.

٣٣ . م. رايت بالاشتراك مع أ. بارتنيتسكي ومانتيل - نيتشكو. «اثيوبيا - تاريخ النضال الوطني التحرري لشعوب أفريقيا في العصر الحديث». موسكو ١٩٧٦.

٣٤ . أ. سفينتو خوفسكي. «تاريخ الطوباوية». موسكو ١٩١٠.

٣٥ . سآفيدرا ميغيل دي سيرفانتس. «مختارات في خمسة مجلدات». موسكو ١٩٦١.

٣٦ . أ. ف. سميرنوف. «كوتشو بك كيوميرو جينسكي وكتّاب عثمانيون آخرون في القرن السابع عشر - حول أسباب سقوط تركيا». موسكو ١٨٧٣.

٣٧ . س. سميرنوف. «تاريخ السودان ١٨٢١ - ١٩٥٦». موسكو ١٩٦٨.

٣٨ . أ. سباسكي. «النساطرة السوريون وانضمامهم إلى الكنيسة الارثوذكسية». مجلة «البشارة الإلهية». العدد الخامس لعام ١٨٩٨.

٣٩ . أ. تڤيريتينوفا «البنية الزراعية للسلطنة العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر». وثائق ومحفوظات موسكو ١٩٦٣.

٤٠ . أ. تڤيريتينوڤا. «الرسالة الثانية لكوتشوبك». «المحفوظات العلمية لمعهد الاستشراق». المجلد السادس. موسكو - لينغراد ١٩٥٣.

٤١ . بورفيري اوسبينسكي. «الشرق المسيحي - الحبشة». كييف ١٨٦٦.

٤٢ . ل. تشيكوليني. «الأفكار الاجتماعية السياسية للطوباوي الإيطالي في القرن السابع عشر لودوفيكو تسوكولّو». كييف ١٩٧٣.

٤٣ . ل. تشيكوليني. «فكرة توزيع الممتلكات والمساواة الاجتماعية في إيطاليا في القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر». كييف ١٩٧٧.

٤٤ . ب. تشيخاتشوف. «اسبانيا. الجزائر. تونس» موسكو ١٩٧٥.

٤٥ .أ. شميدت. « عبد الوهاب الشعراني وكتابه الدر المنثور ». سان بطرسبرغ ١٩١٤ .
٤٦ .حسن حسني عبد الوهاب. « خلاصة تاريخ تونس ». تونس ١٣٧٣ هجرية.
٤٧ .محمد ابو راس الجربي. « مؤنس الأحبّه في أخبار جَربه ». تونس ١٩٦٠ .
٤٨ .عباس العزّاوي. « تاريخ العراق بين الاحتلالين. المجلد الرابع. العهد العثماني الأول». بغداد ١٩٤٩ .
٤٩ .سعيد عوض باوزير. « صفحات من التاريخ الحضرمي » القاهرة ١٣٧٨ هجرية (١٩٥٩).
٥٠ .عبد الحميد البطريق. « من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠ ». القاهرة. ١٩٦٩ .
٥١ .عبد الرحمن الجَبَرتي. « عجائب الآثار في التراجم والأخبار ». المجلد الأول. القاهرة ١٨٧٩ .
٥٢ .أحمد بن ابو ضياف. « إتّحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ». المجلد الأول. تونس ١٩٦٣ .
٥٣ .محمد بن احمد بن أياس. « بدائع الزهور في وقائع الدهور ». المجلدان الرابع والخامس - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ .
٥٤ .ساطع الحصري. « البلاد العربية والدولة العثمانية ». بيروت ١٩٦٠ .
٥٥ .محمد بن أحمد بن عمر الشاطري. « عروة التاريخ الحضرمي ». المكلاّ ١٩٧٢

★ ★ ★

المراجع الأجنبية

56. Abdesselem Ahmed. «Les historiens tunisiens des XVII ème, XVIII ème et XIX ème siècles. Essai d'Histoire culturelle». Paris., 1973.
57. Abdul - Wahab Hasan Husni. «Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie». - Recueil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie. Préparé par Miguel de Epalza et Ramon Petit. Madrid - Tunis, 1973.
58. Adams William Y. «Nubia. Corridor to Africa». London., 1977.
59. L'Africain Jean - Léon. «Description de l'Afrique». T. I - II. Paris., 1966.
60. Arkell A. J. «A History of the Sudan. From the Earliest Times to 1821» - London., 1961.
61. Bachrouch Taoufik. «Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII ème siècle». Tunis, 1977.
62. Barkan Omar Lutfi. «XV ve XVI inci asirlarda Osmanli imperatorlugunda zirai ekonominin hukukî ve malî esaslari. Cilt I. Kanunlar». Istanbul, 1945. Vol. 1.
63. Barkan Omar Lutfi. «Essai sur les données statistiques des registres de recensement dans l'Empire Ottoman aux XV ème et XVI ème siécles». - «Journal of the Economic and Social History of the Orient» Leiden, 1957.
64. Benachenhou A. «Hassan ben Mohamed El Ouazzane, dit «Jean l'Africain». L'Algérie en 1515». Alger, 1969.
65. Bono Salvatoré. «Documents italiens sur la reconquête musulmane de Tunis. 1574». - «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis. 1979.
66. Bouali Mahmoud. «La sédition permanente en Tunisie. T. I. Des origines à 1735». Tunis, 1972.
67. Brahimi Denise. «Quelques jugements sur les Maures andalous dans les régences turques au XVIII ème siécle». - «Recueil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie». - S. d.
68. Braudel Fernand. «La Méditerranée et le monde méditerranéen au temps de Philippe II». Paris, 1949.
69. Brunschvig Robert. «La Berbérie orientale sous les Hafsides. Des origines à la fin du XV ème siécle». T. I - II. Paris. 1947.
70. Bujra Abdalla S. «The Politics of Stratification. A Study of Political Change in a South Arabian Town». Oxford. 1971.
71. Cantimir Demetrius. «Histoire de l'empire ottoman où se voyent les causes de son aggrandissement et de sa décadence». Traduite en francais par M. de Joncquières. T.I — III. Paris. 1743.

72 Cardaillac Louis. «Le Turc, suprême espoir des Morisques» - «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis, 1979.

73. Cherif Mohamed Hédi. «Témoignage du «mufti» Qasim Azzum sur les rapports entre Turcs et autochtones dans la Tunisie de la fin du XVI ème siécle». - «Les Cahiers de Tunisie». Tunis, 1972. No 77 - 78.

74. Danvers Fredrick Charles. «The Portuguese in India. Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire». Vol. 1. New York 1966.

75. Digeon M. «Nouveaux contes turcs et arabes». T. 1-2. Paris 1781.

76. Djait Hicham, Dachraoui Farhat, Talbi Mohamed, Douib Abdelmajid, Mrabet Mohamed Ali. «Histoire de la Tunisie. Le Moyen Age».Tunis, S.d.

77. Esin Emel. «Quelques manuscrits illustrés turcs des XVI ème et XVII ème siècles concernant la Tunisie». - «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis, 1979.

78. Gaid Mouloud. «L'Algérie sous les Turcs». Alger, 1974.

79. Gibb Hamilton. A.R. «Studies on the Civilisation of Islam». Boston, 1962.

80. Glick Thomas F. «Comment on Paper by Watson at the Thirty - third Annual Meeting of the Economic History Association» - «The Journal of Economic History». 1974, No. 1.

81. Grammont H.D. de «Histoire d'Alger sous la domination turque (1515 - 1830)». Paris 1887.

82. Grunebaum - Ballin P. «Joseph Naci, duc de Naxos». Paris 1968.

83. Guiga Tahar. «Dorgouth Raïs, Le magnifique seigneur de la mer», Tunis. 1974.

84. Hammer Joseph de. «Histoire de l'Empire Ottoman. Depuis son origine jusqu'à nos jours». T. IV — VI. Paris 1836.

85. Hanotaux G. «Histoire de la Nation égyptienne». T. 4. L'Égypte arabe: de la conquète arabe à la conquète ottomane (par Gaston Wiet). Paris, 1931.

86. Hess Andrew C. «The Moriscos. An Ottoman Fifth Column in Sixteenth - Century Spain». - «The American Review». Vol. LXXIV. 1968, No. 1.

87. Hess Andrew C. «The Forgotten Frontier. A History of the Sixteenth - Century Ibero - African Frontier». Chicago, 1978.

88. «Histoire d'Aroudj et de Khair - ed - Din, fondateurs de la Régence d'Alger». Chronique arabe du XVI ème siècle. T. I - II. Paris. 1837.

89. «La historia dell'impresa di Tripoli di Barbaria fatta per ordine del sereniss, re catolico». Venetia, 1566.

90. «A History of the Ottoman Empire to 1730». Ed. by M.A. Cook. Chapters from the Cambridge History of Islam and the New Cambridge Modern History by V.J. Parry, H. Inalcik, A.H. Kurat and J.S. Bromley. Cambridge, 1976.

91. Holt P.M. «A Modern History of the Sudan. From the Funj Sultanate to the Present Day». London. 1961.

92. Holt P.M. «Egypt and the Fertile Crescent. 1516 - 1922. A Political History». New York. 1966.

93. Huart CL. «Un document turc sur l'expédition de Djerba en 1516». - «Journal Asiatique». 11 ème série. T. IX., Janvier - Février. 1917.

94. Inalcik Halil. «The Ottoman Empire: The Classical Age 1300 - 1600». London. 1973.

95. Inalcik Halil. «The Ottoman Empire: Conquest, Organization and Economy». In «Collected Studies». London. 1978.

96. Isiksal. T. Habesh. «The Encyclopedia of Islam». New Edition. Vol. III.

97. Kortepeter C.M. «Ottoman Imperialism during the Reformation: Europe and the Caucasus». New York. 1972.

98. La Gravière Jurien de. «Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le Grand». Paris, 1887.

99. Lamansky Vladimir. «Secrets d'Etat de Venise. Documents, extraits, notices et études». Saint Petersbourg, 1884.
100. La Veronne Chantal de. «Source de l'Histoire de la Tunisie dans les archives espagnoles. - L'expédition de Mulay Hassen à Kaïrouan en 1536.» - «Actes du Premier Congrès d'Histoire de la civilisation du Maghreb». T. 2. Tunis, 1979.
101. Lewis Bernard. «The Ottoman Archives as a Source for the History of the Arab Lands». - «Journal of the Royal Asiatic Society». 1951, October.
102. Lewis Bernard. «Khādim al - Haramayn». - The encyclopedia of Islam. New Edition. Vol IV.
103. Longrigg Stephen H. «Four centuries of Modern Iraq». Oxford, 1925.
104. Longrigg Stephen H. «A short History of Eritrea». Oxford. 1945.
105. Lopes David. «Extractos da historia da conquista do Yaman pelos Othomanos». Lisboa, 1892.
106. Lybyer A.H. «The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent». Cambridge, 1913.
107. Macro Eric. «Yemen and the Western World». London, 1968.
108. Mercier Ernest. «Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie)». T. III. Paris, 1891.
109. Miles S.B. «The Countries and Tribes of the Persian Gulf». London, 1966.
110. Monlaü Jean «Les Etats barbaresques». Paris, 1973.
111. Muir William. «The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. 1260 - 1517 Anno Domini». London. 1896.
112. O'Fahey R.S. and Spaulding J.L. «Kingdoms of the Sudan». London. 1974.
113. Ohsson Mouradgea. d' «Tableau général de l'Empire ottoman». T. I — III. Paris. 1788 - 1790.
114. Paul A. «A History of the Beja Tribes of the Sudan». Cambridge, 1954.
115. Penella Juan. «Littérature morisque en espagnol à Tunis. - Recueil d'études sur les Moriscos andalous en Tunisie». Madrid - Tunis, 1973.
116. Pignon J. «La Tunisie turque et husseinite. - Initiation à la Tunisie». Paris 1950.
117. Planhol Xavier de. «Les fondements géographiques de l'Histoire de l'Islam». Paris, 1968.
118. Reznik J. «Le duc de Naxos. Contribution à l'Histoire juive du XVIème siècle». Paris, 1936.
119. Rossi Ettore. «Storia di Tripoli e della Tripolitania». Roma, 1968.
120. Schwoebel Robert. «The Shadow of the Crescent: the Renaissance Image of The Turk «1453 - 1517». Nieuwkoop, 1967.
121. Sebag Paul «Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs en 1574». «Sopra la desolatione della Goletta e forte di Tunisi de Bartholomeo Riffino». Introduction, texte et traduction annotée. Tunis, 1971.
122. Shaw Stanford. «History of the Ottoman Empire and Modern Turkey». Vol. I. Empire of the Gazis: the Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280 - 1808». Cambridge, 1977.
123. Stripling George W.F. «The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 - 1574». Urbana - Illinois, 1942.
124. Toynbee Arnold J. «A Study of History». Vol. IV. London, 1939.
125. Toynbee Arnold J. «The Ottoman Empire's Place in World History. - The Ottoman State and Its Place in World History». Edited by Kemal H. Karpat. Leiden, 1974.
126. Trimingham John Spencer. «Islam in the Sudan» New York, 1965.
127. Tyan Emile. «Institutions du droit musulman». T. II. Sultanat et Califat. Paris, 1956.
128. Whiteway R.S. «The Rise of Portuguese Power in India, 1497 - 1550». New York, 1969.
129. Wilson Arnold T. «The Persian Gulf. An Historical Sketch». Oxford, 1928.
130. Zeine Zeine N. «The Emergence of Arab Nationalism. With a Background Study of Arab - Turkish Relations in the Near East». Beirut, 1966.

ملحق:
دراسة لكتاب نيقولاي ايفانوف
«الفتح العثماني للأقطار العربية
١٥١٦ - ١٥٧٤»
موسكو ١٩٨٤

فور صدور هذا الكتاب، برزت عدة آراء سوفياتية تناولته بالنقد والتحليل. وهذه الدراسة التي نشرت في مجلة «شعوب آسيا وافريقيا» الصادرة عن أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، [العدد الأول لعام ١٩٨٦، صفحات ١٨٧ - ١٩٢] تلقي أضواء مهمة تساهم في فهم المقولات الأساسية فيه. وقد ترجمناها وأرفقناها بالطبعة العربية علّها تساعد القارىء العربي في فهم الكتاب بشكل أفضل. وتجدر الإشارة إلى أن إيفانوف نفسه استفاد من هذه الدراسة فأوضح في مقدمته للطبعة العربية بعض الجوانب المنهجية في هذا البحث العلمي المهم.

مسعود ضاهر

يجيب كتاب إيفانوف كما يقول مؤلفه، عن التساؤل التالي: ما هي الأسباب التي جعلت الأقطار العربية، لا سيما المقاطعات الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت أكثر الأقطار العربية تقدماً وتطوراً يوم كانت دار الإسلام مركزاً لثقافة مزدهرة، ما هي الأسباب التي جعلتها تختفي من الواجهة كدول سياسة مستقلة في القرن الذي شهد تبدلات جذرية على الصعيد العالمي عند مطالع العصور الحديثة؟. في الواقع، يحتل هذا التساؤل حيزاً كبيراً من قضايا التاريخ العربي في أواخر العصور الوسطى، في مرحلة سقوط أكثرية البلدان العربية في قبضة سلاطين آل عثمان. وهذه المرحلة بالذات لم تكن موضع تمحيص جدّي لدى المؤرخين السوفيات، ولم يقدموا تصوراً دقيقاً ومتكاملاً حول الأحداث التاريخية الكبرى التي طبعت تطور الأقطار العربية

بطابعها في القرن السادس عشر . كما ان المستشرقين الغربيين أيضاً ، لم يقدموا ، حتى الآن ، أبحاثاً جدّية تلقي أضواء علمية دقيقة حول البلدان العربية إبان الفتوحات العثمانية . مع الاشارة إلى ان بعض جوانب العلاقات العثمانية ـ العربية في القرن السادس عشر قد درست بشكل جيد .

هكذا جاء بحث نيقولاي إيفانوف خروجاً على المدرسة التقليدية المستمرة في الكتابة الحديثة حول الفتح العثماني للأقطار العربية . فقد اعتبر المؤلف ان التحاق الأقطار العربية بالسلطنة العثمانية شكل دمجاً في تاريخ موحد هو التاريخ العثماني . وقدم فرضيات معللة تؤيد وجهة نظر جديدة تتلخص بالقول إن الفتح العثماني جاء نتيجة للتطور الداخلي للعالم العربي نفسه بعد حالة الانحطاط الديني والسياسي والاجتماعي التي كانت سائدة فيه خلال تلك المرحلة .

فقدم إيفانوف وصفاً دقيقاً لأوضاع جميع الأقطار العربية التي تعرضت للفتح العثماني ، الواحدة تلو الأخرى أي سوريا ، ومصر ، والعراق ، وتونس ، والجزائر ، والحسا ، وحضرموت ، واليمن ، والسودان ، وليبيا . ولأول مرة في تاريخ الاستشراق السوفياتي ، يقدم ايفانوف دراسة شمولية حول أهم بلدان المنطقة العربية في تلك المرحلة ، ومنها مناطق داخلية واقعة في عمق أرياف الوطن العربي .

يتسم الكتاب بقيمة فكرية راقية . فقد أجاد المؤلف فن تكثيف المعلومات إلى أقصى حد ، وذلك باعتماد الايجاز والدقة والقدرة على الاقناع واختبار الرواية للجمع بين الوصف الاجتماعي والنفسي الرائع ، وبين التفاصيل التاريخية التي تعيد إلى الذاكرة أجواء العصور التاريخية الغابرة . واعتمد أسلوباً فريداً في تقديم الوقائع التاريخية يقوم على الوصف الدقيق للوقائع اليومية وصولاً إلى استنتاجات معمقة ، تبتعد عن حوادث الحياة العادية لتبرز عمق التبدلات ودلالتها الاستثنائية بحيث تأتي النتائج بصورة كاملة الوضوح . بيد أن التقويم الانفعالي كان يحجب أحياناً جانباً من الحقائق الأساسية . فالكتاب ، يهدف ليس إلى إقناع القارىء فقط ، بل يدفعه إلى استخلاص العبر التاريخية وفهمها بشكل معمق .

اعتمد المؤلف منهج وصف الوقائع وتقديمها تبعاً لتسلسلها الزمني في المدى التاريخي الطويل منذ مطالع القرن السادس عشر حتى احتلال العثمانيين لتونس عام ١٥٧٤ . وقد تبلورت لديه ثلاثة اتجاهات رافقت الفتح العثماني للأقطار العربية :

أولاً : السيطرة على ممتلكات المماليك في مصر وفلسطين وكيليكيا وبرقة والنوبة والحبشة إضافة إلى بعض المناطق المتاخمة لها في أعالي الفرات وشبه الجزيرة العربية .

الثاني: ضم أراضي العراق وشرق شبه الجزيرة بعد انتزاعها من ممتلكات شاه إيران الصفوي والبرتغاليين.

ثالثاً: توسع الحكم العثماني ليشمل بلاد المغرب العربي. وتضمن الكتاب شرحاً تفصيلياً للطرق والأساليب التي رافقت غزو كل قطر من الأقطار العربية. فكان الفتح العثماني نتاج معركتين عسكريتين، أو ثلاث معارك حاسمة توصل بعدها للسيطرة على سوريا ومصر، أو نتاج حملات عسكرية متواصلة، في البر والبحر للسيطرة على اليمن، أو عبر الالتحاق الطوعي بالحكم العثماني كما حصل في الجزائر وتونس. وأبرز كذلك أن الأوضاع السياسية كانت متباينة بين الأقطار العربية التي خضعت للحكم العثماني. وقدم تحليلاً دقيقاً للأحداث التي رافقت تثبيت ذلك الحكم في كل قطر عربي. وأوضح بدقة متناهية كيف ان العمليات العسكرية في تلك المناطق كانت متنوعة للغاية على قاعدة طبيعة كل قطر ومدى حدة الأزمة الاجتماعية والسياسية التي كان يعيشها، والاحساس جدياً بالخطر الخارجي الذي كان يتهدد ذلك القطر. وبعد تحليل دقيق لعدد كبير من الوقائع التاريخية توصل المؤلف إلى صياغة نظرية علمية تعتبر إنجازا مهماً في مجال المعرفة الشمولية لتاريخ الفتح العثماني للأقطار العربية.

لقد عرف إيفانوف كيف يصوغ نظريته حول الروابط العربية ـ العثمانية في إطار التبدلات الدولية الناجمة عن الاكتشاف البحرية الكبرى. فنتيجة تلك التبدلات واجه العالم العربي، منذ أواخر القرن الخامس عشر، مخاطر التوسع الأوروبي الفعلي. ومع اشتداد الصراع على النفوذ والسيطرة اتخذ التنافس طابع «النزاع المسيحي ـ الاسلامي» الحاد للسيطرة على طرق التجارة الدولية. فأعار المؤلف اهتماماً بالغاً للعلاقات الجديدة بين الدول الأوروبية ومناطق الشرق الأوسط والتي اتخذت طابع «المواجهة بين نظامين متصارعين من أنظمة القرون الوسطى» على حد تعبيره. ونظر إلى الحملات العسكرية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كحملات للغزو، ورد الغزو المضاد، وإعادة الغزو مجدداً، وذلك بالترابط الوثيق مع التغيير الحاصل في طرق التجارة الدولية، وبدايات التغلغل الإستعماري الأوروبي في شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي والهند. وتضمن الكتاب وصفاً رائعاً لغزوات القراصنة التي قام بها الأسطول البرتغالي لشواطىء شبه الجزيرة العربية والتي كانت بمثابة «التمهيد العملي للارهاب الجماعي للفرنجة» على حد قوله.

أفرد المؤلف كذلك مجالاً واسعاً للعامل الديني. ففي وعي الجماهير الشعبية آنذاك اتخذت «المواجهة» شكل النضال ضد «الكفار». وقدم العثمانيون أنفسهم تفسيراً لانتصاراتهم العسكرية أنها «من صنع الله»، وذلك يشبه إلى حد بعيد النداءات المتكررة التي أطلقها باباوات روما بعد

سقوط القسطنطينية بهدف القيام بحملات صليبية جديدة ضد « الكفار » المسلمين، مما أوجد جواً مشحوناً بالكراهية بين المسلمين والمسيحيين كان يمكن تفجيره بسهولة وعلى شكل مستمر. ورأى الكاتب « ان الصدامات الدينية التي قطعت الطريق على تطور الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية عادت تتأجج مجدداً في أواسط القرن الخامس عشر ».

في تلك الظروف، احتلت مسألة الزعامة في العالم الاسلامي أهمية كبرى. وجهد حكام مصر المماليك للاحتفاظ بها بين مسلمي الشرق. لكن دولتهم التي كانت تعاني الانهيار الاقتصادي والعسكري والسياسي باتت عاجزة عن التصدي العسكري الناجح لغزوات البرتغاليين المتكررة على الحدود الشرقية للعالم الإسلامي. وفقدت الدولة المملوكية « سلطانها السحري السابق على الجماهير الشعبية » حسب تعبير إيفانوف، وفقدت كذلك هيبتها الاجتماعية، واحترام الناس لها، وتأثيرها الفعلي بين مختلف فئات الشعب. في ذلك الوقت بالذات، كانت أنباء الانتصارات المدوية التي حققتها الحملات العثمانية في جنوب شرقي أوروبا تثير شعوراً عارماً من التعاطف معها لدى الجماهير العربية في مختلف الأقطار. ورغم أننا لا نملك معطيات كافية لوصف الأجواء النفسية التي كانت سائدة لدى جماهير تلك المرحلة، يمكن الافتراض مع المؤلف ان العرب، وقد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام المستعمرين الأوروبيين الزاحفين بقوة لاحتلال أقطارهم في المغرب وفي شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية، فضلوا الانضواء تحت حكم الباب العالي. لكن الصراع على زعامة العالم الاسلامي في مطلع القرن السادس عشر بات معقداً للغاية بسبب الصدامات الدموية المتفجرة داخله بين الصفويين الذين أعلنوا المذهب الشيعي ديناً لدولتهم الإسلامية، وبين الحكام المماليك والعثمانيين أصحاب المذهب السني الحاكمين في القاهرة واسطمبول. كان المماليك عاجزين عن مواجهة الصفويين، فنظروا بقلق متزايد لقوة العثمانيين وانتصاراتهم، وقرروا الامتناع عن دخول الصراع العثماني ـ الايراني معتمدين سياسة « الطرف الثالث المتفرج » وهي السياسة التي قادت إلى تقويض دولتهم وعَجلت في انهيار حكمهم تحت ضربات العثمانيين.

ركز ايفانوف، اهتمامه بصورة خاصة على الأزمات الداخلية في الأقطار العربية آنذاك. وافترض بحق ان تلك الأزمات بالذات كان من شأنها ان تشجع قدوم العثمانيين وتثبت أقدامهم في منطقة الشرق الأدنى. فالظروف السائدة خلال تلك المرحلة جعلت الأقطار العربية في وضع « انهيار لم يسبق له مثيل » كان ينبىء بأزمة اجتماعية حادة أسماها المؤلف « الانحطاط الاجتماعي الذي مهد للفتح العثماني ». لدينا تحفظ حول مصطلح « الانحطاط الاجتماعي » الذي عصف بالأقطار العربية في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر. وهو المصطلح الذي يوظفه المؤلف لتحليل أسباب التعاطف الواسع مع العثمانيين حيث يقول: « تملكت الجماهير الشعبية العربية رغبة جامحة إلى خليفة حقيقي يسوس دولة الخلافة العادلة حيث لا مكان للشر أو الباطل. وقد

تبلورت تلك الرغبة عبر مثالية مفرطة تجلت في النظرة إلى العثمانيين كمنقذين، وأن سلاطين آل عثمان سوف يعيدون فرض الالتزام الصارم بمبادىء الشريعة الإسلامية. لذلك لم ترغب الجماهير العربية بمحاربة الأتراك العثمانيين بل هللت لقدومهم».

ليس ثمة ما يبرر رفض وجود أوهام مثالية قادت إلى التعاطف مع العثمانيين بين الجماهير العربية عشية الفتح العثماني رغم أن الأدلة التي يقدمها المؤرخون ما زالت، برأينا غامضة وغير مقنعة تماماً. فالوقائع التي تقدمها بعض الكراريس والأوراق الرسمية تكاد تكون موحى بها من السلاطين العثمانيين أنفسهم. وهي كتابات يكثر فيها المديح للسلاطين، ويعتقد ان للسلطان سليم الأول الدور الأساسي في جمعها ونشرها استناداً إلى روايات المؤرخ القاهري ابن أياس. فهذا المؤرخ الراوي يستخدم مفردات تثير الشك مثل «سرت شائعات في مصر عن العدالة الفضلى لآل عثمان». ولعل مقولة التعاطف مع العثمانيين تجد لها ركائز مقنعة في تاريخ المغرب العربي، حيث لعب العثمانيون هناك دور القوة المنقذة التي تصدت بنجاح لصد الغزوات الاسبانية وغيرها. لكن الاستشهاد بالتعاطف في الفترة المتأخرة من حكم العثمانيين للمغرب العربي قد لا يكون حجة مقنعة تدعم آراء المؤلف، وبعض الفرضيات بحاجة إلى كثير من التحفظ في هذا المجال، وإلى تصحيح جذري في جوانب أخرى. وقد دلت الأبحاث التاريخية المعاصرة أن أخبار الرواة كانت تتبدل وفقاً للمصالح السياسية للحكام المحليين. صحيح أن بعض الوقائع الواردة في مصادر الكتاب تدعم المقولة الأساسية التي توصل إليها ايفانوف حول وجود تعاطف واسع مع العثمانيين في أوساط الجماهير العربية، لكن تلك المصادر لا تقدم سنداً كافياً لتحليل ذلك التعاطف، لا من حيث سعة انتشاره، ولا من حيث تأثيره على سلوكية السكان. وعلى قاعدة تلك المقولة توصل إيفانوف إلى الاستنتاج التالي: إن فئات واسعة من العرب تقبلت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أصدرها الباب العالي والتي مثّلت قراءة فلاحية فريدة في بابها للمبادىء الأساسية للإسلام ودعوته إلى المساواة، والإخاء بين جميع المسلمين، والعدالة الاجتماعية، والوفاق، والعمل كمصدر وحيد لتلبية الحاجات المادية للإنسان، وإدانة مظاهر الترف والإثراء، والدعوة إلى التواضع في العيش، والابتعاد عن الاسراف، وتحاشي استغلال الانسان للإنسان. بتعبير مكثف، كانت النظم العثمانية، من حيث المبدأ، دعوة إلى تحقيق النهوض الاجتماعي، وإعادة تجديد المجتمع الإسلامي. فكانت في حقيقتها دعوة طوباوية. على قاعدة هذه المقولة الأساسية يتوج إيفانوف نظريته بفكرتين بالغتي الأهمية:

الأولى: إن ضم الأقطار العربية إلى السلطنة العثمانية لم يكن فتحاً بالمعنى الكلاسيكي للكلمة «لأن الفتح العثماني للبلدان العربية ـ يقول الباحث ـ لم يكن ذا طبيعة قومية بل اجتماعية. وكان من

السهل اعتباره انقلاباً اجتماعياً أو حركة انتفاضة فريدة من نوعها لم تؤد إلى تغيير السلطة فحسب، بل قادت أيضاً إلى تحولات جذرية في مختلف جوانب الحياة السابقة. وقد تحقق ذلك بدعم من الخارج رغم أنه استند إلى قاعدة اجتماعية واسعة داخل البلدان العربية، وإلى تجمعات واسعة من السكان العرب. فتجسد الانقلاب الاجتماعي الذي رافق الفتح العثماني. وقبل أي شيء آخر، إعادة بناء جذرية للعلاقات الزراعية».

الثانية: التأكيد على الطابع الطوباوي للمحاولات التي قام بها العثمانيون في إعادة ترتيب النظم الاجتماعية. وتأكدت استحالة تحقيق تلك الطوباوية على الصعيد الاجتماعي العملي بعد عقود قصيرة من الزمن.

لا شك أن مثل هذه الآراء تلاقي قبولاً فقط من الوجهة النظرية البحتة. فمن المعروف، على سبيل المثال، ان ولادة الخلافة الفاطمية في مصر تزامنت مع حركة شعبوية تدعمها أفكار دينية تقول بعودة المهدي المنتظر «الذي سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً». وحدث ما يشبه ذلك عند قيام الدولة الصفوية، وتكرر أيضاً في القرن التاسع عشر مع الدعوة المهدية في السودان. ولعل المؤلف، في وصفه للأوضاع القائمة في القرن السادس عشر، كان متأثراً بالأحداث المعاصرة في إيران والتي قادت إلى إسقاط حكم الشاه عام ١٩٧٩، وبانتشار الأفكار الاشتراكية الاسلامية المعاصرة. لكن السؤال يبقى مطروحاً بجدة: إلى أي مدى تؤكد الحقائق التاريخية وجود «الطوباوية العثمانية».

حتى الآن، لا تقدم المصادر التاريخية وقائع تمكن الباحثين من الاحاطة التامة بالمثل الاجتماعية التي سادت في أوساط الفلاحين العرب والأتراك في القرن السادس عشر. ومن المشكوك فيه ان المصادر الأوروبية الغربية والروسية التي تحدثت عن التعاطف مع العثمانيين قادرة على تقديم إجابات شافية عن الأسئلة المطروحة طالما أن كتابات كامبينيلي وغيره من الطوباويين الايطاليين، وعظات مارتن لوثر، وشكاوى بيرسفيتوف كانت تعبيراً عن مشاعر فئات اجتماعية غير عربية، وتحمل مثلاً أخرى لا تمت للطوباوية العثمانية بصلة وثيقة. وبالمقابل، فالمحتوى الحقيقي لمضمون النظم الاجتماعية والسياسية العثمانية في القرن السادس عشر، معروفة جيداً. وهي تبرز المفاهيم التقليدية المتوازنة في الأوساط العربية والتركية الفارسية الحاكمة حول مسؤولية الحاكم أمام الله، وكونه مؤتمن على رعيته، وان ازدهار الخزينة يتوقف عليه بقاء الدولة ومنعتها ووفقاً لهذه المفاهيم على كل عضو ان يكون منضوياً في طائفة اجتماعية ومهنية حتى لا يتعرض المجتمع للهزات. بمعنى آخر، إن فكرة المساواة التي اعتنقها قادة الحركات الفلاحية المعادية للإقطاع بقيت غريبة عن نظم السلطنة العثمانية. وبقيت فكرة العدالة الاجتماعية في تلك النظم قريبة من مفهوم إقامة القضاء العادل على قاعدة مبادىء الشرع

الإلهي. وليس لدينا ما يثبت ان سلاطين آل عثمان أدخلوا روحاً جديدة في المصطلحات الإسلامية التقليدية التي استخدموها. فمفهوم «النظم الإسلامية العثمانية» الذي استخدمه نيقولاي ايفانوف والذي تثبّت في القوانين ـ نامة السلطانية وفتاوى شيخ الإسلام أبو السعود، لم يكن «تفسيراً جديداً للشريعة الإسلامية». ففي القرن السادس عشر كان الفقهاء العثمانيون يصرّون على تأكيد الفوارق بين مبادىء الشريعة الإسلامية وبين النظم والقوانين السلطانية العثمانية. وعندما فتح السلطان سليم الأول بعض الأقطار العربية لم يعد في خطبه بتجديد المجتمع العربي على قاعدة التقاليد المتوارثة من القرون الوسطى بل أعلن تطبيق النظم العثمانية كما وضعتها المراجع العليا العثمانية. فكان أن خرج عليه بعض حكام الأقطار العربية. عندها هدد السلطان سليم بالاقتصاص من كل من تسول له نفسه انتهاك النظم العثمانية التي أوجدتها «القراءة الفلاحية الجديدة لمبادىء الاسلام الأساسية» على حد تعبير إيفانوف. وكانت النتيجة ان السلطان أصبح يعرف باسم «سليم يافوز» أي الدموي الذي ارتبطت باسمه أعمال التنكيل والاضطهاد الوحشي ضد كل من شارك في الانتفاضات الشعبية. كذلك ارتبطت باسمه حملات التنكيل التي تعرض لها «الهراطقة الشيعة» في الأناضول، وفرض حصاراً اقتصادياً على مناطق الصفويين الشيعة، ونشطت في عهده الملاحقات، وقمعت جميع مظاهر التعبير عن الرأي الحر والتجديد في المجتمع العثماني.

فالنشاط العملي الذي قام به السلطان سليم الأول في الأقطار العربية لايؤكد مقولة إيفانوف حول حصول انقلاب اجتماعي فيها بمساعدة العثمانيين. وأثبتت بعض الأبحاث المعاصرة أن نظام «توزيع الأراضي والمساكن» الذي طبّق في مصر بعد عام ١٥١٧ كان بمثابة الاستيلاء على ممتلكات أعداء السلطنة العثمانية وتحويلها إلى ملكية للدولة مع اعطائها صفة الاقطاعات ذات المداخيل بهدف انفاقها على الموظفين أو لتحويلها إلى ملكيات خاصة يتمتع بها أنصار السلطنة. ومن المعروف ان هذا الشكل من المصادرة قد طبّق سابقاً في الأقطار العربية. كما ان فكرة «الاقطاعات» لم تكن من ابتكار العثمانيين لأن معظم أنصار السلطنة الجديدة الذي تمتعوا بالاقطاعات كانوا من صفوة أبناء العائلات المملوكية التي استمرت تحكم مصر. وفي المناطق المملوكية الأخرى بقيت التغييرات أقل جذرية ولم تؤدِ إلا إلى تبديل بعض الزعماء الاقطاعيين بآخرين من الطبقة نفسها.

ويبقى سؤال مهم: هل كان سليم الأول عازماً فعلاً على إجراء تغيير جذري في العلاقات الزراعية في الأقطار العربية؟ لكن تغييراً من هذا النوع كان يؤدي في حال حدوثه، إلى حرمان الباب العالي من أهم ركائز حكمه المتمثلة بالأسر الاقطاعية المحلية التي استمرت حتى القرن العشرين تتحكم بإنتاج الفلاحين التابعين لها. مع الاشارة إلى ان امكاناتهم القمعية في القرن السادس عشر كانت أقوى بكثير منها في القرون اللاحقة. وتؤكد المصادر التاريخية كذلك ان هم السلاطين العثمانيين الأوائل في سوريا وفلسطين كان منصباً على استرضاء الأسر الاقطاعية المحلية ومنها أسر

كانت تحكم رسمياً أيام المماليك. فقدم العثمانيون لزعماء تلك الأسر الاقطاعات الصغيرة، وأبقوا لهم ما كان بحوزتهم أيام المماليك، وعملوا على توسيع القاعدة الاجتماعية لأعيان المقاطعات بهدف تأمين سلطة مستقرة تابعة للباب العالي في الأقطار العربية. لذا يمكن التأكيد ان التبدلات التي تمت في صفوف القوى المسيطرة لم تبدل من طبيعة استغلال الأراضي رغم فرض رقابة أشد من جانب السلطة المركزية وذلك لتأمين جباية الضرائب، دون ان يلحظ تبديل جذري في تحسن أوضاع الفلاحين حتى في المراحل الأولى للفتح العثماني.

مهما يكن من أمر، فإن وجود مقولات نظرية قابلة للنقض في الكتاب ليس أمراً مستغرباً نظراً لضآلة المصادر التاريخية ولندرة الدراسات العلمية التي تناولت القضايا المتعلقة بالفتح العثماني للأقطار العربية، وتبقى أيضاً أفكار أخرى بحاجة إلى مزيد من النقاش. لكن المقولات التي طرحها هذا البحث العلمي مقولات جديدة فعلاً وتثير أشد الاهتمام. وكان بودنا التوقف عند بعضها في محاولة للوصول إلى فهم جديد للمشكلات الأساسية التي تناولها الكتاب، وأبرزها الأزمة التي عصفت بالعالم العربي عشية الفتح العثماني. ويبدو أن المؤلف لم يكن قد خطط للحديث المفصل عنها بل اكتفى بإشارة موجزة إلى الوضع الذي كان سائداً في دولة المماليك وبلدان شمالي أفريقيا والعراق وشبه الجزيرة العربية.

لكن الأحداث التاريخية التي شهدتها مصر المملوكية وأقطار المغرب العربي، على سبيل المثال، لم تكن متشابهة. ففي مصر يمكن إبراز سقوط دور الدولة المملوكية في جميع قطاعات المجتمع المصري، وتزايد الثراء، والنفوذ الهائل للقوى الاقطاعية المحلية. أما في المغرب فيمكن إبراز التغيير الحاصل في نسبة القوى بين المزارعين المستقرين وقبائل البدو الرحل. ومن المحتمل، ان تكون لتلك الأحداث، كما انعكست في وعي الجماهير الشعبية خلال تلك المرحلة، علاقة بالأزمة «الروحية» التي تمثلت بانهيار القيم الاجتماعية. مع ذلك، وفي جميع الأحوال، لا يمكن الإشارة إليها كدليل على «الانحطاط». فمثل هذا المفهوم لأوضاع التأزم الاجتماعي يراد به وكأنه وضع خصيصاً لتفسير تعاطف الناس مع العثمانيين. فالجماهير الشعبية العربية كانت تتطلع، أكثر ما تتطلع، إلى سلطة قوية قادرة على إعادة بناء مجتمع متماسك على هدي النموذج الإسلامي الماضوي، وعلى إعادة الهدوء والطمأنينة للناس. لذلك قابلت الجماهير العربية الفتح العثماني بالترحيب الواسع نظراً لقوة العثمانيين العسكرية المنتصرة وليس ترحيباً بمثلهم أو بنظمهم الطوباوية الاجتماعية. كما أن مقولة التعاطف مع العثمانيين ليست قابلة للتحويل إلى مفهوم سياسي للتعبير عن السخط الاجتماعي، وتحديداً للتعبير عن السخط الفلاحي السائد آنذاك.

أخيراً، ليست الملاحظات التي قدمناها بقادرة على ايجاز مجمل القضايا والمقولات التي يستثيرها

كتاب ايفانـوف. ومن الطبيعي ان تكون لدى المتخصصين والقراء آراء أخرى تخالف أو تدعم وجهة نظر المؤلف. لكن الانجاز الأساسي الذي حققه يمكن تلخيصه بالقول ان كتاب «الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤» ساهم بعمق في توسيع معارفنا بصورة واقعية وجذرية عن أوضاع الأقطار العربية إبان فترة الفتح العثماني. وتاريخ ذلك الفتح الذي كان ينظر إليه كمسلمات معروفة ومتداولة أصبح الآن، بعد صدور هذا الكتاب، بعيداً كل البعد عن المقولات الجاهزة والمبسطة. فمقولات إيفانوف لا تغلق باب النقاش حول تلـك المرحلـة بـل تشرعـه على مصراعيه أمام الأبحاث الجديدة.

م. ميير إ. سميليانسكايا

فهرس الاعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ش)

(ل)

(م)

(ن)



فهرس





